فراس السواح

آرام دمشق و إسرائيل

في التاريخ والتاريخ التوراتي



- إسرائيل التاريخية وإسرائيل التوراتية
- امبراطورية دمشق والحروب الآرامية ـ الإسرائيلية
- صعود يهوذا وغروب دمشق وإسرائيل
- أفق الخرافة وبداية التاريخ اليهودي



فـراس الســواح

آرام دمشق و إسرائيل

في التاريخ والتاريخ التوراتي

منشورات دار علاء الدين

آرام دمشق وإسرائيل

في التاريخ والتاريخ التوراتي

تأليف : فراس السواح

الطبعة الأولى

٣٠٠٠ / ٩ / ١٩٩٥

الناشر : دار علاء الدين

دمشق ص.ب ٣٠٥٩٨

هاتف : ٤٤٢٧١٥٨ - ٤٤٢٧١٥٥

تلكس : ٤١٢٥٤٥

فاكس : ٤٤٢٧١٥٩

التنضيد الضوئي : دار عـــلاء الدين

الإخراج الفني : ناصر شهاب الدين

المحتـويـات

الفصـل الثالث :

الفصـل الرابع :

اسرائيل في كنعان ـ عصر يشوع

وعصر القضاة

الفصل الخامس :

الباب الثاني :

الفصل الأول :

الفصل الثاني :

فاتحـــة

يعتبر كتاب التوراة بالنسبة للباحث في الميثولوجية وتاريخ الأديان أحد المفاتيح المهمة لفهم آخر حلقات التاريخ الديني في منطقة الشرق القديم . كما يعتبر تاريخ فلسطين مقدمة لا غنى عنها لفهم كتاب التوراة ، وتوضيح السياق التاريخي لظهور أسفاره ، وفهم الوسط الثقافي الذي أنتجها ، والوضع الفكري لمحرريها . وبذلك يغدو تاريخ فلسطين جزءاً لا يتجزأ من تاريخ الدين في المنطقة المشرقية .

من هنا جاء اهتمامي الشخصي بهذا التاريخ ، وسعيي لكشف غوامضه والتعمق في إشكالياته ، وذلك على هامش بحثي الأساسي في الميثولوجية وتاريخ الدين . ثم تحول الهم الهامشي تدريجياً إلى هم رئيسي ، فوضعت كتابي الأول في تاريخ فلسطين عام ١٩٨٩ وكان بعنوان " الحدث التوارتي والشرق الأدنى القديم " . ولكن فيض المعلومات الأركيولوجية الجديدة ، الذي تراكم خلال ثمانينيات ومطلع تسعينيات القرن العشرين ، والذي أخذ الآن فقط ينتظم في شبكة مفهومة أمام المؤرخ ، قد دفع الموضوع مجدداً إلى بؤرة اهتماماتي ، لأن هذه المعلومات الجديدة أخذت تفرش الأرضية اللازمة لإعادة النظر في تاريخ فلسطين ، ومسألة نشوء اسرائيل القديمة وزوالها في السياق العام لهذا التاريخ ، وفهم علاقة تاريخ اسرائيل بالتاريخ اليهودي ، وهي علاقة قد بدأت الآن بالاتضاح على خلفية

المعلومات الجديدة ، وذلك بعد فترة طويلة من اختلاط البحث التوراتي بالبحث التاريخي ، وسيطرة الأول على الثاني .

وبما أن تاريخ آرام دمشق قد تقاطع مع تاريخ مملكتي اسرائيل ويهوذا خلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد ، وهي الفترة التي شهدت نشوء هذه الممالك الثلاثة وحروبها وتحالفاتها واختلاف مصائرها ، فقد تهيأت لي فرصة انتظرتها طويلاً لأقول في تاريخ مملكة دمشق الآرامية مالا يعرفه القارىء العربي حتى الآن ، بسبب قلة الدراسات التي تعرضت لهذا التاريخ ، وسيطرة وجهة النظر التوراتية عليها ، فسلطت الضوء على حقبة مهمة من تاريخ سورية الآراميةلم يتم حتى الآن إضاءتها والربط بين أحداثها . لقد جعلت مملكة دمشق من نفسها في تلك الحقبة القوة العظمى الثانية بعد آشور في منطقة الشرق القديم ، ودافعت عن استقلال مناطق غربي الفرات في مواجهة آشور فترة طويلة من الزمن ، استطاعت خلالها الثقافة الآرامية الناشئة تثبيت أقدامها وتفتيح امكاناتها الذاتية ، وعندما تهاوت دمشق ، وإنهارت الممالك الآرامية سياسياً أمام آشور ، قامت هذه الثقافة بالإستيلاء على غازيها من الداخل ، فتكلمت آشور الآرامية بدلاً عن لغتها ، وعندما شرب الفاتح الآشوري من الكأس التي سقاها للشعوب المغلوبة ، وورث الكلدان ثم الفرس فيما بعد أملاكه الغربية ، شمل المدى الجغرافي للثقافة الآرامية المنطقة الممتدة من حدود الهند إلى البحر المتوسط ، فيما يدعوه المؤرخ أرنولد توينبي بالعالم السوري

ورغم أن اهتماماتي الأصلية بالميثولوجيا وتاريخ الأديان كانت وراء إنجازي هذا الكتاب إلا أن القارىء سوف يلاحظ منذ البداية أن المسألة الدينية لم تأخذ أكثر من الحيز اللازم لها في أي بحث تاريخي . فهذه الدراسة تبقى حتى النهاية ضمن إطار البحث التاريخي الصرف ، وذلك في كل ما يتعلق بالمرجعية والمقتربات والمنهج . وهي تعتمد أحدث المعلومات التي قدمها علم الآثار وعلم التاريخ والعلوم المساعدة الأخرى ، خلال سبعينيات وثمانينيات ومطلع تسعينيات القرن العشرين . وهي معلومات مختلفة جذرياً وتضع بين أيدينا المقدمات اللازمة للانعطاف نحو آفاق جديدة في كتابة تاريخ فلسطين .

مقدمة

لعل أهم ماتكشفه أمامنا المعلومات الجديدة المتوفرة خلال ربع القرن الماضي هو استقلال الصورة التاريخية لاسرائيل عن صورتها التوراتية ، استقلالاً دفع بعض المؤرخين الجدد إلى الدعوة لوضع الرواية التوراتية بكاملها على الرف ، وكتابة تاريخ فلسطين خلال الحقبة التي تغطيها أحداث التوراة ، بمعزل عن النص التوراتي والخبر التوراتي الذي فقد لديهم كل مصداقية تاريخية . وبذلك يتحول كتاب التوراة من مصدر أول ورئيس لكتابة تاريخ فلسطين وتاريخ اسرائيل ، إلى ناتج ثانوي من نواتج ذلك التاريخ ، وإلى تركة أدبية تتطلب نفسها التفسير والتعليل . فالباحث غربيني G . Garbini ، على سبيل المثال ، يرى أن الأسفار المدعوة بالتاريخية في كتاب التوراة ، قد دونت فيما بين أواخر العصر الفارسي وأوائل العصر الهيلينستي ، وذلك بعكس الرأي الشائع بين الباحثين المحافظين الذين يرون أن تدوين التوراة قد ابتدأ خلال فترة السبي البابلي ، و اكتمل في مطلع العصر الفارسي . من هنا ، فإن إعادة بناء تاريخ فلسطين ، عند هذا الباحث ، يجب أن تتخطى النص التوراتي ، لأن هذا النص قد دون بعد فترة طويلة جداً من الأحداث التي يتصدى لروايتها . وهو يرى أن تاريخ اسرائيل التوراتية في السياق العام لتاريخ فلسطين هو أخيولة أدبية تجد دوافعها في المناخ الإجتماعي والنفسي للفترة المتأخرة التي أنتجتها [1] .

---

١ ـ أنظر أفكار غربيني : . G . Garbin بتفصيل أكثر في كتابه
—G . Garbin , *History and Idiology in Ancient Israel , London 1988*

لا ينفـرد الباحث غربيني Garbini. بهذا الموقف من تاريخ فلسطين ومن التقاليد التوراتية ، بل إن دراسته الصادرة عام ١٩٨٨ تأتي في سياق التوجه الجديد في الحلقات الأكاديمية المتحررة، نحو إعادة النظر في تاريخ اسرائيل بعيداً عن التوجه التقليدي، الذي يقوم على التوفيق بين البحث التـوراتي والبحث الأركيولـوجي. وقد تم التأسيس لهـذا الإتجـاه المتحـرر منـذ مطـلع سبعينيـات القـرن العشرين ، من خــلال أبحــاث دارسين متميـزين من أمثـال ج.أ. سوجن J . A . Soggin ، و ج.م.ميللر J . M . Miller و ج.هـ. هايز. J . H . Hays وفان سيتيرز Van Seters، وتوماس.ل.تومبسون، وغيرهم ممن سنعرض لهم عبر الصفحات المقبلة لهذا الكتاب .

يقول توماس .ل. تومبسون في كتابه Early History of the Israelite people الصادر عام ١٩٩٢ مايلي : " إن الأبحاث الجديدة التي توفرت لدينا خلال ربع قرن مضى ،قد فرشت أرضية صلبة تمكننا الآن من صياغة تاريخ لإسرائيل مستقل عن البحث التوراتي. وليست الكتب والدراسات المنشـورة حديثاً إلا برهاناً واضحاً على أن كتابة مثل هذا التاريخ ، بشكل موضوعي وطريقة وصفية ، قد صارت ممكنة. فجميع هذه المؤلفات تقريباً تضع بين أقواس معترضة الأخبار التاريخية المقتبسة من التوراة (دلالة عن الشك المبدئي بمضمونها) .. إن مقدرتنا المتزايدة على بناء تاريخ مفصل لأصول إسرائيل ، تجعل من الضروري ، أكثر فأكثر،ترك الإعتماد على الروايات التوراتية كمصدر لكتابة التاريخ. وعلينا أن نتخلى بشكل جذري وواعٍ عن كل المسلمات التي فرضت علينا من قبل النص التوراتي"(٢) . أما عن مصادر كتابة هذا التاريخ المستقل، فكثيرة ومتنوعة. فإضافة إلى التفسير المتحرر من المواقف التوراتية المسبقة لنتائج البحث الأثري في المنطقة، ودراسة النقوش الكتابية للثقافات المجاورة، من آرامية وآشورية وبابلية وغيرها. فإن المنهج التاريخي الجديد يلجأ إلى معونة عدد من العلوم المساعدة في حقول الإجتماع ، والإنتروبولوجيا ، والبيئة الطبيعية للعصور القديمة بنباتاتها ومناخها ودورات الخصب والجفاف المتعاقبة عليها ، والتغير في نمط الاستيطان السكاني ، وما إلى ذلك مما سنتعرض له في حينه .

لقد كانت التقاليد التوراتية، حتى وقت قريب، تلقي ضوءاً على الماضي، ولكنها قد

---

2 - Thomas.L . Thompson, Early History of the Israelite people, Leiden 1994 , PP.168 - 169 .

صارت الآن بحاجة الى إلقاء الضوء عليها من قبل ذلك الماضي ، الذي بدأ يتضح بشكل مستقل عن المواقف المسبقة والمسلمات المفروضة . وبتعبير آخر ، فإن كتاب التوراة لم يعد نقطة الإنطلاق ، بل خط النهاية في دراستنا التاريخية . فعندما نفلح في كتابة تاريخ لفلسطين مستقل عن الصورة الخيالية التي تقدمها الأسفار التوراتية ، يمكن عند ذلك أن نطرح أسئلة تتعلق بكيفية نشوء الأسفار التوراتية ، ثم نجيب عليها . أما الإستمرار في اعتبار التوراة نوعاً من الكتابة التاريخية ، فلن يؤدي إلى مزيد من التعمية على التاريخ فقط ، بل سيبقي العقبة قائمة أمام فهم الكتاب و مضامينه ورسالته .

تنتمي الأسفار التوراتية ، من حيث شكلها ومضمونها ودوافع كتابتها ، إلى جنس كتابي يمكن وصفه بجنس الجمع التراثي . فالهاجس الذي يدفع محرري ومعيدي صياغة تلك التقاليد الأدبية المتفرقة التي صنعت منها الأسفار ، ليس هاجساً تاريخياً بل هاجس تراثي. فهم يعملون على جمع وتصنيف وإعادة صياغة تركة ثقافية شعبية متعددة النشأة والأصول وخطوط التداول ، ويرتبونها في تسلسل زمني ينسجها إلى بعض ، وذلك من خلال منظور إيديولوجي مفروض عليها من الخارج ، يعكس الوضع الفكري للقائمين على التحرير وإعادة الصياغة في الفترات المتأخرة . إن ما يحرك محرر التوراة ، باعتباره قاصاً وجامع تراث شعبي موغل في القدم ، هو العقدة القصصية التي تقود إلى الإفضاء بمضمون ديني ، يظهر كيفية تدخل الإلهي بالدنيوي ، وتوجيهه له ، ومن دون التفات إلى الحدث المحقق والخبر المدقق. أما الترتيب الزمني (الكرونولوجي) لأحداث القصة الواحدة ، وللقصص المتتابعة الملصق بعضها ببعض ، فلا يعني أن هم النص هو همٌّ تاريخي . فمثل هذا الترتيب الزمني للأحداث هو شأن أسلوبي بالدرجة الأولى ، وهو مستلزم ضروري في الكتابة الأدبية والكتابة التاريخية على حد سواء . فالقاص والمؤرخ يقدمان لنا جملة من الأحداث التي تتحرك في زمنٍ ماضٍ ، وبشكل يتسلسل من الأقدم إلى الأحدث في حلقات يمسك بعضها ببعض بشكل منطقي . إلا أن ما يميز التاريخ ، كجنس كتابي ، عن الأدب ، هو النية المسبقة للكاتب وموقفه من مادة عمله . فالمؤرخ ينظر الى الماضي بإعتباره شأناً واقعياً وحقيقياً ، ويسعى جاداً من أجل التفريق بين الخيالي والواقعي ، مركزاً على ما يمكن لنا معرفته ، والتحقق من وقوعه ، خلال الفترة التي يسلط عليها الضوء . أما الأديب ، فيتحرك في ماضٍ من صنعه ويقدم أحداثاً ممكنة التحقق من منظور منطقي ظاهري . وبين المؤرخ والأديب يأتي

موقع جامع التراث الذي يبحث عن التسويغ التاريخي الشكلي في المادة التي يقدمها ، من دون إختبار وتدقيق للروايات التي يعمل على جمعها وتصنيفها . وهنا قد يتم إستبعاد ما حصل فعلاً لصالح رغبة الكاتب في تصديق سلسلة ما من الأحداث ، مدفوعاً بموقفه الإيديولوجي المسبق ، ويغيب الحقيقي والواقعي في ضباب الخيالي .

لقد أعلن بعض الباحثين منذ العقد الأخير للقرن التاسع عشر ، من أمثال E . Meyer وH . Gunkel، بأن المصدر الأساسي للتقاليد التوراتية هو الحكايا الشعبية والملاحم وقصص البطولة التي كانت متداولة شفاهة عند تحرير أسفار التوراة ، إبان وبعد السبي البابلي . وجادل Meyer بشكل خاص في أن كامل سفر التكوين ، برواياته عن الآباء أسلاف بني إسرائيل ، لا علاقة له بالتاريخ ، ويجب تصنيفه في زمرة الأخيولة الأدبية[٣] . ولكن رد الفعل المحافظ على هذا الإتجاه التحرري المبكر ، قد جاء من قبل الباحث O . Eissfeldt (١٩٢٣) الذي أسس للمدرسة المعروفة بمدرسة نقد الشكل . ويركز Eissfeldt في دراسته على أسفار موسى الخمسة التي كانت موضع نقد الإتجاه التحرري، مجادلاً في أن الشكل الأخيولي الأدبي لهذه الأسفار ينضوي على أحداث تاريخية حقيقية،غلفها خيال النقلة عبر العصور بغلالات جعلتها تبدو أشبه بالأدب الشعبي. من هنا فإن النقد النصي يستطيع اكتشاف المستوى التاريخي الكامن تحت الظاهر الأخيولي للمادة التوراتية[٤].

وقد التقط هذا الموقف المحافظ الجماعة المعروفة بجماعة علم الآثار التوراتي ، والتي بدأت أفكارها بالإنتظام فيما بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠ ، وذلك عقب فيض المعلومات الأركيولوجية الجديدة من مناطق الشرق الأدنى القديم ، وبتأثير رئيسي من الباحث وليم فوكسويل أولبرايت W . F . Allbright المؤرخ و الآثاري وعالم اللغات المعروف . يتفق أولبرايت مع Eissfeldt في أطروحته الأساسية القائلة بأن المرويات التوراتية هي أحداث تاريخية من حيث الأصل ، وأن باستطاعتنا الكشف عن تلك الأحداث في أشكالها التحتية الأصلية . ويقوم منهجه على إعادة تركيب نتائج الدراسات التوراتية والآثارية والتاريخية، من

---

3 - Ibid, pp5 - 6
4 - Ibid, PP9 - 10

أجل الوصول الى البنية التاريخية الخفية للنص التوراتي . [٥] وقد بقي هذا الإتجاه سائداً حتى مطلع سبعينات القرن العشرين ، عندما صارت نتائج البحث الأثري الشامل للأرض الفلسطينية كافية ، من حيث كميتها ونوعيتها ، لفرش الأرضية اللازمة للإنعطاف الجديد في البحث التاريخي ، مما أشرنا إليه منذ قليل .

وفيما بين أقصى يمين الإتجاه المحافظ الذي يمثله أولبرايت وتلامذته ، وأقصى يسار الإتجاه المتحرر ، تتدرج مواقف بقية الباحثين . فالبعض يرفض الأساس التاريخي لأسفار موسى الخمسة (والتي تتضمن قصص الآباء من ابراهيم إلى يوسف . وقصة الخروج من مصر) ، ويبحث بالمقابل عن تاريخية أحداث الرواية التوراتية ابتداءً من فترة يشوع أو فترة القضاة ، عندما بدأ الإسرائيليون كمجموعة متمايزة بالإستقرار في كنعان . والبعض الآخر يرفض الأساس التاريخي لسفري يشوع والقضاة أيضاً ، ويبحث عن تاريخية أحداث الرواية ابتداءً من تشكيل المملكة الموحدة لكل إسرائيل خلال القرن العاشر ق.م . وهناك فريق ثالث يرى أنه من غير المجدي البحث عن تاريخية الحدث التوراتي قبل القرن التاسع ق.م ، عندما تبدأ أخبار إسرائيل بالظهور في سجلات آشور ، وذلك لأول مرة في التاريخ . هذه المواقف المتباينة للباحثين المحدثين والمعاصرين ، تعطينا فكرة واضحة عن المأزق ، الذي وصل إليه البحث التاريخي التوراتي .

إن أهم نتيجة يمكن أن نخرج بها من متابعة هذا الجدل الأكاديمي الدائر خلال القرن العشرين ، ومن دراسة الوثائق التاريخية لثقافات الشرق القديم ، ودراسة أحدث نتائج التنقيب الأثري في فلسطين ، هي أن التقاليد التوراتية قد خلقت "إسرائيلاً" خاصة بها لا علاقة لها بإسرائيل التاريخية ، وأن جل البحث التاريخي ، الذي تم حتى وقت قريب ، في مسألة أصول إسرائيل وتاريخها ، قد انصب على أحيولة لا تمتلك من الوجود الواقعي إلا أقله. ولسوف نسير عبر صفحات هذا الكتاب في محاولة جادة لاكتشاف صورة إسرائيل في التوراة وفي التاريخ والبحث عن التقاطعات الممكنة بينهما ، من أجل معرفة حقيقية

---

٥ ـ يعتبر وليم فوكسويل أولبرايت أكثر أفراد جيله حيوية ونشاطاً وإنتاجاً ، سواء في مجال التنقيب الأثري أم في مجال البحث النظري في التاريخ و اللغات السامية .من أعماله ذات العلاقة بموضوعنا هنا المؤلفات التالية

_ *The Archaeology of Palistine , London 1949 .*
_ *The Biblical Period fromAbraham to Ezra, NewYork 1963 .*
_ *Yahwe and the Gods of Canaan , London 1968 .*

ماجرى في فلسطين من حوالي عام ١٢٠٠ ق.م (وهي الفترة المفترضة لدخول الإسرائيليين أرض كنعان) ، إلى دمار أورشليم عام ٥٨٧ ق.م .

في المرحلة الأولى من بحثنا ، سوف نعمد إلى توضيح معالم " إسرائيل التوراتية" كما رسمتها الأسفار الخمسة المدعوة بالتاريخية . ثم نقوم بعملية استقصاء للوجود الموضوعي لهذه الإسرائيل اعتماداً على النقد النصي والتاريخي والأركيولوجي لكل سفر على حدة . أما في المرحلة الثانية ، فسوف ننتقل الى دراسة أصول ومسار حياة "إسرائيل التاريخية" اعتماداً على نتائج نقدنا السابق ، وعلى علم الآثار الحديث المدعم بالعلوم المساعدة ؛ مثل علم الأنثروبولوجيا ، وعلم السوسيولوجيا ، وعلم مناخ وبيئة العصور القديمة ، وغيرها من العلوم التي صارت معونتها الميدانية والنظرية أمراً لا غنى عنه لأي بحث أثري . وسوف يتم التركيز في هذه المرحلة ، على العلاقات الآرامية ـ الفلسطينية والكشف عن دور مملكة آرام دمشق في الحياة السياسية لكل من مملكتي اسرائيل ويهوذا، وممالك شرقي الأردن وبقية العالم السوري في مناطق غربي الفرات .

وأخيراً سوف نتوقف في دراستنا عند أعتـاب الفترة التي أدعوها بفترة التـاريخ اليهـودي في فلسطين . وهذا التاريخ اليهـودي ، الذي تأخذ ملامحه بالتوضح خلال العصر الفارسي (القرنين الخامس و الرابع ق.م) ، لاعلاقة له بالتاريخ الإسرائيلي ، وليست الإستمراريـة بين التاريخين سـوى إستمراريـة كرونولوجيـة ، لا تحمـل صلة ثقافية حقيقية بين المرحلتين . إن ما بدا لنا ، حتى الآن ، من اتصال الإسرائيلي باليهودي ، هو ابتداع إيديولوجي توراتي ، استكمل المحررون التوراتيون من خلاله أخيولتهم الأدبية الرامية إلى ابتكار أصول لليهودية المحدثة في فلسين خلال العصر الفارسي والعصر الهلينستي .

قد تبـدو هذه الفكـرة غريبـة على قـارىء التاريخ ، وعلى معظم المتخصصين . و لكن ما يلي من فصول هذا الكتاب ، كفيل بتوثيقها وبتوضيحها على أفضل وجه . وذلك وفق منهجية علمية بعيدة عن السمـة الإعلامية السياسية التي ميزت الخطاب التاريخي العربي حتى الآن ، بتأثير وجود " إسرائيل ثالثة " في فلسطين اليوم ، لا عـلاقة لها بإسرائيـل التوراتيـة أو إسرائيل التاريخية .

الباب الأول

البحث عن اسرائيل التوراتية

الفصل الأول

الخلفية التاريخية العامة

للحدث التوراتي

تشير البينات الأركيولوجية واللغوية اليوم، وأكثر من أي وقت مضى ، إلى أن المنطقة السورية الواقعة بين الفرات والبحر المتوسط ، كانت مسكونة بعناصر سامية منذ آواخر الألف الرابع قبل الميلاد . فأقدم المدن في هذه المنطقة، مثل أريحا وبيت شان وبيت يارح ومجدو وعكا وصيدون وساريبتا وسيميرا وأوغاريت ، تحمل أسماءً سامية لا لبس فيها. كما أن اللقى الأثرية وبقايا الهياكل العظيمة تشير إلى استمرارية عرقية وثقافية واضحة ، ترقى إلى الألف الرابع وتتجاوزه[1]. ويمكن القول بعض الثقة ، أن التركيب السكاني في المنطقة السورية لم يتعرض لأي تغيير جذري منذ أواخر العصر النحاسي ، حيث نستطيع متابعة خط ثقافي متميز لحضارة متصلة لا تظهر فجوة أو انقطاعاً[2]. ولكن من هم هؤلاء الساميون القدماء ، ومن أين جاءوا؟

لقد أحدثت الدراسات اللغوية المقارنة الحديثة تغييراً عميقاً في معرفتنا للأصول السكانية في هذه المنطقة ، والتغيرات التي طرأت عليها ، إلى درجة أن معظم النظريات القديمة ، والتي تعود إلى ما قبل سبعينيات القرن العشرين ، قد غدت بالية وبحاجة إلى إعادة نظر جذرية . فلفترة طويلة ، ومنذ القرن السادس عشر ، سادت وبشكل كامل تقريباً نظرية الهجرات السامية من جزيرة العرب ، التي اعتبرت المهد الأصلي للعنصر السامي . فهذه النظرية تحتوي ضمناً أن اللغة السامية الأصلية التي تفرعت عنها لغات حضارات الهلال الخصيب ، قد

---

1 - W.F . Albright, The Role Of the Canaanite in the History of Civilization P . 332 (in E . Wright , edt , the Bible and the Ancient Near East , Indiana 1979 .

2 - Th.L. Thompson , Early History Of The Israelite People , P 172

نشأت في جزيرة العرب ، وأن اللغة العربية هي أقرب الأقرباء إلى تلك السامية الأصلية . غير أن أبرز المدافعين عن نظرية الهجرات ، قد بدأ يتخلى عنها في ضوء المعارف الجديدة في علم اللغات المقارن . ففي كتابه الصادر عام ١٩٥٧ ، على سبيل المثال ، يقول عالم الساميات المعروف سباتينو موسكاتي في المقدمة ما يلي : "ثمة حقيقة تبدو ثابتة الى حد كاف ، وهي أن التاريخ يدلنا على أن الصحراء العربية كانت نقطة الإنطلاق للهجرات السامية .. وإننا في ضوء معلوماتنا الحالية ، يجب أن نقبل ، ولو على سبيل الإفتراض العملي ، أن المنطقة التي انتشر فيها الساميون كانت الصحراء العربية."(٣) غير أن موسكاتي في كتاب لاحق له صدر عام ١٩٦٩ حول قواعد اللغة السامية ، يظهر شكه في هذه الفرضية ، وما يتبعها من نسبة اللغة السامية الأصلية إلى الصحراء العربية ، ومن كون اللغة العربية هي الأقرب إلى هذه السامية الأصلية من شقيقاتها في الهلال الخصيب، مثل الأكادية والأوغاريتية (٤).

وبدلاً من التركيز على ما يسمى باللغة السامية الأصلية ، يقوم العلماء الآن بتلمس خيط يربط اللغات السامية باللغة المصرية وبقية لغات شمال افريقيا . وهم يرون أن الأقرب إلى الواقع ، هو وجود لغة أفرو ـ سامية تفرعت فيما بعد إلى سامية وافريقية ، عند نقطة معينة من التاريخ . من هؤلاء العلماء ، الألماني P . Behrens والروسي Diakonoff . ففيما بين الألف السادس والألف الخامس قبل الميلاد ، تعرض الشمال الأفريقي إلى موجة جفاف طويلة وحادة أدت إلى التشكل التدريجي للصحراء الأفريقية ، والى هجرات نحو مصر وآسيا الغربية. وقد قادت هذه الهجرات إلى تكوين اللغة المصريةالقديمة في وادي النيل، واللغات البربرية فيما وراء الصحراء الليبية ، واللغة السامية الأم في سورية وهي السامية الغربية ، ومنها انشقت السامية الشرقية التي طورها النازحون باتجاه وادي الرافدين (٥). لقد ازدهرت الحضارة الزراعية في سورية منذ الألف الثامن قبل الميلاد، وكانت الثورة الثقافية التي يدعوها

---

3 - S . Moscati , Ancient Semitic Civilizations, Elek Books ,London 1957 .

ـ انظر الترجمة العربية للكتاب أعلاه :

سابالينو موسكاتي ، الحضارات السامية ، بيروت ١٩٨٦ ص ٥٣ ـ ٥٤

4 - S . Moscati, Comparative Grammer of The Semitic Longuages , Wiesbaden , 1969 , P. 16

5 - I M . Diakonoff , Semito Hamitic Languages , Moscow 1965 PP .105 FF

الأركيولوجيون بثورة النيوليتيك (ثورة العصر الحجري الحديث) قد بلغت ذروتها إبان الفترة التي وصل خلالها النازحون من شمال أفريقيا . من هنا فإن القادمين الجدد لم يكن لديهم ما يقدمونه للثقافة النيوليتية المتطورة سوى لغتهم ، التي تفاعلت مع اللغة المحلية لينتج عن تفاعلهما اللغة السامية الأصلية . أما عن جزيرة العرب ، فيبدو أن اللغة السامية قد جاءتها من فلسطين وسورية الجنوبية في أواخر عصر البرونز المبكر و أوائل عصر البرونز الوسيط (أي حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م) فخلال هذه الفترة ساد المنطقة السورية جفاف حار وطويل، أدى الى إنهيار ثقافة البرونز المبكر والى إقتلاع للسكان وهجرات واسعة النطاق، وتحول شرائح كبيرة من المزارعين المستقرين إلى الرعي المتنقل. من هذا المنظور، تغدو الهجرة السامية عكسية ، وباتجاه الجزيرة العربية لامنها [٦].

لقد أدت الثورة النيوليتية في سورية وبلاد الرافدين إلى إحلال جملة من التغيرات العميقة الأثر في مجرى الحضارة الإنسانية ، فخلال العصر الحجري الحديث ، استقر الإنسان الصياد في الأرض ، وبنى القرى الزراعية الأولى في تاريخ البشرية ، وأخذ بإنتاج الغذاء بدلاً من جمعه مبتدءاً بذلك حضارتنا الحديثة التي تعتبر استمراراً غير منقطع لتلك القرى الزراعية الأولى . وكما كانت منطقة الهلال الخصيب منطلقاً للثورة النيوليتية، فقد كانت أيضاً منطلقاً للثورة الحضرية . أو المدينية (نسبة الى مدينة) وهي الثورة الثقافية في حياة البشرية. فمع أواخر الألف الرابع ومطلع الألف الثالث قبل الميلاد ، ظهرت المدن الأولى في منطقة سومر جنوب وادي الرافدين ، تبعتها المدن المصرية ، فمدن بلاد الشام . ولقد غدا واضحاً ، على ضوء علم مناخ وبيئة العصور القديمة[٧] أن ظهور المدن الأولى قد جاء نتيجة لازدهار اقتصادي عم المنطقة مع بداية عصر البرونز المبكر [*] (حوالي ٣٠٠٠ ق.م) ، بتأثير تغيرات مناخية جذرية .ففي ما بين ٣٥٠٠ و ٢٣٠٠ ق.م شهدت المنطقة بكاملها مناخاً بارداً

---

6 - TH . L . Thompson , Op . cit , PP176 , 177 , 189 .
7 - Ibid , PP. 177 , 179 .

(*) ـ يقسم علماء الآثار العصور التاريخية ، منذ فجر الحضارة في سومر الى العصور التالية :
١ ـ عصر البرونز المبكر : من ٣٠٠٠ الى ٢٠٠٠ ق.م (أو ١٩٥٠ ق.م)
٢ ـ عصر البرونز الوسيط من ٢٠٠٠ (١٩٥٠) الى ١٦٠٠ ق.م (أو ١٥٥٠ ق.م)
٣ ـ عصر البروز الأخير من ١٦٠٠ (١٥٥٠) الى ١٢٠٠ ق.م
٤ ـ عصر الحديد الأول من ١٢٠٠ ـ ١٠٠٠ ق.م
٥ ـ عصر الحديد الثاني من ١٠٠٠ ـ ٧٠٠ ق.م

ورطباً ، تميز بارتفاع كبير في منسوب الأمطار أدى إلى استثمار مكثف لجميع الأراضي الصالحة للزراعة ، وإلى استصلاح مساحات كبيرة في المستنقعات ، وإزالة مساحات لا بأس بها من الغابات لأغراض الإستثمار الزراعي . وهذا كله قاد إلى تكوين فائض الإنتاج اللازم لتشييد المدينة .

لقد اعتقد المؤرخون والآثاريون لفترة طويلة ، أن الثورة المدينية في سورية قد تأخرت عنها في سومر وفي مصر ، وأن مناطق غربي الفرات لم تعرف المدن الكبرى ، ولا الكتابة ، خلال معظم الألف الثالث قبل الميلاد . إلا أن الإكتشاف المثير لمدينة إيبلا القديمة في الشمال السوري قرب حلب ، قد أثبت أن ظهور المدن الكبرى في سورية لم يتأخر كثيراً عن ظهورها في سومر وفي مصر . فقد ظهرت إيبلا كمدينة مكتملة منذ أواسط الألف الثالث قبل الميلاد ، ويدل أرشيفها الكبير الذي عثر عليه في القصر الملكي ، على وجود شبكة واسعة من المدن السورية الأخرى المعاصرة لها ، والتي قد تثبت الأكتشافات المقبلة معاصرتها للمدن السومرية أيضاً . ويبدو أن موقع تل البيدر في منطقة الفرات ، هو المرشح الأول الآن لإحداث الثورة الأركيولوجية الثانية بعد إيبلا ، لأن الرقم الطينية التي تم العثور عليها في الموقع خلال موسم التنقيب في عام ١٩٩٤ ترجع بتاريخها إلى حوالي ٢٧٠٠ ق.م [٨] ، وهذا ما يضعنا في فترة فجر السلالات في كل من سومر ومصر .

أما في فلسطين ، وعلى عكس بقية المناطق السورية ، فيبدو أن الثقافة المدينية لم تبلغ شأواً يعتد به ، إذ بقيت التجمعات السكنية الكبيرة أقرب الى البلدة أو القرية الكبيرة منها إلى المدينة بمفهومها الصحيح . وقد حافظ الإقتصاد هنا على طابع محلي ، ولم يسهم في التجارة الدولية ، رغم مرور طرق التجارة عبرالمناطق الحدودية للأطراف الفلسطينية . إن غياب البيّنة على وجود سلطة مركزية في أي من المناطق الفلسطينية خلال الألف الثالث ، واعتماد أكبر التجمعات الحضرية فيها على الزراعة بالدرجة الأولى ، وفقدان البضائع الكمالية ذات العلاقة بحياة الرفاهية ، وغياب الكتابة التي هي من خصائص البيروقراطية المدينية ، يجعل من الصعب التحدث عن نشوء مدن بالمعنى الحقيقي في فلسطين خلال الألف الثالث قبل الميلاد . فالبلدة الصغيرة هنا لم تتعقد بناها الى ماوراء الحاجة إلى التبادل

---

٨ ـ معلومات مباشرة حصل عليها المؤلف من البعثة السورية المشاركة في التنقيب.

التجاري الإقليمي والدفاع المحلي [٩].

أطلق المؤرخون المحدثون اسم الكنعانيين على سكان المنطقة السورية ، وهي المنطقة المحصورة بين وادي الفرات شرقاً والبحر المتوسط غرباً ، وبين جبال طوروس شمالاً وحدود الصحراء العربية جنوباً . وقد وردت تسمية " كنعان " و " كنعانيون " في التوراة للدلالة على أرض فلسطين وعلى شعبها ، ولكن هذه التسمية ليست توراتية كما يعتقد الكثيرون ، فقد استعملها المصريون للدلالة على المناطق الجنوبية الغربية من سورية ، وهي المناطق التي كانوا على احتكاك بها منذ بدايات التاريخ المصري . وترد التسمية في النصوص المصرية بصيغة بي ـ كنعان Pekanan[١٠] . كما نجد تسمية كنعان في بعض النصوص السورية من الألف الثاني قبل الميلاد ، مثل نص إدريمي ملك ألالاخ ، وهي المملكة التي ازدهرت خلال النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد في الشمال الغربي من سورية (قرب انطاكية). يتحدث إدريمي في هذا النص عن هروبه من ألالاخ عقب إنقلاب سياسي في القصر ، ولجوئه إلى مدينة أميّا في أرض كنعان ، وهذه المدينة تقع على الساحل السوري الأوسط قرب طرابلس الحالية [١١]. وقد بقيت التسمية مستخدمة في العصر الهلينستي ،حيث نجدها على العملة المسكوكة في بعض مدن الساحل الفينيقي ، إضافة الى استخدامها من قبل المصادر الكتابية الكلاسيكية . وفي بلدان شمال أفريقيا التي كانت مستعمرات فينيقية سابقة، بقيت شريحة لا بأس بها تتباهى بأصلها الذي تدعوه كنعانياً ، خلال العصر الروماني [١٢]. وفي انجيل متى ، يطلق المؤلف تسمية كنعاني للدلالة على ساكن مناطق فينيقية التقليدية في لبنان . نقرأ في الإصحاح ١٥: ٢١ ـ ٢٢ : " ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيدا . وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة .. الخ " . اعتماداً على هذه الشواهد وأمثالها ، من المرجح أن التسمية " كنعان " هي تسمية لمنطقة جغرافية بالدرجة الأولى لا تسمية لشعب معين . وهذه المنطقة هي الأراضي الممتدة على طول الساحل السوري ابتداءً من أوغاريت ، أو مما يليها على الأغلب ، مع بعض الإمتدادات

---

9 - *Th . L . Thompson , Op . cit , p . 178 , 180 .*

10 - *W . McNeill and J . Sadlar , The Ancient Near East , p . 25*

١١ ـ من أجل نص أدريمي ، وتعيين موقع مدينة أميا راجع بحث الدكتور عيد مرعي في مجلة دراسات تاريخية ،عدد آذار ١٩٨٨

12 - *S . Mascati , The World of the Phoenicians , Cardinal , Landon 1973 , PP . 22 - 23*

نحو الداخل كما هو الحال في منطقة فلسطين . ولا يوجد لدينا في النصوص القديمة ما يشير إلى أن التسمية قد شملت المناطق الداخلية السورية . ومع ذلك فإننا لا نرى مانعاًمن تعميم التسمية لتشمل أرض الساميين الأوائل الذين تواجدوا في مناطق غربي الفرات منذ العصر الحجري الحديث، وذلك من قبيل إطلاق اسم الجزء على الكل ، خصوصاً وأن المؤرخين والآثاريين المحدثين مازالوا مصرين على استخدام هذا المصطلح . فبعد اكتشاف إيبلا وأرشيفها المسماري الضخم، الذي أطلعنا على أول لغة سامية مكتوبة ، أطلق باولو ماتييه على اللغة الإيبلائية صفة " الكنعانية المبكرة " Proto - Canaanite ورأى في مملكة إيبلا نموذجاً عن الحضارة الكنعانية في الألف الثالث قبل الميلاد[١٣]. الأمر الذي يدل على أن الحلقات الأكاديمية العالمية تميل الى زيادة الإعتماد على المصطلح بدلاً من استبداله .

انتهت الحضارة المزدهرة للألف الثالث قبل الميلاد على نحو فاجع في جميع أرجاء الشرق القديم ، ولأسباب بدت غير واضحة للمؤرخين لفترة طويلة من الزمن . ففي مصر ، سقطت الأسرة السادسة مع حلول الربع الأخير للألف الثالث قبل الميلاد ، وبسقوطها انتهت الفترة المعروفة في تاريخ مصر بفترة المملكة القديمة ، وأعقبتها فترة من الفتن والإضرابات والغزوات الخارجة ، يطلق عليها المؤرخون اسم الفترة المعترضة الأولى ، دامت حتى مطلع الألف الثاني قبل الميلاد ، وانتهت مع قيام الأسرة الثانية عشر عام ١٩٩٠ ق.م ، وهي الأسرة التي ابتدأت فترة المملكة المتوسطة في تاريخ مصر القديمة . وقد تزامن انهيار المملكة القديمة في مصر مع انهيار المملكة الأكادية في بلاد الرافدين ، حيث سقطت العاصمة أكاد بيد الغوتيان الجبليين الوافدين من الجبال الشرقية ، حوالي عام ٢٢٣٠ ق.م ، وأعقب ذلك فترة فراغ سياسي واضطرابات عامة دامت حوالي قرن من الزمان، حتى قيام أسرة أور الثالثة عام ٢١٢٠ ق.م . وفي سورية ، هناك دليل على وجود فترة فراغ مشابهة ، أدت إلى التسلل التدريجي للقبائل الآمورية التي كانت تتجول في البادية السورية ، والى تأسيسهم لأسر حاكمة قوية في المدن السورية الكبرى مثل ماري وحلب وقطنة . وتظهر في فلسطين بشكل خاص ، آثار أركيولوجية واضحة على الدمار التام لعدد كبير من المدن ، أعقبه فترة فراغ سكاني دامت أكثر من قرنين في بعض المواقع . وقد عثر المنقبون في مواقع المدن المدمرة في فلسطين على آثار حياة بدوية لجماعات آمورية ، لم تكن مهتمة ببناء أو سكن الحواضر ،

13 - Paolo Matthiae , Ebla , Hodder and Stoughton , London 1980

واعتقدوا أن هذه الجماعات البدوية هي المسؤولة عن تدمير ثقافة البرونز المبكر في فلسطين .

لقد فسر المؤرخون والأركيولوجيون هذه النهاية الشاملة لثقافة البرونز المبكر في جميع أنحاء الشرق القديم تفسيرات جزئية . فالغويتان هم المسؤولون عن نهاية المملكة الأكادية، والغزوات البدوية الآمورية هي المسؤولة عن نهاية ممالك المدن الكنعانية في سورية وفلسطين ، وثورات الطبقات المحرومة في مصر وما تبعها من فوضى وإضطرابات هي المسؤولة عن إنهيار المملكة القديمة . إلا أن الأبحاث العلمية الجديدة بخصوص التغيرات المناخية للعصور القديمة ، والتي صارت اليوم ركناً أساسياً من أركان البحث التاريخي والتفسير الأركيولوجي ، تقدم لنا مفتاحاً مهماً لفهم حقيقة ما جرى خلال الفترة الإنتقالية من البرونز المبكر إلى البرونز الوسيط . فمع الربع الأخير للألف الثالث قبل الميلاد ، انتهى المناخ البارد المطير الذي ساد المنطقة منذ أواسط الألف الرابع قبل الميلاد ، وتبعه بشكل مفاجىء مناخ حار وجاف استمر حتى مطلع الألف الثاني قبل الميلاد . وقد تميز هذا المناخ بصيف حار وطويل وشتاء جاف وقصير ، وبهبوط المعدل السنوي للأمطار ، مما أدى إلى انخفاض منسوب المياه الجوفية ، وشح الينابيع . وفي مصر انخفض منسوب فيضان النيل بشكل حاد تسبب في الإنهيار التام للحياة الزراعية . وقد تعاملت المناطق المصابة مع هذه الأوضاع وفق استراتيجيات مختلفة.ففي سورية ، استطاعت المدن الكبيرة عبور الأزمة بصعوبة بالغة ، مع المحافظة على استقرار نسبي خصوصاً في المناطق ذات المعدلات المطرية المرتفعة سابقاً ، أما المناطق الحساسة للجفاف وذات المعدلات المطرية المنخفضة عادة ، فقد أخذ المزارعون فيها بالتحول إلى الحياة الرعوية تدريجياً . وتشير النصوص المسمارية في وادي الرافدين إلى تحركات بشرية مستمرة من المناطق السورية باتجاه الشرق . أما في فلسطين ، فقد استمرت المدن الواقعة في مناطق الوديان الخصبة وفي المناطق السهلية ،ولكن تحت شروط قاسية ومع تقلص واضح في حجمها ونقص كبير في عدد سكانها ، بينما هجرت معظم مواقع المناطق الهضبية الحساسة للجفاف وأفرغت من سكانها ، وذلك فيما عدا تلك التي تتمتع بمصدر مائي غزير وثابت . وكذلك الأمر في المناطق الجنوبية مثل أرد وبئر السبع ، والتي تحولت إلى بوادٍ قاحلة بعد فترة ازدهار زراعي طويلة. وفي مناطق شرقي الأردن تحول السكان من الزراعات المتوسطية التقليدية إلى الرعي وزراعة الحبوب. وخلال هذه الفترة بالذات ، تم نزوح أعداد كبيرة من سكان المناطق الواقعة على حدود البوادي ، ممن تحولوا إلى حياة الرعي

المتنقــل ، نحـو الجزيرة العربية حاملين إليها اللغة السامية [١٤]. وفيما يتعلق بالمواقع التي عثر فيها المنقبون في فلسطين على آثار دمار خلال هذه الفترة الإنتقالية ، فيبدو أنها قد تهدمت بشكل طبيعي نتيجة إفراغها من السكان ووقوعها عرضة للعوامل الطبيعية ، ولم تكن بحاجة إلى غزاة من الخارج لإتمام ما ابتدأته الطبيعة .

حوالي عام ١٩٥٠ ق.م ، انتهت فترة الجفاف واعقبتها فترة باردة ومطيرة أدت إلى ازدهار اقتصادي عام في جميع أنحاء سورية ، فازداد عدد السكان بشكل واضح ، وأعيد سكن المناطق التي هجرت إبان الفترة الإنتقالية ، كما أعيد بناء وسكن المدن المهدمة . وفي مصر ، ارتفع منسوب فيضان النيل وعادت الحياة الزراعية سيرتها الأولى تحت سيطرة الأسرة الثانية عشر التي أسست المملكة المتوسطة . وفي بلاد الرافدين، يبدو أن الأسرة الآمورية ، التي شكلت الدولة البابلية القديمة (وأشهر ملوكها حمورابي) ، قد قامت على أساس اقتصادي راسخ يسمح بتشكيل مثل هذه القوة الجديدة والكبيرة في الشرق القديم . وقد تطابقت بداية فترة الإزدهار هذه مع بداية عصر البرونز الوسيط ، الذي استمر من ١٩٥٠ إلى ١٦٠٠ ق.م (أو ١٥٥٠ ق.م) . وبشكل عام تظهر الفترة الإنتقالية في سورية ارتباطاً حضارياً واضحاً مع عصر البرونز المبكر ، الأمر الذي ينفي بشكل قاطع نظرية الغزوات البدوية ، ويؤكد على استمرارية سكانية غير منقطعة ، وعلى مقدرة التركيب السكاني المحلي على استيعاب الجماعات الخارجة وهضمها. وبشكل خاص ، فإن الثقافة المحلية في فلسطين تظهر ، وأكثر من أي مكان أخر في سورية ، هذه الإستمرارية الثقافية والسكانية خلال هذه الفترة المعترضة ، وخلال الفترات اللاحقة وصولاً إلى العصر الآشوري الجديد خلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد[١٥].

كما تظهر لنا المخلفات المادية للبرونز الوسيط إستمرارية حضارية مشابهة مع الفترة الإنتقالية ومع البرونز المبكر. وإضافة إلى هذه الإستمرارية الحضارية ، فإن عصر البرونز الوسيط في سورية يعطينا صورة لوحدة ثقافية تامة تجمع كل المناطق في بوتقة واحدة . فمن أوغاريت وكركميش في الشمال وحتى أطراف الصحراء في الجنوب ، تبدو الروابط واضحة في كل أثر مادي ، سواء في الفخار أو الفنون التشكيلية المختلفة أو فن العمارة أو تقنيات

14 - Th . L . Thompson , op . cit ,PP 181 - 183 ;
15 - Ibid , PP . 183 , 188 , 203 .

إنشاء الأسوار الدفاعية . ورغم أن المنطقة قد استوعبت إليها تحركات بشرية واسعة من الخارج ، إلا أن الطابع الثقافي المحلي بقي سائداً ومتماثلاً في جميع أنحائها ، واستمرت الثقافة الكنعانية في مسيرتها لتتجاوز البرونز الوسيط إلى البرونز الأخير فعصر الحديد[١٦].

شهد عصر البرونز الوسيط (١٩٥٠ - ١٦٠٠ ق.م) قيام الدولة البابلية القديمة في بلاد الرافدين تحت لواء أسرة حاكمة آمورية وفدت من سورية . غير أن هذه الدولة الجديدة لم تكن إلا استمراراً لدولة أور الثالثة ولدولة صارغون الأكادي من قبلها ، ولم يكن الآموريون هنا سوى طبقة حاكمة تبنت كل التقاليد الثقافية السومرية الأكادية في الدين والفنون والآداب واللغة ، ولم تكن اللغة البابلية القديمة إلا أكادية معدلة بعض الشيء . كما شهد هذا العصر قيام دويلات مدن قوية في سورية ، مثل كركميش على الفرات في أقصى الشمال ، وماري على الفرات الأوسط ، وآلالاخ في سهل العمق غرباً قرب انطاكية ، وقطنة وقادش في سورية الوسطى بمنطقة حمص . ورغم أن أسراً حاكمة آمورية قد حكمت في معظم هذه المدن ، إلا أن الطابع الثقافي الكنعاني للبرونز المبكر قد استمر هنا استمرار الطابع الثقافي الأكادي في وادي الرافدين . ومن أهم الحكام الآموريين الذين ظهروا على المسرح السياسي مع بدايات عصر البرونز الوسيط، الملك شمسي هدد الأول ، وهو شخصية عسكرية وإدارية متميزة ، ظهر بشكل مفاجىء في أواخر القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، ووحد منطقة حوض الخابور وشمال بلاد الرافدين ، من المنعطف الكبير لنهر الفرات غرباً إلى سفوح جبال زاغروس شرقاً . وكانت آشور ، التي استولى عليها هذا العاهل واعتلى عرش ملوكها في عاصمتها ، قلب هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف . غير أن شمسي هدد لم يختر الإقامة في العاصمة الأشورية ، بل عمل على بناء عاصمة جديدة له في حوض الخابور الأعلى أطلق عليها اسم شوباط انليل . وقد تم إكتشاف هذه المدينة منذ سنوات قليلة في موقع تل ليلان في أقصى الشمال الشرقي من الحدود السورية الحالية .

وفي فلسطين ، نضجت البنى الأساسية للمدن التي كانت أشبه بالقرى خلال الألف الثالث ، وأخذت هذه البنى تتشكل تدريجياً وفق نظام دولة المدينة الذي كان سائداً في بقية المناطق السورية لوقت طويل مضى . ونستنتج من النصوص المصرية العائدة لفترة المملكة المتوسطة ، قيام أسر حاكمة في عدد من المدن الكبرى . إلا أن هذه المدن ، من أمثال شكيم

---

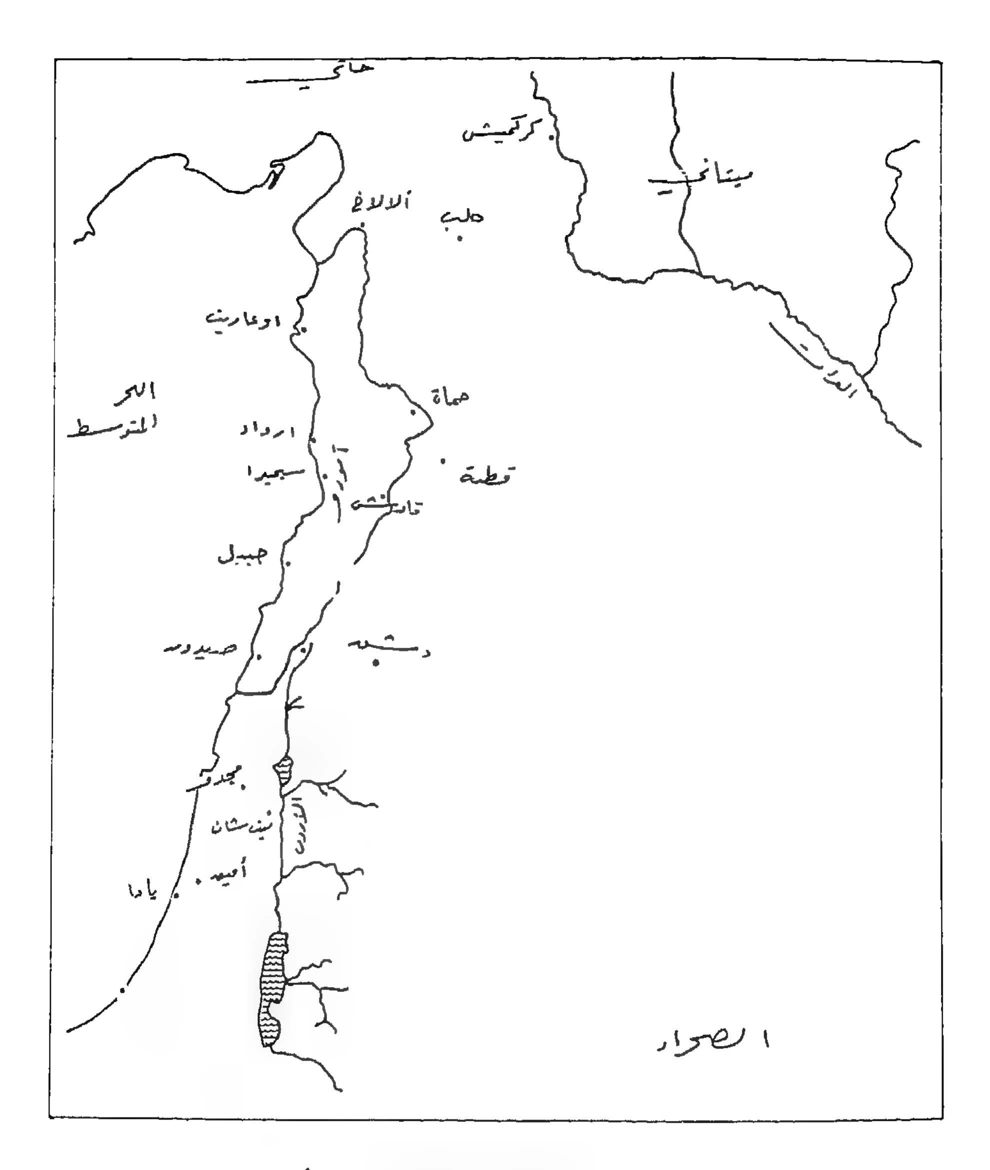
16 - Kathleen Kenyon , Archaeology in the Holy Land , London 1985 , PP 148 - 178

وحاصور ومجدو ، لم تصل في حجمها وفي قوتها إلى ما وصلت إليه بقية المدن السورية ، ولم تتجاوز في توسعها الحد اللازم لحياة مركز إقليمي يقدم خدمات التسويق والصناعة الحرفية والدفاع المحلي للمنطقة الصغيرة المحيطة به و القرى الدائرة في فلكه . ورغم أن زراعـات بعض المناطق الفلسطينية قد تركزت حول سلع التبادل النقدي مثل الخمور والزيوت ، وما يستتبع ذلك من توسيع لأسواقها المحلية ، ورغم قيام تحالفات سياسية عائلية بين حكام المدن الكبرى وظهور نوع من الهرمية في ميزان القوى بشكل عام ، إلا هذا كله لم يؤد إلى نشوء دولة قوية تبسط سلطانها على عدد من المدن والمناطق التابعة لها . ومن ناحية أخرى ، فإن الثقافة الفلسطينية في عصر البرونز الوسيط تظهر تأثراً واضحاً بالثقافة المصرية ، وخصوصاً في المناطق الجنوبية . إلا أن هذا التأثير يمكن تفسيره بالقرب الجغرافي والتبادل التجاري ، ولا يوجد لدينا أي دليل على وجود سلطان سياسي مصري مباشر على فلسطين خلال البرونز الوسيط . وفي الحقيقة ، فإن طرق الإتصال بين فلسطين ومصر كانت مفتوحة منذ الألف الخامس قبل الميلاد ، وكانت الدلتا المصرية منذ ذلك الحين تستوعب أعداداً متزايدة من الأسيويين القادمين إليها من فلسطين أو عبرها ، إلى أن صارت منطقة شبه آسيوية مع حلول عصر البرونز الوسيط . ويبدو أن الهكسوس الذين استولوا على مصر وأسسوا أسراً حاكمة آسيوية فيها ، فيما بن ١٧٣٠ و ١٥٧٠ ق.م ، لم يأتوا من أي مكان خارج مصر ، بل من الدلتا نفسها [١٧].

لم تعمر المملكة المتوسطة التي قامت في مصر مع مطلع البرونز الوسيط إلا حوالي قرنين من الزمان . فحوالي عام ١٧٣٠ ق.م استولى على الحكم الجماعات المعروفة في التاريخ باسم الهكسوس ، وتبدأ في مصر الفترة التي يدعوها المؤرخون بالفترة المعترضة الثانية . يتفق معظم دارسي اللغة المصرية القديمة على أن كلمة هيكسوس تعني " حكام الأراضي الأجنبية" (الحكام الذين جاءوا من أراضٍ أجنبية) . من هنا ، فإن معرفة أصلهم ومصدرهم أمر مستحيل اعتماداً على النصوص الهيروغليفية المصرية ، وذلك فيما عدا كونهم قد أتوا من آسيا الغربية . ورغم أن معظم أسماء الملوك الهيكسوس سامية ، إلا أننا نعثر بينها على أسماء غير سامية أيضاً ، الأمر الذي يدل على وجود عناصر مختلطة في التركيب الإثني (العرقي) لهذا الجماعات . وربما كانت هذه العناصر عير السامية قد جاءت من أصل حوري . فقد

17 - Th L . Thompson , op cit , pp 193 - 199 .

Upi During the Late Bronze Age



١ ـ سورية وفلسطين في عصر البرونز المتأخر

تميزت بداية عصر البرونز الوسيط بحدوث تحركات سكانية كبيرة من وإلى المنطقة السورية ، أهمها تلك الهجرة الواسعة لجماعات غير سامية وفدت من الشرق والشمال الشرقي لتستقر في الشمال السوري والجزيرة العليا ، وتشكل عدة ممالك قوية أهمها مملكة ميتاني . ورغم أن لغة هؤلاء الحوريين لا تنتمي إلى أسرة لغات معروفة ، سامية كانت أم هندو أوربية ، إلا أن الطبقة العسكرية الحاكمة للجماعات الحورية كان من أصل هندو أوربي . وبعد الموجة الرئيسية، التي جاءت بالحوريين إلى المناطق المذكورة أعلاه ، لدينا دلائل على موجات صغيرة حملت جماعات منهم خلال عصر البرونز الوسيط إلى كل مكان تقريباً من بلاد الشام . وبما أنه لا يوجد لدينا دليل على غزو أو إنسياح حوري واسع النطاق نحو الغرب و الجنوب ، فإن من المرجح أن تكون هذه الموجات الصغيرة من تحركات الحوريين قد جاءت نتيجة تسرب سلمي تدريجي . وقد اختلطت هذه الجماعات الحورية بالسكان المحليين تدريجياً وحافظت على لغتها فترة لا بأس بها قبل أن تذوب تماماً في محيطها السامي. ونستدل من رسائل تل العمارنة المتبادلة بين حكام فلسطين والبلاط الفرعوني حوالي عام ١٣٥٠ ق.م، على وجود حكام حوريين على رأس عدد من الممالك السورية . ولدينا من مدينة أوغاريت شواهد على وجود جالية حورية كبيرة ونشطة في المدينة حوالي عام ١٤٠٠ ق.م ، وهذا يعني أن التواجد الحوري في سورية قد استمر قوياً وفعالاً حتى عصر البرونز الأخير . والى جانب التحركات الحورية ، لدينا شواهد على تحركات محدودة لجماعات هندو أوربية وفدت إلى سورية خلال عصر البرونز الوسيط من آسيا الصغرى . ونجد بشكل خاص في أوغاريت وألالاخ عدداً لا بأس به من أسماء الأشخاص مكتوبة بالقلم الحثي اللوفياني.

وإلى جانب هذه التحركات الحورية والهندو أوربية ، لدينا في عصر البرونز الوسيط تحركات واسعة النطاق لجماعات معروفة باسم الخابيرو . وعلى عكس الحوريين و الهندو أوروبيين ، فإن هؤلاء الخابيرو لم يكونوا جماعة عرقية متميزة ، بل أخلاطاً من أجناس شتى . ولا تساعدنا أسماء الأعلام الدالة على أفراد منهم ، في نصوص مملكة ماري وغيرها من ممالك البرونز الوسيط ، على تبين لغة واحدة تجمع بينهم . كما أن هذه النصوص لا تساعدنا على تحديد نمط حياة موحد لهذه الجماعات . فأحياناً نجدهم جنوداً مرتزقة ، وأحياناً عمالاً مأجورين في حقول الزراعة ، وأحياناً جماعات هائمة من النهابين وقطاع الطرق . وتزودنا نصوص مملكة ماري بشكل خاص بمعلومات وفيرة عن

هؤلاء الخابيرو الذين كان يتواجدون بكثرة في الأراضي الواقعة تحت سيطرتها وفي المناطق المحيطة بها . وتشير هذه النصوص إلى جماعتين رئيستين من الخابيرو ، هما "بنو ـ يامينا" أو أهل الجنوب ، و " بنو ـ شمأل " أي أهل الشمال . ونعرف منها أن بعض هؤلاء كان يعمل في الزراعة ويقيم في قرى أو معسكرات خاصة ، وبعضهم كان يمارس الرعي المأجور للآخرين ، أو يحصد ويدرس مواسم القمح لهم . ومن النصوص الحثية نعرف ان جماعات من الخابيرو كانت تستأجر لأعمال النقل و الخدمة في الجيش. ومن نصوص أوغاريت وألالاخ ، نعرف أن جماعات منهم كانت منتشرة في تلك المناطق ، وكانت تقدم خدماتها للملوك المحليين لقاء أجور عينية أو نقدية ، أو على شكل أراضٍ زراعية في بعض الأحيان . كما كانت مناطق تواجدهم تشكل موئلاً للهاربين من يد العدالة (١٨).

فالخابيرو ، والحالة هذه ، هم فئة إجتماعية وليسو فئة عرقية . إنهم شتات من الجماعات التي لم تجد لها مكاناً في الهيكل الإجتماعي والسياسي لدويلات وممالك عصر البرونز الوسيط ، فآلت إلى حالة هامشية تعيش في قلق واضطراب وحركة دائمة ، تحت قيادات سياسية مؤقتة لا تتمتع بالديمومة والاستقرار . بعض هؤلاء الخابيرو وفد إلى المنطقة من خارجها ، وبعضهم جاء من البوادي الداخلية ، وبعضهم من شذاذ الآفاق والمغامرين أو من حثالة الشرائح السفلى للمجتمعات الحضرية تبحث عن حظوظ جديدة . ففي أوقات انعدام الأمن كان الخابيرو يلجأون الى السلب والنهب ، وعند استتباب الأمن كانوا يتقدمون للعمل المأجور ، وفي أوقات الحروب كانوا يتحولون إلى مرتزقة يحاربون إلى هذا الجانب أو ذاك . ونحن إذا لم نقبل بنظرية الأصل المحلي للهكسوس ، والتي أشرنا إليها منذ قليل ، فإن أكثر النظريات قرباً لواقع حال عصر البرونز الوسيط ، هي التي تجعلهم جماعات من الخابيرو حققت نوعاً من التلاحم الداخلي تحت قيادات سياسية قادرة ، قادتها نحو الدلتا المصرية.

في عصر البرونز الوسيط هذا تبدأ القصة التوراتية ، على ما يجمع عليه المؤرخون والباحثون التوراتيون . وفي هذا العالم الذي يموج بثقافات عالية وتتلاقى عبره الأفكار التي ستمهد لكل منجزات التاريخ الإنساني اللاحق ، تبدأ قصة أصول اسرائيل التوراتية ، مع عائلة تهيم على وجهها انطلاقاً من مدينة أور على الفرات الأدنى ، على عادة تلك الجماعات

---

18 - W . F . Albright , Yahweh and the Gods of Canaan , Anchor Books , New York 1969 , PP . 73 - 86

الهائمة من صيادي الحظ ، المقتلعين من جذورهم الإجتماعية ، ممن غذوا عادة تجمعات الخابيرو على حدود المراكز الحضرية.

ولسوف نتتبع القصة التوراتية وفق التحقيب الزمني المتعارف عليه ، والمستمد من كتاب التوراة نفسه ، والذي يقسم القصة إلى العصور التالية : ١ ـ عصر الآباء ، ٢ ـ العبودية في مصر والخروج ، ٣ ـ اقتحام كنعان ، ٤ ـ عصر القضاة ، ٥ ـ المملكة الموحدة ، ٦ ـ المملكة المنقسمة .

الفصل الثاني

عصـــر الآبـــــاء

تنتهي سلسلة نسب سام ابن نوح ، في سفر التكوين أول الأسفار التوراتية ، إلى المدعو تارح أبي ابرام (أو ابراهيم) ومع تارح هذا تبدأ قصة الأصول التوراتية . لا يقدم الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين أية معلومات تفيد في رسم صورة شخصية واضحة للمدعو تارح ، ومعرفة أي شيء عن حياته السابقة ومنبته ومهنته . ولا نعرف سوى أنه قد غادر مطقة أور الكلدانية متجهاً إلى أرض كنعان ، وفي الطريق حط الرحال في مدينة حران في أقصى الشمال السوري غربي الفرات الأعلى ، ومعه إبنه أبرام وزوجة ابنه المدعوة ساراي ، وحفيده لوط إبن إبنه هاران المتوفي. ولسبب لا يفصح عنه النص ، أقام تارح مع جماعته في حران إلى أن وافته المنية وعمره مائتان وخمس سنين (تك ١١: ٢٧ - ٣٢) ومرة أخرى لا نعرف ما الذي كان يمارسه تارح وجماعته من مهنة في حران ، ولا يقدم لنا النص أية معلومات عن طبعة حياتهم فيها ، ولكننا نعرف من الإصحاح الثاني عشر أن أبرام ولوطاً قد غادرا حران بعد موت تارح ومعهما مقتنيات كثيرة وعبيد ، لاندري كيف حصلا عليها.

يخرج أبرام من حران متابعاً رحلة أبيه تارح نحو أرض كنعان ، ويكون خروجه بأمر الرب الذي خاطبه قائلاً : " إذهب من أرضك ومن عشيرتك و من بيت أبيك إلى الأرض التي أريك ، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك " (تك ١٢: ١ - ٢) وكان عمر أبرام في ذلك الوقت خمساً وسبعين سنة . كانت مدينة شكيم في شمال فلسطين أول محطة لأبرام ، ومنها نزل جنوباً فخيم بين مدينتي بيت إيل وعاي ، حيث بنى مذبحاً للرب، ثم واصل ارتحاله جنوباً دون تحديد الموقع الذي وصل إليه . ثم إن جوعاً حصل في الأرض دفع أبرام إلى مصر ، وهناك قال لساراي زوجته أن تدعي بأنها أخته حتى لا يقتل بسببها.

ذلك أن المرأة المتزوجة في مجتمعات الشرق القديم كانت تتمتع بحصانة على عكس المرأة العازبة ، وقد خاف أبرام أن يدبر له المصريون مكيدة تودي بحياته ليكونوا أحراراً في التصرف بزوجته . رأى المصريون أن المرأة حسنة جداً (على حدة تعبير النص) فأخذت ساراي إلى بيت فرعون وانضمت إلى حريمه رغم أنها كانت في سن الخامسة والستين من العمر على الأقل (*). وصنع فرعون إلى أبرام خيراً بسبب المرأة فصار له غنم وبقر وحمير وإماء وجمال . ولكن الرب لم يكن راضياً عن هذه المقايضة ، فضرب بيت فرعون ضربات عظيمة بسبب ساراي . فدعا فرعون أبرام وقال له : " ماهذا الذي صنعت بي ، لماذا لم تخبرني أنها امرأتك ، لماذا قلت هي أختي حتى أخذتها لي لتكون زوجتي ؟ والآن هذه امرأتك ، خذها واذهب " (تك ١٢ : ٤ - ٢٠) .

يرجع أبرام إلى كنعان ، ويقوم بزيارة المذبح ، الذي أقامه للرب بين بيت إيل وعاي ، ومعه لوط أيضاً . وهناك يفترق الإثنان بسبب خصام وقع بين رعاة مواشيهما الكثيرة العدد ، فيختار لوط دائرة شرقي الأردن ويبقى أبرام في أرض كنعان . وبعد رحيل لوط ، يخاطب الرب أبرام مرة ثانية ، وهو في هذه البقعة التي تتوسط منطقة الهضاب المركزية في فلسطين ، ويأمره أن يجيل البصر شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، لأنه يعطي هذه الأرض له ولنسله إلى الأبد . ثم يقفل أبرام عائداً إلى مناطق إقامته في الجنوب ، والتي يحددها النص الآن ببلوطات ممرا التي في حبرون (الخليل) ، حيث يبني مذبحاً آخر هناك (تك ١٣).

بعد ذلك نسمع عن ملك اسمه كدر لعومر ملك عيلام(**) ، الذي شن حرباً على منطقة شرقي الأردن بسبب توقف ملوكها عن دفع الجزية له ، ورافق كدر لعومر في هذه الحملة المدعو أميرافل ملك شنعار(***) وثلاثة ملوك آخرين . ينتصر كدر لعومر على ملوك شرقي الأردن ، ويقفل راجعاً ومعه الغنائم والأسرى ، وبين هؤلاء الأسرى لوط وجماعته وأملاكه . يسمع أبرام بخبر الحملة وبأسر إبن أخيه ، فيجهز على عجل حملة من أتباعه وعبيده وعددهم ثلاثمائة ، ويتبع الغزاة حتى يدركهم في موقع دان في شمال فلسطين ، وهناك يوقع بالملوك الخمسة هزيمة منكرة ويسترجع الأسرى والأسلاب . ولدى وصوله خرج ملوك شرقي

---

* حول عمر ساراي انظر التكوين ١٧ : ١٧ ، وقارن بالتكوين ١٢ : ٤

** عيلام مملكة قوية في القسم الأدنى من ايران

*** منطقة سومر جنوب وادي الرافدين

الأردن لإستقبالهم وخرج أيضاً ملكي صادق ملك شاليم ، الذي أخرج خبزاً وخمراً ، وكان كاهناً لله العلي (إيل عليون باللغة التوراتية) وباركه وقال : مبارك أبرام من الله العلي مالك السماوات والأرض (تك ١٤) .

وكان أبرام حتى ذلك الوقت عقيماً بلا نسل. ونعرف من سياق النص أنه قد تبنى شاباً اسمه أليعازر الدمشقي ليدير أملاكه ويرثها بعد موته ، وفق العادة المتبعة في ذلك الوقت . ولكن الرب يخاطبه للمرة الثالثة بعد عودته من الحرب ويعده بمولود من صلبه يرث أملاكه ، ويقول له : " لا تخف يا أبرام . أنا ترس لك ، أجرك كثير جداً ، فقال أبرام : أيها السيد الرب، ماذا تعطيني وأنا ماضٍ عقيماً ، ومالك بيتي هو أليعازر الدمشقي .. وهوذا ابن بيتي وارث لي . فإذا كلام الرب إليه قائلاً: لا يرثك هذا ، بل الذي يخرج من أحشائك هو الذي يرثك ". وفي هذا اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقاً وأبرم عهداً ، ومضمون هذا العهد أن يعبد أبرام وذريته هذا الإله مقابل إعطائهم الأرض وتقديم الحماية والمساعدة لهم (تك ١٥) . وهذا النوع من العهود والمواثيق بين الجماعة وإلهها معروف في أنحاء مختلفة من مناطق الشرق القديم .

وبعد أن أقام أبرام عشر سنين في أرض كنعان ويئست ساراي من الإنجاب ، سألته أن يدخل على جاريتها المصرية هاجر ، فحملت هاجر وولدت له اسماعيل ، وكان عمر أبرام عند ذلك ستاً وثمانين سنة . ولما صار أبرام ابن تسع وتسعين سنة ، ظهر له الرب مجدداً ووعده بتكثير نسله وجدد معه العهد الذي أبرمه سابقاً . ولتثبيت هذا العهد وجعله حياً في الأذهان ، غير الرب اسم أبرام وجعله إبراهيم ، كما غير اسم زوجته ساراي لتصبح سارة . وفرض عليه الختان هو وولده وبقية عبيده . ثم بشره بغلام من سارة يدعوه إسحاق ، يقيم عهده معه من دون إسماعيل ، فسقط ابراهيم على وجهه وضحك ، وقال في قلبه : هل يولد لابن مئة سنة ؟ وهل تلد سارة وهي بنت تسعين ؟ (تك : ١٧)

في الإصحاح الثامن عشر الذي يلي مباشرة ، يطالعنا النص برواية مختلفة تماماً عن البشارة بإسحاق . فبينما ابراهيم جالس في باب خيمته عند الظهيرة ، وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه ، فركض لاستقبالهم وسجد إلى الأرض . ولم يكن هؤلاء الثلاثة سوى الرب نفسه ومعه شخصيتان قدسيتان أخريتان . دعا ابراهيم ضيوفه للإتكاء في ظل الشجرة القريبة ريثما تجهز لهم سارة طعام الغداء . وبعد ان انتهى الثلاثة من طعامهم وابراهيم واقف لديهم

تحت الشجرة ، قال الرب لإبراهيم : أين سارة امرأتك ؟ فأجابه : هي في الخيمة فقال : إني ارجع إليك بعد الزمن اللازم لحملها ووضعها ولداً من صلبك . فضحكت سارة من وراء الخباء في سرها قائلة : هل يكون لي ولد وقد انقطعت عني عادة النساء ، وزوجي قد شاخ ؟ فقال الرب لإبراهيم : لماذا ضحكت سارة ؟ هل يستحيل على الرب شيء؟ في الموعد الذي حددته لك أرجع ويكون لسارة ابن . فأنكرت سارة قائلة . لم أضحك . فقال الرب : لا بل ضحكت ثم قام الضيوف للإنصراف . وبينما ابراهيم يشيعهم ، أسرّ له الرب بخطته لتدمير مدينتي سدوم وعمورة في شرقي الأردن لكثرة خطاياهما ، فحاول إبراهيم عبثاً أن يثنيه عما انتوى (تك ١٨) .

ولما كان لوط ساكناً في مدينة سدوم أو في جوارها ، فقد استثناه الرب من القضاء ، الذي حمَّ على المدينتين ، وأمره أن يرحل مع زوجته وابنتيه قبل الموعد المضروب ، وألا يلتفت أحدهم إلى الوراء ليرى دمار المدينة ، وإلا تحول إلى عمود ملح ، ففعلوا . وبينما كان الرب يمطر على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من السماء ، التفتت زوجة لوط إلى الوراء ، فصارت عمود ملح ، أما لوط فقد لجأ مع ابنتيه إلى مغارة بعيدة في الجبل ونجا ، ثم أقام في تلك المغارة بعد دمار المنطقة . وبعد مدة قالت إحدى البنتين لأختها : أبونا قد شاخ وليس في الأرض من حولنا رجل ليدخل علينا كعادة بني الناس . هلم نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه فنحيي منه نسلاً . فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة ، ثم دخلت الكبرى فاضطجعت مع أبيها وهو لا يدري ما يفعل . وفي الليلة التالية فعلت الصغرى الشيء نفسه ، وحملت ابنتا لوط من أبيهما . ثم ولدت الكبرى ابناً دعته موآب وهو أبو الشعب الموآبي ، وولدت الصغرى إبناً دعته عمون ، وهو أبو اشعب العموني (تك : ١٩) . وكما نعرف من الأحداث اللاحقة للروايات التوراتية فإن هذين الشعبين كانا من الأعداء التاريخيين لبني إسرائيل .

بعد ذلك ينتقل إبراهيم من ممرا قرب جبرون إلى جرار الواقعة قرب غزة . وهنا تتكرر بحذافيرها قصة إبراهيم في مصر . نقرأ في النص : " وقال إبراهيم عن سارة امرأته : هي أختي . فأرسل أبيمالك ملك جرار وأخذ سارة . فجاء الله إلى أبيمالك في حلم الليل وقال له : ها أنت ميت من أجل المرأة التي أخذتها ، فإنها متزوجة ببعل . فقال : يا سيد أأمة بارة تقتل ؟ ألم يقل لي إنها أختي ، وهي نفسها قالت هو أخي ؟.. فقال له الله في الحلم ..

فالأن رد امرأة الرجل إليه فإنـه نبي فيصلي لأجلك فتحيا " فبكـر أبيمالك في الصباح ورد سـارة إلى إبراهيم، وأعطاه غنماً وبقـراً وعبيداً ، وخيره أن يسكن في أي مـكان من أراضيـه (تك ٢٠) .

أخيراً حملت سارة وولدت لإبراهيم إبناً في شيخوخته دعاه إسحاق . ثم خافت سارة من مزاحمة اسماعيل لإبنها إسحاق في الميراث ، فطلبت من إبراهيم أن يطرد هاجر وابنها . ولما تردد في تلبية هذا الطلب الغريب ، تدخل الرب واقفاً إلى جانب هاجر ، وطمأن إبراهيم على مصير اسماعيل وأكد له بأنه سيرعاه ويجعل منه أمة كبيرة . فبكر ابراهيم صباحاً ، وأخذ خبزاً وقربة ماء و أعطاهما لهاجر وصرفها ، فمضت وتاهت في برية بئر السبع. ولما نفد الماء من القربة وأشرف الولد على الموت عطشاً ، فتح الرب عيني هاجر فرأت نبع ماء قريب فشربا وأقـاما هناك في برية فاران بين بئر السبع وسيناء ، حيث شب اسماعيل وترعرع ، وأتخذ له زوجة مصرية . أما ابراهيم ، فقد أقام فيما بين جرار وبئر السبع التي احتفر فيها بئراً ما زالت قائمة هناك (تك ٢١)

وحدث بعد ذلك أن الرب أراد امتحان ابراهيم ، فأمره أن يصعد ابنه إسحاق محرقة على رأس الجبل . فبكر ابراهيم صباحاً ممتثلاً لأمر الرب ، وصعد إلى الجبل وجهز حطباً للمحرقة وأخذ بيده النار والسكين . ولكن الرب ناداه من السماء : " ابراهيم ، ابراهيم . فقال هأنذا فقال : لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً ، لأني الآن علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عني . فرفع ابراهيم عينيه ونظر وإذا كبش مُمْسَكاً في الغابة بقرنيه ، فذهب ابراهيم وأخذ الكبش و أصعده محرقة عوضاً عن ابنه " (تك ٢٢)

عاد ابراهيم من جرار فأقام في حبرون حيث كان سابقاً . وهناك ماتت زوجته سارة وعمرها مئة وسبع وعشرون سنة . ولما كان ابراهيم حتى ذلك الوقت غريباً في الأرض ، ولا يملك مكاناً يدفن فيه ميته ، فقد اشترى من بني حث المقيمين في المنطقة حقلاً دفن زوجته في مغارة عند طرفه . وقد صارت هذه المغارة فيما بعد مدفناً لأسرة ابراهيم . وبعد ذلك شعر ابراهيم بالحاجة لرؤية أحفاد له من ولده إسحاق قبل مماته ، فاستدعى أليعازر الدمشقي قيم بيته واستحلفه ألا يزوج إسحاق ببنت من الكنعانيين ، بل أن يذهب إلى آرام النهرين إلى مدينة ناحور أخي ابراهيم ، ليخطب له من هناك فتاة من عشيرته ومن أهله. ففعل أليعازر ، وانطلق بعشرة جمال وهدايا مهراً للزوجة المقبلة . ولما وصل أطراف البلدة

أناخ جماله عند بئر ماء ، فرأى فتاة تستقي فأسقته وقالت إسق جمالك أيضاً ، ولم تكن هذه الفتاة سوى رفقة بنت بتوئيل ابن ناحور (أخي ابراهيم) التي دعته إلى ديار أبيها للمبيت ، حيث استقبل بحفــاوة بالغة من قبل أبيها بتوئيـل وأخيها لابان ، وعندما كشف أليعــازر عن مقصده قوبـل طلبـه بالقبــول ، وارتضت رفقة أن تمضي معه في اليوم التالي لتغدو زوجة لإسحاق (تك :٢٤) .

بعد أن رأينا ابراهيم في الأصحاح السابق شيخاً متقدماً في الأيام ينتظر منيته ، يطالعنا في الإصحاح ٢٥ رجلاً في تمام الصحة والعافية قادراً على الزواج والانجاب وعمره مئة وأربعون سنة ، وهو الذي عجب سابقاً من بشارة ربه له بإسحاق قائلاً : " هل يولد لابن مئة سنة؟ وهل تلد سارة وهي بنت تسعين " . يأخذ ابراهيم زوجة جديدة اسمها قطورة ،فتلد له زمران ويقشان ومدان ومديان ويشبان وشوحا. ويأتي لولده يقشان شبا وددان . ونلاحظ من سلسلة النسب المتحررة من قطورة ، أن الأسماء الواردة فيها هي أسماء لقبائل كانت تتحرك في المساحات الواقعة بين البادية السورية وشمال الجزيرة العربية خلال الألف الأول قبل الميلاد ، مثل مديان حول خليج العقبة ، وشبا أوسبأ وددان من قبائل العرب الواردين في السجلات الأشورية . غير أن هذه الفروع في شجرة عائلة ابراهيم ، شأنها شأن فرعه من اسماعيل ، هي فروع ثانوية ، أما الخط الرئيسي في الشجرة والمعترف به من قبل الرب ، فيستمـر عبر اسحاق بكر ابراهيم من سارة ، والذي يقيم الرب معه العهد ومع ذريته من بعده . ثم مات ابراهيم وعمره مئة وخمس وسبعون سنة ، بعد أن أعطى لإسحاق في حياته كل أمواله وممتلكاته ، ودفن في مغارة المكفيلة قرب سارة

بعـد عشرين سنــة من زواجـها بإسحــاق ، تحمـــل رفقـــة تـوأمين يتزاحمان في بطنها : " فمضت لتسأل الرب فقال لها الرب في بطنك أمتان ، ومن أحشائك يفترق شعبان ، شعب يقوى على شعب ، وكبير يستعبد لصغير" . وفي هذا القول إشارة إلى عيسو الابن الأكبر لإسحاق الذي صار أباً للشعب الآدومي الذي سكن جنوب البحر الميت نحو خليج العقبة ، ويعقوب الإبن الأصغر الذي أنجب الأسباط الإثني عشرة ، ونبوءة بخضوع أدوم لاسرائيل . فلما كملت رفقة أيامها لتلد ، خرج الأول من رحمها أحمر اللون كله فروة شعر فدعوه عيسو ، وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعي اسمه يعقوب . وكان إسحاق يحب عيسو، أما رفقة فكانت تفضل يعقوب . وحدث بعد أن كبر الأخوان ،

أن عيسو الذي كان صياداً عاد من الصحراء وهو متعب وجائع ، فوجد يعقوب الذي لم يكن يغادر الخيام يطبخ عدساً ، فطلب اليه أن يطعمه من طبيخه فأبى يعقوب ، وطلب لقاء طبيخه ثمناً غالياً هو كل الحقوق المتعلقة بالابن الأكبر في العائلة ، فوافق عيسو على الصفقة مستخفاً بالبكورية (تك ٢٥)

يجدد الرب مع اسحاق العهد ، الذي قطعه مع ابراهيم ، ويأمره أن يمضي إلى جرار في الجنوب بسبب المجاعة في الأرض . وفي جرار يقول اسحاق عن رفقة زوجته انها أخته كيلا يقتل بسببها ، كما فعل أبوه ابراهيم سابقاً . ولكن ملك جرار ، الذي يدعى هنا أيمالك أيضاً اكتشف كذبته قائلاً : " ما هذا الذي صنعت بنا ؟ لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنباً . فأوصى أيمالك جميع الشعب قائلاً : الذي يمس هذا الرجل أو امرأته يموت.." بعد ذلك يلتفت إسحاق إلى الزراعة فتكثر غلاله ، ويتعاظم رزقه إلى درجة تثير غيرة الملك، فيطلب منه مغادرة المدينة ، فأقام في وادي جرار (تك ٢٦)

وحدث لما شاخ اسحاق وكلت عيناه عن النظر ، أنه دعا عيسو ابنه الأكبر ليباركه . ولكن رفقه دفعت إليه بيعقوب بدلاً من عيسو ووضعت على ساعده فروة جدي لتصبح مشعرة كساعد عيسو ، فباركه اسحاق وهو غافل عن خدعة زوجته . وعندما حضر عيسو للحصول على البركة من أبيه يكتشف الإثنان خدعة رفقة ويعقوب ، ويصرخ عيسو :" باركني أنا أيضاً يا أبي فقال : قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك . فقال : ألا إن اسمه دعى يعقوب . قد تعقبني الآن مرتين ، أخذ بكوريتي ، وهو ذا الآن قد أخذ بركتي . ثم قال : أما بقيت لي بركة ؟ فأجاب اسحاق وقال لعيسو : إني قد جعلته سيداً لك ، ودفعت إليه جميع إخوته عبيداً وعضدته بحنطة وخمر ، فماذا أصنع إليك يا ابني؟ ". فحقد عيسو على يعقوب وطلب قتله فهرب يعقوب من وجه أخيه. ولكن اسحاق نصحه بالسفر إلى خاله لابان في حران بآرام النهرين ، والإقامة عنده حتى يرتد غضب أخيه عنه ، وأن يتزوج هناك إحدى بنات خاله (تك ٢٧)

يشد يعقوب الرحال إلى حران ، وبينما هو في موقع بيت إيل ، يظهر له الرب في الحلم ويجدد معه عهد إبراهيم وإسحاق قائلاً : "أنا الرب ، إله ابراهيم أبيك وإله اسحق . الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك.." . وعندما يصل أطراف حران يتوقف عند بئر ليستقي ، وهناك يلتقي بابنة خاله راحيل ، التي وردت البئر لتسقي غنمها ، فيتعارفان

وتقوده إلى البيت ، حيث يستقبله لابان أحسن استقبال ، وأقام عنده شهراً يرعى له الغنم . ثم قال لابان ليعقوب : " ألأنك أخي تخدمني مجاناً ؟ أخبرني ما أجرتك ؟ وكان للابان ابنتان اسم الكبرى ليئة واسم الصغرى راحيل . وكانت عينا لئة ضعيفتين ، أما راحيل فكانت حسنة الصورة وحسنة المنظر . وأحب يعقوب راحيل فقال : أخدمك سبع سنين براحيل ابنتك الصغرى .." فوافق لابان على الصفقة ولبث يعقوب في خدمة خاله سبع سنين آملاً في الزواج براحيل . وفي تمام المدة طلب امرأته ، ولكن لابان جاء إليه في ليلة الزفاف بابنته الكبرى ليئة فدخل عليها يعقوب دون أن يعرف . وعندما اكتشف الخديعة في الصباح ولام خاله على ما فعل ، وعده بالصغرى إن عمل سبع سنوات أخرى لقاء ، مهرها فقبل يعقوب وتزوج راحيل بعد أربعة عشرة سنة من إقامته في ديار خاله . (تك : ٢٨ - ٢٩)

وبعد أن كبر أولاد يعقوب وكثرت أمواله ومواشيه قرر العودة إلى ديار أبيه . فحمل زوجتيه وأولاده الأحد عشر وكل مقتنياته وسار يطلب أرض كنعان ومعه هدية مغرية لأخيه عيسو يسترضيه بها (تك :٣٠ - ٣١) . وفي مكان اسمه مخاضة يبوق ظهر له إنسان وصارعه حتى طلوع الفجر حين تمكن يعقوب من خصمه . ولم يكن هذا الخصم سوى يهوه نفسه . فقال له : " أطلقني لأنه قد طلع الفجر ، فقال : لا أطلقك إن لم تباركني . فقال : ما اسمك؟ فقال : يعقوب . فقال : لا يدعى اسمك في مابعد يعقوب بل إسرائيل ، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت . وسأل يعقوب وقال : أخبرني باسمك . فقال : لماذا تسأل عن اسمي؟ وباركه هناك. فدعى يعقوب اسم المكان فنيئيل ، قائلاً : لأني نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسي (تك ٣٢ : ٢٢ - ٣٠) . في الطريق إلى حبرون ، التي يقيم فيها اسحاق ، يخرج عيسو للقاء يعقوب ويتصالح الأخوان ، ثم يتابع يعقوب طريقه : " وجاء يعقوب إلى إسحاق أبيه إلى ممرا ، قرية أربع ، التي هي حبرون ، حيث تغرب إبراهيم وإسحاق وكانت أيام إسحاق مئة وثمانين سنة . فأسلم إسحاق روحه ومات ، ودفنه عيسو ويعقوب ابناه .." وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه (تك : ٣٣ - ٣٦) .

و قد أحب يعقوب ابنه يوسف أكثرمن سائر بنيه لأنه كان ابن شيخوخته " فصنع له قميصاً ملوناً . فلما رأى إخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام .." ومما زاد في بغضهم له أنه كان يقص أحلاماً يراها ، تتنبأ له بعلو المكانة بين إخوته وتفوقه عليهم . ومنها الحلم ، الذي قال فيه : " إني قد حلمت حلماً أيضاً ، وإذا

الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لي . وقصه على أبيه وعلى إخوته . فإنتهره أبوه وقال له : ماهذا الحلم الذي حلمت ؟ هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض؟ فحسده إخوته ، أما أبوه فكتم الأمر ..″ وفي إحدى المرات ، وبينما كان إخوة يوسف يرعون الغنم في مكان بعيد ، أرسله أبوه وراءهم ليستطلع أحوالهم وأحوال القطيع . فلما رأوه قادماً من بعيد ، قال بعضهم لبعض : هوذا صاحب الأحلام قادم ، هلمو نقتله فنرى ماذا تكون أحلامه . ولكنهم بعد مداولة في الأمر قرروا القاءه في بئر قريبة جافة وتركه هناك لمصيره . وبعد تنفيذ مؤامرتهم عادوا إلى أبيهم ومعهم قميص يوسف الملون وعليه دم تيس ذبحوه عند البئر وقالوا أن وحشاًرديئاً قد افترسه فبكى يعقوب على ابنه أياماً كثيرة وبقي في حداد دائم . وأما يوسف فقد انتشله من البئر تجار في قافلة متجهة إلى مصر فاسترقوه وباعوه لدى وصولهم إلى فوطيفار رئيس الشرط لدى فرعون (تك : ٣٧) .

نال يوسف حظوة في عيني مولاه فجعله قيماً على بيته وشؤونه الخاصة . ولكن زوجة فوطيفار مالت إلى يوسف ، وعرضت عليه الوصال فأبى وفاءً لسيده ، فاتهمته بأنه راودها عن نفسها ، فألقاه فوطيفار في السجن . قضى يوسف في السجن فترة طويلة عرف خلالها بالخلق الرفيع والسلوك الحسن ،كما اشتهر في السجن بتفسيره للأحلام . وحدث بعد سنين أن الفرعون رأى حلماً أقصى مضجعه ،فدعا جميع الحكماء لتفسير حلمه ولكنهم عجزوا . وكان رئيس سقاة الفرعون سجيناً مع يوسف لفترة قصيرة ، فتذكر حسن تفسيره للأحلام وذكره عند فرعون فجاءوا به . فسّر يوسف للفرعون الحلم وقال له بأن البلاد ستنعم بسبع سنين من الخصب والرخاء تتلوها سبع سنين من القحط والجفاف . وأشار على الملك بأن يجعل على الأرض قيماً يخزن خمس الغلة في كل سنة من سنوات الوفرة ، يكون زحراً لسنوات الجوع . حَسُنَ كلام يوسف عند الفرعون وأحب صاحبه ، فأوكله بالمهمة وأعطاه سلطات واسعة لتنفيذها على الوجه الأكمل . جاءت سنوات القحط الذي طال أيضاً بلاد كنعان ، فأرسل يعقوب أولاده العشرة إلى مصر لشراء القمح منها ، وأبقى عنده أصغرهم بنيامين . فجاء الإخوة إلى يوسف الذي كان يشرف بنفسه على توزيع القمح وسجدوا بين يديه ، فعرفهم يوسف ولم يعرفوه . وقال لهم يوسف : من أين جئتم ؟ فقالوا : من أرض كنعان لنشتري طعاماً . فقال: بل أنتم جواسيس جئتم لتروا عورة الأرض . فقالوا : عبيدك نحن . إننا إثنا عشرة أخاً بنو رجل واحد ، تركنا الصغير عد أبينا والواحد مفقود . فقال:

وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلا بمجيء أخيكم الصغير إلي ، فأمتحن صدقكم . وسأبقي واحداً منكم رهينة لدي . فبقي شمعون مقيداً بالأغلال وعاد التسعة إلى أبيهم . وتنتهي القصة بأن يكشف يوسف عن هويته أمام اخوته الأحد عشر لدى عودتهم ويسامحهم ويطلب منهم أن يأتوا بأبيهم وأولادهم ونساءهم للإقامة في مصر ، فقدموا إليه وعددهم سبعون ، فأكرمهم وأسكنهم في أرض جاسان ، التي نستنتج من مواضع أخرى في النص التوراتي أنها الدلتا الشرقية ، فتملكوا فيها وتكاثروا . ومات يعقوب في أرض مصر وعمره مئة وسبع وأربعون سنة (تك : ٣٨ - ٤٧) .

هذه هي الخطوط العامة لعصر الآباء ، الذي يدعوه معظم الباحثين بما قبل تاريخ الشعب الإسرائيلي ، وذلك لبعده زمنياً وانقطاعه عن البدايات التاريخية لبني اسرائيل ، والتي يراها البعض في دخول الخارجين من مصر أرض كنعان ، والبعض الآخر في تشكيل المملكة الموحدة . وسوف ننتقل الآن إلى النقد النصي والتاريخي والأركيولوجي لروايات سفر التكوين ،لنعرف الموقع الحقيقي لعصر الآباء .

النقد النصي لسفر التكوين

يظهر في سفر التكوين ، وأكثر من أي مكان في التوراة ، الطابع المميز لعمل المحررين التوراتيين والذي وصفناه بأسلوب الجمع التراثي . فهؤلاء كانوا جمعة تراث لا مؤرخين ، وإن أي دارس مبتدىء لعلم التاريخ يكتشف من القراءة الأولى لسفر التكوين أن مايرويه لنا من قصص لا يمكن تصنيفه في زمرة الأخبار التاريخية بأي معيار من المعايير ، لا من حيث الشكل ولا من حيث المضمون . فلقد عمل المحررون هنا على جمع قصص متعددة النشأة والأصول ، وقاموا بربطها إلى بعضها ربطاً غير محكم أبقى على استقلالية واضحة لكل منها ، وعلى تناقض بيّن في أحداثها . ويبدو أن المحرر نفسه كان مدركاً للتناقض فيما يورده من أحداث ، وأنه قد أبقى على هذه التناقضات مدفوعاً برغبته في تسجيل كل التنويعات ، التي وصلت إليه للقصة الواحدة ، دون محاولة جدية من قبله لإحلال الإنسجام فيما بينها ، منساقاً وراء العقدة القصصية غافلاً عن عنصر التحقيق والتدقيق ، الذي يميز جنس الكتابة التاريخية . والأمثلة على ذلك كثيرة نورد فيما يلي بعضاً منها .

في الأصحاح ١٣ ، تدور العقدة القصصية حول أخذ فرعون مصر لساراي والدخول عليها والإغداق على ابراهيم بسببها ، وذلك دون الأخذ بالحسبان أن الإصحاح السابق رقم ١٢ قد جعل ابراهيم في الخامسة والسبعين وزوجته سارة في الخامسة والستين على الأقل ، نظراً لأنها كانت تصغره بعشر سنين (انظر تك : ١٧ ـ ١٧ وقارن مع تك ١٢ :٤) . أما قصة ابراهيم وسارة في جرار ، عندما قال ابراهيم عن سارة إنها أخته فضمها أبيمالك ملك جرار الى بيته (تك ٢٠) ، فتبدو محشورة حشراً ودون جهد تحريري بين قصة بشارة الرب للزوجين المسنين بغلام اسمه اسحاق (تك ١٨) ، وقصة ولادة سارة بإسحاق وتحقيق البشارة . فعند بشارة الرب كان ابراهيم ابن تسع وتسعين سنة وزوجته ابنة تسع وثمانين ، ولما ولد لهما اسحاق كان ابراهيم ابن مئة سنة ، وسارة ابنة تسعين سنة . ولما كان قصة سارة مع أبيمالك ملك جرار قد جاءت بين قصة البشارة وقصة الولادة ، فهذا يعني أن سارة لم تكن فقط امرأة عجوزاً في التسعين عندما هم الملك بالدخول عليها ، بل إنها كانت حاملة بإسحاق أيضاً . وهنا لا نستطيع إلا أن نعجب من إبقاء المحرر التوراتي على هذا التناقض ، ونتساءل عما إذا كان النص التوراتي قد أعد أصلاً للقراءة ، أم كمخطوط ينتظر عملية تنقيحية لم تتم حتى الآن .

وقصة ابراهيم وسارة مع ملك مدينة جرار ، عندما قال ابراهيم عن سارة أنها أخته ، تتكرر مع إسحاق ورفقه عندما وفد إسحاق على ملك جرار وقال عن رفقه أنها أخته. ونلاحظ في القصتين أن اسم ملك جرار هو أبيمالك واسم رئيس جيشه هو فيكول ، وذلك رغم الفارق الزمني بي الحدثين والذي يزيد عن الستين عاماً . الأمر ، الذي يدل على أننا أمام قصة واحدة عزيت مرة إلى ابراهيم ومرة أحرى إلى اسحاق . فالى جانب التشابه العام في بنية الحدثين وتشابه الشخصيات والأماكن ، فإن المحرر يعمد إلى التكرار الحرفي لبعض التفاصيل ، وخصوصاً فيما يتعلق بالعهد ، الذي قطعه أبيمالك وابراهيم لبعضهما ، ثم قطعه بعد ذلك أبيمالك واسحاق . وفيما يلي اقدم النصين للمقارنة :

نقرأ في الأصحاح ٢٦ : ٢٦ ـ ٣٠ مايلي : " وذهب إليه من جرار أبيمالك وجماعة من أصحابه ، وفيكول رئيس جيشه . فقال لهم إسحاق : ما بالكم أتيتم إلي وأنتم قد أبغضتموني وصرفتموني من عندكم ؟ فقالوا له : إننا قد رأينا أن الرب كان معك ، فقلنا ليكن بيننا حلف ونقطع معك عهداً أن لا تصنع بنا شراً ، كما لم نمسّك وكما لم نصنع بك

إلا خيراً وصرفناك بسلام . أنت الآن مبارك الرب . فصنع لهم ضيافة ، فأكلوا وشربوا ، ثم بكروا في الغد وحلفوا بعضهم لبعض ." .

وفي الأصحاح ٢١ : ٢٢ - ٢٤ نقرأ " وحدث في ذلك الزمان أن أبيمالك وفيكول رئيس جيشه كلما ابراهيم قائلين : الله معك في كل ما أنت صانع . فالأن إحلف لي بالله هنا أنك لا تغدر بي ولا بنسلي ولا بذريتي . كالمعروف الذي صنعته إليك تصنع إلي وإلى الأرض التي تغربت فيها . فقال ابراهيم أحلف . فأخذ ابراهيم غنماً وبقراً وأعطى أبيمالك ، فقطعا كلاهما ميثاقاً." .

وفيما يتعلق بحادثة تغيير اسم يعقوب من قبل الرب إلى اسرائيل ، لدينا روايتان مختلفتان . ففي الأصحاح ٣٢ من سفر التكوين يغير الرب اسم يعقوب بعد أن يدخل معه في صراع عند مخاضة يبوق . أما في الأصحاح ٣٥ ، فتوضع هذه الحادثة بعد إقامة يعقوب المذبح للرب في بيت إيل ، وذلك بعد الصراع في يبوق بزمن لا بأس به :" فأتى يعقوب إلى لوز التي في أرض كنعان هو وجميع القوم ، الذين معه ، وبنى هناك مذبحاً ودعا المكان إيل بيت إيل ..وظهر الله ليعقوب أيضاً حين جاء من فدان آرام وباركه ، وقال له الله : اسمك يعقوب ، لا يدعى اسمك يعقوب فيما بعد بل يكون اسمك اسرائيل.." (تك ٣٥: ٦ - ١٠) . وبخصوص إقامة يعقوب للمذبح في لوز وتسمية المكان بيت إيل ، لدينا ثلاثة روايات متباينة ، ويمكن بهذا الخصوص مراجعة المواضع التالية من سفر التكوين؛ تك ٣٥ : ١ - ١٠ ، تك ٢٨: ١٦ - ٢٢ ، تك ٣٥ : ١٣ - ١٥ .

ولدينا تنويعين على قصة إلقاء يوسف في البئر وانتشال التجار له وسوقه إلى مصر ، موضوعين جنباً إلى جنب ، و كأن المحرر تركهما على هذه الحالة ليقرر فيما بعد أي التنويعين يختار . ففي المرة الأولى يلقي الإخوة بيوسف إلى البئر ثم يجلسون لتناول الطعام ، وإذا قافلة تجار اسماعيليين مقبلة ، فيقترح أحد الإخوة وهو يهوذا أن ينتشلوه ويبيعوه للاسماعيليين فيوافق الجميع ويباع يوسف لهم . وبعد ذلك مباشرة يأتي المحرر بالرواية الثانية ، فالإخوة لم يبيعوا يوسف بل تركوه في البئر ومضوا ، وعندما مر رجال مديانيون تجار انتشلوا يوسف وباعوه للاسماعيليين الذين أتوا به إلى مصر . وإليكم الطريقة التي نسجت بواسطتها الروايتان : " فكان لما جاء يوسف إلى اخوته انهم خلعوا عن يوسف قميصه الملون ، الذي عليه وأخذوه وطرحوه في البئر . وأما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماءٌ . ثم جلسوا ليأكلوا

طعاماً. فرفعوا عيونهم وإذا قافلة اسماعيليين مقبلة من جلعاد ، وجمالهم حاملة ...فقال يهوذا لإخوته : ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفي دمه ؟ تعالوا نبيعه للاسماعيليين ولاتكن أيدينا عليه لأنه أخونا ولحمنا ، فسمع له إخوته . وإجتاز رجال مديانيون تجارٌ ، فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعو يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة فأتوا بيوسف إلى مصر .." (التكوين ٣٧ :٢٥ - ٢٩) .

ومن ناحية أخرى ، فإن ذكر الإسماعيليين والمديانيين في هذا الجزء من قصة يوسف لا يتناسب ومعطيات سلسلة الأنساب التي رسمها سفر التكوين لابراهيم وأولاده . فمن المفروض أن الاسماعيليين هم أبناء اسماعيل ابن إبراهيم من هاجر المصرية ، والمديانيون هم أولاد مديان أحد أولاد ابراهيم من آخر زوجاته قطورة وإذا أخذنا الزمن المنطقي الفاصل بين عصر اسماعيل ومديان ابنا إبراهيم وعصر يعقوب ويوسف لقلنا أن الاسماعيليين والمديانيين لم يكونوا قد تشكلوا كشعبين بعد ، خلال الفترة التي جرت خلالها قصة يوسف . ولا يوجد تفسير لهذا التناقض سوى أن قصة يوسف قد أدمجت في نهاية عصر الآباء دون مجهود تحريري يضعها في اتساق مع ما سبقها .

وفي التفاصيل الصغيرة لقصص الآباء لدينا الكثير من التناقضات التي لا نستطيع الإتيان على ذكرها جميعاً . ومثالها ذلك التفصيل الصغير من قصة يوسف أيضاً . فعندما يتهم يوسف اخوته بالتجسس ويطلب منهم العودة إلى كنعان وجلب أخيهم الأصغر بنيامين ، يعطي أوامره ببيع القمح إلى العائدين ، ولكنه يعيد الفضة ، التي دفعوها إلى أكياس قمحهم دون علم منهم . وبينما هم في الطريق فتح أحدهم كيسه ليعطي عليقاً لحماره فرأى فضته في كيسه فأخبر إخوته ، فإرتعدوا خوفاً لئلا يظن يوسف بأنهم قد سرقوا فضتهم بعد شراء القمح (تك ٤٢: ٢٥ - ٢٨) . ولكننا في المقطع التالي مباشرة نجد أن الإخوة لم يعلموا بوجود فضتهم في أكياسهم في الطريق ، بل لدى وصولهم ديارهم :" فجاءوا إلى يعقوب أبيهم في أرض كنعان وأخبروه بكل ما أصابهم .. وإذ كانوا يفرغون عدالهم ، إذا صرة فضة كل واحد منهم في عدله . فلما رأوا صرر فضتهم ، هم وأبوهم خافوا.." (تك ٤٢ : ٢٩ - ٣٤)

ضمن هذه السلسلة غير المترابطة من روايات الآباء ، يمكن ببعض التحميص اكتشاف المفاصل الرئيسية ، التي تم عندها جمع تقاليد مستقلة من حيث الأصل الى تقليد واحد .

فالتقاليد المتعلقة بأبرام قد التقت مع التقاليد المتعلقة بإبراهيم ، تحت ذريعة أن الرب قد أمر أبرام بتغيير اسمه الى إبراهيم . والتقت كذلك التقاليد المتعلقة بيعقوب مع التقاليد المتعلقة بإسرائيل ، تحت ذريعة أن الرب قد غير اسم يعقوب إلى إسرائيل . ثم حشرت التقاليد المتعلقة بإسحاق بين هذه وتلك . ولعل أكثر هذه التقاليد غرابة من البقية ، تلك المتعلقة بيوسف . فهذه القصة عن الشاب الآسيوي الطموح الذي يصل إلى مرتبة عالية في البلاط المصري قد أدمجت في نهاية سلسلة تقاليد الآباء من أجل الربط بين عصر الآباء في كنعان ، وتلك الجماعة التي خرجت من مصر بعد أربعمئة سنة من العبودية تلت موت يوسف .

أما الرؤية الإيديولوجية لأحداث روايات الآباء ، والتي أراد المحررون من خلالها إحداث نوع من الإنسجام بين تقاليد الآباء نفسها من جهة ، وبين هذه التقالد وبقية التقاليد الرئيسية في الكتاب ، فتظهر كشأن مقحم على الشكل الأصلي للقصص ، وتبدي مرونة عالية في فرض نفسها على الحدث . وهذه الرؤية الإيديولوجية ذات شقين؛شق عرقي وشق ديني . تتبدى الإيديولوجية العرقية في محاولة رسم خط نسب رئيسي نبيل يوصل إلى الأسباط الإثني عشر لإسرائيل ، وخطوط نسب فرعية توصل إلى بقية الشعوب ، التي احتك بها الإسرائيليون خلال الفترات التاريخية المتأخرة ، والقريبة زمنياً من عصر تدوين الأسفار التوراتية . فمن جارية ابراهيم المصرية يولد اسماعيل وهو أبو القبائل الاسماعيلية التي نعرفها من النصوص الآشورية للألف الأول قبل الميلاد ؛ مثل نبايوت (الأنباط فيما بعد). وقيدار وتيما . ومن عيسو المنبوذ ، الذي خسر بركة أبيه يولد أدوم وعماليق . ومن بنتي لوط اللتين حملتا سفاحاً من أبيهما يتسلسل المؤابيون والعمونيون . وبهذه الطريقة يجعل سفر التكوين من الخصوم التاريخيين لبني إسرائيل أحفاداً للجواري والملعونين في الأرض وأولاد الزنى .

وفيما يتعلق بالإيديولوجيا الدينية ، فإنها تظهر كمحاولة غير ناجحة أو غير جادة لإسقاط المعتقد التوحيدي ، الذي لم ينضج في فلسطين إلا إبان العصر الفارسي المتأخر ، على هذه المرحلة المبكرة ، بأجوائها الوثنية التي لا تخفى نفسها . فالإله الواحد ، الذي بشّر به كهنوت يهوذا بعد السبي البابلي على لسان الأنبياء من أمثال إرميا وأشعيا ، هو الإله الواحد ، الذي بشر به موسى بين بني إسرائيل في مصر ، وهو الذي خاطب ابراهيم أول مرة في حاران وأقام معه العهد ومع أولاده بعده . غير أن الكثير من تفاصيل قصص سفر التكوين ، التي تركت على حالها دون تدخل من المحرر قد أحبطت مشروع الإسقاط هذا ،

وتُركت روايات الآباء تسبح في الأجواء الوثنية للقصص القديمة التي تم جمعها من الماضي . فالإسم "إيل" يستخدم في العديد من المواضع في الإشارة إلى إله الآباء . من ذلك مثلاً ما يرد على لسان هاجر في الإصحاح ١٦ : ١٣ وعلى لسان يعقوب في الإصحاح ١٦:٢٨ - ١٩ . والإله إيل كما هو معروف تماماً اليوم ، كان إله السماء عند الكنعانيين ورئيساً لمجمع الآلهة في أوغاريت . ورغم إعلان الرب عن نفسه لابراهيم وبنيه من بعده على أنه الإله الواحد القدير ، وابرام العهد معهم على عبادته وحده ، فإن صور وتماثيل الآلهة الوثنية لم تغادر بيوت الآباء . فهذه راحيل تسرق أصنام أبيها عندما غادرت حاران مع زوجها ، وعندما يلحق بهما الأب لابان ويدركهما في الطريق ، يدخل خباء راحيل بحثاً عن آلهته . وهنا نقرأ في التكوين ٣١ : ٣٤ : " وكانت راحيل قد أخذت الأصنام ووضعتها في حداجة الجمل وجلست عليها . فجس لابان كل الخباء ولم يجد . وقالت لأبيها : لا يغتظ سيدي . إني لا أستطيع أن أقوم أمامك لأن عليّ عادة النساء . ففتش ولم يجد الأصنام .." . وهذه الأصنام تبقى في بيت يعقوب مع غيرها من أصنام آلهة القوم ، موضع عناية وتقديس ، على ما نفهم من الإصحاح ٣٥ : ١ - ٢ حيث نقرأ : " ثم قال الله ليعقوب قم اصعد إلى بيت يعقوب وأقم هناك واصنع مذبحاً لله الذي ظهر لك حين هربت من وجه عيسو أخيك . فقال يعقوب لبيته ولكل من كان معه إعزلوا الآلهة الغريبة من بينكم وتطهروا وأبدلوا ثيابكم .." . إلا أن هذه الآلهة لم تختف من بيوت الشخصيات الروحية والقيادية الرئيسية في الرواية التوراتية . وسنرى فيما بعد أن أصنام الآلهة كانت موجودة في بيت الملك داود بعد ذلك بعدة قرون .

إن صورة الإله يهوه كما تقدمها المعتقدات التوراتية المتأخرة ، هي صورة إله مجرد ومنزه ، لا يتسع له مكان ولا تدركه الأبصار.وعلى حد قول أشعيا :".. هكذا قال الرب ، السماء كرسيّ والأرض موطىء قدمي . أين البيت الذي تبنون لي ، وأين مكان راحتي ، وكل هذه صنعتها يدي ؟ " (أش ٦٦: ١ - ٢) . ولكن شخصيات عصر الآباء كانت تستمع لصوت الرب مباشرة أو تراه في المنام ، وفي بعض الأحيان رؤية العين المجردة وتتحدث معه وتتمشى أمام الخباء ، الأمر الذي يذكرنا بأجواء أساطير وملاحم أوغاريت . فيعقوب قد دخل في صراع جدي مع يهوه عند مخاضة يبوق كما قدمنا سابقاً ، وابراهيم يفاجأ بزيارة يهوه مع اثنين من حاشيته في وضح النهار . ويبدو أن مشهد الزيارة الإلهية في

القصة الأصلية كان يتضمن زيارة ثلاثة آلهة كنعانية . ومثل هذه الزيارات الإلهية لشخصيات دنيوية بارزة ، معروفة في أدبيات الشرق القديم . وقد عثرتُ على مشابهة واضحة بين قصة زيارة يهوه لابراهيم وبشارته له بغلام ، وبين ملحمة دانيال الأوغاريتية ، مما سأعرض له بسرعة فيما يلي .

كان دانيال حاكماً عادلاً يجلس كل يوم للقضاء عند باب المدينة . ولكنه كان عقيم النسل لم يرزق بولد يرثه . صلى دانيال كثيراً في المعبد وقرّب القرابين لكي ترفع عنه لعنة العقم . وأخيراً ظهر له الإله بعل ووعده بأن يكلم بشأنه كبير الآلهة إيل . بر بعل بوعده واستجاب الإله إيل لصلوات دانيال فرزق بغلام أسماه أقهات . وفي أحد الأيام مر إله الحرف والصناعة كوثر ـ حاسيس فدعاه دانيال لتناول الطعام . ولنتابع هنا القصة كما وردت في العمود الخامس من اللوح الأول للنص الأوغاريتي : " ثم في اليوم السابع ،نهض دانيال وجلس عند البوابة قرب الأكداس عند البيدر يقضي قضاء الأرملة وحكم اليتيم . وعندما رفع بصره ، رأى على بعد ألف حقل كوثر ـ حاسيس ، قادماً حاملاً قوساً وجعاباً ونبالاً . عند ذلك نادى دانيال زوجته قائلاً : اسمعي أيتها السيدة دانتية .أعدي خروفاً من القطيع لإكرام كوثر ـ حاسيس ، وجهزي لإطعام وإسقاء الآلهة . فسمعت دانتية ، وأعدت خروفاً من القطيع لإكرام كوثر ـ حاسيس . ثم بعد ذلك وصل كوثر . حاسيس وأعطى القوس لدانيال من أجل بكره أقهات . عندها أولمت السيدة دانتية وقدمت شراباً وكرمت السيد . وعندما غادر كوثر ـ حاسيس إلى موطنه ، أخذ دانيال القوس وأعطاها لأقهات هدية قائلاً : إن بواكير صيدك يا بني سوف تكون للمعبد"[1]

أما في القصة التوراتية عن الزيارة الإلهية فنقرأ : " وظهر له الرب عند بلوطات ممرا ، وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار . فرفع عينيه ونظر ، وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه. فلما نظر ، ركض لإستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض وقال : يا سيد، إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك . ليؤخذ قليل ماءٍ واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة ، فآخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون ، لأنكم قد مررتم على عبدكم . فقالوا هكذا نفعل كما تكلمت . فأسرع ابراهيم إلى الخيمة إلى سارة وقال : أسرعي بثلاث كيلات دقيقاً سميذاً . أعجني وأصنعي خبز ملّة . ثم ركض ابراهيم إلى البقر

١ ـ أنيس فريحة : أوغاريت دار النهار ـ بيروت ١٩٨٠

وأخذ عجلاً رخصاً وجيداً وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله . ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم . وإذ كان هو واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا . وقالوا له : أين سارة امرأتك ؟ فقال : هاهي في الخيمة . فقال : إني أرجع اليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة امرأتك ابن .." (تك ١٨ : ١ - ١٠) .

تتفق القصتان في جميع العناصر المكونة لهما وهي ؛ الرجل الصالح العقيم ، الصلاة والتضرع من أجل الإنجاب ، الوعد الإلهي بالإنجاب ، الزيارة الإلهية ، الوليمة . ولكن مع إختلاف بسيط في ترتيب الأحداث . ففي القصة الأوغاريتية تأتي الزيارة الإلهية بعد الوعد والإنجاب ، أما في القصة التوراتية فإن الزيارة تسبق الوعد والإنجاب . ومن الناحية البنائية، فإن القصتين متطابقتان إلى حد مثير للدهشة على ما أبينه في التحليل البنائي التالي ، المتعلق بمشهد الزيارة .

النص الأوغاريتي	النص التوراتي
* دانيال يجلس عند بوابة المدينة يقضي بين الناس	* ابراهيم يجلس عند باب خيمته قرب مدينة حبرون.
* دانيال يرفع بصره ويرى كوثر . حاسيس عن بعد .	* ابراهيم يرفع بصره ويرى يهوه ومعه إثنان من حاشيته
* دانيال ينادي زوجته ويعطيها التعليمات بخصوص إكرام الضيف . ثم يستقبل كوثر . حاسيس ويستلم منه القوس هدية لأقهات	* ابراهيم يركض من باب خيمته لاستقبال القادمين ويعرض ضيافته التي تلقى القبول . ثم يعطي تعليماته لزوجته بخصوص إكرام الضيوف
* دنتية تجهز خروفاً لإطعام ضيفها	* سارة تعجن خبزاً ، والخادم يجهز عجلاً لإطعام الضيوف
* بعد أن يفرغ الضيف الإلهي ،يعطي دانيال القوس لأقهات ويأخذ عليه عهد كوثر . حاسيس بأن يقدم بواكير صيده للمعبد.	* بعد أن يفرغ الضيوف الإلهيون ، يعطي يهوه وعداً بولادة وريث لابراهيم

وبإختصار فإن المنظور الإيديولوجي ، الذي فرض على روايات الآباء من أجل ايجاد صلة

عضوية بينها وبين بقية فصول القصة التوراتية قد فشل في مهمته ، وبقيت قصص الآباء تسبح في مناخها الثقافي القديم ، السابق على فترة التحرير والتدوين.

النقد التاريخي لسفر التكوين

لقد ألمحنا سابقاً إلى أن الرأي الشائع بين المؤرخين ، يجعل من عصر البرونز الوسيط (١٩٥٠ ـ ١٥٥٠ ق.م) مسرحاً لروايات عصر الآباء . إلا أن أحداث سفر التكوين نفسها لا تزودنا بأي مفتاح لحل مسألة تاريخانية عصر الآباء . فهذه الأحداث ، التي تدور حول مسائل عائلية وقبلية بحتة ، معلقة في فضاء تاريخي كامل ، ولا نجد فيها صدى للأحداث التاريخية ، التي حفل بها عصر البرونز الوسيط ، والتي صرنا اليوم على دراية تامة بمجرياتها الرئيسية وخطوطها العامة ، التي بيناها في مقدمتنا التاريخيـــة في الفصل الأول من هذا الكتاب . وحتى الآن لم يستطع الباحثون بشكل مباشر العثور على مفاصل يمكن عندها مقاطعة أية قصة من قصص الآباء ، أو أي عنصر ثانوي من عناصرها ، مع أي حدث أو معلومة تاريخية من عصر البرونز الوسيط أو حتى من عصر البرونز الأخير . ولا تقدم لنا أسماء الأمكنة أو أسماء الأشخاص الواردة في سفر التكوين معونة تذكر في هذا المجال. فالنص التوراتي لا يذكر اسم الفرعون ، الذي ضم زوجة ابراهيم إلى حريمه ، ولا اسم الفرعون الذي الذي ارتقى يوسف في عهده منصب الوزارة . ومن ناحية أخرى ، فإن الأسماء الواردة في سفر التكوين مثل أبيمالك ملك جرار وكدر لعومر ملك عيلام وأميرافل ملك شنعار ، ناهيك عن أسماء الآباء أنفسهم ، غير موثقة خارج النص التوراتي . ومع أن الحل الساذج الذي يربط أميرافل التوراتي بحمورابي البابلي قد صُرف النظر عنه اليوم تماماً ، إلا أن بعض الباحثين مازال جاداً في التفتيش عن سند تاريخي لقصة حرب ابراهيم مع الملوك الأربعة . فوليم فوكسويل أولبرايت ، المدافع العنيد عن تاريخية روايات الآباء ، يرفض الربط بين أميرافل سفر التكوين وحمورابي ملك بابل ، ولكنه من جهة أخرى يبحث عن تخريجة لا تخلو من تعسف . فالإسم اميرافل (أ ـ مي ـ را ـ فل) يتشابه في أحرفه الصوتيـة والساكنة مع الاسم إمودابل (إ ـ مو ـ دا ـ بل) ، وهو اسم دويلة مهمة قامت في وادي الرافدين الأدنى (شنعار) قبل صعود حمورابي ، وكان أهلها على ما تدل عليه النصوص

القديمة تجاراً يسيرون القوافل بين وادي الرافدين والمناطق السورية في الغرب . ويستنتج أولبرايت أن خطيئة في النسخ قد حرفت تعبير " ملك إمودابل " إلى " الملك اميرافل " . ويرجح أن هذا الملك كان يقود حملة موجهة ضد مصر ، عبر خلالها فلسطين وشرقي الأردن لتسوية بعض المسائل المتعلقة بطرق التجارة [٢]. وهذا الحل ، على هشاشة مقارناته اللغوية ، يتجاهل حقيقة تاريخية هامة ، وهي أن ممالك بلاد الرافدين منذ أيام صارغون الأكادي لم تدخل في نزاع مع مصر طيلة الألف الثالث والألف الثاني قبل الميلاد .

وفيما يتعلق بأسماء الأماكن والمدن الواردة في سفر التكوين ، فإنها لا تساعد بدورها على رسم إطار تاريخي واضح لروايات الآباء . فبعض المدن غير موثق على الإطلاق خارج النص التوراتي ، مثل مدينتي سدوم وعمورة . أما المدن الموثقة والمعروفة لنا تاريخياً ، فمعظمها يشير إلى تاريخ لاحق لأحداث سفر التكوين لا يتجاوز بكثير الألف الأول قبل الميلاد . فمدينة أور مسقط رأس ابراهيم موثقة لدينا تاريخياً وأركيولوجياً منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد ، وقد استمرت قائمة حتى العصر الآشوري والبابلي الجديد (الكلداني) في الألف الأول قبل الميلاد ، إلا أن وصف النص لها بأور الكلدان يشير إلى أواسط الألف الأول قبل الميلاد عندما أسس الكلدانيون (وهم فرع آرامي من سورية) الإمبراطورية البابلية الجديدة . وفيما يتعلق بمدينة حران (أو حاران) فإنها لم تزدهر قبل العصر الآرامي خلال أواخر الألف الثاني ومطلع الألف الأول قبل الميلاد . أما بئر السبع ، المقر الرئيسي لابراهيم ويعقوب أيضاً ، فإن المنقبين فيها لم يعثروا على دلائل سكنية تتجاوز الألف الأول قبل الميلاد .

أمام انعدام البينات التاريخية والآثارية المباشرة على وجود عصر الآباء ، لجأ الباحثون المحافظون إلى اتباع منهجية خاصة تعتمد الطرق غير المباشرة في التحقق من تاريخية عصر الآباء . ويمثل هذا الاتجاه مدرسة أولبرايت ، التي تعتمد بشكل رئيسي على الأركيولوجية وما أفاضت به من نصوص جديدة عززت معرفتنا بأحوال ثقافة عصر البرونز الوسيط . تؤمن مدرسة أولبرايت من حيث المبدأ بالقيمة التاريخية لروايات الآباء ، وتعتقد بأنها قد صيغت بشكلها الذي وصل إلينا في زمن لا يتجاوز زمن المملكة الموحدة ، اي النصف الثاني من القرن العاشر قبل الميلاد . وأن واضعيها قد اعتمدوا تقاليداً وصلت إليهم من العصور الأقدم .

2 - W . F . Albright , Yahweh and The Gods of Canaan , PP68 - 69

فعصر الآباء والحالة هذه عصر تاريخي ، ويمكن التأكد من تاريخيته بعدد من الوسائل غير المباشرة .

يجد أولبرايت في تفاصيل قصص الآباء بعض العادات الإجتماعية، والمسائل التشريعية ، وبعض أسماء الأعلام ، ونمطاً من الحياة الإجتماعية ، يمكن إرجاعها إلى النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد ، نظراً لوجود ما يقابلها في ثقافة الشرق القديم خلال عصر البرونز الوسيط . من هنا ، فإنه يعتقد أن دراسة هذه الجوانب الثقافية في عصر الآباء ، ومقارنتها بمتوازياتها عند الثقافات المجاورة ، سوف تمكن الباحث من رسم الإطار التاريخي العام لتقاليد سفر التكوين . ويعول أولبرايت بشكل خاص على نصوص مدينة نوزي الحورية في شمال وادي الرافدين ، وهي نصوص غزيرة تعطي صورة عن طبيعة الحياة الإجتماعية في المنطقة خلال البرونز الوسيط . ورغم أن هذه النصوص تعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد إلا أنها تعكس أحوالاً إجتماعية أقدم من ذلك . يجد أولبرايت في نصوص نوزي بعض القواعد التشريعية والعادات الإجتماعية المشابهة تمـاماً لما نجده في روايات الآباء . من ذلك مثلاً القاعدة التي تنص على تبني الرجل المقطوع النسل لولد يديـر أمـلاكه في حياته ويرثه بعد مماته ، وهذا مافعله ابراهيم بتبنيه لأليعازر الدمشقي . وكذلك الأمر فيما يتعلق بعادة تقديم الزوجة العاقر جارية لزوجها تنجب له أولاداً ، وهذا مافعلته سارة لابراهيم ، ومافعلته أيضاً راحيل ليعقوب . [٣]

وفيما يتعلق بأسماء الأعلام الواردة في سفر التكوين ، وخصوصاً أسماء الآباء ، فإن أولبرايت يرى أن لبعضها صلة بالأسماء الآمورية الواردة في الوثائق الكتابية التي تعود إلى مطلع الألف الثاني قبل الميلاد ، مثل اسم ابراهيم واسم يعقوب اللذين تكررا في أكثر من وثيقة . أما الأسماء التي لم ترد في وثائق ذلك العصر مثل اسحاق ويوسف فيرى أنها منحوتة من نفس الذخيرة اللغوية الآمورية . وهذا ما يشير بقوة إلى بداية الألف الثاني قبل الميلاد كمسرح لأحداث سفر التكوين . ويدعم ذلك في اعتقاده ، أن مثل هذه الأسماء لم تتكرر في الأسفار التوراتية اللاحقة . وقد انتقل أولبرايت من هذا التحليل اللغوي إلى ربط تحركات

---

٣ ـ فيما يتعلق بوجهة نظر أولبرايت حول هذه النقطة وما يليها في عرضنا هنا انظر مؤلفيه :

– The Bibliccal Period From Abraham To Ezra , Newyork Harber and Row ,1963 .
– Yahwe and The Gods Of Canaan , op . Cit

الآباء بالتحركات العامة للآموريين مما أعقب انهيار ثقافة البرونز المبكر وبداية ثقافة البرونز الوسيط . وهو يحدد عصر ابراهيم وإسحاق في الفترة من ٢١٠٠ إلى ١٩٠٠ ق.م ، وعصر يعقوب في الفترة ١٩٠٠ إلى ١٨٠٠ ق.م .غير أن تلامذة أولبرايت لم يوافقوا على هذا التحديد الدقيق واكتفوا بالقول بأن عصر الآباء لا يمكن فهمه إلا من حلال وضعه في الإطار العام لمطلع الألف الثاني قبل الميلاد .

على أن أولبرايت نفسه عاد فربط الآباء بجماعات الخابيرو (وخصوصاً في كتابه المتأخر يهوه وآلهة كنعان ، أنظر الحاشية رقم ٣) التي كانت تعيش على هامش المدن وتضم أخلاطاً شتى من الشرائح الإجتماعية الهامشية . فالخابيرو المعروفون في النصوص الرافدية منذ أواخر الألف الثالث قبل الميلاد ، والذين تدعوهم النصوص السورية الأحدث بالعابيرو ، هم الذين نجم عنهم العبرانيون التوراتيون ، الذين ابتدأت تحركاتهم مع ابراهيم العبراني القادم من أور الكلدان . وهو يقرن هنا بين وصف عابيرو في النصوص السورية ووصف عبريم في النصوص التوراتية التي تعني عبري أو عبراني . ويركز أولبرايت بشكل خاص على جماعتين من الخابيرو معروفتين من وثائق مدينة ماري ، هما " بنو يامينا" أي بنو الجنوب أو أهل الجنوب ، و" بنو شمأل " أي بنو الشمال ، ويرى في " بنو يامينا " أسلاف قبيلة بنيامين التوراتية ، التي يعني اسمها بنو الجنوب أيضاً باللغة التوراتية . ثم يذهب أولبرايت أبعد من ذلك حين يربط بين خابيرو البرونز الوسيط وعابيرو البرونز الأخير في فلسطين ، والذين نعرف عن تحركاتهم العسكرية وتعدياتهم على دويلات المدن الفلسطينية من رسائل تل العمارنة المتبادلة بين البلاط المصري وملوك الدويلات السورية والفلسطينية ، أواسط القرن الرابع عشر قبل الميلاد . ثم يربط أولبرايت بين عابيرو البرونز الاخير هؤلاء في فلسطين وجماعات العبرانيين الذين خرجوا من مصر بقيادة موسى ، واقتحموا كنعان بقيادة يشوع . فهؤلاء العائدون ليسوا إلا شريحة من عابيرو فلسطين ، وعملياتهم العسكرية اللاحقة هي استمرار لتلك العمليات السابقة الموثقة في رسائل تل العمارنة.

لم تثبت أفكار أولبرايت طويلاً أمام النقد ، رغم تأثيرها الواسع على جيل كامل من الباحثين . ففيما يتعلق باعتماده على التشابه بين العادات والشرائع الموجودة في نصوص نوزي ، وتلك التي نجدها في سفر التكوين ، من أجل وضع عصر الآباء في مطلع البرونز الوسيط ، ونسبة أصلهم الى بلاد الرافدين على ماورد في النص التوراتي ، فقد لاحظ النقاد

اعتماداً على نصوص جديدة لم تكن معروفة لأولبرايت وجماعته ، أن ما ورد في نصوص نوزي لم يكن وقفاً على عصر البرونز الوسيط ، ولا على بلاد الرافدين في ذلك العصر . ففيما يتعلق بواجب المرأة العاقر تقديم جارية لزوجها تنجب له أولاداً ، فقد وردت هذه الممارسة في نصوص متأخرة تعود إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد ومنها عقد زواج من مصر ، وفي نصوص من القرن السابع قبل الميلاد ومنها عقد زواج من آشور (٤). وفيما يتعلق بمقارنة أسماء الآباء بنظائرها من الأسماء الآمورية في عصر البرونز الوسيط ، فقد لاحظ النقاد أيضاً أن هذه الأسماء و أشباهها كانت شائعة الإستخدام في جميع أنحاء الشرق القديم ، وعلى فترات تتدرج من عصر البرونز الوسيط إلى القرن الثالث قبل الميلاد . فالإسم أبرام موثق في أرشيف إيبلا الذي يعود الى عام ٢٤٠٠ ق.م ، أي قبل ٥٠٠ سنة من بداية عصر البرونز الوسيط .وقد ورد بصيغة أبرامو (أب - را - مو) . إضافة إلى ورود أسماء علم أخرى ذكرت في التوراة مثل آدم (أ - دا - مو) ، واسماعيل (أش - ما - إيل) ، وإسرائيل (اش - را - إيل) ، وميكائيل (مي - كا - إيل) (٥) . ويستمر ظهور الإسم ابراهيم على شكل أبرام أو أبيرام حتى نهاية عصر البرونز الأخير حوالي عام ١٢٠٠ ق.م . أما الأسماء إسحاق ويعقوب ويوسف ، فإنها تنتمي إلى زمرة آمورية من الأسماء واسعة الإنتشار في جميع أنحاء الشرق القديم خلال عصر البرونز الوسيط ، كما أننا نجدها مستعملة في أوغاريت خلال عصر البرونز الأخير . وهناك من الأسماء القريبة إلى يعقوب ، بقي متداولاً حتى القرن الثالث قبل الميلاد ، حيث نجده في بعض النقوش التدمرية (٦).

إن جل المؤرخين والآثاريين اليوم يعترف بعدم وجود مرجعية غير توراتية ، يمكن أن تسهل إقامة وضع إطار تاريخي لأحداث سفر التكوين . من هنا ، فإن واقع البحث الأكاديمي يتدرج بين موقف معتدل يقول بوجود عناصر تاريخية في روايات الآباء ، من دون إرجاع هذه الروايات لأي فترة تايخية محددة ، إلى الموقف المتحرر الذي يرى بأن روايات الآباء ليست إلا من قبيل القصص الخيالي ولا تتمتع بسند تاريخي . فالباحث ديفو الذي يقف

---

4 - P . K . Mc Carter , The Patriarchal Age (in : H . Shanks , edt , Ancient Israel , pp . 10 - 11

٥ ـ الفونسو آركي : الشواهد الكتابية في إيبلا والتوراة (مقالة في كتاب : إيبلا - مجموعة أبحاث ، ترجمة قاسم طوير ، دمشق ١٩٨٤ ، ص ٧٣

6 - P . K . Mc Carter , op . cit , P.10 - 11

موقف الوسط بين المحافظين والمتحررين ، يظهر في كتابه الموسوعي عن تاريخ إسرائيل شكه في إمكانية إرجاع عصر الآباء ، بثقة علمية ، إلى فترة تاريخية معينة ، رغم قوله بوجود أساس تاريخي لروايات سفر التكوين .وهو يتراجع بشكل كامل عن آرائه السابقة ، التي ساهم من خلالها بدعم موقف مدرسة أولبرايت ، الذي ينطلق من إجراء المقارنات العامة مع ثقافة عصر البرونز الوسيط (٧).

أما الباحث ڤان سيتير ، الذي يبتدىء دراسته لعصر الآباء بتحري كل المصادر الخارجية (غير التوراتية) وما يمكن أن تقدمه من بينات في صالح تاريخية روايات الآباء ، و في صالح إرجاعها الى عصر البرونز الوسيط ، فإنه يتوصل إلى نتيجة مفادها أن البينات المتوفرة حتى الآن غير كافية وغير مقنعة ، وأن قصص الآباء لم تكن في أصلها تقاليد مكتوبة أو شفهية متداولة من عصور البرونز الوسيط ، بل هي قصص مكتوبة وموضوعة لأول مرة خلال فترة السبي البابلي وما بعده . وهي في خطوطها العامة وما تتضمنه من تفاصيل و عادات وأسماء أعلام وعلاقات إجتماعية ، إنما تعكس الأوضاع العامة السائدة في فترة التدوين ، أي منتصف الألف الأول قبل الميلاد (٨). ويتفق الباحث غربيني مع فان سيتير في أن روايات الآباء قد دونت خلال منتصف الألف الأول قبل الميلاد ، ولكن اعتماداً على تقاليد متفرقة وذات أصول مختلفة ، وانطلاقاً من دوافع إيديولوجية ، فهي تعكس بشكل رئيسي فهم يهوذا المسبية لنفسها وطريقة رسمها لأصولها . من هنا يؤكد غربيني على ضرورة إعادة دراسة وتقييم التاريخ المبكر لإسرائيل بعيداً عن الدوافع اللاهوتية ، التي تكمن وراء الواجهة العلمية لمناهج الباحثين المحافظين (٩).

ويتحدث الباحث ك. ماك كارتر عن الدوافع الإيديولوجية وراء صياغة روايات الآباء فيقول : " علينا أن ننتبه دوماً ، في دراستنا لروايات الآباء ، إلى أن هذه الروايات هي إيديولوجيا وليست تاريخاً. لقد صيغت إبان الألف الأول قبل الميلاد من أجل التأسيس اللاهوتي والسياسي للشعب الإسرائيلي ، ولذا لا يمكن التعامل معها كتاريخ بأي معنى من

---

7 - R . devaux , A History of Israel , Philadelphia 1978 .

8 - G . Van Seter , Abraham in History and Tradition , New Haven 1975 (Cited in : Th . L . Thompson , OP . Cit , PP . 92 - 93 .

9 - G - Garbini , History and Idiology in Ancient Israet , London 1988 (Cited in : Th. L . Thompson , Op . cit , PP 117 - 119 .

المعاني الحديثة لهذه الكلمة . لقد نشأت هذه الروايات مع بدايات تشكل الجماعة التي ندعوها إسرائيل (والباحث هنا يقصد مطلع الألف الأول قبل الميلاد) ، وساعدت على خلق هذه الجماعة عن طريق تزويدها بالإطار الإجتماعي اللازم لها . فإسرائيل لم تكن لتوجد في معزل عن القصة ، تلك القصة التي وضعت القاعدة لفهم الذات وللتنظيم الإجتماعي . لقد أعطت القصة للجماعة تعريفاً وتحديداً ". ويلاحظ هذا الباحث بشكل خاص ذلك الإصرار الواضح في سفر التكوين على الأصل الخارجي لجماعات عصر الآباء . فالقصص واحدة إثر أخرى تؤكد على أن أسلاف بني إسرائيل كانوا غرباء في كنعان ، وأنهم قد أتوا من " عبر النهر" أي نهر الفرات ، ومن هنا في رأيه جاءت تسمية عبراني وعبرانيون (= عبريم باللغة التوراتية) . ويفسر هذا التوكيد بأنه نوع من التمييز العرقي للجماعات المختلفة التي كونت تدريجياً شعب اسرائيل ، رغم أن القسم الأكبر من هذه الجماعات قد جاء من أصل محلي . ويبدو أن هذا التمييز المصطنع الذي ساعد على توحيد هذه الجماعات وإعطائها هوية واضحة ، قد جاء في سياق التناقض بين سكان الهضاب حيث تشكلت دولة إسرائيل فيما بعد ، وسكان السهول والوديان من أهل دويلات المدن الفلسطينية القديمة[١٠].

وأخيراً ، فإن ما قدمناه من نقد نصي وتاريخي وأركيولوجي لسفر التكوين ، وما استعرضناه من نتائج البحث الأكاديمي الحديث خلال ربع القرن الأخير من القرن العشرين ، لا يؤدي بنا إلا الى اسقاط عصر الآباء تماماً من مرتبة التاريخ ، وجعله في زمرة الملاحم الشعبية والقصص البطولي المعروف في تراث كل الشعوب .

---

10 - P . K . McCarter , op . cit , PP 17FF

الفصل الثالث

العبودية في مصر ، والخروج

استطراد حول يوسف:

تمثل شخصية يوسف نقطة الإتصال بين عصرالآباء وعصر العبودية في مصر و الخروج منها. فيوسف قد قضى شطراً من حياته في كنعان والشطر الأخر في مصر ، وهو الذي حاء بأبيه واخوته و أولاده إلى مصر ، التي صاروا فيها إلى العبودية بعد مماته . فقصة يوسف لا تنتمي إلى قصص الآباء ولا إلى ملحمة الخروج ، وقد تم التقاطها بعناية من قبل المحرر التوراتي لملاءمتها التامة للربط بين تقليدين مستقلين كل الإستقلال .

يتضح للوهلة الأولى مدى خصوصية قصة يوسف في نهاية سفر التكوين ، وغرابتها عن بقية قصص الآباء ، وذلك في أسلوبها الأدبي وعقدتها القصصية وجميع تفاصيلها .تبدي القصة عناصر شائعة ومألوفة في الأدب الشعبي شرقاً و غرباً ، وذلك مثل : ١ ـ محبة الأب للإبن الأصغر وتفضيله على بقية أخوته ٢ ـ مكائد الإخوة والأخوات للإبن الأصغر أو البنت الصغرى ٣ ـ النجاة من المكائد المدبرة بتدخل قوة ماورائية من نوع ما ، كالجن والسحرة والآلهة ..الخ ٤ ـ اغتراب الشاب المستضعف في أرضه ، ونجاحه في أرض غربته ، ثم عودته مظفراً إلى أهله ، الذين يفشلون في التعرف عليه للوهلة الأولى ، ورفعه لهم من حياة الفقر إلى حياة الجاه والعز ٥ ـ إغواء الشاب الوسيم المستقيم من قبل امرأة فاتنة ، هي زوجة الأب أحياناً أو زوجة ولي النعمة أحياناً أخرى ، ثم رفضه للغواية وافتراء المرأة عليه ، وما يتبع ذلك من نبذه واضطهاده ومروره بفترة بؤس وشقاء قبل أن تظهر براءته . ٦ ـ هناك عنصر ميثولوجي يضاف إلى هذه العناصر ، وهو فترة السنوات السبع الخصيبة التي تليها فترة سنوات سبع عجاف ، مما هو معروف في أدبيات مصر وبلاد الرافدين ، وبشكل خاص في أدبيات أوغاريت الكنعانية .

فالقصة والحالة هذه تنتمي إلى الرومانس أكثر من انتمائها إلى التاريخ الموثق. ويبدو للقارىء المتمعن بالتفاصيل ، أن محررالقصة لم يكن يملك معرفة وثيقة بطبيعة مصر وأحوالها العامة وثقافتها . فاسم الفرعون ، الذي استوزر يوسف غير مذكور . ولا يوجد في تفاصيل الأحداث إشارات مباشرة يمكن أن تساعد على وضع القصة ضمن فترة معروفة من تاريخ مصر ، أما الإشارات غير المباشرة فتدل على أن القصة قد كتبت في زمن متأخر لا يتجاوز الألف الأول قبل الميلاد.وهذا ما يتناقض مع الرأي الشائع ، الذي يرجع أحداث قصة يوسف إلى عصر الهكسوس (١٧٣٠ - ١٥٧٠ ق.م) ، عندما اعتلى عرش مصر ملوك آسيويون . فلقب فرعون ، الذي يستخدمه النص التوراتي لم يستخدم في مصر إلا بعد طرد الهكسوس و تأسيس الأسرة الثامنة عشر ، وكان أول من تلقب به تحوتمس الثالث (١٤٩٠ – ١٤٣٦ ق.م) . وكلمة " فرعون " تلفظ بالمصرية "برعو" وتعني " البيت العظيم " . أما بقية الألقاب ، التي يعزوها النص التوراتي للشخصيات المصرية الرسمية ، وأسماء مناصبهم ، فإنها تشبه الألقاب والمناصب الرسمية المعروفة لنا من سورية وفلسطين أكثر من شبهها بمتوازياتها في مصر . والأرض ، التي أسكن فيها يوسف إخوته وأهلهم والتي دعاها أرض رعمسيس ، قد أكتسبت اسمها في عصر الفرعون رمسيس (أو رعمسيس) الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) ، الذي بنى مدينة له في الدلتا أطلق عليها اسم بي – رمسيس . وأسماء الأعلام المصرية الورادة في القصة لا ترد في النصوص المصرية قبل القرن الحادي عشر قبل الميلاد . فإسم زوجة يوسف المصرية المدعوة " أسنات" غير موثق قبل أواسط حكم الأسرة العشرين (حوالي ١١٨٠ ق . م) ، واسم أبيها المدعو فوطي فارع غبر موثق قبل أواسط حكم الاسرة الواحدة والعشرين (حوالي ١٠٠٠ ق.م). ويبدو أن إسم فوطيفار ولي نعمة يوسف ، ليس إلا شكلاً مختصراً من الأسم فوطي فارع . أما الإسم المصري ليوسف وهو " صفنات فعنيح " فله أشباه في الأسماء المصرية الموثقة في فترة حكم الأسرة الواحدة والعشرين . وهناك ملاحظة طريفة تدل إما على جهل المحرر بالأحوال المناخية والطبيعية في مصر ، أو على محاولته نقلها إلى أجواء سورية محلية . فعندما يقص فرعون حلمه على يوسف يتحدث عن الريح الشرقية التي تلفح السنابل :" هو ذا سبع سنابل طالعة في ساق واحد ممتلئة وحسنة . ثم هوذا سبع سنابل يابسة رقيقة ملفوحة بالريح الشرقية ، نابتة وراءها .." (تك ٤١ :٢٢ – ٢٣) . ومن المعروف أن الريح

التي تلفح السنابل في مصر تهب من الجنوب لا من الشرق كما هو الحال في سورية[1].

إن هـذه المسائل التي يثيرها النقد النصي لقصة يوسف ، تعطينا المبرر الكافي للقول بثقة ، بأن القصة تعود في أصولها الى زمن ما غير محدد في الألف الأول قبل الميلاد ، وأن المحرر التوراتي قد اعتمد عدة أشكال للقصة بعضها سوري و آخر مصري ، وأضاف إلى عناصرها الخيالية عناصر أخرى واقعية مستمدة من أحداث معروفة قريبة إليه .ففي النصوص المصرية[2] هنالك ذكر لأكثر من شخصية آسيوية توصلت إلى مناصب عالية في الدولة ، بين هؤلاء رجل اسمه عرشو استلم زمام السلطة في مصر لفترة قصيرة إبان فترة الفوضى التي جاءت في نهاية حكم الأسرة التاسعة عشر ، حوالي ١٢٠٠ ق.م . إن ربط قصة يوسف بعصر الهكسوس ، مما كان شائعاً بين الباحثين ، لم يعد مقبولاً الآن ، والقصة برمتها عبارة عن أحبولة أدبية معلقة في فضاء تاريخي ، استخدمها المحرر التوراتي بكل براعة من أجل إغلاق عصر الآباء وافتتاح عصر العبودية في مصر ، الذي مهد لملحمة الخروج .

الخلفية التاريخية للخروج

تم طرد الهكسوس من مصر حوالي عام ١٥٧٠ ق.م على يد القائد العسكري أحموس، الذي حكم فيما بين ١٥٧٠ و ١٥٤٥ ق.م وأسس الأسرة الثامنة عشر ، فاتحة المملكة الحديثة في التاريخ المصري التي دامت خمسة قرون (حتى عام ١٠٧٨ ق.م) . وقد خلف أحمس عدد من الملوك يحملون اسم تحوتمس . وسع تحوتمس الأول نفوذ مصر السياسي جنوباً حتى الشلال الرابع في أعماق أفريقيا ، وبذلك أصبح وادي النيل بأكلمه تحت السيطرة المصرية . أما بإتجاه آسيا الغربية ، فقد وصل تحوتمس الأول في إحدى حملاته إلى نهر الفرات ، على ما يذكره في أحد سجلاته الحربية . وقد كانت هذه الحملة ذات طابع استعراضي بالدرجة الأولى ، وهدفت مصر من ورائها إلى الإعلان عن دخولها حلبة السياسة الدولية إلى جانب القوتين العظميين في ذلك الوقت ؛ مملكة ميتاني ومملكة حاتي، واشعارهما بأن لها مصالح حيوية في آسيا الغربية مثل ما لهما .

---

1 - P . K . McCarter , OP . Cit , PP 26 - 27 .
2 - Ibid , P . 27 .

توقف اهتمام مصر بالسياسة الدولية إبان حكم الملكة حتشبسوت (١٤٦٩ ـ ١٤٩٠ ق.م) بسبب انشغال هذه الملكة بالمسائل الداخلية . وعندما خلفها زوجها وشريكها في الحكم تحوتمس الثالث ، بدأ عقب وفاتها مباشرة بشن حملات عسكرية متوالية ، باتجاه الجنوب نحو أفريقيا وبإتجاه الشمال نحو آسيا الغربية ، بلغت اثنتي عشرة حملة خلال فترة حكمه الطويلة التي دامت من ١٤٩٠ إلى ١٤٣٦ ق.م . وقد وصل في إحدى حملاته الآسيوية إلى الفرات ، وأجبر ميتاني على الإعتراف بسيادته ، وكانت في ذلك الوقت القوة الرئيسية في منطقة الجزيرة العليا والشمال السوري . كما شن حملة شهيرة في سجلاته على فلسطين معروفة بحملة مجدو ، حيث التقى قرب مدينة مجدو الفلسطينية بجيوش تحالف سوري يقوده ملك قادش وهزمها . وفي عهد خليفته تحوتمس الرابع مالت السياسة المصرية الى الديبلوماسية ، فتزوج هذا الملك من أميرة ميتانية وأنجب منها أمحوتب الثالث (١٤١٣ ـ ١٣٧٧ ق.م) الذي حكم خلال الفترة المعروفة بعصر العمارنة ، والتي شملت حكمه وحكم ابنه امنحوتب الرابع ، واشتهرت بالوثائق الهامة التي عثر عليها في عاصمة امنحوتب الثالث بموقع تل العمارنة ، والتي تتضمن مراسلات بين البلاط المصري والملوك السوريين . في عهد امنحوتب الرابع ، الذي دعا نفسه " إخناتون" عقب اصلاحه الديني الشهير واعلانه عن معتقده الجديد في إله واحد دعاه آتون ، خف الضغط على مناطق آسيا بسبب انشغال الملك بالمسائل الداخلية والتبشير الديني .

عندما أفلح الكهنة التقليديون في إقصاء إخناتون عن الحكم ، رفع إلى العرش الفتى توت عنخ آمون (١٣٥٨ ـ ١٣٤٩ ق.م) . وقد أعقب موت هذا الفرعون الصغير فترة من الإضطرابات والتهديدات العسكرية الخارجية ، انتهت بصعود القائد العسكري حورمحب إلى السلطة (١٣٤٥ ـ ١٣١٨ ق.م) وتأسيسه للأسرة التاسعة عشر .كان رمسيس الأول أول فراعنة الأسرة التاسعة عشر ، وفي عهده انتقلت العاصمة المصرية إلى الدلتا الشرقية ، فبنيت مدينة تانيس عاصمة الرعامسة ، في مكان لا يبعد كثيراً عن موقع عاصمة الهكسوس القديمة أفاريس . ثم وليه ابنه سيتي الأول (١٣١٧ ـ ١٣٠١ ق.م) المعروف بحملته على فلسطين والتي استهدفت البدو المثيرين للقلاقل ، والحثيين الذين كانوا يؤلبون حكام الدويلات الفلسطينية ضد مصر . ثم تبعه ابنه رمسيس

الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م)[*] ، الذي اصطدم مع الحثيين في موقعة شهيرة عند مدينة قادش في سورية الوسطى ، ثم وقع معهم بعد ذلك بسنوات المعاهدة المعروفة ، وهي أشهر معاهدات التاريخ المشرقي القديم .

وهناك رأي سائد بين المؤرخين يضع تاريخ خروج الإسرائيليين من مصر خلال الهزيع الأخير من فترة حكم هذا الفرعون .

ملحمة الخروج

ينتهي سفر التكوين بوفاة يوسف ، حيث تقول آخر فقراته : " ثم مات يوسف وهو ابن مئة وعشر سنين . فحنطوه ووضع في تابوت في مصر" (تك ٥٠ : ٣٦) . ثم يلتقط سفر الخروج في مطلعه الفقرة نفسها ويقول : "ومات يوسف وكل إخوته وجميع ذلك الجيل . وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا جداً وامتلأت الأرض منهم . ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف" (خروج ١ : ٦ - ٨) . رأى الملك الجديد تكاثر بني إسرائيل وخاف من تزايد عددهم ، فدفعهم إلى السخرة في أعمال البناء ، ووضع عليهم مراقبين أشداء يذلونهم ويسومونهم سوء العذاب ، وابتدأت فترة العبودية التي دامت بضع مئات من السنين . بنى المستعبدون لفرعون مدينتين هما "مخازن فيثوم" و "رعمسيس" ، ولكن السخرة والأعمال الشاقة لم تنفع في التقليل من عددهم ، فأمر فرعون القابلتين القائمتين على توليد نسائهم بقتل المواليد الذكور في المهد . ولكن القابلتين خافتا الله ولم تفعلا ، مدعيتين أن النساء العبرانيات قويات البنية يلدن قبل وصول القابلة . فنما الشعب كثيراً. وهنا عمد الفرعون إلى أسلوب أخر ، حيث أمر الإسرائيليين أن يلقوا إلى النهر بكل مولود ذكر . (الخروج: ١) .

يلي ذلك مباشرة قصة ولادة موسى ، حيث يبدأ الإصحاح الثاني بالقول : " وذهب رجل من بيت لاوي وأخذ بنت لاوي . فحبلت المرأة وولدت ابناً . ولما رأته أنه حسنٌ خبأته ثلاثة أشهر.ولما لم يمكنها أن تخبئه بعد ، أخذت سفطاً من البردي ووضعت الولد فيه

* أستخدم هنا التاريخ الأكثر شيوعاً بين المؤرخين لفترة حكم رمسيس الثاني . أما التاريخ الآخر فيجعل الفترة فيما بين ١٣٠١ و ١٢٣٤ ق.م

ووضعته بين الحلفاء على حافة النهر . ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يُفعل فيه ، فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل ، وكانت جواريها ماشيات إلى جانب النهر ، فرأت السفط بين الحلفاء ، فأرسلت أمتها وأخذته . ولما فتحته رأت الولد ، و إذا هو صبي يبكي فرقت له وقالت هذا من أولاد العبرانيين . فقالت أخته لابنة فرعون : هل أذهب وأدعو لك امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد ؟ فقالت لها ابنة فرعون: إذهبي . فذهبت الفتاة ودعت أم الولد. فقالت لها ابنة فرعون : إذهبي بهذا الولد وأرضعيه لي وأنا أعطيك أجرتك . فأخذت المرأة الولد وأرضعته . ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون فصار لها ابناً ، ودعت اسمه موسى . وقالت إني انتشلته من الماء" (الخروج ٢ : ١ - ١٠)

ويبدو أن موسى قد شب وهو يعرف أصله العبراني . ففي أحد الأيام رأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً من إخوته ، فقتل المصري وطمره في الرمل . ولما انكشف أمره هرب من وجه فرعون الذي طلب قتله ، وأتى إلى أرض مديان (عند خليج العقبة) وجلس عند البئر . وكان لكاهن مديان المدعو رعوئيل سبع بنات ، فأتين لملء الجرار ولكن الرعاة صرفوهن ، فأعانهن موسى . فدعاه الأب وأكرمه وأسكنه عنده وزوجه ابنته صفورة التي أنجبت له ولداً أسماه جرشوم . وعندما كان يرعى غنم حميه ، الذي يدعوه النص في هذا الموضع من القصة يثرون عوضاً عن رعوئيل ، ساق الغنم إلى جبل يدعى حوريب ، فرأى شجرة عليقة تتوقد بالنار ولا تحترق . فلما اقترب منها : " ناداه الله من وسط العليقة وقال : موسى ، موسى . فقال : هأنذا . فقال : لا تقترب إلى ههنا . إخلع حذاءك من رجليك لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة . ثم قال : أنا إله أبيك ، إله ابراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب . فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله . فقال الرب : إني قد رأيت مذلة شعبي وسمعت صراخهم .. فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة وواسعة ، إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً ..والآن هلم فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر ، فقال موسى لله : من أنا حتى أذهب إلى فرعون وحتى أخرج بني إسرائيل من مصر ؟ فقال : إني أكون معك ، وهذه تكون لك العلامة أني أرسلتك . حينما تُخرج الشعب من مصر .تعبدون الله على هذا الجبل .. وقال الله لموسى :هكذا تقول لبني إسرائيل .يهوه إله آبائكم إله ابراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب أرسلني إليكم"(الخروج :٣) .

"فأجاب موسى وقال: ولكن هاهم لا يصدقون ولا يسمعون لقولي ، بل يقولون لم يظهر لك الرب . فقال الرب : ما هذه في يدك ؟ فقال : عصا . فقال : اطرحها إلى الأرض .فطرحها فصارت حية ، فهرب موسى منها . ثم قال الرب لموسى : مد يدك وامسك بذنبها . فمد يده وأمسك به فصار عصا في يده . لكي يصدقوا أنه قد ظهر لك الرب إله آبائهم إله ابراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب " . وبعد أن يزوده بآيتين آخرين ؛ يده التي يدخلها في جيبه فتخرج بيضاء ، وماء النهر الذي يسكبه على اليابسة فيصير دماً ، يطلب منه التوجه فوراً إلى مصر لأن الفرعون الذي كان يطلب دمه قد مات . فيشتكي موسى من ثقل لسانه وقلة فصاحته ، فيأمره الرب أن يستعين بأخيه هارون الفصيح اللسان ، والذي تقع عليه مهمة مخاطبة الشعب ويكون لموسى فماً . فأخذ موسى امرأته وبنيه وأركبهم على الحمير ورجع إلى أرض مصر بعد أن ودع حماه يثرون (الخروج : ٤)

في مصر يتصل موسى وهارون بالشعب ، الذي يؤمن بهما وبالآيات التي صنعاها أمام عيونهم . ثم يدخل الإثنان على فرعون ويطلبان منه إطلاق بني إسرائيل ،فيرفض فرعون مستهزئاً بالطلب ويزيد من أعباء السخرة على بني إسرائيل . بعد ذلك يتكرر دخول موسى وهارون على فرعون عشر مرات ملتمسين إطلاق الشعب . وفي كل مرة يرفض فرعون الطلب ، فيرسل عليه الرب كارثة تحل به وببيته وبقومه ، فيصرخ فرعون إلى موسى أن يصلي لربه فيرفع غضبه عنه ، وعندما يرتفع غضب الرب يقسو قلب فرعون ويرفض من جديد إطلاق الشعب . وأخيراً يرضخ فرعون ويسمح بخروج بني إسرائيل جميعاً مع غنمهم وبقرهم وجميع أمتعتهم . وقبل أن يغادروا مساكنهم قال لهم موسى أن يستعير كل واحد منهم من جاره أدوات فضية وذهبية وثياباً . وقد زين الرب للمصريين إعارة جيرانهم فأعطوهم ما طلبوا ، فسرق الإسرائيليون المصريين ورحلوا تحت جنح الليل . وكانت إقامتهم في مصر أربعمئة وثلاثين سنة (الخروج ٥ - ١٢)

وكان لما أطلق فرعون الشعب ، أن الله لم يهدهم في طريق أرض الفلسطينيين المحاذية للساحل مع أنها قريبة ، لكي لا يعرضهم للحرب مع أهلها فينقلبون على أعقابهم راجعين إلى مصر ، بل أدارهم نحو بحر سوف (الذي هو خليج السويس وما يتلوه من البحيرات المرّة) ، فرحلوا من مساكنهم في أرض رعمسيس ونزلوا في سكوت . وارتحلوا من سكوت ونزلوا في إيثام . وكان الرب يسير أمامهم نهاراً في عمود من سحاب ليهديهم في الطريق ،

وليلاً في عمود من نار ليضيء لهم . ولكن فرعون ندم على إطلاق بني إسرائيل ،فلحق بهم بجنوده ومركباته فأدركهم وهم نازلون قرب بحر سوف عند فم الحيروت أمام بعل صفون . ففزع بنو اسرائيل وقالوا لموسى : " هل لأنه ليست قبور في مصر أخذتنا لنموت في البرية ؟ ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر ؟ خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية . فقال موسى للشعب : لا تخافوا ، قفوا وانظروا خلاص الرب الذي يصنعه لكم اليوم .. فقال الرب لموسى: قل لبني إسرائيل أن يرحلوا ، وارفع أنت عصاك ومد يدك على البحر وشقه فيدخل بنو اسرائيل في وسط البحر على اليابسة ... ومد موسى يده على البحر ، فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل ، وجعل البحر يابسة وانشق الماء فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة والبحر سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم . وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم .. فقال الرب لموسى : مد يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين ، فمد موسى يده على البحر فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون ولم يبق منهم ولا واحد " (الخروج : ١٣ - ١٤) .

ثم ارتحل بنو إسرائيل من بحر سوف وهدفهم برية سيناء . وفي طريقهم يمرون بالمواقع التالية على التوالي : برية شور ، مارة ، إيليم ، برية سين . في برية سين يتمرد الشعب على موسى وهارون ويقول لهما : " ليتنا متنا بيد الرب في مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع . فأنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع " . فأرسل لهم الرب المنّ والسلوى غذاءً ؛ فالمن نوع من الفطريات تنبت على وجه البرية عند ارتفاع ندى الصباح ، والسلوى نوع من الطيور المهاجرة كانت تحط قرب منازلهم للراحة . " ثم ارتحل كل جماعة بني إسرائيل ونزلوا في رفيديم . ولم يكن ماء ليشرب الشعب ، فخاصم الشعب موسى وقالوا أعطونا ماءً لنشرب ... فصرخ موسى إلى الرب قائلاً : ماذا أفعل بهذا الشعب ، بعد قليل يرجمونني " . فأمر الرب موسى أن يضرب صخرة معينة بعصاه ، ففعل موسى وتفجر من الصخرة ماءً وشرب الجميع . وبينما هم في رفيديم ، يجتمع العماليق لقتالهم ، وهم قبائل بدوية تتجول في مناطق شمال الجزيرة العربية . فوقف الرب إلى جانب الشعب وهزم الإسرائيليون أعداءهم ، وتابعوا مسيرتهم نحو برية سيناء . (الخروج : ١٥ - ١٧) .

وصل الشعب إلى برية سيناء في الشهر الثالث بعد خروجهم من مصر ، ونزلوا أمام

الجبل . وهناك يأتي إلى موسى حموه يثرون كاهن مديان ، بعد أن سمع بكل ما صنع الله إلى موسى وإلى إسرائيل .ويأتي يثرون معه بصفورة امرأة موسى التي كانت مقيمة عند أبيها وابنيها حرشوم وأليعازر . وعند هذه النقطة من القصة فقط نعرف أن موسى كان قد صرف زوجته إلى أهلها لسبب غير معروف . وقال يثرون لموسى : " مبارك الرب الذي أنقذكم من أيدي المصريين الآن علمت أن الرب أعظم من جميع الآلهة ، لأنه في الشيء الذي بغوا به كان عليهم" . وفي اليوم التالي، غادر يثرون إلى أرضه بعد أن أعطى موصى نصائح قيمة في كيفية إدارة وتنظيم هذا الشعب الكثير . وأما موسى : " فصعد إلى الله . فناداه الرب من الجبل قائلاً : " هكذا تقول لبيت يعقوب وتخبر بني إسرائيل ، أنتم رأيتم ما صنعت بالمصريين . وأنا حملتكم على أجنحة النسور وجئت بكم إليّ فالآن إن سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي تكونون لي خاصة من بين جميع الشعوب ". فرجع موسى إلى الشعب وكلمه بما سمع ، فأجاب الشعب وقال :كل ما تكلم به الرب نفعل . واستعدوا لإبرام العهد مع الههم في صباح اليوم الثالث ، فعسلوا أنفسهم وتطهروا ، وعندما حل الموعد : " صارت بروق ورعود وسحاب ثقيل على الجبل ، وصوت بوق شديد جداً . فارتعد الشعب الذي في المحلة . وأخـــرج موسى الشعب من المحلـــة لملاقـــاة اللـه ، فوقفوا في أسفل الجبل . وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار ، وصعد دخانه كدخان الأتون .. ودعـا الله موسى إلى رأس الجبـل ، فصعد موسى . " وكان صوت البوق يزداد اشتداداً وموسى يتكلم والله يجيبه بصوت . ثم تكلم الله معـــه وأعطـــاه الوصايا العشر . (الخروج : ١٨ - ١٩) .

يصعد موسى مرة أخرى إلى الجبل بأمر الرب ليستلم لوحين من الحجارة منقوش عليهما الوصايا العشر والشريعة ، ليعلم بهما الشعب . فدخل موسى وسط السحاب وبقي هناك أربعين نهاراً وأربعين ليلة . ولما رأى الشعب أن موسى قد تأخر جاءوا إلى هارون وقالوا له : " قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا ، لأن هذا موسى ، الرجل الذي أصعدنا من مصر ، لا نعلم ماذا أصابه . فقال لهم هارون : إنزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وآتوني بها .. فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً . فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر .. فقال الرب لموسى : إذهب إنزل لأنه قد فسد شعبك الذي أصعدته من مصر . زاغوا سريعاً عن الطريق الذي أوصيتهم به .. فانصرف

موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة في يده ... وكان ندما اقترب إلى المحلة أنه أبصر العجـل والرقص . فحمي غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرهما في أسفل الجبل . ثم أخذ العجل الذي صنعوا وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعماً وذراه على وجه الماء وسقى بني إسرائيل " (الخروج : ٣٢) . وبعد أن يُعمل موسى في الشعب مذبحة كبرى يقودها اللاويون الكهنة ، يهدأ غضبه ويستغفر للشعب أمام الرب . ثم يصعد إلى الجبل مرة أخرى ليستلم من الرب لوحين جديدين بدل اللذين كسرهما . (الخروج : ٣٣ ـ ٣٤) .

لا تحتوي بقية إصحاحات سفر الخروج على أحداث جديدة ، فجميعها مخصص لتفصيل بعض القواعد الطقسية ، وشرح كيفية صنع خيمة الإجتماع التي هي المسكن المتنقل لإله إسرائيل ، وكيفية صنع تابوت العهد الذي الذي يودَع فيه لوحا الشريعة ، كما يخصص كامل سفر اللاويين لتفصيل القواعد التشريعية التي أنزلها الرب على موسى . وعندما تستأنف القصة في سفر العدد ، نجد أن الإسرائيليين قد أمضوا سنة كاملة في برية سيناء . وفي السنة الثانية لخروجهم من مصر ، في الشهر الثاني ، تركوا سيناء وتوجهوا إلى برية فاران ، وهدفهم الوصول إلى قادش برنيع وهي واحة معروفة في شمال سيناء ، وقريبة من الحدود الجنوبية لأرض كنعان . ومن هناك يبعث موسى رسلاً ليتجسسوا أرض كنعان ويروا الشعب الساكن فيها " أقـوي هو أم ضعيف ، قليل أم كثير . وكيف هي الأرض التي هو ساكن فيها أجيدة أم ردية ، وما هي المدن التي هو ساكن فيها أمخيمات أم حصون ، وكيف هي الأرض سمينة أم هزيلة " . فذهب الرجال وعادوا بالخبر : " فساروا حتى أتوا إلى موسى وهارون وكل جماعة بني إسرائيل .. وأروهم ثمر الأرض وقالوا : قد ذهبنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها . وحقاً إنها تفيض لبناً وعسلاً وهذا ثمرها . غير أن الشعب الساكن في الأرض معتز ، و المدن حصينة ، عظيمة جداً .. فرفعت كل الجماعة صوتها وصرخت ، وبكى الشعب تلك الليلة ، وتذمر على موسى وعلى هارون جميع بني إسرائيل ، وقال لهما كل الجماعة ليتنا متنا في أرض مصر ، أو ليتنا متنا في هذا القفر .. ثم ظهر مجد الرب في خيمة الإجتمـاع لكل بني إسرائيل ، و قال الرب لموسى : حتى متى يهينني هذا الشعب ، وحتى متى لا يصدقونني بجميع الآيات التي عملت في وسطهم ؟ إني أضربهم بالوباء وأبيدهم وأصيّرك شعباً أكبر وأعظم منهم". ولكن موسى يفلح بعد جهد جهيد في تهدئة غضب الرب وإقناعه بالعدول عن إبادة الشعب ، فيصفح الرب ولكنه يحكم على جميع أفراد

الجيل الذي يسير مع موسى أن يمضي بقية حياته في القفـر ، ولا يرى أرض كنعان التي يدخلها أولاد الجيل الثاني من أبنائهم . (العدد: ١٣ - ١٤) .

فأقام بنو إسرائيل في قادش برنيع مدة ثمان وثلاثين سنة ، حتى أكملوا أربعين سنة لخروجهم من مصر ، ومات كل الجيل الذي تمرد على موسى وخاف من دخول كنعان . وقد تخلل هذه الفترة الطويلة عدد من حوادث التمرد والعصيان ، وأهمها محاولة المدعو قورح بن يصهار الإنقلابية التي سعى من خلالها إلى إقصاء موسى وهارون عن القيادة ، يدعمه في ذلك مئتان وخمسون من رؤساء الجماعات . ولكن الرب خسف الأرض بقورح وجميع المتمردين فهبطوا إلى الهاوية السفلى (العدد: ١٦) . كما وقع تمرد جديد على موسى بسبب نقص الماء أيضاً ، وقد قادت طريقة تعامل موسى وهارون مع هذا التمرد ، والكيفية التي نفذوا بها أمر الرب ، إلى غضب الرب عليهما وحرمانهما من دخول أرض كنعان . فلقد أمر الرب موسى أن يقف أمام صخرة معينة ويكلمها هو وهارون أن تعطي ماءها ، لا أن يضربها بعصاه كما فعل في مرة سابقة . ولكن موسى الذي طفح به الكيل من سلوك هذا الشعب العنيد ، وفي نوبة شك عارمة من قدرة إلهه ، وقف أمام الصخر وصرخ بالجمهور المحتشد حوله : " اسمعوا أيها المردة . أمن هذه الصخرة نخرج لكم ماءً ؟ ورفع موسى يده وضرب الصخرة بعصاه مرتين ، فخرج ماء غزير فشربت الجماعة ومواشيها . فقال الرب لموسى وهارون : من أجل أنكما لم تؤمنا بي أمام أعين بني إسرائيل ، لذلك لا تُدخلان هذه الجماعة إلى الأرض التي أعطيتهم إياها ".

بعد انتهاء المدة التي حددها الرب بأربعين سنة ، وموت جميع أفراد الجيل السابق ، تحرك موسى بجماعته لتحقيق الوعد القديم بأرض كنعان ، فوصلوا تخوم أدوم الواقعة إلى الجنوب من البحر الميت . وهناك أرسل موسى رسله إلى ملك أدوم طالباً منه السماح بعبور بني إسرائيل في أراضيه ، ولكن ملك أدوم رفض الطلب ، وخرج للقائه بعدد غفير من الجند . فاتخذ موسى طريقاً آخر نحو شرقي الأردن يدور حول مناطق الأدومين شرقاً فشمالاً حتى لا يصطدم بهم . وعندما حلوا في جبل اسمه هور جاءت هارون المنية ودفن هناك لتحقيق قول الرب . وصل موسى إلى شرقي الأردن وخيم في موقع أرنون وهو الحد الفاصل بين أراضي موآب وأراضي الآموريين . ثم أرسل رسله إلى ملك الآموريين يطلب منه السماح لقومه بالعبور بسلام ، ولكن الملك رفض الطلب وخرج للقاء إسرائيل . وفي هذه المرة لم

ينسحب موسى كما انسحب أمام أدوم بل قرر المواجهة ، فضرب الآموريين ضربة قوية وأخذ كل مدنهم وقراهم . ولسبب غير مفهوم ، لا يتابع موسى طريقه نحو أرض كنعان ، ولا يصطدم مع موآب وعمون المملكتين القويتين في شرقي الأردن ، بل يتابع طريقه شمالاً نحو باشان في سورية الجنوبية (مناطق حوران) ويصطدم مع ملك باشان في موقع إذرعي (إزرع) فيضربه ضربة قوية ويمتلك أرضه وقراه أيضاً ، ثم يقفل راجعاً إلى شرقي الأردن وينزل في موقع عربات موآب على ضفة نهر الأردن في مقابل مدينة أريحا الواقعة على الجهة الأخرى للنهر داخل كنعان (العدد: ٢٠ - ٢١) .

فزع الموآبيون مما فعله الإسرائيليون بخصومهم ، فأرسل ملك موآب إلى عراف معروفٍ في المنطقة اسمه بلعام بن بعور ، ليأتي إليه ويلعن بني إسرائيل ، لأن الذي يلعنه بلعام ملعونٌ والذي يباركه مباركٌ ، وبعث مع رسله بهدايا إلى بلعام ، فأتى إليه . ولكن الله وضع في فم بلعام بركاتٍ بدل اللعنات ، فقال : " وحي بلعام بن بعور ، وحي الرجل المفتوح العينين ، وحي الذي يسمع أقوال الله .... ما أحسن خيامك يا يعقوب ، مساكنك يا إسرائيل ...مباركك مبارك ولا عنك ملعون .. الخ " (العدد : ٢٢ - ٢٤) . فيحجم موآب عن مضايقة إسرائيل ، ويتفرغ موسى لقتال مديان بأمر مباشر من الرب ، لأن الشعب قد زنى مع بنات مديان وتعلق بآلهتها : " فتجندوا على مديان كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر . وملوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم . وسبى بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع مواشيهم وكل أملاكهم ، وأحرقوا جميع مدنهم بالنار ، وأتوا إلى موسى .. فسخط موسى على وكلاء الجيش وقال لهم ..اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة عرفت رجلاً . لكن جميع الأطفال من النساء اللواتي لم يعرفن ذكر أبقوهن لكم حيات .. " (العدد : ٣١) . وبعد ذلك يقوم موسى بتقسيم الأراضي المكتسبة في شرقي الأردن ويعطيها لسبط راؤبين وسبط جاد ونصف سبط منسي .

وعندما تحضر المنية موسى يصعده الرب من معسكره في عربات موآب إلى جبل نبو ويريه أرض كنعان في عبر الأردن ، ويكرر على مسامعه بأنه لن يدخله إلى الأرض الموعودة بسبب خطيئته وخطيئة هارون في القفر : " وصعد موسى من عربات موآب الى جبل نبو إلى رأس الفسحة الذي قبالة أريحا . فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان (...الخ) . وقال له الرب هذه هي الأرض التي أقسمت لابراهيم واسحاق ويعقوب قائلاً لنسلك

أعطيها . قد أريتك إياها بعينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر . فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب ، ودفنه في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ، ولم يعرف إنسان قبره الى هذا اليوم . وكان موسى ابن مئة وعشرين سنة حين مات . ولم تكل عينه ولا ذهبت نضارته " (التثنية : ٣٤) . وبموت موسى تنتهي قصة الخروج لتبدأ قصة دخول كنعان .

النقد النصي لقصة الخروج

لقد أشرنا سابقاً إلى أن قصة يوسف قد استخدمت من أجل الربط بين تقليدين توراتيين غريبين عن بعضهما كل الغرابة ؛ هما قصص الآباء وقصة الخروج . ولكن هذه القصة ، لم تقدم في الواقع إلا تبريراً غير مقنع لوجود بني إسرائيل في مصر ، وبقي تقليد الخروج مستقلاً عن قصة يوسف وعن قصص الآباء في آن معاً . ومما يلفت النظر بشكل خاص ، أن نص سفر الخروج يصمت صمتاً تاماً عن الفترة التي قضاها بنو إسرائيل في مصر بين وفاة يوسف وولادة موسى ، ولا نعلم سوى أن هؤلاء قد وقعوا تحت نير العبودية بعد أن قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف . أما متى قام هذا الملك الجديد على مصر ، وكم امتدت فترة العبودية ، وما الذي كان يفعله الإسرائيليون قبل العبودية ، فأمور لا يلقي عليها النص أية إضاءة . ومما يزيد الوضع غموضاً أن هؤلاء الأجراء المسخرين تركوا مصر ومعهم مواشي وأغنام كثيرة ، (الخروج ١٢ : ٣٨) الأمر الذي يتنافى ووضع العبيد الذين لا يملكون في الواقع شيئاً . أما عن مجموع سنوات إقامتهم في مصر مما سبق العبودية وتلاها ، فإن النص التوراتي يعطينا معلومات متناقضة بشكل لا يمكن التوفيق بينها بأية طريقة . فإقامة بني إسرائيل في مصر وفق سفر الخروج ١٢: ٤٠ ، هي أربع مئة وثلاثين سنة . أما في سفر التكوين ١٥: ١٣ و ١٦ فهي أربعمئة سنة فقط . وفي نهاية قصة يوسف ، لدينا إشارة واضحة إلى أن فترة الإقامة في مصر لم تتجاوز حياة جيل واحد فقط من أحفاد يوسف .ففي سنوات حياته الأخيرة يشهد يوسف ولادة أولاد أحفاده : " وأولاد ماكير بن منسي أيضاً ولدوا على ركبتي يوسف " (تك ٥٠ : ٢٣) . ولكننا ما نلبث أن نرى أولاد ماكير هؤلاء الذين ولدوا على ركبتي يوسف في مصر ، يحاربون مع يشوع في كنعان

(يشوع ١٣ : ٣١ و ١٧ : ١) ، وهذا يعني أن المدة الفاصلة بين موت يوسف ودخول كنعان ، بما فيها فترة الإقامة في مصر وفترة الخروج ، لم تتجاوز المئة سنة على أبعد تقدير ، وأن الذين ولدوا في حياة يوسف هم الذين استعبدوا من قبل المصريين وهم الذين خرجوا أيضاً مع موسى ، ودخلوا مع يشوع .

إلى جانب استقلالها عن قصة يوسف وقصص الآباء ، فإن قصة موسى والخروج من مصر قد حيكت من أربع قصص مستقلة من حيث الأصل على ما يبدو ، إن لم يكن أكثر . القصة الأولى هي قصة ميلاد وفتوة موسى ، التي عملت على تزويد هذه الشخصية المركزية في التقاليد التوراتية بأصل ملكي نبيل وأصل كهنوتي ؛ فهو ابن بنت فرعون بالتبني ، نشأ وترعرع في البلاد كأمير فرعوني ، وهو في الوقت نفسه سليل أسرة لاوية من جماعة الكهنة المكرسين للشؤون الدينية . ورغم حياته المترفة في القصور ، فإن موسى على ما يبدو كان يعرف أصله العبراني ، على ما تدل عليه حادثة قتله للمصري انتصاراً لأخيه العبراني ثم هربه من وجه فرعون الذي طلب دمه . وكما يمكن أن يلاحظ القارىء بسهولة ، فإن هذه القصة تقوم على عدد من العناصر المعروفة في الأدب الشعبي والخرافي لثقافات الشرق القديم ، ولها متوازيات واضحة في آداب الشعوب الأخرى . فالرضيع الذي يوضع في سلة تلقى إلى الماء ثم تعتني به قدرة إلهية حتى يشب ويغدو حاكماً أو ملكاً ، هو عنصر شائع ومعروف وله تنويعات عديدة . فإما أن يكون الطفل من أصل عامي ثم تتعهده أسرة ملكية بالرعاية حتى يغدو واحدا من أفرادها . أو أن يكون من أصل ملكي ثم تتعهده أسرة فقيرة حتى يكبر ويعرف أصله الملكي ويعود للمطالبة بحقوقه ومكانته السابقة . وقد يستبدل عنصر الإلقاء بالماء داخل سلة بالإلقاء في الغابة حيث تقوم غزالة أو ذئبة بإرضاع الطفل حتى يكبر . كما يتنوع الدافع إلى التخلص من الطفل الرضيع في هذه القصص ؛ فهو مؤامرة داخل القصر الملكي للتعديل في حقوق الوراثة ، أو غيرة الزوجة الأولى من ولادة الزوجة الثانية ، أو نبوءة عن قيام المولود الجديد حين يكبر بقتل الأب والإستيلاء على العرش ..الخ .

القصة الثانية هي قصة موسى في مديان ، والتي تعود بنا إلى أجواء عصر الآباء . فموسى يلتقي بصفورة عند بئر الماء ، وهي تقوده إلى أبيها الذي يستضيفه ثم يعهد إليه برعاية غنمه ويزوجه ابنته ، وبينما هو يرعى غنم حميه يكلمه الرب من داخل الشجرة التي تحترق ،كما كلم من قبل ابراهيم وإسحاق ويعقوب في مواقف مختلفة ولكن متشابهة . وتبدو قصة

موسى المدياني هذا وكأنها منتزعة من ذات الذخيرة القصصية ، التي استخدمها محرر سفر التكوين . ونلاحظ هنا ، كما في قصة طفوله وشباب البطل ، أن المحرر لم يُعن بنسب موسى ولم يعن بذكر اسم أبيه وأمه وإخوته . فالإصحاح الثاني من سفر الخروج الذي يروي لنا عن ولادة موسى يكتفي بالقول : "وذهب رجل من بيت لاوي وأخذ بنت لاوي ، فحبلت المرأة وولدت ابناً . ولما رأته أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر ... الخ". ولكن عندما تبدأ القصة الثالثة ، وهي قصة تبشير موسى بين بني اسرائيل ودخوله على فرعون ، يأخذ المحرر بإعطائنا بعض المعلومات الجديدة كلية . فعندما يأمره الرب بالتوجه إلى مصر نعلم أن له أخاً اسمه هارون ، دون أن ندري كيف استطاعت الأم أن تربي هـارون وتحتفظ به ولم تستطع تربيـة مـوسى و الإحتفاظ به في بيتها . وبعد أن يدخل موسى على فرعون ، يعطينا المحرر تفصيلات كاملة عن نسبه المتسلسل من المدعو لاوي الجد الأكبر وصولاً إلى المدعو عمرام الذي تزوج المدعوة يوكابد فأنجبت له هارون وموسى (الخروج ٦: ١٠ - ٢٠) . وبعد الخروج من مصر يخبرنا النص أن لهارون وموسى أختاً أيضاً أسمها مريم ، وذلك في سفر العدد ١٢ : ١ - ١٦ . وفي نفس الموضع أيضاً نعرف أن زوجة موسى بطل هذه القصة الثالثة ليست صفورة ابنة كاهن مديان بل امرأة كوشية .

أما القصة الرابعة فتبدأ بعد إنتهاء مدة الأربعين سنة المحددة من قبل الرب لموت جميع أفراد الجيل الذي تمرد عليه وخاف من دخول كنعان . فهنا تنتهي ملامح شخصية موسى المبشر ، ورجل العقيدة الذي يميل إلى السلم ويجنح لها ، والذي يجر وراءه جماعة من الهاربين الخائفين ولا يدخل في معركة لم تفرض عليه فرضاً وتبدأ شخصية موسى القائد الدموي العسكري الذي يبادر على الحرب ويشن حملات الإبادة والتدمير . ونحن في الحقيقة لا نستطيع أن نجد أرضاً مشتركة تجمع موسى الذي يطلب من ملك أدوم أن يمر في أرضه بسلام ثم يضطر إلى الدوران حول أدوم في رحلة طويلة وشاقة ، إلى موسى الآخر ، الذي يصل في فتوحاته العسكرية إلى سهول حوران في سورية الجنوبية ، والذي ينهي حياته بإبادة جميع أهالي مديان من الذكور والإناث والإبقاء على البنات الصغيرات فقط . ويمكن أن نلاحظ بسهولة أن أحداث هذه القصة الرابعة تنتمي في معظمها إلى أحداث الفتح العسكري لكنعان مما يرويه سفر يشوع ، وأنها مستمدة من نفس الذخيرة القصصية التي استخدمها محرر هذا السفر ، حتى أننا لا نستطيع تمييز شخصية موسى في شرقي الأردن عن شخصية يشوع في حروب كنعان .

وينجم عن هذا التداخل غير المحكم بين الأصول المتنوعة لتقليد الخروج ، وعن أسلوب المحرر التوراتي ، الذي وصفناه سابقاً بأسلوب الجمع التراثي ، عدد من التناقضات الفرعية ، التي لا نستطيع تعدادها جميعاً نظراً لكثرتها في سفر الخروج وبقية الأسفار الخمسة ، التي تتـابع قصـة موسى . ففي الإصحاح الثاني من سفر الخروج يدعى كاهن مديان بالإسم يثرون ، أما في الإصحاح الثالث فيدعى بالإسم رعوئيل . فإذا اجتزنا الأسفار الخمسة إلى سفر القضاة ، وجدنا أن حما موسى يحمل اسم حـوباب ، وأنه ليس مديانياً بل قينياً ، رغم الفروق الكبيرة بين المديانيين والقينيين سواء من حيث النسب أو من حيث مناطق السكن . نقرأ في القضاة ٤ : ١٠ " وجابر القيني انفرد من قاين من بني حوباب حمي موسى ، وخيم حتى إلى بلوطة .. " . فإذا عدنا إلى سفر العدد ١٠ : ٢٩ ، وجدنا أن حوباب هذا ليس حما موسى بل ابن حميه ، وهو مدياني مرة أخرى وليس قينياً : " وقال موسى لحوباب بن رعوئيل المدياني حمي موسى : إننا راحلون ..الخ " . كما نستدل من هذين الموضعين في سفر العدد وسفر القضاة ، على أن حما موسى قد انضم مع أهله إلى موسى وسار في حملة الخروج ، وهذا ما يتنـاقض مـع الإصحـاح ١٨ من سفـر الخـروج الذي يخبرنا بأن حما موسى المدعو يثرون قد زار موسى في طريق الخروج وأقام لديه فترة ثم انصرف . نقرأ في الخروج ١٨: ٢٤ ـ ٢٧ " فسمع موسى لصوت حميه وفعل كل ما قال ..ثم صرف موسى حماه فمضى إلى أرضه " . كما نعلم من زيارة يثرون هذه أن موسى كان قد صرف زوجته صفـورة فأقامت عند أبيها مع ابنيها ، دون أن ندري متى صرف موسى زوجته أو لماذا صرفها . وفيما يتعلق بإبني موسى اللذين يدعوها النص هنا بجرشوم وإليعازار نلاحظ عدم وجود دور لها في ملحمة الخروج وذلك على عكس ابني هارون المدعوان أليعازار وإيتامار اللذين يشاركان في معظم الأحداث ويتكـرر اسمهما مـراراً كمساعـدين لأبيهما في الإجـــراءات الطقسية (انظـر على سبيـل المثال اللاويين ١٠ : ١٢ ـ ١٥) . وفي سفر العدد ١٢ : ١ ، نعـرف أن لموسى زوجـة كوشيــة (حبشية) ، دون أن يورد النص اسمها أو أية تفاصيل عن كيفية زواجه منها ، ثم تختفي بعد ذلك كما ظهرت . والأغرب من ذلك كله أن موسى عندما يموت على جبل نبو مقابل أريحا ، يموت وحيداً ، ولا يوجد حوله أحد من زوجاته أو أولاده .

و عن استلام موسى للشريعة والوصية على الجبل لدينا روايتان مختلفتان كل الإختلاف . في الأولى يأمر الرب موسى أن يصعد إلى الجبل مع هارون ، ويحذره من صعود أو اقتراب

أحد من الكهنة وإلا بطش به : " ونزل الرب على جبل سيناء ، إلى رأس الجبل . ودعا الله موسى إلى رأس الجبل فصعد موسى . فقال الرب لموسى : انحدر حذر الشعب لئلا يقتحموا إلى الرب لينظروا فيسقط منهم كثيرون .. فقال موسى للرب : لا يقدر الشعب أن يصعد إلى جبل سيناء لأنك أنت حذرتنا قائلاً أقم حدوداً للجبل وقدسه . فقال له الرب : إذهب انحدر ثم اصعد أنت وهارون معك . وأما الكهنة و الشعب فلا يقتحموا ليصعدوا إلى الرب لئلا يبطش بهم . فانحدر موسى إلى الشعب وقال لهم " . (الخروج ١٩ : ٢٠ ـ ٢٥) . ثم يلي ذلك نزول الوصية والشريعة . أما في الرواية الثانية ، فإن موسى يصعد إلى الجبل بأمر الرب ومعه بعض الكهنة وعدد كبير من شيوخ إسرائيل ، وذلك على عكس التحذير الوارد في الرواية الأولى ، وهؤلاء جميعاً يرون الله وجهاً لوجه : " وقال لموسى : إصعد إلى الرب أنت وهارون وناداب وأبيهو و سبعون من شيوخ إسرائيل ، واسجدوا من بعيد ويقترب موسى وحده إلى الرب وهم لا يقتربون ، وأما الشعب فلا يصعد معه .. ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل ، ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعه من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة . ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل . فرأوا الله وأكلوا وشربوا .وقال الرب لموسى اصعد إلى الجبل وكن هناك ، فأعطيك لوحي الحجارة والشريعة والوصية ، التي كتبتها لتعليمهم .." (الخروج ٢٤ : ١ ـ ١٢) .

وفيما يتعلق بموقع جبل الرب ،الذي يدعى أحياناً جبل حوريب وأحياناً أخرى جبل سيناء ، لدينا عدد من الإشارات المتناقضة ، التي لا يمكن التوفيق بينها . فأول ذكر للجبل يوحي بأنه قائم في منطقة مديان التي تقع على الجهة الشرقية لخليج العقبة ، لأن الرب عندما تجلى لموسى وهو يرعى غنم حميه كاهن مديان ، في لهيب الشجرة ، قال له : " إني أكون معك ، وهذه تكون لك علامة أني أرسلتك .حين تخرج الشعب من مصر تعبدون الله على هذا الجبل " الخروج ٣ : ١٢) . أي أن موسى كان يستطيع من ذلك الموقع ، الذي كان يرعى فيه غنمه وهو في مديان ، أن يرى بالعين المجردة جبل حوريب . غير أن موسى عندما قاد جماعته خارجاً من مصر لم يتوجه إلى مديان بل إلى برية سيناء ، وهناك نزلوا في البرية مقابل الجبل (الخروج :١٩) . وتزداد المسألة تعقيداً عندما نرى إشارات إلى مواقع أخرى في فاران وسعير الواقعة في آدوم على أطراف الصحراء العربية .من ذلك ما ورد في سفر التثنية ٣٣ : ١ ـ ٢ وفي سفر القضاة ٥ : ٤ ، وحبقوق ٣ : ٣ .

وفي سفر التثنية لدينا تقليد غريب كل الغرابة عما ورد في قصص الآباء ، التي تصف الأسلاف المؤسسين بأنهم عبريون (تك ١٤ : ١٣ و ٤١ : ١٢) . فهنا يوصف هؤلاء الأسلاف بأنهم آراميون . نقرأ في قاعدة طقسية من شريعة موسى : " .. فيأخذ الكاهن السلة من يدك ويضعها أمام مذبح الرب إلهك ، ثم تصرخ وتقول أمام الرب : آرامياً تائهاً كان أبي ، فانحدر إلى مصر وتغرب هناك في نفر قليل فصار هناك أمة كبيرة وعظيمة.." (التثنية ٢٦: ٤ - ٥) .

إضافة إلى هذه الروايات المتناقضة ، التي لا نستطيع إيرادها جميعاً هنا ، فإن القراءة المتصلة لسفر الخروج وبقية الأسفار الخمسة تجعلنا نلاحظ فجوات وانقطاعات واضحة في سياق القصة ؛ وذلك كالفجوة الواقعة بين استلام الوصية والشريعة على جبل سيناء ، ومتابعة مسيرة الخروج بعد سنتين من ذلك ، والفجوة الواقعة بين إقامة الشعب في قادش برنيع ، والصعود إلى شرقي الأردن بعد ثمان وثلاثين سنة . وقد رأينا سابقاً مثل هذه الفجوات في سفرالتكوين ، وألمحنا منذ قليل إلى الفجوة الكبرى بين سفر التكوين وسفر الخروج . إن هذا التعاقب غير المحبوك بدقة للرواية التوراتية ، لا يجد تفسيره في أننا نتعامل مع عدد من التقاليد المتنوعة ، نقط ، بل يجب أن يجد تفسيره على مستوى آخر أيضاً .

إن طريقة صياغة الأسفار الخمسة ، وطريقة تطوير الرواية التوراتية وصولاً إلى نهاية سفر الملوك الثاني ، توحي للوهلة الأولى بوجود وحدة ضمنية بين التقاليد المتتابعة . غير أن هذه الوحدة الظاهرية لا تنبع من انسجام الحبكة الروائية ولا من تطويرها المنطقي ، وإنما من طريقة توضيع التقاليد المتنوعة في سياق مفروض عليها من الخارج ، ومن وجهة نظر " جامع تراثي" لا من وجهة نظر مؤرخ مدقق . وبتعبير آخر ، فإن طريقة ضم الوحدات الأدبية المستقلة إلى بعضها يوحي بوجود ترتيب زمني بين هذه الوحدات ، التي انتظمتها سلسلة مصطنعة . فسفر التكوين يبدأ بسلسلة أنساب تقوم على تبريرات إيديولوجية سياسية ودينية ، ثم تتابع التقاليد عبر الأسفار الخمس وما وراءها ، لتبني على هذه الأسس التي تم ترسيخها ، وتنسج القصص حول عدد من القادة العظام ؛ فمن آدم إلى قاين فنوح فإبراهيم فيعقوب فيوسف فموسى فيشوع فالقضاة فشاؤل فداود .. الخ . ومن خلال جمع وترتيب الأخبار المتعلقة بكل شخصية ، فإن الروايات المختلفة وذات الأصل والمضمون المستقل ، تنسج إلى بعضها فيما يبدو للوهلة الأولى إطاراً زمنياً منتظماً ومتتابعاً يوحي بما يشبه التاريخ . من هنا ، فإن عملية الجمع التراثي هذه ، تسمح بكثير من المرونة

فيما يتعلق بإيراد الروايات المختلفة للحادثة الواحدة ، كما تسمح بشكل تلقائي بوجود الفجوات التي لا يعنى الجامعون كثيراً بردمها . وكما قلنا سابقاً ، فإن الترتيب الزمني في حد ذاته لا يصنع تاريخاً ، وهو نابع هنا عن قصد، ورؤية مسبقة عند المحررين الذين كانوا يواجهون بالفعل مهمة على قدر كبير من الصعوبة والتعقيد ، قوامها تنظيم تركة ضخمة من التقاليد في سياق متتابع ، من شأنه خلق ماضٍ لإسرائيل التوراتية ، باعتبارها شعباً موحداً منذ البداية ، تحت خط قيادي متسلسل واحد ، ومعتقد ديني واحد .

إن هاجس "الأصول" يسيطر على الأسفار الخمسة سيطرة تامة ، ويتعداها إلى بقية الأسفار وخصوصاً تلك ، التي يدعوها الباحثون بالأسفار التاريخية من يشوع إلى الملوك الثاني . وما نعنيه بالأصول هنا ، هو نشأة وتكوين تلك الجماعات التي شكلت فيما بعد إسرائيل . وقد حملت عملية البحث عن الأصول المحررين بعيداً نحو بداية الأزمان ، فابتدأوا من تكوين العالم وخلق البشر وتوزع شعوبهم وقبائلهم ، وذلك من أجل توضيح نسب إسرائيل و مكانة شعبها بين الشعوب الأخرى . فقصص الآباء تبدأ عقب الطوفان وبعد تشتت شمل الشعوب وتفرقها ، مما تقصه أسطورة برج بابل . وفي بقية الأسفار الخمسة التي تقص ملحمة الخروج نواجه حشداً من التقاليد المتفرقة التي تعزف على نغمة الأصول أو تتعلق بها مباشرة ؛ أصول إسرائيل كأمة ، إختيار إسرائيل من قبل الرب ، أصول المفاهيم الإيديولوجية المركزية مثل التوراة والفصح والكهنوت وتابوت العهد والعهد الإلهي . وبعد الأسفار الخمسة يأتي سفر يشوع وسفر القضاة ليؤسسا لأصول إسرائيل في الأرض ، وذلك من خلال روايات عن الفتح العسكري والاستقرار في الأرض ، دبّجت بأسلوب قوي وحيوي جعل المؤرخين خلال حقبة طويلة من الزمن ينظرون إليها باعتبارها ذكريات تاريخية عن بدايات تشكل الشعب الإسرائيلي . فإذا انتقلنا إلى سفر صموئيل الأول وسفر صموئيل الثاني ، وجدنا هذه المفاهيم والأفكار وقد وصلت مرحلة النضج من خلال التقاليد التي تقص عن نشأة وصعود المملكة الموحدة ، واستمرار فهم إسرائيل لنفسها كأمة الله . وهذا الصعود مرتبط بالإنهيار ، والدمار الذي يقصه سفر الملوك الأول وسفر الملوك الثاني .

إن خلاصة الأمر ، فيما يمكن للنقد النصي لقصة الخروج أن يوصلنا إليه ، هو أن هذه القصة في شكلها ومضمونها هي من نوع الملاحم التي يدبجها عادة الخيال الشعبي عن البدايات التي تلامس عالم الأسطورة . ولكن بينما تنمو الملحمة الشعبية بشكل تلقائي يعبر عن شخصية

الشعب وقيمه ، فإن ملحمة الخروج قد جاءت كقصة ناجزة ، ومؤلفة بعناية وقصد ،رغم اعتمادها على عناصر ملحمية متفرقة مغرقة في القدم ومنتزعة من سياقاتها الأصلية .

النقد التاريخي والأركيولوجي لقصة الخروج

لقد فشلت حتى الآن كل الجهود التي بذلت من أجل إثبات تاريخية أحداث قصة الخروج، ولم يستطع المؤرخون وضع هذه الأحداث ضمن إطار تاريخي محدد . فالمصادر المصرية لا تذكر شيئاً عن وجود الإسرائيليين في مصر ، ولا عن خروجهم منها سواء بالطريقة الموصوفة في التوراة أم بأية طريقة أخرى . ومن جهة أخرى فإن النص التوراتي نفسه لا يورد أية معلومة عن الأوضاع في مصر والأحداث الجارية فيها ، يمكن مقاطعتها مع ما نعرفه تاريخياً عن تلك الفترة ، ولا يورد اسم شخصية مصرية معروفة لنا وموثقة تاريخياً . وفيما يتعلق بفرعون الخروج ، فقد أغفل النص ذكر اسمه أو اسم أحد من حاشيته وقواده ، ومعلوماتنا عن فراعنة الأسرة الثامنة عشر والتاسعة عشر ةتنفي أن يكون أحدهم قد مات غرقاً . و الشيء نفسه ينطبق على القسم الثاني من أحداث الخروج ، الذي يفترض وقوعه في مناطق شرقي الأردن وسورية ، فلا المصادر الخارجية تؤيد الرواية التوراتية ، ولا تسعفنا هذه الرواية بأية معلومة تساعدنا على تثبيت الإطار التاريخي لها. من هنا ، فإن قصة الخروج من مصر تبقى معلقة في فضاء تاريخي تام ، ولا يستطيع التاريخ إثبات أي جزء من أجزائها ، بل إن المؤرخين الجدد يميلون إلى نفيها جملة وتفصيلاً .

في ظل هذه الحقائق غير الواعدة ، هل نستطيع وضع تاريخ للخروج ، ولو من الناحية النظرية ، اعتماداً على المادة التوراتية وحدها ؟ لتحقيق هذه العاية يمكن لنا إجراء تمرينين ذهنيين ؛ فإمــا أن نأخــذ نقطة ما في الزمن تسبق حادثة الخروج ثم نبدأ العد الزمني هبوطاً إليه ، أو أن نأخذ نقطة ما في الزمن تالية للخروج ثم نأخذ بالعد صعوداً . ففي الحالة الأولى ، نستيطع جمع الفترات الزمنية لحياة الآباء ثم نضيف اليها فترة الإقامة في مصر . فمن ميلاد ابراهيم إلى وفاة يعقوب لدينا ما مجموعه ثلاثمئة وسبع من السنوات (تك ٢١ : ٥ ، ٢٥ : ٢٦ ، ٤٧ : ٢٨) ، يمكن أن نضيف إليها أربعمئة ثلاثين سنة وهي فترة العبودية في مصر ،

لنخرج بالرقم سبعمئة سبع وثمانون سنة . ولكن هذه الطريقة غير مجدية لسببين ؛ الأول هو أن النص التوراتي يعلمنا كم دام عصر الآباء ، ولكنه لا يعلمنا متى ابتدأ هذا العصر . والسبب الثاني هو أن النص يناقض نفسه في أكثر من موضع حول الفترة التي قضاها الإسرائيليون في مصر ، وقد تعرضنا لهذه النقطة سابقاً . فإذا انتقلنا إلى العد العكسي من نقطة متقدمة في الزمن عن حادثة الخروج ، بدا الأمر لنا واعداً بنتائج أفضل . ففي النص التوراتي لدينا حادثة واحدة فقط مرتبطة زمنياً بالخروج هي حادثة بناء هيكل سليمان في أورشليم . فسفر الملوك الأول يخبرنا أن الملك سليمان قد بنى هيكل الرب بعد أربعمئة وثمانين سنة من مغادرة بني إسرائيل لمصر : " وكان في سنة الأربع مئة والثمانين لخروج نبي إسرائيل من أرض مصر ، في السنة الرابعة لمُلك سليمان على إسرائيل ، إنه بنى البيت للرب " (الملوك : ٦ : ١) . وبما أنه من المتفق عليه بين المؤرخين أن سليمان قد اعتلى عرش المملكة الموحدة حوالي عام ٩٦٢ ق.م ، فإن العد الصاعد نحو الخروج يعطينا العام ١٤٣٨ ق.م كتاريخ محتمل لهذه الحادثة .

غير أن مثل هذا التاريخ في أواسط القرن الخامس عشر قبل الميلاد يطرح صعوبات تاريخية يصعب حلها . ففي هذه الفترة ، بلغ التوسع الامبريالي لفراعنة الأسرة الثامنة عشر في مصر ذروته ، وذلك خلال حكم الفرعون تحوتمس الثاني وابنه تحوتمس الثلاث ، الذي شن عدة حملات على كنعان ووصل إلى الفرات متحدياً النفوذ الميتاني في تلك المنطقة . لذلك فمن غير المحتمل على الإطلاق أن يكون الخروج من مصر قد تم خلال حكم هذين العاهلين القويين ، ناهيك عن مسألة دخول كنعان ، التي كانت واقعة تحت السيطرة الامبراطورية المباشرة لمصر . وقد لاحظ بعد الباحثين[٣] أن الرقم ٤٨٠ ، الذي وضعه المحرر التوراتي للسنوات الفاصلة بين بناء الهيكل وحادثة الخروج من مصر ، ذو دلالة رمزية ، لأنه يجعل بناء الهيكل في موقع الوسط تماماً من تاريخ إسرائيل التوراتية . ذلك أن فترة ٤٨٠ سنة قد انقضت أيضاً بين بناء الهيكل وعودة المسبيين من بابل . يضاف إلى ذلك ما للرقم أربعين من رمزية خاصة في التقاليد التوراتية ؛ فالتيه في الصحراء قد دام أربعين سنة ، وحكم كل من الملك داود وسليمان قد دام أربعين سنة ، وكذلك فترة حكم معظم القضاة الذين حكموا القبائل قبل المملكة الموحدة . فإذا أضفنا رمزية الرقم ٤٠ إلى رمزية الرقم ١٢ (والأمثلة عليها كثيرة في التقاليد التوراتية مثل الأسباط الإثنا عشرة .. الخ) لتوصلنا أيضاً إلى الرقم

3 - N . M . Sarna , Israel in Egypt (in : Hershel Sanks (edt) , Ancient Israel P. 51

٤٨٠ ، وهو حاصل ضرب ١٢ جيلاً بـ ٤٠ سنة كمتوسط عمر لكل جيل . وبذلك يستبعد هذا الرقم من الحسبان كمعلومة يمكن الإعتماد عليها .

أمام هذه الظلال القاتمة ، التي يرميها التاريخ ، و النص التوراتي نفسه ، على مسألة الخروج ، لم يجد المؤرخون الساعون إلى تقصي تاريخية الحدث التوراتي سوى معلومة واحدة في سفر الخروج يمكن الإنطلاق منها لربط قصة الخروج بتاريخ مصر ، وهي المعلومة المتعلقة بأرض رعمسيس ومدينة رعمسيس . فبنو إسرائيل قد بنوا للفرعون مدينتين إحداهما تدعى رعمسيس (الخروج ١ : ١١) ، ومن هذا المكان انطلقت مسيرة الخروج :" فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت .." (الخروج ١٢ : ٣٧) . وبما أن الفرعون رمسيس الثاني ، الذي حكم فيما بين ١٢٩٠ و ١٢٢٤ ق.م ، قد بنى بالفعل مدينة اسمها بي - رمسيس في منطقة الدلتا قرب عاصمة الرعامسة تانيس ، فإن هؤلاء المؤرخين يضعون الخروج في وقت ما من بداية فترة حكم هذا الفرعون أو أواسطها . فوليم فوكسويل أولبرايت يضع الخروج في تاريخ لا يتعدى عام ١٢٨٠ ق.م ، أي خلال السنوات الأولى لحكم رمسيس ، وهي الفترة التي شهدت عدداً من أحداث التمرد والعصيان على الحكم المصري في المناطق الآسيوية ، الأمر الذي سهل في رأيه تنفيذ مخطط الهروب من مصر. ويقدر أولبرايت الفترة الفاصلة بين الخروج من رعمسيس في مصر واقتحام مدن كنعان ، بستين عاماً ، ويقسمها الى المراحل التالية : ١ - التجول في الصحراء ٢ - التسلل التدريجي الى مناطق فلسطين الشرقية ٣ - فترة استقرار وتمازج مع الجماعات العبرانية المقيمة سابقاً وذلك تحضيراً للإنقضاض الأخير على المدن الكنعانية . وهو يعتقد أن مرحلة التجول في الصحراء لم تدم أربعين سنة بل بضع سنوات فقط ، بينما استغرقت المرحلتين الثانية والثالثة معظم زمن الخروج . وبذلك يكون الإسرائيليون قد أسسوا أنفسهم فعلاً في أرض كنعان حوالي عام ١٢٠٠ ق.م ، وهو تاريخ نصب الفرعون مرنفتاح الذي ورد فيه الإسم إسرائيل لأول مرة في التاريخ[٤].

وقد سار معظم المؤرخين الباحثين عن تاريخية الخروج على خطى أولبرايت ، مع تعديلات طفيفة . فهم يرون أن فترة الرعامسة هي الفترة الوحيدة التي بنى فيها الفراعنة المصريون لأنفسهم عاصمة في الدلتا (هذا إذا صرفنا النظر عن فترة الهيكسوس المعترضة) ، فقد بنى رمسيس الأول مدينة تانيس عاصمة له في الدلتا ، ثم بنى رمسيس الثاني عاصمته في مكان لا يبعد كثيراً ودعاها

---

4 - W . F . Albright , Yahweh and The Gods of Canaann , PP . 159 - 164 .

بي - رمسيس . وقد اشتهر رمسيس الثاني بأعمال التشييد والبناء واستخدم في مشاريعه العمرانية الواسعة كثيراً من اليد العاملة المسخرة ، التي شكل الإسرائيليون جزءاً كبيراً منها . كما يرى هؤلاء في ما تذكره الرواية التوراتية عن قرب مساكن الإسرائيليين من بلاط الفرعون ، وسهولة تنقل موسى وهارون بين الشعب المسخر وبين البلاط الملكي ، عوامل مرجحة في إرجاع الخروج إلى زمن الرعامسة وعلى وجه الخصوص زمن حكم رمسيس الثاني . إلا أن معظمهم يعارض وليم فوكسويل أولبرايت في تاريخه المقترح للخروج وهو عام ١٢٨٠ ق. م ، ويفضل تاريخاً يقع حوالي عام ١٢٥٠ ق.م ، مع الأخذ بعين الإعتبار أن فترة التجول في الصحراء هي بالفعل أربعون عاماً . وبذلك يتزامن دخول كنعان مع حالة الضعف التي ميزت الفترة الإنتقالية بين حكم رمسيس الثاني ، وحكم مرنفتاح الذي اضطرته التمردات في فلسطين إلى شن حملته المعروفة عليها (٥) . وقد قدم علم الآثار لأصحاب هذا الرأي مادة غنية ، بإكتشافه لآثار تدمير واسع للمدن الفلسطينية خلال هذه الفترة المفترضة لدخول الإسرائيليين إلى كنعان ، الأمر الذي سهل أمامهم ربط هذا التدمير بعمليات يشوع العسكرية ، على ما في هذا الربط من تعسف تاريخي كما سنرى في حينه لاحقاً .

وفي الحقيقة فإن أرض رعمسيس ومدينة رعمسيس مما ورد ذكره في سفر الخروج ، مسألة لا يمكن الإعتماد عليها في تحديد زمن الخروج ، لأن المحرر التوراتي قد استخدم اسم أرض رعمسيس في الإشارة إلى منطقة الدلتا منذ أيام يوسف ، أي قبل بناء مدينة رمسيس بحوالي خمسمئة سنة . نقرأ في التكوين ٤٧ : ١١ " فأسكن يوسف أباه وإخوته و أعطاهم ملكاً في مصر في أفضل الأرض ، في أرض رعمسيس ، كما أمر فرعون ". وهذا يعني أن المحرر التوراتي ، الذي كان يكتب سفر الخروج في فترة متأخرة من الألف الأول قبل الميلاد قد أستخدم الإسم الذي يعرفه لمنطقة الدلتا بصرف النظر عن ارتباط هذا الإسم بفترة تاريخية معينة . ومن ناحية أخرى ، فإنه يحق لنا هنا أن نتساءل : لماذا ذكرت رواية الخروج اسم أرض رعمسيس أو مدينة رعمسيس وغفلت عن ذكر اسم فرعون الخروج الذي من المفترض أن يكون رعمسيس نفسه ؟

ورغم أن فريقاً آخر من المؤرخين قد التزم الخطوط العريضة للتفسير التاريخي المطروح ، إلا أنه في مواجهة الغموض الشامل للمعطيات التاريخية ، قد لجأ إلى صياغة "سيناريو" معقول يستبدل التاريخ الموثق بسلسلة متصورة من الأحداث ، التي يمكن أن تكون قد وقعت . ولعل من أكثر

---

5 - *M . N . Sarna , Op . cit , pp .36 - 38 .*

هذه السيناريوهات جاذبية وحسن صنعة وخيال ، ما تقدمت به عالمة الآثار السيدة كاثلين كينيون على هامش دراستها الأركيولوجية القيّمة للأرض المقدسة . تقول كينيون : " تكمن صعوبة التقييم التاريخي لمسألة الخروج في أن الأسفار الأولى للكتاب المقدس قد جاءت نتاجاً لتجميع عدد كبير من التقاليد القبلية ، حاول المحررون تذويبها في نص مضطرد عن تحركات جماعات اعتقدوا أنها كانت تشكل شعباً واحداً منذ البداية . ولقد كان من نتائج إعادة الصياغة هذه ،أن المحررين قد أظهروا أن كل تلك القبائل قد شارك في الخروج ومر من خلال التجربة الدينية ذاتها في سيناء . ولكن الإحتمال الأقوى ، هو أن القبائل التي استقرت في فلسطين كانت من أصول مختلفة ومتنوعة .ويبدو لي ، أن طلائع الإسرائيليين كانت مؤلفة من ثلاثة جماعات رئيسية ؛ الأولى كانت تقيم في بعض مناطق فلسطين وشرقي الأردن ولم تشارك أبداً في الرحيل إلى مصر أو الخروج منها . والثانية نزحت إلى مصر ثم طردت منها فيما يمكن وصفه بالخروج الإجباري إثر مشاركتها في حوادث عصيان وتمرد ، وقد حاولت هذه الجماعة المطرودة دخول فلسطين من الجنوب(*) . أما الجماعة الثالثة ، وهي الجماعة التي تدور حولها معظم أحداث الخروج ، فقد تشكلت من أشتات من المستعبدين المسخرين في بناء المشاريع العامة ، تضافروا على الهروب من وجه أسيادهم ، فعبروا سيناء نحو الأطراف الصحراوية لشرقي الأردن ، فعاشوا هناك حياة رعوية لفترة لا بأس بها قبل أن يدخلوا فلسطين من الجهة الشرقية عبر نهر الأردن . وإن مثل هذا الخروج يناسب تاريخياً فترة حكم رمسيس الثاني ، وهي الفترة الوحيدة ، التي كان للمصريين ، بعد الهكسوس ، عاصمة في الدلتا . فصعد هؤلاء بقيادة موسى حوالي عام ١٢٦٠ ق.م هاربين من مدينة رمسيس ..؟ " (٦).

يطرح مسار الخروج ، من أرض رعمسيس إلى قادش برنيع فشرقي الأردن ، إشكالات أخرى لا تقل عن إشكالات زمن الخروج . فلقد تفادى الهاربون الطريق الدولي المعروف بطريق البحر ، وهو الطريق الأقصر الذي يصل الدلتا بمناطق فلسطين الساحلية ، وفضلوا عليه الدوران عبر مسلك صحراوي طويل جداً . ويبرر النص التوراتي هذا الخيار غير المنطقي بالخوف من المواجهة العسكرية المتوقعة في أرض الفلسطينيين : " وكان لما أطلق فرعون الشعب ،

---

* تقدم السيدة كينيون هذا التفسير إستناداً الى ماورد في سفر العدد ١٤ : ٣٩ ـ ٤٥ حين حاول الإسرائيليون الصعود من قادش برنيع لقتال الكنعانيين والنفاذ إلى فلسطين من الجنوب ، دون إذن موسى ، فهزمهم الكنعانيون شر هزيمة .

6 - *Kathleen Kenyon , Archaeology in the Holy Land , P .205*

أن اللـــه لم يهـــدهم في طـــريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبـــة . لأن اللــــه قال لئلا يندم الشعب إذا رأوا حـــرباً ويرجعوا الى مصر . فأدار الله الشعب في طريق برية بحر سوف .." (الخروج ١٣ : ١٧ - ١٨) . نلاحظ هنا أن المحرر قد استخدم تسمية أرض الفلسطينيين للدلالة على المناطق الساحلية الجنوبية لفلسطين ، علماً أن أول ذكر للفلسطيبيين (أو الفلستيين) ورد في نص للفرعون مرنفتاح ، الذي رد هجوم شعوب البحر عن مصر ، وبينهم هؤلاء الفلستيون ، حوالي عام ١١٨٥ ق.م ، أي بعد التاريخ المفترض للخروج بنصف قرن على الأقل ، وعندما لم يكن هؤلاء قد توطنوا على الساحل وأسسوا مدنهم الخمسة المعروفة . وهذا يدل بوضوح على أن المحرر كان يستند إلى التسميات الجغرافية المعروفة لديه وقت تحرير الأسفار ، لأن هذه المناطق الساحلية من فلسطين بقيت تدعى بأرض الفلستيين حتى العصر الفارسي . بعد عبورهم البحر يتجه الهاربون إلى أعماق سيناء وهدفهم جبل حوريب ، وبعد إقامتهم عند الجبل سنة وتسعة أشهر تقريباً يتحركون شمالاً نحو قادش برنيع .

وفي الحقيقة ، فإن البحث الأثري والتاريخي قد فشل حتى الآن في تحديد مسار الخروج اعتماداً على الرواية التوراتية . فالمواقع التي مر بها الإسرائيليون مثل مارة وايليم وغيرها غير مذكورة خارج النص التوراتي ، والمواقع التي تحمل أسماءً مشابهة في سيناء لم يعط المسح الأركيولوجي فيها نتائج تشجع على إجراء أية مطابقة بينها وبين مواقع الخروج ، بما في ذلك موقع جبل موسى المعروف تقليدياً بأنه جبل حوريب . فتسمية جبل موسى هي تسمية حديثة وليست قديمة ، وجاءت عقب بناء كنيسة القديسة كاترين البيزنطية في الموقع . وفيما يتعلق بموقع قادش برنيع ، الذي أقام فيه الإسرائيليون ثمان وثلاثين سنة ، فإن التنقيب الأثري لم يتوصل إلى الكشف عن آثار سكنية ترجع إلى ما قبل أواخر القرن العاشر قبل الميلاد . وكذلك الأمر في موقع حشبون الذي انتزعه الاسرائيليون من سكانه الأموريين في شرقي الأردن ، فقد جرت مطابقة هذا الموقع مع الموقع الحديث لبلدة حسبان ، ولكن التنقيب في حسبان لم يعطنا آثاراً سكنية ترجع إلى زمن الخروج [٧]. أما الممالك التي واجهها الإسرائيليون في مناطق شرقي الأردن ، فلم تكن قائمة على الإطلاق إبان زمن الخروج ، والمنطقة بكاملها كانت خالية من السكان تقريباً خلال أواخر البرونز الأخير ومطلع عصر الحديد ، وذلك بسبب الجفاف الذي حل بالمنطقة . ولم يعد الاستيطان البشري إلى مناطق شرقي الأردن بشكل يساعد على قيام بنىً سياسية مستقرة ، حتى

7 - N . M . Sarna , op . cit , PP . 43 - 44 , 49 - 50 .

حلول عصر الحديد الثاني ابتداءً من عام ١٠٠٠ ق.م [٨]. وهذا كله يدل على أن المحرر التوراتي كان يستلهم الجغرافية البشرية والسياسية ، المعروفة لديه وقت تحرير الأسفار ، وأنه كان على جهل مطبق بأحوال الزمن المفترض للخروج .

ومن الجدير بالذكر ، أن الشخصية الوحيدة في قصة الخروج ، التي توفرت لدينا عنها معلومات غير توراتية ، هي شخصية بلعام بن بعور العراف الذي دعاه ملك موآب ليلعن له إسرائيل ، (العدد : ٢٢ - ٢٤) . فقد اكتشف مؤخراً في موقع دير العلا بشرقي الأردن عدد من النصوص الآرامية ، بينها نص يذكر بلعام بالذات ويصفه بناظر أو عراف الآلهة .يقول النص : " هذه كلمات بلعام بن بعور ناظر (عراف) الآلهة .." [٩] ، غير أن نصوص دير العلا هذه ترجع الى حوالي عام ٧٥٠ ق.م ، أي إلى فترة قريبة جداً من زمن تدوين التوراة ، عندما كانت ذكريات ما عن هذه الشخصية الروحية في المنطقة ما زالت حية ومتداولة ، بينما يفصل عصر بلعام التاريخي هذا عن عصر الخروج حوالي خمسمئة سنة .

أخيراً أود أن أختم هذا النقد التاريخي لقصة الخروج برأي للباحث N . M . Sarna ، وهو مؤرخ وباحث توراتي يهودي أميركي ، وله أبحاث قيمة ورصينة في هذا المجال . يقول Sarna في دراسة جديدة له حاول من خلالها جاداً تقصي تاريخية أحداث الخروج ما يلي : " إن خلاصة البحث الأكاديمي حول مسألة تاريخية الخروج تشير إلى أن الرواية التوراتية تقف وحيدة دون سند من جهة ، وهي مليئة بالتعقيدات من جهة ثانية . وهذا كله لا يساعدنا على وضع أحداث الخروج ضمن إطار تاريخي . إضافة إلى ذلك ، فإن النص التوراتي يحتوي على محددات داخلية ذاتية ناشئة عن مقاصد وأهداف المؤلفين التوراتيين . فهؤلاء المؤلفون لم يكونوا يكتبون تاريخاً ، وانما يعملون على إيراد تفسيرات لاهوتية لحوادث تاريخية منتقاة . وقد تمت صياغة الروايات التوراتية بشكل يتلاءم مع هذه المقاصد والأهداف ، وبالتالي فإننا يجب أن نقرأها ونستخدمها تبعاً لذلك . إننا نفتقد إلى المصادر الخارجية ، التي تذكر عن تجربة الإسرائيليين في مصر أو تشير إليها بشكل مباشر ، والبيّنة الموضوعية الواضحة على تاريخية النص التوراتي هنا ، مفقودة تماماً ، بما في ذلك نتائج التنقيب الأثري ." [١٠]

---

8 - Th . L Thompson , Early History of the Israelite People , PP . 293 - 300 .
٩ - د . علي أبو عساف :الآراميون ، دار أماني ، طرطوس - سورية ١٩٨٨ ،ص ٧
10 - N M . Sarna , Op cit , p . 51

الفصل الثالث

إسرائيل في كنعان

عصر يشوع وعصر القضاة

الخلفية التاريخية العامة

مرة أخرى تشهد مناطق آسيا الغربية موجة جفاف طويلة ومتصاعدة ، مشابهة لتلك الموجة التي انهت ثقافة عصر البرونز المبكر . فقد ترافق حلول عصر البرونز الأخير (١٦٠٠ - ١٢٠٠ ق.م) مع ميل تدريجي للمناخ نحو الحرارة والجفاف . وقد وصل هذا الجفاف ذروته حوالي عام ١٢٠٠ ق.م في اليونان وجزر المتوسط والأناضول وسورية ، وقامت العوامل الطبيعية بالإجهاز على ثقافة عصر البرونز الأخير . مع تزايد تأثير الجفاف أخذت المناطق الهامشية الحساسة للجفاف ، في سورية وفلسطين بشكل خاص ، بخسارة سكانها الذين أخذوا بالجلاء عنها تدريجياً نحو المناطق الأبطأ تأثراً بالجفاف ، أو نحو البراري متحولين إلى رعاة متنقلين . حتى أن مناطق بكاملها قد أخليت تماماً من سكانها قبل نهاية البرونز الأخير ، مثل منطقة الهضاب المركزية في فلسطين . وقد شهدت منطقة الهضاب المركزية هذه مع بداية عصر الحديد الأول (١٢٠٠ ق.م) إعادة استيطان على نطاق واسع من قبل الجماعات التي أعتقد المؤرخون لفترة طويلة أنها الجماعات الإسرائيلية . أما في هضاب يهوذا ، التي غزاها التصحر وحولها إلى بوادٍ قاحلة ، فقد هجرها جميع السكان الزراعيين تقريباً ، ولكن عملية إعادة الإستيطان فيها قد تأخرت قرنين تقريباً عن منطقة الهضاب المركزية ، أي حتى القرن العاشر قبل الميلاد [١] . وهذه المعلومات الجديدة

---

1 - Th . L - Thompson , Early History of the Israelite People , PP . 205 - 208 .

سيكون لها دور كبير في كيفية فهمنا وتقييمنا للرواية التور' ة عن دخول الاسرائيليين وعن استقرارهم في كنعان . لأن منطقة الهضاب المركزية هي التي استوطن فيها ، وفق الرواية التـوراتية ، الأسباط العشرة . الموصوفة بإسرائيل ، بينما استوطن في شمال يهوذا سبط بنيامين ، تلاه سبط يهوذا ، الذي شغل المناطق الهضبية ليهوذا حتى البوادي الجنوبية .

ولقـد ساعد إفقار المنطقة الفلسطينية على وقوعها فريسة سهلة لفراعنة الأسرة الثامنة عشر ، الذين حولوا فلسطين إلى ممر تجاري لهم يصلهم بالعالم السوري والرافدي . ونستدل من رسائل تل العمارنة على أن الفراعنة لم يحكموا المدن الإستراتيجية الواقعة تحت نفوذهم حكماً مباشراً ، بل عن طريق الملوك المحليين الذين كانوا يتبعون مباشرة للبلاط المصري . وقد أدى التواجد المصري هنا إلى آثار إيجابية على اقتصاديات المدن الكبرى ، وإلى استقرار النظم السياسية فيها .كما ساعد على تأجيل الكارثة الشاملة ، التي حلت بمدن بلاد الشام الأخرى خلال هذه الفترة الإنتقالية من عصر البرونز الأخير إلى عصر الحديد . إلا أن الإنهيار الإقتصـادي الشامل ، الذي وقع مع نهاية البرونز الأخير قد صرف نظر مصر مؤقتاً عن فلسطين ، وتركت المدن الفلسطينية لمصيرها المفجع ، حيث نرى آثار الدمار الكامل للعديد من هذه المدن خلال أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الثاني عشر [٢]

تعتبر فترة تل العمارنة أكثر فترات عصر البرونز الأخير توثيقاً ، وتمتد من أواسط القرن الخامس عشر إلى أواسط القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وقد سميت هذه الفترة بعصر العمارنة نسبة إلى موقع تل العمارنة في مصر العليا ، حيث ابتنى الفرعون أمنحوتب الثالث عاصمة جديدة له هنا ، عثر بين أنقاضها على أرشيف ملكي غني يضم عدداً كبيراً من الرسائل المتبادلة بين أمنحوتب الثالث وابنه أمنحوتب الرابع (أخناتون) ، وبين ملوك سورية وفلسطين والأناضول وبابل . وتعطينا هذه الرسائل صورة واضحة عن الأوضاع السياسية في منطقة الشرق القديم وعن العلاقات بين القوى العظمى في ذلك الوقت . فخلال عصر البرونز الأخير تقاسمت ثلاثة قوى كبرى مناطق النفوذ على المسرح الدولي ، وهي ميتاني في الجزيرة والشمال السوري وحاتي في الأناضول ومصر إلى الجنوب . وإلى جانب هذه القوى الكبرى الثلاثة ، فقد كان لسلالة الملوك الكاشيين الذين ورثوا مملكة حمورابي سلطة كاملة على مناطق سومر وأكاد لم ينازعهم فيها أحد ، وقد مالوا إلى تعزيز صلاتهم الدبلوماسية مع

2 - Ibid , PP . 205 - 209 .

القوى الكبرى وخصوصاً مصر ، تفادياً لصدمات غير متكافئة مع أي منها . ونعرف من الوثائق المصرية أن أحد ملوك بابل الكاشيين قد أرسل أميرات من عائلته الملكية ليكن زوجات لأمراء مصريين ، وطالب عبثاً بأن يتزوج من أميرة مصرية . كما عملت ميتاني من جهتها على خطب ود ملوك الأسرة الثامنة عشر الأقوياء ، وزوجت اثنتين من أميراتها على التوالي إلى كل من الفرعون أمنحوتب الثالث وأمنحوتب الرابع . أما حاتي فقد مارست الضغط المتواصل على مناطق التواجد المصري في سورية ، واستفادت من فترة الضعف المصري خلال حكم أخناتون لتدفع مناطق نفوذها نحو أواسط سورية ، بعد أن كان تحوتمس الثالث قد عسكر عند مناطق الفرات الأوسط ، وفرض نفوذه على معظم مناطق وسط وجنوب بلاد الشام . وفيما يتعلق بآشور فلم تكن قد دخلت مسرح الحياة الدولية لعصر البرونز الأخير ، إلا أنها كانت تمارس ضغطاً بطيئاً ومتصلاً على كل من ميتاني وبابل . ورغم أن الممالك السورية كانت واقعة تحت نفوذ هذه القوة الكبرى أو تلك ، إلا أنها مارست تأثيراً ثقافياً واسع النطاق . ولا أدل على ازدهار الحياة الثقافية في هذه الممالك من أرشيف مدينة أوغاريت ، والذي يعتبر أهم تركة ثقافية لعصر البرونز الأخير بكامله .

وتقدم رسائل تل العمارنة المتبادلة بين الملوك السوريين والفلسطينيين ، والبلاط المصري ، خلال حكم الفرعون أخناتون ، معلومات قيمة عن الأوضاع السياسية لمنطقة فلسطين والساحل الكنعاني . فقد كانت هذه المنطقة تموج بالإضطرابات والنزاعات الداخلية الناجمة عن الغياب المفاجىء للقوة المصرية هنا ، بسبب المشاكل الداخليـة التي كان يواجهها أخناتون ، وطموحات الحثيين لملء الفراغ المصري . وقد استغل الفرصة بشكل رئيسي الملك عازيرو ، ملك مقاطعة آمورو (التي كانت تشغل منطقة طرطوس الحالية على الساحل وامتدادات واسعة نحو الداخل) ، فقام بدعم وتحريض من مملكة حاتي بمحاولة تقويض ما تبقى من النفوذ المصري في سورية الجنوبية وفلسطين عن طريق مهاجمة الدويلات الموالية لمصر ، بالتعاون مع جماعات العابيرو التي كانت تعيث فساداً في المنطقة . ولدينا عدد من الرسائل التي تشكو إلى الفرعون تعديات عازيرو وجماعات العابيرو المسلحة ، ومنها هذه الرسالة ، التي بعث بها ملك أورشليم المدعو عبدي هيبة :

" إلى الملك مولاي . هكذا يقول خادمك عبدي هيبة . إنظر إلى مافعله ملكيلو ، وشوارداتا (من قادة العابيرو) بأراضي الملك . لقد دفعوا بقوات من حازر ومن جت ومن

كيله . أخذوا أراضي روبوتو وأرض الملك صارت بيد العابيرو . فليصغ مليكي إلى خادمه عبدي هيبة ويرسل قواتاً تعيد الأراضي إلى الملك . وإذا لم تصل القوات ، فإن أراضي الملك ستغدو جميعاً للعابيرو.."[3]

ولدينا رسائل مشابهة من ملوك جبيل ومجدو وشكيم وجازر وصور . تقول رسالة ملك صور :

" إنني أحمي صور المدينة العظيمة من أجل مولاي الملك ، إلى أن تصلني قواته فتهبني ماءً لأشرب وحطباً لأدفأ . وإنني أحيطكم علماً بأن زيميريدا ملك صيدون قد كتب مراراً إلى المجرم عازيرو ابن عبدي عشيرته بخصوص كل ما سمعه من مصر . وها أنا قد كتبت إليك بكل ما يتوجب عليك معرفته "[4]

وتتقاطع النصوص الحثية مع النصوص المصرية بخصوص بعض أحداث المنطقة خلال هذه الفترة . فلدينا نص معاهدة حثية مع عازيراس (عازيرو) ملك آمورو ، تؤكد لنا خضوعه لحاثي وقيامه بخلق الإضطرابات في المنطقة لصالحها . نقرأ في المعاهدة :

" أنا الملك الشمس قد جعلتك يا عازيراس تابعي . فإن صنتَ أرض ملك حاتي ، سيدك ، فإن سيدك سيقدم لك الحماية . عليك أن تحمي روح مليكك وشخصه وجسمه وأرضه ، وملك حاتي سيقدم لك بالمقابل الحماية نفسها . ويتوجب عليك أن تدفع ٣٠٠ شيكل من الذهب الخالص جزية سنوية .. (تعداد لبقية بنود المعاهدة) . لقد ترك عازيراس ملك آمورو بوابة مصر ، وصار موالياً للملك الشمس "[5]

نلاحظ من أسماء زعماء العابيرو في رسائل تل العمارنة ، أن بعضهم من أصل سامي مثل ملكيلو (ملك - إيلو) ، وبعضهم الآخر من أصل هندوأوربي مثل شوارداتا ولابايو . وهذا يدل على الأصول المختلفة لجماعات العابيرو وعدم انتمائها إلى منشأ إثني عرقي واحد . إن الدراسة المتأنية لرسائل تل العمارنة تدل على أن العابيرو كانوا أشتاتاً من الشرائح التي تعيش على هامش المجتمع ، ولا تمارس دوراً محدداً في النشاط الإقتصادي لدويلات المدن المحلية . فقد تقدم خدمات عرضية لأهل المدن أو لأهل المناطق الزراعية ، وقد تتحد في

---

3 - James Pritchard , The Ancient Near Eastern Texts , Princeton 1969 , p. 489 .
4 - Ibid , P . 484
5 - Ibid , P .529

عصابات تمارس النهب والسرقة ، أو تعمل جنوداً مرتزقة في خدمة الملوك ، شأنها في ذلك كله شأن الخابيرو ، الذين تعرفنا عليهم من خلال سجلات ثقافة البرونز الوسيط في مملكة ماري وغيرها . وفي الحقيقة ، فإن كلمة عابيرو هي المعادل في اللغة السامية الغربية لكلمة خابيرو في السامية الشرقية (الأكادية) . ذلك أن حرف العين في الكتابة الأكادية قد سقط من الإستعمال منذ زمن بعيد وحل محله حرف الخاء .

لقد حاول بعض الباحثين إيجاد صلة بين كلمة عابيرو وكلمة عبريم التوراتية التي تعني عبراني ، فاشتقوا الكلمتين من الجذر (ع ب ر) في اللغة السامية الغربية ، والذي يعني مرّ أو عبر ، وذلك في محاولة لاختراع أصل في فلسطين لجماعات العبرانيين الذين استولوا على أرض كنعان حسب رواية سفر يشوع . ويعتقد أولبرايت ، الذي يؤيد هذا الرأي ، أن جماعة سفر الخروج من العبرانيين قد التقت في منطقة فلسطين الشرقية بالعابيرو القدماء ، الذين بقوا في هذه المنطقة منذ فترة تل العمارنة ، وتمازجت معهم عبر فترة من الزمن قبل أن يبدأ الهجوم العبراني الكاسح على دويلات المدن الفلسطينية (٦). أما الباحث ليمش Lemche ، الذي يضع كامل أحداث الخروج خارج الإطار التاريخي ، ويعتقد بالأصل المحلي للإسرائيليين ، فيجد بأن عابيرو رسائل تل العمارنة قد لجأوا إلى المناطق الهضبية من فلسطين بعد فشل عملياتهم العسكرية ، وتمازجوا تدريجياً مشكلين شعب اسرائيل (٧).

ولكن الإتجاهات الجديدة في البحث تميل إلى نفي وجود صلة بين عابيرو القرن الرابع عشر في فلسطين وعبريم التوراة . فالباحث لوريتس Lorets على سبيل المثال ، وهو من أهم نقاد هذه الفرضية ، يرى أنه بصرف النظر عن وجود صلة بين كلمتي عابيرو و عبريم المختلفتين تماماً ، فإنه لا يوجد لدينا أي دليل تاريخي يدعو إلى الربط بين هذا النوع من المقارنات اللغوية وبين مسألة أصول إسرائيل . والمسألة هنا لا تتعلق فقط بالفجوة الزمنية بين عصر العابيرو والفترة المفترضة لدخول الإسرائيليين ، بل بمدى التحولات الإجتماعية المتضمنة في الفترة الفاصلة بين عصر العابيرو وعصر تدوين التوراة . وعلى فرض وجود صلة لغوية بين عابيرو وعبريم ، وهي صلة غير مؤكدة على الإطلاق ، فإن ذلك لا يعدو أن يكون نوعاً من التشابه الذي لا يتضمن أية وقائع تاريخية . وذلك إضافة إلى معلوماتنا الجديدة عن المناطق

---

6 - W . F . Albright , Yahwe and The Gods Of Canaan PP . 87 - 88 .
7 - Th . L . Thompson , op . cit , P 134 .

الهضبية في فلسطين ، والتي كانت خالية من السكان خلال العصر الإنتقالي من البرونز الأخير إلى عصر الحديد ، ولم يكن فيها لا عابيرو ولا عبرانيين[٨].

إنتهى عصر البرونز الأخير بكارثة مناخية وإقتصادية شاملة ، كما أشرنا منذ قليل ، وانهارت ممالك ذلك العصر من بحر إيجه إلى الأناضول هبوطاً نحو الساحل السوري وفلسطين . فقد ضربت المجاعة جميع أنحاء المملكة الحثية في أواخر القرن الثالث عشر ، وأرسل الملك الحثي يطلب شحنة قمح من أوغاريت . ولم تلبث المملكة طويلاً حتى تفككت وراح سكانها يبحثون عن مناطق جديد تعيلهم في كل حدب وصوب ، ثم تبعتها أوغاريت التي لم تصمد طويلاً حتى انهارت تماماً حوالي عام ١١٨٢ ق. م . ويبدو أن شعوب البحر الذين أخلوا مناطقهم في اليونان وجزر بحر أيجه ، وحط فريق منهم على الشواطىء الحثية ، كانوا يسيرون في أرض محروقة خلت من السكان والزرع والضرع . ولعل الشيء نفسه ينطبق على أوغاريت التي يرجح بعض الباحثين اليوم أنها لم تسقط بيد شعوب البحر ، وانما هجرها سكانها بعد أن ضربتها الزلازل ، ولم تكن البنية الإقتصادية للمدينة تسمح بإعادة بنائها . وتسير هذه الفرضية إلى القول بأن معظم المدن ، التي دمرت خلال هذه الفترة كانت في حالة انهيار اقتصادي كامل أدى إلى إطلاق رصاصة الرحمة عليها بوسائل شتى . من هنا فإن النظرية القديمة ، التي تعزو دمار ثقافة عصر البرونز الأخير إلى الجماعات المدعوة بشعوب البحر ، لم تعد بالنظرية المفضلة الآن . ولكن من هم بالضبط شعوب البحر ، الذين كتبوا الفصل الأخير في مسلسل انهيارات ثقافة البرونز الوسيط؟

بعد انهيار الحضارة المسينية في كريت وجزر بحر إيجه بتأثير الكارثة المناخية والغزوات العسكرية التي أجهزت عليها ، تم اقتلاع جزء كبير من سكان هذه المناطق وتشتيتهم في الأصقاع المجاورة . ويبدو أن ضغط البرابرة على اليونان وحزر بحر إيجه ، قد أدى إلى سلسلة من تحركات الشعوب بحثاً عن مناطق جديدة للإستقرار ، بعيداً عن عالم تم تهديمه تماماً . وقد وصلت طلائع هذه الفئات الهائمة ، التي ترتحل مع خيامها وأسرها ومتاعها المنزلي ، الى شمال أفريقيا ، وتعاونت مع الليبيين الذين كانوا يتربصون منذ زمن طويل للإنقضاض على مصر ،فتقدم هذا التحالف المؤقت نحو الدلتا في محاولة للإستقرار فيها . ولكن الفرعون مرنفتاح تصدى لهم بقوة وردهم عن حدود مصر البرية والبحرية في معركة فاصلة جرت حوالي عام ١٢٢٠ ق.م . وفي الوقت

8 - *Ibid* , *PP 134 - 137*

نفسه تقدمت جماعات متحدة أخرى من شعوب البحر هؤلاء ، منطلقة من نقطة ما من الأرخبيل الإيجي ، وحطت على شواطىء آسيا الصغرى مخترقة أراضي المملكة الحثية المخربة وشبه المهجورة ، مستولية على ما يمكن الإستيلاء عليه مما أبقت عليه المجاعة ، التي توطنت في تلك المناطق . ثم تابعت طريقها هبوطاً نحو بلاد الشام مهدمة أو مستولية على المدن التي صمدت أمام الكارثة المناخية ، وأخذت الطريق الساحلي نحو فلسطين حيث أشاعت الفوضى والدمار في ممالك المدن الكنعانية ، وهدفها الأخير مصر ، أسمن الطرائد في دلك العصر .ولكن خليفة مرنفتاح الفرعون رمسيس الثالث تصدى لهم في جنوب فلسطين وقضى عليهم نهائياً كجماعة عسكرية موحـدة ، فتفرقوا في المنطقة وذابوا تدريجياً في تركيبها السكاني . ويبدو أن فريقاً منهم ، وهـو الذي يدعى البيليست في النصوص المصـرية ، قد توطن في ساحل فلسطين الجنوبي ، وهي المنطقة التي تدعوها الأسفار التوراتية بأرض الفلسطينين ، وتدعوها الوثائق الآشورية بفلستيا .

غير أن هؤلاء المستوطنين على الساحل الفلسطيني ، لم يحافظوا على تكوين عرقي وثقافيي مدة طويلة . ذلك أن دراسة المخلفات المادية لثقافة هذه المنطقة منذ مطلع عصر الحديد [٩] ، تظهر أن الخزفيات القريبة من نمط بحر إيجه تنتشر لفترة قصيرة مع مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، ثم تختفي تدريجياً لتحل محلها خزفيات تنتمي إلى أنماط محلية واضحة .كما تظهر نقوش كتابية منيوية (كريتية) متفرقة على الأختام ، ثم تختفي لتحل محلها النقوش الكنعانية . وفيما عدا ذلك ، فإن جميع الآثار المادية للمنطقة المدعوة بفلستيا تعكس طابعاً محلياً واضحاً في كل مجال من مجالات الحياة ، من الأنماط المعمارية إلى المعتقدات والممارسات الدينيـة التي تركزت حول آلهة كنعانية قديمة مثل داجون وعشتاروت . وهذا يعني أن المدن الفلسطينية الخمسة الموصوفة في النصوص الآشورية خلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد ، وفي النصوص التوراتية من أواسط الألف الأول قبل الميلاد ، لم تكن إلا مدناً كنعانية قلباً وقالباً . وإن عقد الصلة بين بيليست شعوب البحر ممن تسرب بعضهم إلى المنطقة مع مطلع القرن الثاني عشر ، وفلسطينيي النصوص الآشورية والتوراتية ، باعتبار هؤلاء استمراراً إثنياً وثقافياً لأولئك ، لا يقوم على أساس تاريخي صلب .

* * *

9 - *Kathleen Kenyon , Archaeology in the Holy Land , PP . 212 - 219 .*

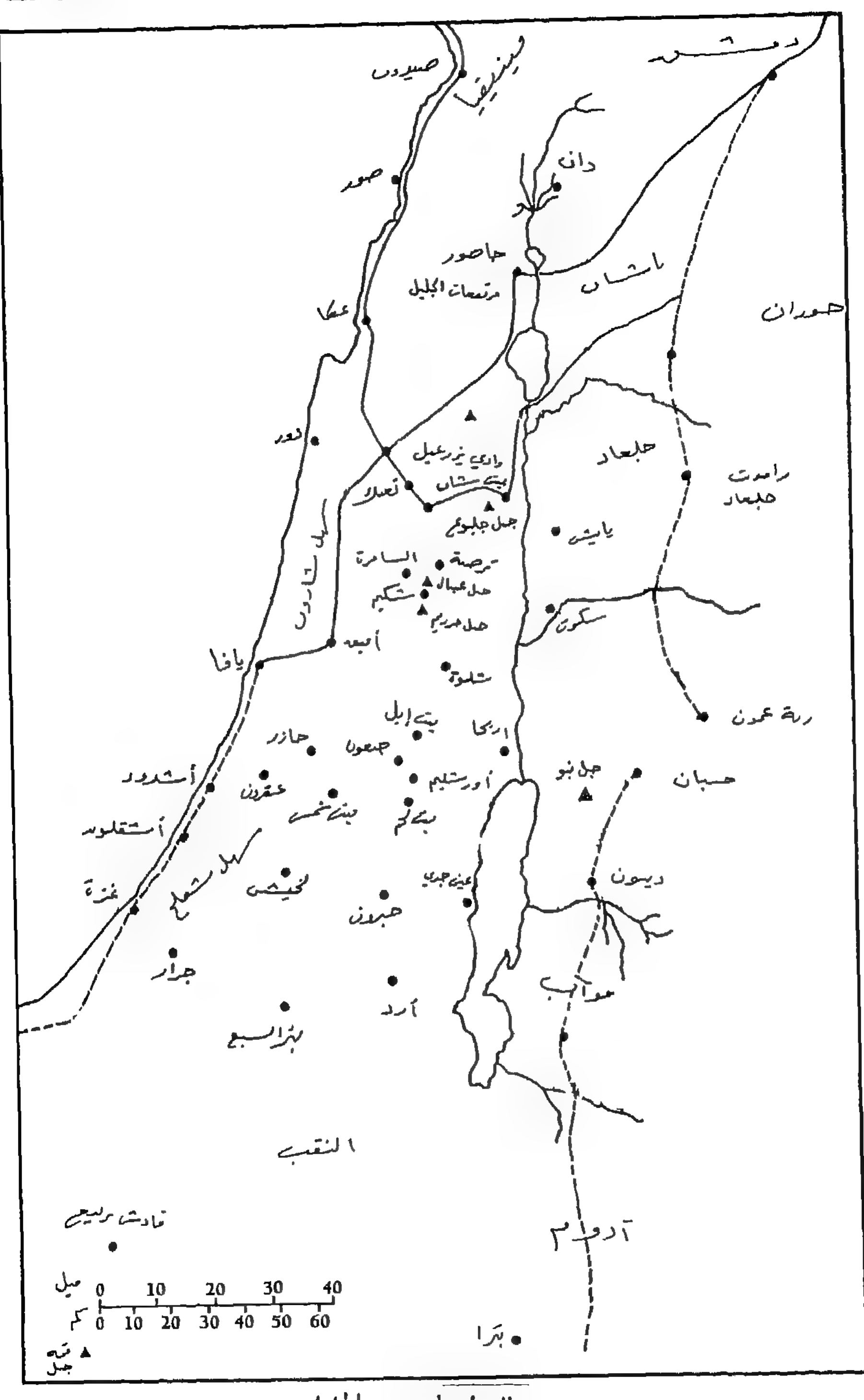
هذه هي الصورة العامة للمسرح ، الذي اقتحم عليه يشوع بن نون بقبائله العبرانية ، ووزع أرض كنعان على تلك القبائل وفق الرواية التوراتية . فإلى أي حد تنطبق أحداث شعر يشوع وسفر القضاة من بعده على هذه الصورة؟ .

النظرية التوراتية الأولى

يشوع والإقتحام العسكري لكنعان

يقدم لنا محررو التوراة نظريتين متناقضتين لتفسير أصول القبائل الإسرائيلية في كنعان ؛ نظرية الإقتحام العسكري الصاعق عبر نهر الأردن ، والتي تقوم على أساس أحداث سفر يشوع ، ونظرية التسلل السلمي التدريجي ، التي تقوم على أساس أحداث سفر القضاة . وهذين السفرين متناقضين في جميع تفاصيلهما إلى درجة تدفع إلى القول بأن محرر سفر القضاة لم يقرأ أو يطلع على سفر يشوع ، وأن القائمين على عملية الصياغة الأخيرة للنص التوراتي لم يكونوا في موقف معين يساعدهم على تفضيل إحدى النظريتين على الأخرى ، فوضعوهما جنباً إلى جنب ، ربما في انتظار صياغة نهائية للنص لم تر النور حتى الأن . وسنتفرغ فيما يلي لسفر يشوع .

بعد موت موسى أمر الرب يشوع بن نون ، وكان الذراع العسكري الأيمن لموسى ، أن يستلم زمام القيادة قائلاً : " موسى عبدي قد مات . فالآن قم اعبر هذا الأردن أنت وكل الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لبني إسرائيل . كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى ... فأمر يشوع عرفاء الشعب قائلاً : جوزوا في وسط المحلة وأمروا الشعب قائلين هيئوا لأنفسكم زاداً لأنكم بعد ثلاثة أيام تعبرون الأردن هذا ،لكي تدخلوا فتمتلكوا الأرض ، التي يعطيكم الرب "(يشوع ١ : ١ - ١١) . وعندما حل الموعد المضروب وتقدم يشوع بقواته لعبور الأردن وأمامهم تابوت العهد ، انفلقت مياه النهر أمامهم في معجزة إلهية ثانية كمعجزة بحر سوف ، وعبروا على اليابسة ثم عاد الماء سيرته الأولى .



٢ ـ فلسطين في عصر الحديد

خيم يشوع في موقع الجلجال في تخم مدينة أريحا الشرقي وخاطب الشعب قائلاً : " غداً تُعلمون بنيكم قائلين على اليابسة عبر إسرائيل هذا الأردن ، لأن الرب إلهكم قد يبس مياه الأردن أماكم حتى عبرتم ، كما فعل الرب إلهكم ببحر سوف الذي يبسه من أمامنا حتى عبرنا . لكي تعلم جميع شعوب الأرض يد الرب أنها قوية "... " فحل بنو إسرائيل في الجلجال وعملوا الفصح في اليوم الرابع عشر من الشهر مساءً في عربات أريحا ، وأكلوا من غلة الأرض في الغد بعد الفصح فطيراً وفريكاً . وانقطع المنُّ في الغد عند أكلهم من غلة الأرض ، ولم يكن بعد لبني إسرائيل منّ "(يشوع : ٣ - ٥) .

لم يدم حصار مدينة أريحا المنيعة أكثر من سبعة أيام ، لأن الرب أظهر في أريحا معجزة أخرى . لقد أمر الرب يشوع أن يدور بجنوده حول أسوار المدينة في كل يوم مرة ، وفي اليوم السابع لدى إتمامهم سبع دورات يقوم حملة الأبواق بالنفخ فيها بصوت عظيم ، يتبعهم جميع الشعب بهتافات مدوية فيسقط سور المدينة من تلقاء ذاته ، وتكون المدينة وكل ما فيها محرماً للرب . والتحريم بالمصطلح التوراتي ، هو تقديم سكان المدينة المغلوبة قرباناً للرب مع مواشيهم وكل نفس حية من ممتلكاتهم . أما الممتلكات المادية الثمينة كأواني الفضة والنحاس والذهب ، فتكون قدساً للرب وتدخل في خزانة الرب . فعل يشوع ما أمره الرب وسقطت أسوار أريحا من تلقاء ذاتها ، فدخل يشوع وجنوده وأبادوا أهل المدينة عن بكرة أبيهم مع حيواناتهم ومواشيهم ، ثم نهبت المدينة وأحرقت بالنار . (يشوع : ٦) . ومن أريحا يتجه يشوع نحو مدينة عاي القريبة منها ، ولكنه يُهزم هزيمة منكرة : " فضرب منهم أهل عاي نحو ستة وثلاثين رجلاً ولحقوا بهم وضربوهم في المنحدر . فذاب قلب الشعب وصار مثل الماء . فخرق يشوع ثيابه وسقط على وجهه إلى الأرض أمام تابوت الرب إلى المساء هو وشيوخ إسرائيل ووضعوا تراباً على رؤوسهم ". عند ذلك يخبر الرب يشوع عن سبب هزيمتهم ، ونعرف أن واحداً من رجال إسرائيل قد احتفظ لنفسه بثوب وبعض الأمتعة النفيسة في أريحا ، مخالفاً بذلك أمر التحريم . فيؤخذ المذنب مع بنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته فيرجمون جميعاً ثم يحرقون بالنار ، حتى يرجع غضب الرب عن إسرائيل . وعندما شن يشوع حملته الثانية على مدينة عاي أخذها وقتل سكانها جميعاً وجعلها " تلاً خراباً أبدياً إلى هذا اليوم " . ولكن البهائم نهبها إسرائيل لأنفسهم حسب قول الرب الذي أمر به يشوع (يشوع :٧ - ٨) .

ولما سمع سكان جبعون القريبة من أريحا نحو الشرق ، خافوا من مواجهة إسرائيل ، وصعد وفد منهم بخدعة إلى يشوع وقد ارتدوا أسمالاً بالية ونعالاً ممزقة ، وفي أكياس زادهم خبز يابس قد صار فتاتاً ، وطلبوا الأمان لمدينتهم منه قائلين أن مدينتهم بعيدة جداً وفقيرة ، وها هي ثيابهم قد بليت ونعالهم قد تشققت من طول المسافة ، وزادهم من الخبز قد تفتت ويبس في الطريق . فقطع لهم يشوع ورؤساء جماعته عهداً بعدم الإعتداء عليهم . وبعد سفرهم عرف يشوع أن المدينة قريبة وميسورة الحال ، ولكنه بقي على العهد ، الذي قطعه لهم وأمر بتسخيرهم لخدمة اسرائيل ، وجعل منهم محتطبي حطب ومستقي ماء للجماعة ولمذبح الرب (يشوع :٩)

" فاجتمع ملوك الآموريين الخمسة ؛ ملك أورشليم وملك حبرون وملك يرموت وملك لخيش وملك عجلون وصعدوا هم وكل جيوشهم ، ونزلوا على جبعون وحاربوها . فأرسل أهل جبعون إلى يشوع إلى المحلة في الجلجال يقولون لا ترخ يديك عن عبيدك . إصعد الينا عاجلاً وخلصنا .. فصعد يشوع من الجلجال وجميع رجال الحرب معه وكل جبابرة البأس . فقال الرب ليشوع لا تخفهم لأني بيدك قد أسلمتهم ، لا يقف رجل واحد منهم بوجهك . فأتى إليهم يشوع بغتة ، صعد الليل كله من الجلجال ، فأزعجهم الرب أمام إسرائيل وضربهم ضربة عظيمة في جبعون وبينما هم هاربون من أمام إسرائيل وهم في منحدر بيت حورون ، رماهم الرب بحجارة عظيمة من السماء .. حينئذ كلم يشوع الرب وقال أمام عيون إسرائيل : يا شمس دومي على جبعون ويا قمر على وادي أيلون فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه ".. أما الملوك الخمسة ، فقد قبض عليهم يشوع وقتلهم وعلقهم على أعمدة من خشب . بعد ذلك يتابع يشوع مسيرته جنوباً ويستولي على المدن التالية : مقيدة ، لبنة ، لخيش ،جازر ، عجلون ، حبرون ، دبير ، وصولاً إلى غزة على الساحل ، ثم ينعطف نحو الصحراء ليصل إلى قادش برنيع ، دون أي ذكر لمدينة أورشليم ، التي كانت رأس تحالف الملوك الخمسة . بعد ذلك يقفل عائداً إلى مخيمه في الجلجال قرب أريحا (يشوع :١٠) .

وكانت حاصور درة مدن الشمال وأقواها . فجمع ملكها المدعو يابين إليه ملوك الشمال " فخرجوا هم وكل جيوشهم معهم ، شعباً غفيراً كالرمل ، الذي على شاطىء البحر في الكثرة ، بخيل ومركبات كثيرة جداً . فاجتمع هؤلاء الملوك بميعاد ، وجاءوا ونزلوا معاً على

مياه ميروم لكي يحاربوا إسرائيل ...فدفعهم الرب بيد إسرائيل فضربوهم وطاردوهم ..ثم رجع يشوع في ذلك الوقت و أخذ حاصور وضرب ملكها بالسيف ، وضربوا كل نفس بها بحد السيف ، حرموهم ، لم تبق نسمة ، وأحرق حاصور بالنار . فأخذ يشوع كل مدن أولئك الملوك وجميع ملوكها وضربهم بحد السيف ، حرمهم كما أمر موسى عبد الرب . وكل غنيمة تلك المدن والبهائم نهبها بنو إسرائيل لأنفسهم .. فأخذ يشوع كل الأرض حسب ما كلم به الرب موسى ، وأعطاها يشوع ملكاً لإسرائيل حسب فرقهم وأسباطهم ، واستراحت الأرض من الحرب " (يشوع : ١١) .

بعد ذلك لا يبقى أمام يشوع سوى الانشغال بكيفية توزيع أرض كنعان على الأسباط ، ورسم الحدود الدقيقة لأراضي كل سبط . وهذا ما تفصّله بقية إصحاحات سفر يشوع من ١٢ إلى ٢٤ . ثم يموت يشوع وعمره مئة وعشر سنين .

النقد النصي لسفر يشوع

يستمر في سفر يشوع أسلوب السرد الملحمي الممزوج بعناصر قصصية خرافية . فعبور نهر الأردن يتم بعد انفلاق الماء أمام الإسرائيليين ، وسور أريحا يسقط من تلقاء ذاته على صوت الأبواق والهتافات العالية ، والسماء تمطر حجارة ثقيلة على الجيوش الخمسة وتقتل منهم أكثر مما قتله الجنود ، و الشمس تقف في كبد السماء ولا تعجل للغروب حتى يطول النهار ويسمح بانتصار الإسرائيليين . ثم يعمد المحرر فوق ذلك إلى تلوين روايته بعناصر من القصص الشعبي . فقبل الهجوم على أريحا ، يبعث يشوع برجلين من عنده للتجسس على المدينة ، فذهبا ودخلا بيت امرأة زانية اسمها راحاب واضطجعا هناك ، فعرف ملك أريحا بأمر الجاسوسين وبمكان إقامتهما فأرسل إلى راحاب يعلمها بأن الرجلين من الجواسيس ويطالبها بتسليمها ، ولكن المرأة خبأتهما على سطح بيتها بين عيدان الكتان ، وقالت لرسل الملك بأنهما غادرا قبل إغلاق بوابات المدينة مساءً ، فلحقوا بهما في طريق الأردن إلى المخاوض . ثم أنزلت الرجلين وقالت لهما : " علمت أن الرب قد أعطاكم الأرض و أن رعبكم قد وقع علينا وأن جميع سكان الأرض قد ذابوا من أجلكم .. فالآن إحلفا لي بالرب واعطياني علامة أمانة ، لأني عملت معكما معروفاً ، بأن تعملا أنتما أيضاً مع بيت أبي معروفاً وتخلصا أنفسنا من الموت" . فوعدها الرجلان

خيراً وانطلقا إلى المعسكر . وحين استباح يشوع المدينة لم يبق فيها إلا على راحاب وعائلتها بسبب المعروف الذي صنعته لهم . وتعتمد قصة الصلح مع مدينة جبعون على عناصر التشويق والفكاهة الضمنية المعروفة في حكايا الشطار والعيارين . فالقائد العسكري المهوب ينخدع بحيلة رسل أهل جبعون ويصدق قصتهم عن مدينتهم البعيدة والفقيرة جداً ويعطيهم الأمان ، ليعرف بعد قليل أن جبعون لا تبعد أكثر من بضعة أميال عن أريحا . وبالطبع فإن مثل هذه الحيلة لا يمكن أن تنطلي على قائد محنك عمل مسبقاً على دراسة مسرح عملياته القتالية وجمع المعلومات الكافية عن مدن العدو وقلاعه وحصونه وطبيعة أرضه . هذا إذا أخذنا بعين الإعتبار أن مصادر معلومات يشوع لم تكن وقفاً على الزانيات الخائنات .

وقد تبدو الإستراتيجية العسكرية ، التي اتبعها يشوع مقنعة أحياناً ، ويقترب النص التوراتي في سردها مما يشبه التاريخ ، غير أن تدخل العناصر اللاهوتية والملحمية ما يلبث أن يعيد عملية السرد إلى نهجها الخيالي الذي التزمته ، رغم اجتماع عناصر الحادثة التاريخية أمام المحرر . فالهجوم الأول على مدينة عاي يفشل لأن جندياً سرق بعض المتاع من أريحا التي أمر الرب أن يكون كل ما فيها له . ولا يفلح الإسرائيليون في هجومهم الثاني إلا بعد تقديم المذنب أمام الرب ورجمه حتى الموت مع جميع أفراد عائلته . وفي قصة لقاء يشوع مع ملك حاصور ، يبدأ المحرر في تجميع العناصر المنطقية لقصته ، حين يأخذ يابين ملك حاصور بجمع ملوك الشمال الخمسة من أجل الوقوف في وجه يشوع العائد منتصراً من الجنوب ، إلا أن القصة ما تلبث حتى تتخذ المسار الملحمي المعهود ، فنجد أن المجتمعين عند مياه ميروم للقاء يشوع ليسوا ملوك التجمع الشمالي فقط ، بل ملوك من شتى أنحاء فلسطين ؛من اليبوسيين في الجنوب الى الحويين عند سفوح جبل الحرمون ، فصار أعداء إسرائيل مثل الرمل الذي على شاطىء البحر ، على حد قول النص . وبذلك غلبت الحبكة الملحمية على الحبكة التاريخية بشكل مقصود ومتعمد . وفيما يتعلق بمدينة أورشليم ، فإن وضعها قد بقي غامضاً في استراتيجية يشوع . فقد قتل يشوع ملكها الذي كان رأس تحالف ملوك الجنوب الخمسة ، ولكنه لم يعرج على المدينة في طريقه نحو الجنوب بل تابع حملته جنوباً وصولاً إلى غزة ثم عاد إلى مقره في الشمال دون أي ذكر لأورشليم . وعندما يأتي النص على ذكر توزيع الأراضي المكتسبة على الأسباط يقول بشأن أورشليم :" وأما اليبوسيون الساكنون في أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم ، فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في أورشليم إلى

هذا اليوم " (يشوع ١٥ : ٦٣) .

وفي الحقيقة فإن عملية توزيع الأراضي المكتسبة في كنعان على القبائل الإسرائيلية ، تظهر بوضوح أن حملات يشوع العسكرية لم تكن حاسمة ، وأن العديد من المدن التي ذكر النص سابقاً عن تدميرها وإبادة سكانها ماتزال قائمة وسكانها أقوياء ، وأن الإسرائيليين عاجزون عن طردهم والحلول محلهم . فعن مدينة جازر مثلاً ، نقرأ في حكاية الحملة العسكرية الجنوبية ليشوع : " حينئذ صعد هورام ملك جازر لإعانة الجيش ، فضربه يشوع مع شعبه ولم يبق له شارداً " (يشوع ١٠ : ٣٣) . ثم نقرأ عن جازر بعد ذلك ، أن سبط أفرايم : " لم يطردوا الكنعانيين الساكنين في جازر ، فسكن الكنعانيون في وسط أفرايم إلى هذا اليوم " (يشوع ١٦ : ١٠) . وبخصوص مدن وادي يزرعيل (مرج ابن عامر) ، التي تعد من أقوى المدن الفلسطينية وأغناها ، نعرف أن سبط منسي ، الذي أعطي هذه المناطق لم يقدر على امتلاكها ، بينها بيت شان وتعنك ومجدو ولم يقدر بنو منسي أن يملكوا هذه المدن ، فعزم الكنعانيون على السكن في تلك الأرض" (يشوع ١٧ : ١٢) . وهم يشتكون إلى يشوع خوفهم من سكان هذه المناطق لأنهم أقوياء ولديهم مركبات من حديد : " فقال بنو يوسف (أفرايم ومنسي) لا يكفينا الجبل ، ولجميع الكنعانيين الساكنين في أرض الوادي مركبات من حديد ؛ للذين في بيت شان وقراها وللذين في وادي يزرعيل " (يشوع ١٧ : ١٦) . ولسوف نرى بعد قليل في سفر القضاة أن يشوع لم يكتسب من الأرض شيئاً في كنعان ، بل قام بتوزيعها نظرياً على الأسباط ، تاركاً كل سبط يعمل على اكتساب نصيبه بنفسه و على طريقته الخاصة .

وتنم بعض تفاصيل سفر يشوع عن وجود شكل أقدم لقصة الخروج ، يجعل جماعة موسى تنطلق من قادش برنيع أو من مكان ما آخر في سيناء ، مباشرة نحو كنعان دون وقفة مطولة في شرقي الأردن ، وأن هذا الشكل الأقدم هو الذي استند إليه محرر سفر يشوع . فبعد عبور يشوع للأردن وحلوله في الجلجال ، يحتفل بنو إسرائيل بالفصح ويأكلون من غلة الأرض لأول مرة بعد خروجهم من مصر ، وينقطع عنهم المنّ الذي كان غذاءً لهم طيلة فترة الخروج : " وانقطع عنهم المنّ عند أكلهم من غلة الأرض ولم يكن بعد لبني إسرائيل منّ" (يشوع ٥ ـ ١٢) . ولما كنا نعرف من سفر العدد والتثنية أن جماعة موسى قد استولوا على مناطق واسعة بمدنها وقراها في شرقي الأردن ، وأقاموا فيها فترة لا بأس بها وصارت لهم

مواشٍ كثيرة (التثنية : ١٣) ، فإننا نعجب كيف استمر طعامهم مقتصراً على المنّ الذي تجود به السماء كل تلك السنين التي قضوها في قادش برنيع وفي شرقي الأردن ، من دون اللحم وغلة الأرض . ولا ندري ماذا فعل هؤلاء مثلاً بالألوف المؤلفة التي غنموها من أعدائهم من رؤوس الغنم والبقر ، مما نقرأ عنه في سفر العدد ٣١ : ٣١ - ٣٤ : " وكان النهب ، فضلة الغنيمة التي اغتنمها رجال الجند ، من الغنم ستمئة وخمس وسبعين ألفاً ومن البقر اثنين وسبعين ألفاً ومن الحمير واحداً وستين ألفاً ".على أن النص يخبرنا في أكثر من موضع أنهم كانوا يأكلون اللحم من دون منّ السماء ، ففي العدد ٢٥ : ١ - ٢ نقرأ :" وأقام إسرائيل في شطيم ، وابتدأوا يزنون مع بنات موآب . فدعون الشعب إلى ذبائح آلهتهن ، فأكل الشعب وسجدوا لآلهتهن" .

وباختصار ، فإن النقد النصي لسفر يشوع ، يظهر أمام أعيننا أن هذا السفر في شكله وفي مضمونه ليس نصاً تاريخياً بأي معيار ، ولم يكن يطمح لأن يكون كذلك . وليس الإقناع الذي يمارسه السفر على قارئه لأول وهلة إلا نتاجاً لحيوية الأسلوب وتتابع الأحداث دون فواصل أو انقطاعات وفجوات ، وفوق ذلك كله اعتماد المحرر على جغرافية واقعية للحدث .

النقد التاريخي والأركيولوجي لسفر يشوع

يتفق معظم المؤرخين على وضع تاريخ لأحداث سفر يشوع لا يتجاوز عام ١٢٠٠ ق.م . إلا أن مقارنة أحداث سفر يشوع مع أحداث هذه الفترة الإنتقالية من عصر البرونز الأخير إلى عصر الحديد ، والأوضاع العامة السائدة في الشرق الأدنى القديم ، لا تقدم لنا نقطة ارتكاز واحدة يمكن عندها تثبيت الإطار التاريخي ليشوع على الخلفية العامة لهذه الفترة ، التي كانت تموج بالأحداث الجسيمة التي قادت إلى نهاية ثقافة بكاملها وابتداء ثقافة جديدة . فالفلستيون غير مذكورين بتاتاً ، ناهيك عن بقية شعوب البحر ، الذين يفترض تواجدهم بكثرة في فلسطين استعداداً لغزو مصر . ولا يوجد ذكر للفرعون مرنفتاح (١٢١٢ - ١٢٠٠ ق.م) الذي

هزم تحالف الليبيين مع شعوب البحر وردهم عن حدود مصر الغربية ، ثم شن بعد ذلك حملة على فلسطين حوالي عام ١٢٠٧ أو ١٢٠٨ ق.م . كما لا يوجد ذكر للفرعون رمسيس الثالث ، الذي قضى في عام ١١٩١ ق.م على هجوم شعوب البحر الذين انطلقوا من فلسطين ، ثم تعقبهم حتى بيت شان في الشمال حيث نصب لنفسه تمثالاً عثر عليه في أنقاض المدينة إلى جانب نص مصري يصف الحملة . وفيما عدا تلك الممالك الصغيرة في شرقي الأردن ، والتي اثبتنا في نقدنا لرواية الخروج أنها لم تكن موجودة ، فإن النص لا يحفل بذكر أي مدينة أو مملكة معروفة لدينا من تلك المدن الكبيرة والممالك المجاورة لفلسطين .كل هذا يؤكد أن محرري سفر يشوع كانوا يصوغون قصة بدون إطار تاريخي ، ولم يكن بين أيديهم معلومات واضحة عن تلك الفترة التي إختاروها لأحداثهم ، أو التي اختارها لهم المؤرخون المحدثون .

وتبدو الشواهد الآثارية أكثر تخييباً للآمال . فعلم الآثار لم يستطع تقديم بينة واحدة من الفترة الإنتقالية بين البرونز الأخير وعصر الحديد ، تدل على حلول أقوام جديدة في فلسطين ، حملت معها ثقافة مغايرة للثقافة الكنعانية السائدة . والمواقع التي أعيد بناؤها بعد تهديمها سواء بالغزو أم بوسائط أخرى ، قد بنيت بيد السكان المحليين ودون أن تظهر في مواقعها آثار انقطاع حضاري أو تأثيرات خارجية (١٠) أما عن المدن ، التي ادعى سفر يشوع تخريبها وإحراقها بالنار ، وخصوصاً أريحا وعاي وحاصور ، فإن التنقيب الأثري قد فشل حتى الآن في تقديم الدلائل على تاريخية الرواية التوراتية .

فيما يتعلق بأريحا ، أثبتت نتائج التنقيب الأثري (الذي ابتدأ في الموقع منذ عام ١٨٧٦ واستمر بشكل متقطع حتى ستينات القرن العشرين) أن المدينة قد دمرت في عصر البرونز الوسيط حوالي عام ١٥٦٠ ق.م ، ولم يعد بناؤها كمدينة مسورة خلال عصر البرونز الأخير ، رغم العثور على كسرات فخارية بين جملة دلائل أخرى تشير إلى قيام سكن عرضي فوق التل خلال البرونز الوسيط . وهذه الدلائل تتوقف مع نهاية القرن الرابع عشر ويخلو الموقع تماماً من دلائل الحياة . وهذا يعني أن آثار السكن قد توقفت تماماً قبل قرن كامل من التاريخ المفترض لهجوم يشوع على أريحا ، وأن الأسوار التي سقطت من تلقاء نفسها بمعجزة من الرب كانت قد تهدمت قبل ذلك بأكثر من ثلاثة قرون . وفيما يتعلق بمدينة عاي ، التي تم التعرف عليها في الموقع المعروف اليوم باسم "التل" بعد خمسة عشر

---

10 - katheen kenyon. , op . cit , p 206 .

كيلو متراً من القدس ، فقد أثبتت نتائج التنقيب الأثري في الموقع على أن هذه المدينة كانت مزدهرة خلال عصر البرونز المبكر ، ثم هجرت تماماً خلال عصر البرونز الوسيط وعصر البرونز الأخير ، أي قبل الوصول المفترض للإسرائيليين بحوالي ألف سنة . أما فيما يتعلق بمدينة حاصور ، التي تم التعرف عليها إلى الجنوب من بحيرة الحولة ، فقد كشف المنقبون عن آثار دمار كامل للمدينة يعود إلى أواخر البرونز الأخير . ولكن بينما يرجع عالم الآثار الإسرائيلي إيجال يادين هذا الدمار إلى حوالي عام ١٢٣٠ ق.م ، فإن المنقب الإسرائيلي الآخر موشي كوشافي يرى أن آثار هذا الدمار لا يمكن أن تعود إلى مابعد ١٢٧٥ ق.م ،وهو الرأي الذي تدعمه المنقبة كاثلين كينيون ومعظم علماء الآثار في فلسطين . وهذا يعني أننا مازلنا خارج الفترة المفترضة لدخول الإسرائيليين (١١).

وتدل التنقيبات في موقع مدينة جبعون ، التي صالحت يشوع وجرت عندها المعركة الكبرى بين يشوع والتحالف الجنوبي بقيادة آدوني صادق ملك أورشليم ، على أن المدينة لم تكن قائمة خلال القرن الثالث عشر بكامله . وكذلك الأمر في مواقع المدن التابعة لها والمذكورة في يشوع ٩ : ١٧ ، مثل الكفيرة ، التي يغلب أن تكون في موقع خربة كفر حيث لم يعثر المنقبون على آثار سكنية تعود إلى ما قبل القرن الثاني عشر . فإذا تتبعنا مسار حملة يشوع نحو الجنوب عبر مدن مقيدة ولبنة ولخيش وعجلون وحبرون ودبير وجازر ، لعثرنا على آثار دمار في بعض هذه المواقع مثل لخيش (تل الدوير) ودبير (تل بيت مرسيم) تعود إلى حوالي عام ١٢٣٠ ق.م ، أي إلى تاريخ قريب من التاريخ المفترض لوصول الإسرائيليين . ورغم أن المؤيدين لنظرية الإقتحام العسكري لأرض كنعان يعزون هذا الدمار إلى حملة يشوع ، إلا أن المرجح والمتفق مع معلوماتنا التاريخية ، هو أن دمار هذه المدن الجنوبية في فلسطين خلال أواخر القرن الثالث عشر متعدد الأسباب ، ولا نستطيع في الوضع الحالي لمعلوماتنا ترجيح واحد من هذه الأسباب على الآخر ، لأن الغزاة عادة لا يتركون وراءهم بطاقة زيارة تفصح عن هويتهم . فقد يكون المسؤول عن ذلك الفرعون رمسيس الثاني في آخر حملة له على فلسطين ، أو أن يكون المسؤول عن ذلك خليفته

---

11 - kathleen kenyon , op . cit , pp 200 - 209
- kathleen kenyon , the Bible and Recent Archaeology , pp 33 - 41
- Joseph Callaway , The Settlment in Canaan (in : hershel Shanks , edt , Ancient Israel , PP. 62 - 63 , 67

مرنفتاح ، أو شعوب البحر ممن كانت تعج بهم المنطقة في ذلك الوقت [١٢]

وكخلاصة في مسألة تاريخية سفر يشوع ، أسوق إلى القارىء هذا التقييم الأخير للوقائع المتعلقة بالموضوع ، الذي أورده في دراسة جديدة له المنقب جوزيف كالووي J. Callaway صاحب الباع الطويل في عمليات عديدة في فلسطين خلال ربع القرن الماضي . يقول كالووي :

"بعد استعراض جميع الوثائق الأركيولوجية من المواقع الفلسطينية المذكورة في سفر يشوع ، هل يمكن القول بأن الغزاة الإسرائيليين قد استولوا على المناطق الهضبية والجليل عبر معارك عسكرية خاطفة ، مما يرويه سفر يشوع من الإصحاح الأول إلى الإصحاح الثاني عشر ؟ إن البينات الأركيولوجية غير مقنعة وتتعارض في معظمها مع الرواية التوراتية ، وإلى درجة لا يستطيع معها أنصار نظرية الفتح العسكري ، من أمثال إيجال يادين ، إقناعنا بها إلا بواسطة الإيمان الأعمى .. إن النص التوراتي عن الفتح العسكري قد أخذ شكله الذي وصل إلينا بعد فترة طويلة من استقرار الإسرائيليين في الأرض . وهذا الشكل يمكن وصفه بالتاريخ الوعظي أو التبشيري ، مما يلائم القائمين على الصياغة خلال عصر المملكة . ولتحقيق هذه الغاية ، فإن المحررين قد اختاروا مقتطفات متفرقة من مصادر وصلت إليهم وصاغوا منها قصة عن بدايات إسرائيل ، وذلك من وجهة نظر لاهوتية "[١٣]

وبذلك تكون دراستنا للأسفار الخمسة ولسفر يشوع قد أوصلتنا إلى نتيجة واحدة أساسية ، وهي أن نهاية عصر البرونز ، وبشكل خاص العقود الأخيرة من القرن الثالث عشر ، لم تشهد وصول جماعة موحدة اسمها إسرائيل إلى أرض كنعان ، ولا إلى أرض شرقي الأردن . ولسوف نرى فيما بعد أن الإسم "إسرائيل" كدلالة على جماعة مميزة ذات كيان ، لم يظهر في التاريخ إلا بعد ذلك بعدة قرون من الزمان ، وذلك عقب بناء مدينة السامرة وتشكيل دولة إسرائيل المعروفة تاريخياً في منطقة الهضاب المركزية لفلسطين ، مع بدايات القرن التاسع قبل الميلاد . ولكن ماذا عن نصب الفرعون مرنفتاح الذي يتحدث عن حملته على جنوب سورية ويذكر الإسم "إسرائيل" في عداد من قهرهم الفرعون ؟ علماً بأن هذه هي الإشارة الأولى والأخيرة التي تتضمن الإسم "إسرائيل" في أي نص مصري . يقول

---

12 - Joseph Callaway , Op . cit , pp . 64 - 65
13 - Ibid , pp . 68 - 69 .

نصب مرنفتاح في الموضع الذي يذكر فيه إسرائيل ، ماترجمته :

إنطرح الأمراء على الأرض صارخين : السلام

لا ترى رأساً بين الساجدين التسعة

حيث ليبيا صارت خراباً ، وحاتي هدأت خلف حدودها

أما كنعان فقد آلت إلى كل محنة وبلية:

فأشقلون قد انهارت ،

وغزة قد محيت من الوجود .

إسرائيل صار خراباً وقطع دابره ؛

حورو صارت أرملة أمام هجوم مصر(١٤)

لقد ناقش الباحثون المحافظون في أن الإسم "إسرائيل" المذكور في نصب مرنفتاح ، يشير إلى جماعة سفر الخروج الذين حملهم يشوع إلى فلسطين . ولكن أكثر الباحثين اليوم لا يوافق على هذا الرأي ، لأنه يحتوي ضمناً أن تكون جماعة إسرائيل الخروج في أواخر القرن الثالث عشر قد توطدت في الأرض ، وصار لها كيان سياسي من القوة والحضور في المنطقة بحيث يذكره هذا الفرعون القوي في سجل انتصاراته في بلاد كنعان ، وهذا أمر لا يتفق ومعظم ما بناه البحث التاريخي حتى الآن من هنا فقد صرف البحث الحديث النظر تماماً عن المطابقة بين إسرائيل نصب مرنفتاح وإسرائيل جماعة الخروج ، وطرحت في تفسير النصب عدة فرضيات ، سأعرض باختصار إلى أهمها .

يركز الباحث لورانس ستاغر Lawrence Stager (١٩٨٥) في دراسته لنصب مرنفتاح على السطرين الأخيرين منه ، ويفهم من إيراد الإسم "إسرائيل" في السطر الأول منهما والإسم "حورو" في السطر الثاني ، أن الكلمتين قد استعملتا تبادلياً . فكلمة حورو ، كما هو معروف من النصوص المصرية العائدة لتلك الفترة ، تستعمل للدلالة على منطقة سورية وفلسطين ، أو على جزء منها ، وقد كتبت في النص هنا وفوقها إشارة تعريف تدل على أنها أرض ، أما الإسم إسرائيل فقد كتب وفوقه إشارة تعريف تدل على أنه شعب . ويرى ستاجر

14 - *Ibid* , p . 75

أن النص قد أراد الإشارة بكلمة حورو إلى ذلك الجزء من فلسطين الذي شمله غزو مرنفتاح ، وهو مناطق أشقلون وجازر ويانوم وغيرها ، وأنه أراد الإشارة بكلمة إسرائيل إلى الشعب الساكن في هذه المناطق قبل قدوم جماعة الخروج . ويستعين هذا الباحث بتحليل حديث لمشهد مصور على جدار وجه الكرنك يمثل احدى معارك مرنفتاح الآسيوية ، ويبرهن صاحبها هذا التحليل على أن المشهد يصور معركة مرنفتاح في فلسطين ضد المدعوين في النص بإسرائيل ، ويرى بأنهم كنعانيون في زيهم وأسلحتهم (١٥) .

وهناك وجهة نظر جديدة تلقى الآن مزيداً من الدعم ، تقدم بها الباحث ماكسويل ميللر M . Miller (١٩٨٦) ، مفادها أن الإسم "إسرائيل" في نصب مرنفتاح ، يشير إلى اتحاد لعدة قبائل كنعانية في الهضاب المركزية ، وهي قبائل أفرايم ومنسي وجلعاد وبنيامين . وقد تجمعت هذه القبائل تحت قيادة غير مباشرة لأكبرها المدعوة أفرايم ، مشكلة نواة إسرائيل اللاحقة ، والتي اتخذت شكلها الإثني والسياسي إبان عصر المملكة الموحدة . ويلاحظ ميللر ، أن سفر القضاة اللاحق الذي يقدم لنا تفصيلات أوسع حول مسألة أصول إسرائيل في كنعان ، يركز على قبيلة أفرايم والقبائل الثلاثة التي تدور في فلكها . وبما أن نصب مرنفتاح يسبق زمنياً عصر القاضية دبورة التي استطاعت توسيع الإتحاد القبلي ليشمل عشرة قبائل بدل الأربعة ، وهي القبائل العشرة التي بدأ النص التوراتي يطلق عليها اسم إسرائيل ، فإن الإشارة في نصب مرنفتاح إلى إسرائيل هي إشارة إلى اتحاد القبائل الأربعة المذكورة فقط . وفيما بعد ، وعند قيام المملكة الموحدة في المناطق الهضبية من فلسطين بقيادة شاؤل ثم داود ، فإن الاتحاد القبلي قد توسع ليشمل اثنتي عشرة قبيلة بما فيها قبيلة يهوذا الجنوبية التي كانت حتى ذلك الوقت خارج الاتحاد الشمالي . هذه القبائل جميعاً كانت من أصول ومشارب شتى وتحمل معتقدات دينية غير متجانسة ، وبينها جماعة من الهاربين من أعمال السخرة في مصر ، وقد تقاربت مع بعضها تدريجياً وذابت في بوتقة واحدة ومعتقد ديني واحد . وباختصار فإن الباحث يرى أن إسرائيل قد نشأت في كنعان ولم تأت إليها موحدة من الخارج ، وقد استغرقت عملية توحيدها كامل عصر القضاة ، الذي يقدر بقرنين من الزمان . (١٦)

---

15 - Ibid , p . 75
16 - Ibid , p .77 - 78

ويسير الباحثان G . Ahlstrom و D . Edelman في دراسة لهما عن النصب (١٩٨٥) في الاتجاه نفسه ، ويريان أن كلمة إسرائيل في نصب مرنفتاح قد استخدمت تبادلياً مع كلمة كنعان للدلالة على قسم أرض من فلسطين أو قسم من سكانها ، ويتفقان مع ميللر في أن التكوين الإثني الذي دعي فيما بعد إسرائيل هو من أصول محلية كنعانية . أما الباحث توماس .ل . تومبسون ، فيرى أن الجماعة المذكورة باسم إسرائيل في نصب مرنفتاح ، كانت بالفعل جماعة تحمل الاسم إسرائيل ، الذي يرد هنا لأول مرة في التاريخ . ولكن هذه الجماعة لا علاقة لها من قريب أو بعيد بجماعة الخروج ولا بإسرائيل السامرة التي نعرفها من العصر الآشوري اللاحق في المنطقة ، والتي ظهرت إلى الوجود بعد نقش مرنفتاح بأكثر من ثلاثمئة سنة . وإن تشابه الاسم لا يؤكد وجود مثل هذه العلاقة التي ينفيها التاريخ نفياً قاطعاً [١٧] .

ونحن إذ نورد هذه الفرضيات المختلفة في تفسير نصب مرنفتاح ، لا نقصد إلى الوقوف إلى جانب واحدة منها دون الأخرى ، ولا إلى تقديم فرضية جديدة لن تنفع إلا في زيادة جدل لاطائل من ورائه ، بل إلى توكيد أمر واحد ، وهو أن الاسم إسرائيل في هذا النص المصري ليس له أية قيمة تاريخية علمية في تحديد زمن نشوء إسرائيل ، ولا يلقي ضوءاً على مسألة أصولها في المنطقة .

النظرية التوراتية الثانية

سفر القضاة والتسرب التدريجي

إلى كنعان

في سفر يشوع ينهي المحرر قصة الحرب الصاعقة على كنعان بالمقطع التالي : " فأخذ يشوع كل الأرض حسب كل ما كلم به الرب موسى . وأعطاها يشوع ملكاً لإسرائيل حسب فرقهم وأسباطهم . واستراحت الأرض من الحرب" (يشوع ١١ : ٢٣) . ولكن

17 - Th . L - Thompson , op . cit~pp 375 - 376

سفر القضاة يعكس الآية فتوزيع الأراضي على إسرائيل حسب فرقهم وأسباطهم يتم نظرياً على الورق ، ثم تترك الفرق والأسباط لكي تكتسب نصيبها المقسوم على طريقتها الخاصة وبشكل مستقل . فهنا لا وجود لحروب مظفرة تشنها إسرائيل الموحدة تحت لواء واحد ، أو بالتعبير التوراتي "كل إسرائيل" ، بل تواجهنا عبر السفر كله معارك متفرقة دفاعية أو هجومية تحاول من خلالها كل قبيلة أن تجد لنفسها موطيء قدم في كنعان ، كما توجهنا بكل وضوح تحركات سليمة للاستقرار بين السكان الأصليين دون حروب . أما يشوع ، فعندما عبر الأردن بجماعة وحل في موقع الجلجال ، وفق سفر القضاة ، فإنه لم يتهيأ للانقضاض على أريحا وبقية مدن كنعان ، بل توقف هناك وصرف القبائل الإسرائيلية من الجلجال لكي تتدبر كل قبيلة أمرها ، وذلك تحت ذريعة أن الرب قد عدل عن طرد أهل كنعان من أمام إسرائيل ، لأنهم لم يستمعوا لصوته . نقرأ في القضاة ، : ١ . ٢٣ ما يلي :

" وصعد ملاك الرب من الجلجال إلى بوكيم وقال : قد أصعدتكم من مصر وأتيت بكم إلى الأرض التي أقسمت لآبائكم وقلت ... لا تقطعوا عهداً مع سكان هذه الأرض ، إهدموا مذابحهم . ولم تسمعوا لصوتي ، فماذا عملتم ؟ فقلت لا أطردهم من أمامكم بل يكونوا لكم مضايقين وتكون آلهتهم لكم شركا . وكان لما تكلم ملاك الرب بهذا الكلام إلى جميع بني إسرائيل ، أن الشعب رفعو أصوتهم وبكوا .. فدعوا اسم ذلك المكان بوكيم وذبحوا هناك للرب . وصرف يشوع الشعب فذهب كل واحد إلى مُلكه لأجل امتلاك الأرض .... ومات يشوع بن نون عبد الرب ، ابن مئة وعشر سنين ... وكل ذلك الجيل أيضاً . وقام بعدهم جيل آخر لم يعرف الرب ولا العمل الذي عمل لإسرائيل . وفعل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم ... فحمي غضب الرب على إسرائيل.فدفعهم بأيدي ناهبين نهبوهم ؛ وباعهم بيد أعدائهم .... فضاق بهم الأمر جداً . وأقام الرب قضاة فخلصوهم من يد ناهبيهم . ولقضاتهم أيضاً لم يسمعوا بل زنوا وراء آلهة أخرى وسجدوا لها . وحينما أقام الرب لهم قضاة كان الرب مع القاضي ... وعند موت القاضي كانوا يرجعون ويفسدون أكثر من آبائهم " . ثم ينتهي هذا النص المهم جداً لفهم عصر القضاة كما رآه المحرر التوراتي بالمقطع التالي الذي يشكل بؤرة الطرح النقيض لطرح سفر يشوع :

"فحمي غضب الرب على إسرائيل وقال : من أجل أن هذا الشعب قد تعدوا عهدي ، الذي أوصيت به آباءهم ولم يسمعوا لصوتي ، فأنا أيضاً لا أعود أطرد إنساناً مس أمامهم من

الأمم الذين تركهم يشوع عند موته ، لكي أمتحن بهم إسرائيل . فترك الرب أولئك الأمم ولم يطردهم سريعاً ولم يدفعهم بيد يشوع " (القضاة ٢ : ١ ـ ٢٣) . وبذلك ينهي محرر سفر القضاة بجرة قلم سفر يشوع بكامله ، وتتهاوى قصة الفتح العسكري لأرض كنعان كبيت من ورق .

وكان أول من تقدم من الأسباط لامتلاك حصته سبطا يهوذا وشمعون : " وكان بعد موت يشوع أن بني إسرائيل سألوا الرب قائلين : من منا يصعد إلى الكنعانيين أولاً لمحاربتهم ؟ فقال الرب : يهوذا يصعد . هو ذا قد دفعت الأرض ليده . فقال يهوذا لشمعون أخيه : إصعد معي في قرعتي لكي نحارب الكنعانيين ، فأصعد أنا معك في قرعتك . فذهب شمعون معه . فصعد يهوذا ، ودفع الرب الكنعانيين والفرزيين بيدهم فضربوا منهم في بازق عشرة آلاف رجل . فهرب أدوني بازق فتبعوه وأمسكوه وقطعوا أباهم يديه ورجليه وأتوا به إلى أورشليم فمات هناك . وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوها بحد السيف وأشعلوا المدينة بالنار . وبعد ذلك نزل بنو يهوذا لمحاربة الكنعانيين سكان الجبل والجنوب والسهل" (القضاة ١ : ١ ـ ٨) . ونلاحظ في هذا المقطع تنويعاً عل معلومات سفر يشوع بخصوص أورشليم وملكها . فمن الواضح أن المدعو هنا أدوني بازق هو ملك أورشليم المدعو في يشوع أدوني صادق ، لأن المنتصرين بعد المعركة قد أتوا به إلى أورشليم فمات هناك . أما عن حرب بني يهوذا لأورشليم والاستيلاء عليها ، فإن الأحداث التالية في سفر القضاة تبين لنا أن المدينة ما زالت بيد أهلها ولا يوجد فيها أحد من بني إسرائيل . من ذلك ما نقرأه في الاصحاح ١٩ : ١١ ـ ١٢ : " وفيما هم عند يبوس (= أورشليم) والنهار قد انحدر جداً قال الغلام لسيده : تعال نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها . فقال له سيده : لا نميل إلى مدينة غريبة حيث ليس أحد من بني إسرائيل هنا . بل نعبر إلى جبعة "

بعد ذلك يتابع سفر القضاة شرح كيفية إقامة بني إسرائيل بين السكان الأصليين دون حرب : " ولم يطرد منسي أهل بيت شان وقراها ولا أهل تعنك وقراها ولا سكان دور وقراها ولا سكان يلعام وقراها لا سكان مجدو وقراها . فعزم الكنعانيون على السكن في تلك الأرض . وأفرايم لم يطرد الكنعانيين الساكنين في جازر ، فسكن الكنعانيون في وسطه في جازر ." (١ : ٢٧ ـ ٢٩) . " زبولون لم يطرد سكان قطرون ولا سكان نهلال فسكن الكنعانيون في وسطه ... ولم يطرد أشير سكان عكو ولا سكان صيدون وأحلب وأكزيب

وحلبه وأفيق ورحوب . فسكن الأشيريون في وسط الكنعانيين سكان الأرض .... ونفتالي لم يطرد سكان بيت شمس ولا سكان بيت عناة ، بل سكن في وسط الكنعانيين سكان الأرض ... وحصر الآموريـون بني دان في الجبل لأنهم لم يدعوهم ينزلون إلى الوادي ..″ (١ : ٣٠ - ٣٦) .

إلى جانب الحروب المحلية التي كانت تقوم بها بعض القبائل ، والجنوح إلى السلم والتعايش مع الكنعانيين مما كانت تفضله قبائل أخرى ، فقد كان للقبائل معركة كبيرة اشترك فيها ستة من القبائل الشمالية العشرة ، التي يرى دارسو سفر القضاة أن مناطق تواجدها لم تتجاوز الهضاب المركزية حتى تشكيل المملكة الموحدة . فقد كان لما عاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني الرب ، انه دفعهم ليد يابين ملك حاصور . وكانت دبورة قاضية في اسرائيل في ذلك الوقت ، فدعت القبائل العشرة إلى قتال يابين فاستجاب لدعوتها ستة قبائل ، فأرسلت دبورة إلى المدعو باراق من سبط نفتالي ودعته لقيادة التحالف وسارت إلى جانبه في جيش تعداده عشرة آلاف مقاتل من المشاة . أما يابين ملك حاصور فقد دفع إلى المعركة بتسعمئة مركبة من حديد على رأسها قائد جيشه المدعو سيسرا ، وعندما التقى الجمعان : ″ أزعج الرب سيسرا وكل المركبـات وكل الجيش بحـد السيف أمـام باراق . فنزل سيسرا عن المركبـة وهـرب على رجليـه .... وسقط كل جيش سيسرا بحد السيف ولم يبق واحد . ″ (القضاة :. ٤ ـ ٥) . وبذلك يقدم لنا محرر سفر القضاة وجهة نظره الخاصة في قتال إسرائيل لحاصور ، بعد أن أخبرنا سفر يشوع أن الإسرائيليين قد أخذوا حاصور وأحرقوها بالنار وأن يشوع قد ضرب رأس ملكها يابين بالسيف (يشوع ١١ : ١ ـ ١٠) .

النقد النصي لسفر القضاة

يبدو سفر القضاة لقارئه أكثر الأسفار التوراتية تفككاً وافتقاداً للحبكة الأدبية ، التي تجمع أجزاءه وأقاصيصه المتنوعة . ولعل السبب في ذلك راجع إلى غياب الشخصية المركزية ، التي تشكل بؤرة الحدث وتجمع الحكايا إلى سياق واحد مشترك . فهنا ، لا وجود لزعيم بارز كموسى أو يشوع ، ولا لشخصية درامية متكاملة كيوسف ، ولا لحدث مضطرد يتنامى ويتطور مما رأينا في سفر الخروج . كل ما لدينا عبارة عن مجموعة أقاصيص غير مترابطة ،

ولا تؤدي واحدتها إلى الأخرى مثلما تتماسك قصص الآباء . إن كل ما يبرر جمع هذا الحشد من الحكايا والأخبار مع بعضها في سفـر واحد ، هو انتظامها في إطار ايديولوجي مفروض عليها من الخارج بشكل قصري ؛ فبنو إسرائيل يذلون ويهانون كلما تركوا عبادة الرب والتفتوا إلى عبادة الآلهة الكنعانية ، ثم يستريحون من قاهريهم كلما ذكروا ربهم وآبوا إليه . وبذلك تُستبدل العقدة الأدبية بعقدة إيديولوجية لاهوتية لم تفلح في لملمة أجزاء السفر.

معظم هذه الأقاصيص كانت على ما يبدو حكايا شعبية فلسطينية متداولة خلال العصر الفارسي ، انتقاها ورتبها المحررون في تسلسل زمني غير مضطرد بالمفهوم التاريخي لتسلسل الأحداث ، وذلك من أجل ملء الفترة الزمنية القائمة بين دخول الإسرائيليين أرض كنعان وقيام المملكة الموحدة بعد ذلك بقرنين من الزمان . وبما أنه من الصعب إعطاء لمحة عامة عن جميع قصص وأخبار عصر القضاة ، فأنني سأكتفي بتلخيص قصتين تعطيان فكرة واضحة عن ذلك النوع من قصص القضاة وعن المنظور الايديولوجي الذي تتحرك فيه أحداثها . الأولى قصة بنت يفتاح الجلعادي ، والثانية قصة شمشون .

لقد " عاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم والعشتاروت وتركوا الرب ولم يعبدوه ، فحمي غضب الرب على إسرائيل وباعهم بيد الفلسطينيين وبيد بني عمون ثماني عشرة سنة ؛ جميع بني إسرائيل الذين في عبر الأردن في أرض الآموريين الذين في جلعاد " . فأعلن بنو إسرائيل توبتهم وأزالوا الآلهة الغريبة من وسطهم وعبدوا الرب ودعـوه أن يبعث فيهم مخلصاً يريحهم من بني عمون . وكان يفتاح الجلعادي ابن امرأة زانية ، طرده قومه من وسطهم فخرج إلى الفلاة وصـار رئيس عصابة من الأفاقين ، واشتهر ببأسه وجبروته . ولما لم يجد الجلعاديون رجلاً مقـداماً يترأس عليهم لمحاربـة العمونيين ، جاءوا إلى يفتـاح طالبين منـه العودة إليهم وعونهم على عمون . فاستجاب يفتاح مشترطاً أن يرئسوه عليهم إذا انصرهم على خصومهم ، فأجابوه إلى ذلك . فكان روح الرب على يفتاح ومشى إلى عمون بقواته . وقبل المعركة الفاصلة ، نذر يفتاح للرب أضحية بشرية يذبحها ويصعدها محرقة ، واختار أن تكون هذه الأضحية هي أول شخص يخرج لاستقباله ولقائه عند باب بيته بعد عودته منتصراً . فدفع الرب بني عمون ليد يفتاح فشتت جيشهم وملك أرضهم . ولدى عودته إلى بيته ، كان أول خارج للقائه ابنته الوحيدة ، التي قابلته بالرقص والغناء والدفوف . فصرخ يفتـاح لرؤيتها وبكى وأخبرهـا بنذره ، فقبلت الإبنة نذر أبيها لأن الـرب أعانه على أعدائه ، ولكنها طلبت مهلة شهرين لتذهب إلى الجبال مع

صويحباتها وتبكي عذريتها . وكان عند نهاية المدة أنها عادت إلى أبيها الذي وفى بنذره الذي يتضمن الذبح والحرق . (القضاة : ١١) .

وتبتديء ، قصة شمشون باللازمة المعادة والمكررة : " ثم عاد إسرائيل يعملون الشر في عيني الرب .. الخ " . يلي ذلك مقدمة تستخدم عناصر صارت معروفة لنا في القصص التوراتي . فهناك رجل من عشيرة دان إسمه منوح وزوجته عاقر . فتراءى ملاك الرب للزوجين وهما في الحقل ولم يعرفاه ، فبشرهما بغلام يكون نذيراً للرب ويخلص شعب إسرائيل ، الذي يضطهده الفلسطينيون . فدعاه منوح إلى الغذاء ظناً منه أنه من رجال الله الصالحين ، وقام ليذبح جدياً ، ولكن الضيف قال له أن يُصعد الجدي محرقة . وعندما صنع منوح المحرقة وصعد لهيبها عن المذبح ، صعد الضيف في اللهيب نحو الأعالي . فسقط الزوجان على وجههما ، وقال منوح : " موتاً نموت لأننا قد رأينا الله .. " . ثم ولدت المرأة إبناً ودعت اسمه شمشون . فكبر الصبي وباركه الرب ، وابتدأ روح الرب يحركه ، فاشتهر بقوته البدنية الخارقة ، التي كانت تعينه أحياناً على قتل الأسود بيديه العاريتين وشق الواحد منها نصفين .

رأى شمشون امرأة فلسطينية من أعداء قومه فأحبها وطلب من أبويه أن يطلباها من أهلها فوافقا بعد معارضة وممانعة ، ووافق أهل الفتاة من طرفهم على الزواج . وكان على شمشون أن يحضر بعد أيام إلى منزل عروسه ليصطحبها إلى بيته ، ولكن سوء تفاهم بين الطرفين منع الأب من إعطائه الفتاة وزوَّجها بعد بضعة أيام من غيره . وهنا يثور غضب شمشون ويبدأ حربه الطويلة ضد الفلسطينيين ، ولكنها حرب بلا جنود ولا معدات ، قوامها شمشون الذي يقاتل وحيداً على طريقة العصابات مستخدماً قوته وحيلته ، وجماعات الفلسطينيين ، التي كان البطل يفاجئها في الأمكنة والأوقات غير المتوقعة فيقتل منهم الآلاف بغير سلاح ، أو باستخدام أدوات بسيطة كما فعل في إحدى المرات عندما ضرب ألف رجل بلحي حمار ميت . وفي إحدى المرات أمسك شمشون بثلاثمئة إبن أوى وربط في أذنابها المشاعل ثم أطلقها في حقول الفلسطينيين فأحرقت محاصيلهم . ومال مرة في مدينة غزة إلى بيت امرأة زانية واضطجع معها إلى منتصف الليل ، فعرف الفلسطينيون بمكانه فكمنوا له عند بوابة المدينة بانتظار خروجه عند الصباح . ولكن شمشون لدى وصوله البوابة أمسك مصراعيها الهائلين واقتلعهما ووضعهما على كتفيه وصعد بهما إلى رأس الجبل . وأخيراً أحب شمشون امرأة ساقطة أخرى اسمها دليلة ، وأخذ يتردد عليها. فجاء أقطاب الفلسطينيين وأغروها بالمال لتخون صاحبها وتعرف منه سر قوته . فصارت دليلة

تسأل شمشون عن سر قوته وهو يضللها مازحاً ، إلى أن أفضى إليها بسره ، وعرفت أن قوته في جدائل شعره الغزير ، فقصتها له وهو نائم ودعت الفلسطينيين فامسكوه وقلعوا عينيه وسجنوه . وكان بعد فترة أنهم اجتمعوا في المعبد ليذبحوا ذبيحة لإلههم داجون ، وجاءوا بشمشون ليتسلوا بإذلاله ، وكان شعره قد عاد إلى النمو ، فاسند شمشون ذراعيه إلى العمودين الرئيسين في وسط المعبد ودفعهما كلاً في اتجاه ، فسقط المعبد على رؤوس الفلطسنيين وقتلهم ، ومات شمشون معهم . (القضاة : ١٦) .

تعطينا قصة شمشون مثالاً حياً على كيفية استعانة المحرر التوراتي بالقصص التقليدي وطريقته الساذجة في الإفادة منها . فلقد جاء المحرر هنا بقصة بطولية متداولة وأدمجها في سياق أحداث سفر القضاة ، بعد أن زودها بمقدمة قصيرة تربطها بالجو العام للسفر ربطاً مصطنعاً وواهياً إلى أبعد الحدود . فهذا البطل ، التي تقول المقدمة اللاهوتية للقصة أن الرب قد أرسله ليكون نذيراً لله ويخلص إسرائيل من يد الفلسطينيين ، يبدأ حياته الكفاحية بمصاهرة عائلة فلسطينية من أعداء قومه ، وهو لا ينقلب على هؤلاء ويبدأ حربه معهم إلا لثأر شخصي . وعندما أزعجت أعمال شمشون الفلسطنين استعانوا عليه بقومه أنفسهم لأن هؤلاء على ما يبدو لم يروا في شمشون ذلك المخلص المنتظر ، ففاجأوه في شق الجبل الذي يأوي إليه وأوثقوه وسلموه ليد أعدائه . وهنا نقرأ في الاصحاح ١٥ مايلي : " فنزل ثلاثة آلاف رجل من يهوذا إلى شق صخرة عيطم وقالوا لشمشون : أما علمت أن الفلسطينيين متسلطون علينـا ، فماذا فعلت بنا ؟ فقال لهم : كما فعلوا بي هكذا فعلت بهم ... فأوثقوه بحبلين جديدين وأصعدوه من الصخرة ، ولما جاء إلى لحي صاح الفلسطينيون للقائه ، فحل عليـــه روح الرب فكان الحبلان اللذان على ذراعيه ككتان أحرق بالنار فانحل الوثاق عن يديه " . ونفهم من الحوار ، الذي دار في هذا المشهد بين شمشون وقومه ، أن شمشون لا يحارب الفلسطينيين نيابة عن قومه بل لما فعلوه به ، وأن قومه لم يروا فيه إلا رجل عصابات متمرد يجب وضع حد لأعماله ، التي لا تجدي نفعاً وتجلب المزيد من المضايقة لهم من قبل الفلسطينيين . ثم نجد رجل الله هذا ، المنذور لتخليصه إسرائيل ، يقضي لياليه في بيوت المومسات ، إلى أن توصله إلى حتفه واحدة منهن وقع في حبها وصار يتردد عليها ، حتى دفعته ليد أعدائه لقاء حفنة من الشيكلات . فأية سيرة حياة هذه ، يرسمها محرر سفر القضاة لمخلص إسرائيل ؟.

النقد التاريخي والأركيولوجي

لسفر القضاة :

بينما يعمل محرر سفرالقضاة على تسلية قارئه ، وإعطائه الموعظة الدينية في الوقت ذاته عن كيفية تدخل الرب في الحدث الدنيوي ،ينسى القارىء كل مسألة تاريخية متعلقة بذلك العصر ، حتى ليظن بأن العالم من حول أولئك القضاة وأعدائهم القريبين قد خلا من كل حدث آخر . ولكن الأمر كما قدمنا منذ قليل غير ذلك تماماً . ففيما بين أواخر القرن الثالث عشر وأواخر القرن الحادي عشر ، وهي الفترة المفترضة لعصر القضاة ، غابت في الشرق الأدنى القديم حضارة وقامت حضارة جديدة على أنقاضها ،انتهى عصر البرونز الأخيرودالت دُوله وقام عصر الحديد الأول بدول وممالك جديدة وخارطة جديدة للقوى العالمية .لقد انتهت مملكة الحثيين في الأناضول ولم تقم لها قائمة بعد ذلك ، وانتهت مملكة ميتاني ، وزالت مدينة أوغاريت من الوجود تماماً ، ثم تبعتها الممالك السورية الشمالية ، التي قامت على أنقاضها ثقافة جديدة آرامية حثية دعيت دولها بالممالك الحثية الجديدة . أما آشور فقد دخلت لأول مرة مسرح الحياة الدولية من بابه الواسع وأخذت تملأ الفراغ الذي خلفه غياب القوى العظمى التقليدية ، فطرد الكاشيون من بابل وخضع وادي الرافدين بأكمله تدريجياً إلى المملكة الشمالية الفتية . وها هو ملك آشور تغلات فلاصر الأول يقود حملة على بلاد الشام والساحل اللبناني حوالي عام ١١٠٠ ق.م ، تلامس حدود المناطق ، التي يتسلى القضاة فيها بقصص شمشون . يقول نص حملة تغلات فلاصر :

" تنفيذاً لأوامر إلهي آشور ، فقد قهرت البلدان الواقعة بين البحر الأدنى والبحر الأعلى الذي في الغرب . مضيت إلى لبنان حيث قطعت أخشاب الأرز لبناء معبد آنو وحدد . ثم تابعت التحرك نحو آمورو إلى مدينة سيميرا على مسافة ثلاثة أميال مضاعفة داخل البر ."(١٨)

أما مصر فرغم أنها قد خففت تدريجياً من تواجدها في فلسطين ، إلا أنها بقيت محتفظة بنفوذها على بعض المواقع الإستراتيجية وخصوصاً وادي يزرعيل (مرج ابن عامر) وهو المعبر الرئيسي بين الساحل والمناطق الداخلية . ولدينا من الدلائل الأثرية ما يشير إلى استمرار النفوذ

---

18 - Leo oppenheim , Assyrian and Babylonian Historical Texts (in : James Pritchard's Ancient Near Eastern Texts , p . 275)

المصري في وادي يزرعيل حتى الهزيع الأخير من القرن الثاني عشر ، أي خلال فترة حكم الفرعون رمسيس السادس ، الذي عثر على قاعدة تمثال له في موقع مدينة مجدو [١٩] . فأين أخبار مصر والمصريين في سفر القضاة ؟ إن غياب أخبار مصر بشكل خاص وأخبار آشور ، التي وصلت قواتها إلى مسافة بضع عشرات من الأميال عن مسرح قصص القضاة ، وعدم تعرض النص التوراتي إلى ذكر أية حادثة أو شخصية تتصل بأحداث تلك الفترة ، يدل على أن محرري التوراة الذين كانوا خلال العصر الفارسي يؤسسون لأصول إسرائيل في عصر منقطع عنهم تماماً ، لم يكونوا يعرفون شيئاً عن ذلك العصر ، ولم يكن في حوزتهم أية معلومات تاريخية مباشرة أو غير مباشرة عنه ولا عن أهله وثقافاته ودوله . إن عصر القضاة ليس له وجود خارج مجال القصة ، والجنس الأدبي التوراتي المؤيد بالإيديولوجية .

لقد سقط عصر القضاة تاريخياً كما سقطت قصة الفتح العسكري لأرض كنعان ، ولم يبق من الباحثين من يدافع عن تاريخيته إلا القليل . فالباحث ر .ديفو (١٩٧٨) ، في كتابه الموسوعي المعروف عن تاريخ إسرائيل ، يعترف بالمشكلات التي تعترض قبولنا بتاريخية عصر القضاة ، ويحرف مسار البحث التاريخي عن أصول إسرائيل ليبتدىء من عصر المملكة الموحدة فقط ، أما ما قبل ذلك فهو مجرد "ما قبل التاريخ" بالنسبة إلى إسرائيل . وهو لا يعتقد أن بإمكاننا التحدث عما يمكن تسميته "بكل إسرائيل" إلا ابتداءً من عصر شاؤول ، وهو الملك الأول للقبائل التي شكلت إسرائيل . وانطلاقاً من ذلك ، فإنه يعطي لنفسه الحرية في البحث عن بدايات وأصول مختلفة لهذه القبائل ، ويطيل أمد فترة الفتح والإستقرار لتشمل كامل الألف الثاني قبل الميلاد [٢٠] . ويسير الباحث مايز A . Mayes في اتجاه مشابه ، مقدماً عدداً من المحاكمات المنطقية التي من شأنها تقويض أية قناعة بالأساس التاريخي لعصر القضاة . وهو يرى أن فكرة "كل إسرائيل" الضرورية جداً للقبول بعصر القضاة ، هي فكرة لاحقة ابتكرتها عملية التحرير المتأخرة ، ذلك أن الدراسة المدققة للنص التوراتي تثبت أنه لم تقم سلطة مركزية من أي نوع في إسرائيل قبل مملكة شاؤول ، والقبائل الإسرائيلية لم تقم بأي نشاط مشترك يتضمن "كل إسرائيل" قبل قيام المملكة الموحدة . وحتى ذلك الحلف ، الذي التأم حول القاضية دبورة ، لم يكن سوى حادثة لاحقة اقتلعت من سياقها وأدمجت في فترة عصر القضاة .[٢١]

---

19 - Th . L Thompson , op . cit , p . 253
20 - R . de Vax , A history of Israel , Philadilphia 1978 , PP . 695 - 716
21 - Th . L - Thompson , op . cit , pp 96 - 97

أما الباحث ميللر J M . Miller (١٩٧٧) فيرى أن الإعتماد على المعلومات التاريخية والأركيولوجية من أجل إثبات أو نفي الرواية التوراتية لسفر القضاة هو مجهود لا طائل من ورائه ، لأننا لا نتعامل مع نص تاريخي تم تدوينه إبان الحدث أو بعده بقليل ، بل مع نص مكتوب بأسلوب التحرير الحر وفي وقت متأخر جداً عن الحدث . ويلخص ميللر دراسته عن سفر القضاة بالنتائج المبدئية التالية :

١ ـ إن الدراسة النقدية المعمقة للنص التوراتي المتعلق بتقليد الفتح العسكري وتقليد الإستقرار في الأرض ، تكشف لنا عن عدة مستويات زمنية جمع النص بينها . وإن أقدم هذه المستويات يربط قبائل إسرائيل جغرافياً بالمناطق الهضبية التي كانت مواطنهم الرئيسية في فلسطين . وهذه القبائل لم تأخذ بالإمتداد نحو المناطق السهلية والوديان الخصيبة ومناطق شرقي الأردن إلا عقب تشكيل المملكة الموحدة.

ولقد ترسخت ملاحظة ميللر هذه لدى بقية الباحثين الذين أخذوا يدرسون مسألة أصول إسرائيل انطلاقاً من دراسة مسألة الإستيطان في مناطق الهضاب المركزية خلال عصر الحديد الأول ، أي من ١٢٠٠ إلى ١٠٠٠ ق.م.

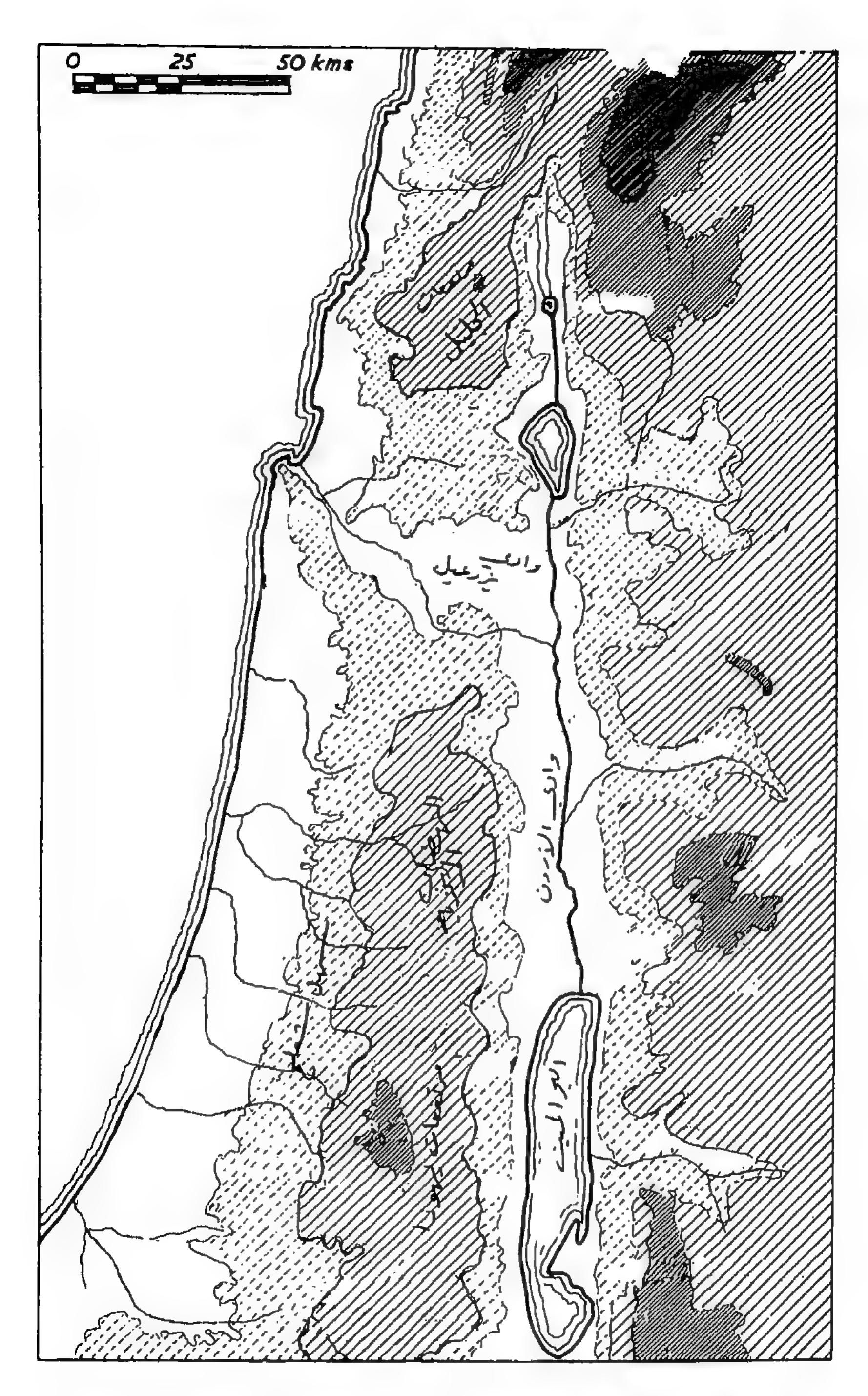
٢ ـ إن القبائل ، التي شكلت إسرائيل ، هي من أصول مستقلة ، وقد دخلت إلى فلسطين في أزمنة مختلفة ومتباعدة على ما يبدو . من هنا ، فإنه من غير الممكن وضع تاريخ محدد لعملية التسرب إلى كنعان والإستقرار فيها ، وإن كل ما سبق تشكيل المملكة الموحدة يقع خارج مجال تاريخ إسرائيل .

٣ ـ لا نستيطع تتبع أصول وتاريخ كل قبيلة من هذه القبائل على حدة ، والنص التوراتي لا يقدم لنا مساعدة تذكر في هذا المجال . من هنا فإن البحث عن أصول إسرائيل يجب أن يبتعد عن مفهوم "كل إسرائيل" ويركز على الدراسة الإقليمية . ذلك أن مفهوم "كل إسرائيل" الذي يتضمن القبائل الإثني عشر على كامل مساحة فلسطين أو معظمها هو مفهوم لاحق [٢٢].

ويلخص الآثاري فرانكن H . J . Franken في مساهمة له ضمن موسوعة كامبريدج للتاريخ القديم الموقف الحالي للمعلومات الأركيولوجية بخصوص فترة الفتح الإسرائيلي والإستقرار في كنعان على الوجه التالي :

---

٢٢ ـ أنظر مقالة ميللر عن عصر القضاة في كتاب:
- Hayes and Miller (edt) , Israelite and Judean History , Philadelphia 1977 , PP . 286 - 331



٣ ـ فلسطين الطبيعية ، وتبدو عليها الهضاب المركزية ومرتفعات يهوذا مظللة بالخط المتصل

" إذا وضعنا النص التوراتي جانباً ، فإن علم الآثار لم . وفر لديه سبب واحد يدفعه إلى القول بأن القرن الثالث عشر في فلسطين قد شهد تشكل شعب جديد في فلسطين اتخذ وضعه كأمة مكتملة مع نهاية القرن الحادي عشر . إن البينة الأركيولوجية على حلول جماعة إثنية جديدة في فلسطين ، مفقودة بالمعنى العلمي الدقيق لهذه الكلمة . إنه لمن المتعذر على تقنيات الأركيولوجية الحالية تلمس الآثار على وصول عناصر إثنية جديدة إلى موقع ما ، إذا لم تترك لنا هذه العناصر مخلفات مادية عند وصولها ، ذات طابع ثقافي متميز بشكل واضح عن طابع الجماعة السابقة التي حلت بين ظهرانيها أو حلت محلها . وهذا ما لم نستطع التوصل إليه فيما يتعلق بالجماعات العبرية . وأما القول بأن الجماعات العبرية التي دخلت واستقرت في كنعان هي من أصل بدوي أو رعوي ، وأن الجماعات البدوية لا تترك وراءها الكثير من المخلفات ذات الطابع الثقافي المتميز ، فهو قول مردود ، لأن تقنيات التنقيب الجديد صارت قادرة على تتبع تحرك الجماعات البدوية القديمة ورصد علاقاتها وتفاعلاتها مع محيطها . ولا أدل على ذلك من النتائج القيمة ، التي توصلت إليها السيدة كاثلين كينيون عن جماعات الآموريين البداة في فلسطين خلال الفترة الإنتقالية من عصر البرونز المبكر إلى عصر البرونز الوسيط . إن العنصر الثقافي الوحيد الذي يمكن أن نعزوه للقبائل العبرية بأي درجة من الثقة هو ديانتها المتميزة . ولكن هذا العنصر قد بقي حتى الآن غير واضح من الناحية الأركيولوجية ، ولا يوجد لدينا ما يدل عليه " . (٢٣)

هذه الأفكار ، التي سقتها أعلاه لبعض الباحثين ، هي نموذج عن التوجهات الجديدة في البحث التاريخي الأركيولوجي ، ولسوف استعرض المزيد منها في مناقشتي الأخيرة لمسألة أصول إسرائيل . أما الآن فإن السؤال الحيوي الذي يطرح نفسه عند هذه المرحلة من دراستنا هذه هو التالي : إذا كان بعض الباحثين يركز على المملكة الموحدة باعتبارها المنطلق التاريخي لتشكيل "كل إسرائيل" ، مع نفي صفة التاريخية عن كل ما سبقها . فما هو الأساس التاريخي لهذه المملكة الموحدة ؟ وكيف ينشأ حدث تاريخي عن فضاء غير تاريخي ، وبصورة مفاجئة ؟ هذا ما سنتفرغ لبحثه في الفصل القادم .

---

٢٣ ـ انظر مساهمة *H. J. Franken* تحت عنوان *Archaealagical Evedence* في فصل *Palestine in the Time of 19 th Dynasty*
- The Cambridg Ancient History, University Press 1975, PP. 331 - 337

الفصل الرابع

المملكة الموحدة لكل إسرائيل

صموئيل عراب المملكة

كان صموئيل ، الكاهن في مدينة شيلوه ، آخر قضاة بني إسرائيل . وقد تولى القضاء في فترة عصيبة بلغ فيها اضطهاد الفلسطينيين للإسرائيليين ذروته . فصلى صموئيل للرب ليرفع غضبه عن شعبه ، فاستجاب له الرب لأنه كان نبياً ومختاراً للرب منذ صغره ، وأعان بني إسرائيل على خصومهم فاسترجعوا منهم كل الأراضي والقرى التي سلبوها . وكان لما شاخ صموئيل أنه جعل ابنيه قضاة أيضاً يساعدانه ، ولكنهما لم يسلكان في طريقه بل مالا إلى المكسب وقبلا رشوة . فاجتمع كل شيوخ إسرائيل وجاؤوا إلى صموئيل وقالوا له : " هو ذا أنت قد شخت وابناك لم يسيرا في طريقك . فالآن إجعل لنا ملكاً يقضي لنا . وصلى صموئيل إلى الرب ، فقال الرب لصموئيل إسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك ... وملِّك عليهم ملكاً " (صموئيل الأول : ١ - ٨) .

" وكان رجل من بنيامين اسمه قيس بن أبيئيل .. وكان له ابن اسمه شاؤل ، شاب وحسن ، ولم يكن رجل في بني إسرائيل أحسن منه . من كتفه فما فوق كان أطول من كل الشعب . فضلَّت أتن قيس ، أبي شاؤل ، فقال قيس لشاؤل ابنه : خذ معك واحداً من الغلمان وقم فتش على الأتن . فعبر في جبل أفرايم فلم يجدها ... ولما دخلا أرض صوف قال شاؤل لغلامه : هو ذا رجل الله في هذه المدينة . لنذهب الآن إلى هناك لعله يخبرنا عن طريقنا التي نسلك .... وفيما هما آتيان في وسط المدينة ، إذا بصموئيل خارج للقائهما .. والرب كشف أذن صموئيل قبل مجيء شاؤل بيوم قائلاً : غداً في مثل الآن أرسل إليك رجلاً من أرض بنيامين ، فامسحه رئيساً لشعبي إسرائيل ، فيخلص شعبي من يد

الفلسطينيين . فلما رأى صموئيل شاؤل أجابه الرب هو ذا الرجل الذي كلمتك عنه ” (صموئيل الأول : ٩) .

” وقال صموئيل للشعب هلموا نذهب إلى الجلجال ونجدد هناك المملكة . فذهب كل الشعب إلى الجلجال وملّكوا هناك شاؤل أمام الرب في الجلجال ، وذبحوا هناك ذبائح سلامة أمام الرب ، وفرح هناك شاؤل وجميع رجال إسرائيل جداً . وقال صموئيل لكل إسرائيل : هأنذا قد سمعت لصوتكم في كل ما قلتم لي وملكت عليكم ملكاً . والآن هو ذا الملك يمشي أمامكم ، وأما أنا فقد شخت وشبت ، وهو ذا أبنائي معكم ” . وبعد أن استلم شاؤل جميع صلاحياته الدنيوية من صموئيل بدأ حروبه التحريرية الكبرى . حارب شاؤل أولاً العمونيين وردهم عن مناطق بني إسرائيل ، ثم التفت إلى الفلسطينيين . وكان جيشه يتألف من ثلاثة آلاف مقاتل في أحسن أحواله ، ومن ستمئة مقاتل فقط في أسوأ الأحوال . وكانت الأدوات الحديدية بما فيها الأسلحة مفقودة لدى بني إسرائيل ، لأن الفلسطينين منعوهم من صناعة الحديد للإبقاء عليهم في حالة الضعف العسكري . وفي المعركة الأولى مع الفلسطينيين لم يكن رمح ولا سيف بيد جماعة شاؤل ، إلا معه فقط ومع ابنه يوناثان الذي كان يحارب إلى جانبه ، ومع ذلك فقد ضرب شاؤل خصومه ضربة عنيفة وطاردهم حتى مقراتهم الحصينة ، ثم توجه إلى شرقي الأردن وحارب موآب وعمون وأدوم وملوك صوبة والآموريين . ثم عـاد فشد على الفلسطينيين وكانت بينـه وبينهم حـروب طيلـة أيام حياته (صموئيل الأول : ١١ ـ ١٤) .

ثم نقل صموئيل إلى شاؤل أمراً من الرب بقتال العماليق : ” وقال صموئيل لشاؤل ، إياي أرسل الرب لمسحك ملكاً على شعبه إسرائيل . والآن فاسمع صوت كلام الرب . هكذا يقول رب الجنود : إني افتقدت ما عمل عماليق بإسرائيل حين وقف له في الطريق عند صعوده من مصر ، فالآن إذهب واضرب عماليق وحرموا كل ما له ، ولا تعف عنهم بل اقتل رجلاً وامرأة ، طفلاً ورضيعاً ، بقراً وغنماً ، جملاً وحماراً ” . فضرب شاؤل العماليق فيما بين جنـوب البحر الميت وشمالي سيناء ، وأفنى الجميع حسب ما أمر به الرب ، لم يترك امرأة ولا طفلاً ولا رضيعاً إلا ذبحه . ولكنه عفا عن ملكهم المدعو أجاج بعد أن أمسك به ، كما أنه أبقى على الصحيح والجيد من المواشي ولم يحرمها للرب بل ساقها أمامه وقفل راجعاً إلى مقره . ” فكان كلام الرب إلى صموئيل قائلاً : ندمت على أني قد جعلت شاؤل

ملكاً ، لأنه رجع من ورائي ولم يقم كلامي " . فحزن صموئيل على شاؤل لأنه كان يحبه وناح عليه الليل كله . وفي الصباح خرج إلى شاؤل وعنفه على ما فعل ، فقال شاؤل لصموئيل : " أخطأت لأني تعديت قول الرب ، وكلامك ، لأني خفت من الشعب وسمعت لصوتهم . والآن اغفر خطيئتي وارجع معي فأسجد للرب . فقال صموئيل لشاؤل : لا أرجع معك لأنك رفضت كلام الرب فرفضك الرب من أن تكون ملكاً على إسرائيل " (صموئيل الأول : ١٥) .

بعد ذلك أمر الرب صموئيل أن يذهب إلى بيت المدعو يسّي في بلدة بيت لحم قرب أورشليم ، لأنه وجد في أحد أولاده ملكاً على إسرائيل ، فمضى صموئيل ودخل بيت يسّي وذبح للرب ودعا يسي وأولاده إلى الذبيحة . فعبر يسّي أولاده أمامه واحداً واحداً إلى أن عبر داود الولد الثامن الأصغر ، وكان قد وصل لتوه من رعي الغنم . فقال الرب لصموئيل قم فامسحه لأنه هذا هو . " وكان أشقر مع حلاوة العينين وحسن النظر ، فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه في وسط إخوته . وحل روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعدا . ثم قام صموئيل وذهب إلى الرامة . وذهب روح الرب من عند شاؤل " . وبزوال روح الرب عن شاؤل ، إسود مزاجه وصارت تنتابه نوبات اكتئاب ، فنصحه بعض أتباعه أن يفتش عن رجل يحسن الضرب بالعود فيسري عن الملك ويبهج قلبه ، فوافق ، فدلوه على الفتى داود بن يسي ووصفوه أمامه بأنه "يحسن الضرب ، وهو جبار باس ورجل حرب وفصيح اللسان ورجل جميل والرب معه" . فجاء داود وضرب بالعود فارتاحت نفس شاؤل . وأحب شاؤل داوداً وصار له حامل سلاح . (صموئيل الأول : ١٦) .

وحدث بعد ذلك أن الفلسطينيين اجتمعوا لقتال شاؤل وجاؤوا إلى يهوذا ، فاجتمع رجال شاؤل واصطفوا للقتال . وقبل بدء المعركة خرج فارس من جيش الفلسطينيين اسمه جُليات طوله يزيد عن ستة أذرع ، مدرع ومدجج بالسلاح ، وطلب أن يخرج إليه من جيش شاؤل مبارز لتحسم المبارزة الفردية نتيجة المعركة . فخاف كل أشداء جيش شاؤل وأحجموا عن تلبية النداء . وفي هذا الوقت وصل الفتى داود الذي أرسله أبوه ليتفقد إخوته الثلاثة الذين كانوا يحاربون في جيش شاؤل . فسأل عن جائزة من يقتل الفلسطيني فقيل له " إن الرجل الذي يقتله يغنيه الملك غنى جزيلاً ويعطيه بنته ويجعل بيت أبيه حراً في إسرائيل" . فتقدم داود إلى شاؤل معلناً رغبته في التصدي لجليات ، فألبسه شاؤل خوذته ودرعه وقلده

سيفه ، فلما مشى لم يقدر على الحركة فنزعها عنه وأخذ عصاه بيده والتقط خمسة حجارة ملساء فجعلها في جرابه وحمل مقلاعه وتقدم نحو الفلسطيني . ولما نظر جليات إلى داود" استحقره لأنه كان غلاماً واشقر جميل المنظر . فقال لداود ألعلي أنا كلب حتى أنك تأتي إلى بعصي . ولعن الفلسطيني داود بآلهته . وقال الفلسطيني لداود : تعال فأعطي لحمك لطيور السماء ووحش البريه " . ولكن داود تقدم إلى الميدان وأخذ حجراً من جرابه ورماه بالمقلاع فأصاب جبهة جليات وسقط على الأرض ، فركض إليه داود ولم يكن معه سيف ، فاستل سيف الفلسطيني وقطع به رأسه . ولما رأى الفلسطينيون ما حل بجبارهم هربوا ، فطاردهم جماعة شاؤل وأعملوا فيهم السيف وأخذ داود رأس الفلسطيني وأتى به إلى أورشليم . (صموئيل الأول : ١٧) .

ارتفع شأن داود بعد قتله جليات وصارت له سمعه حسنة ، فكرهه شاؤل وخاف من تزايد محبة الناس له ، وعندما كانت تأتيه نوبات الإكتئاب كان يسعى لقتله . ولكن ذلك لم يمنعه من البر بوعده لقاتل جليات فزوجه ابنته ميرب ثم زوجه ابنته الثانية ميكال ، وعينه قائداً بين قواده ، فكان يشن غزوات خاطفة على الفلسطينيين ويقتل منهم الكثيرين . ثم عاد شاؤل للتفكير بقتل داود ودبر له المكائد والمصائد ، ولكن يوناثان إبن شاؤل الذي أحب داود وصادقه ، كان ينقذه في كل مره ويقف إلى جانبه . وفي أثناء اختبائه وهربه من ملاحقة شاؤل تجمع حول داود جماعة من الأفاقين والمغامرين ومن أعداء شاؤل ، بلغ عددهم ستمئة مقاتل يرتحلون معه أينما ذهب . وعندما يئس من إيجاد ملاذٍ آمن له ولجماعته في المناطق التابعة لشاؤل ، قرر اللجوء إلى أرض الفلسطينيين ، فأتى إلى مدينة جت حيث استقبله ملكها أخيش استقبالاً حسناً وآواه وأكرمه (صموئيل الأول : ١٨ - ٢٦) .

أقام داود وجماعته في بلدة صقلغ التابعة لملك جت ، ومن هناك تابع شن غزواته ولكن لصالح الفلسطينيين هذه المرة ، وتحول إلى زعيم مرتزقة تعيث الفساد في أراضي خصوم ملك جت . وعندما جمع الفلسطينيون جيوشهم وتوجهوا إلى حرب جديدة مع شاؤل ، صعد إليهم داود ورجاله وعرضوا السير معهم لقتال بني جلدتهم ، فوافق أخيش ملك جت أما بقية أقطاب الفلسطينيين السائرين معه فرفضوا خوفاً من انقلاب داود عليهم وعودته إلى صفوف شاؤل ، فعاد داود ورجاله إلى معسكرهم . أما جيش الفلسطينيين فقد التقى بجيش شاؤل في جبل جلبوع وأوقعوا بالإسرائيليين هزيمة منكرة . وقد أصيب في المعركة شاؤل فوقع وقال

لحامل سلاحه أن يقتله قبل أن يقع في أيدي أعدائه ، فأبى ، فأخذ شاؤل السيف وسقط عليه فمات ، وفعل حامل سلاحه مثلما فعل ، كما سقط في المعركة أيضاً أولاد شاؤل الثلاثة ومعظم عساكره . وهنا يعطينا النص التوراتي وصفاً في غاية الحيوية لهذا المشهد: " واشتدت الحرب على شاؤل فأصابه الرماة رجال القسي فانجرح جداً . فقال شاؤل لحامل سلاحه : استل سيفك واطعني به لئلا يأتي هؤلاء الغلف ويطعنوني ويقبحوني . فلم يشأ حامل سلاحه لأنه خاف جداً ، فأخذ شاؤل السيف وسقط عليه . ولما رأى حامل سلاحه أنه مات شاؤل سقط هو على سيفه ومات معه ، فمات شاؤل وبنوه الثلاثة وحامل سلاحه وجميع رجاله في ذلك اليـوم . " وفي اليوم التالي عندما جاء الفلسطينيون لتفقد القتلى وجدوا شاؤل وبنيه على الأرض ، فقطعوا رأسه ونزعوا سلاحه وصلبوا جثته وجثث أولاده على سور مدينة بيت شان . (صموئيل الأول : ٢٧ - ٣١) .

النقد النصي لسفر صموئيل الأول

إذا كانت الأسفار الخمسة قد خُصصت لابتكار أصول بعيدة لإسرائيل التوراتية في أرض كنعان ، وسفر يشوع والقضاة لابتكار الأصول القريبة ، فإن سفر صموئيل الأول قد كرس لابتكار أصول للملكية في إسرائيل ، وللمملكة الموحدة لكل إسرائيل ، التي من المفترض أنها قامت على معظم أراضي كنعان . وتلعب هنا شخصية صموئيل ، الكاهن والنبي وآخر القضاة على بني إسرائيـل،دور المفصل الذي يربـط تقليـد عصر القضـاة بتقليـد عصر المملكة . فآخر القضـاة هنا هو الذي يمسح أول الملوك ويختاره لخلافته ، فينهي بذلك عصراً ويفتتح آخر .

جاء شاؤل ، الملك الأول ، من قبيلة بنيامين التي تنتمي أصلاً إلى القبائل الشمالية وتسكن في أقصى جنـوب مناطقها عند الرقعة الفاصلة بين الهضاب المركزية ومرتفعات يهوذا ، التي تليها . وبما أن المنظور الإيديولوجي لأسفار التوراة يعكس المواقف الفكرية لكهنة يهوذا المشرفين على عملية التحرير في الفترات المتأخرة ، فقد كان لابد من إظهار شاؤل في صورة الملك السيء ، وإظهار داود ، الذي جاء من بيت لحم في منطقة يهوذا بصورة الملك الجيد . وليس علو داود على شاؤل وقيام الرب بانتزاع المملكة منه واعطائها إلى داود ، إلا تبريراً إيديولوجياً لاستئثار يهوذا بالملك إبان فترة المملكة الموحدة ، من دون قبائل إسرائيل العشرة

الشمالية . ولسوف نرى منذ الآن في الأسفار التوراتية ذلك التمييز ، الذي صار واضحاً الآن بين إسرائيل ويهوذا .

رغم أن أسلوب المحررين هنا يشبه إلى حد بعيد أسلوب سفر القضاة ، إلا أن سفر صموئيل يتميز بوحده وتكامل الأحداث ، وذلك بسبب تركز أحداثه حول شخصيتين رئيسيتين هما شاؤل وداود . فكل القصص الصغيرة المثيرة حول تتبع شاؤل لداود وهرب الأخير في كل مرة ، قد صيغت في قالب منسجم رغم انتمائها الواضح لأصول مختلفة . كما أن المحرر قد أفلح في رسم صورة قوية ومؤثرة لشخصية شاؤل تجعل القارىء في تعاطف كامل معها ، رغم النوازع الأخرى للمحرر في إظهار الجوانب السلبية لها والتي لم تكن مقنعة على الإطلاق . الأمر الذي يدله في اعتقادي ، على أن هذا المحرر قد استخدم قصة أصلية متكاملة عن قائد ظهر في منطقة الهضاب المركزية في زمن لا نعرفه ، وقام بحماية جماعته من بغي وتعدي جماعة أخرى . ذلك أن أحداث سفر صموئيل الأول تُظهر في مستوياتها التحتية التي تعود إلى أزمنة قديمة ، ملامح ملحمة شعبية على غاية من الأصالة والنبل والجمال .

تنتمي القصص التي أدمجت في السياق الرئيسي لحياة شاؤل إلى نفس المخزون الفولكلوري الذي استُمِدت منه قصص القضاة ، وهي مليئة بالعناصر المعروفة لنا في الأدب الشعبي . ونخص بالذكر هنا عنصر الراعي الأعزل الذي يتغلب على الفارس المدجج بالسلاح في مواجهة فردية ، فهو عنصر شائع ومتكرر فيما لا يحصى من القصص الشعبي والبطولي لدى مختلف الشعوب . وقد أضيف إليه هنا عنصر المرور باختبار عسير من أجل النيل بيد بنت الملك ، وهو من العنـاصر القصصية الشائعة والمكررة بصور وأشكال لاحصر لها . ولقد كان المنظور الإيديولوجي المفروض على هذه القصص من المرونة بحيث سمح لأجواء القصص الأصلية ولبيئتها بالاعلان عن نفسها . فداود ، مسيح الرب والشخصية المركزية في التاريخ الزمني لإسرائيل التوراتية ، كان يحتفظ في بيته بالترافيم ، وهي أصنام آلهة رب البيت ، منها ما هو صغير ومنها ما هو كبير على هيئة الآدميين (*) . ففي إحدى الليالي جاء رسل شاؤل وطرقوا باب منزل داود بعد أن عرفوا بوجوده ليقتادوه إلى شاؤل ، فأنزلته ميكال من الكوة الخلفية للبيت ووضعت في سريره الترافيم وغطته بثوب وقالت

(*) ـ وردت كلمـــة الترافيم في هـــذا الموضـــع بنصها العبري دون ترجمة ، وكذلك في سفر القضاة ١٧ : ٥ . بينما ترجمت الى أصنام في سفر التكوين ٣١ : ١٩ و ٣٠ و ٣٤

للرسل أنه مريض (صموئيل الأول ١٩ : ١١ - ١٧) . ورغم محاولة المحرر لإظهار داود في صورة الملك الجيد في مقابل الملك السيء شاؤل ، إلا أنه ترك عناصر من القصة الأصلية ، التي استخدمها على حالها رغم اساءتها إلى صورة البطل مسيح الرب . فهو لا يتورع عن اللجوء إلى اعداء شعبه ويعمل مع عصابته كمرتزقة لدى ملك جت ، كما أنه لا يجد غضاضة في التطوع لقتال شاؤل في معركة جبل جلبوع ، والتي أدت إلى سقوط شاؤل وأولاده .

ويستمر في سفر صموئيل الأول أسلوب المحرر التوراتي الذي عهدناه في ايراد الروايات المتناقضة للحادثة الواحدة . فحادثة التحاق داود بأخيش ملك جت تأتي في روايتين ؛ في الرواية الأولى يرفض ملك جت لجوء داود ويقصد به شراً : " وقام داود وهرب في ذلك اليوم من أمام شاؤل وجاء إلى أخيش ملك جت . وقال عبيد أخيش له : أليس هذا داود ملك الأرض ، أليس لهذا كن يغنين في الرقص قائلات ضرب شاؤل ألوفه وضرب داود ربواته؟ فوضع داود في قلبه هذا الكلام وخاف جداً من أخيش ، فغير عقله في أعينهم وتظاهر بالجنون بين أيديهم وأخذ يخربش على مصـاريع البـاب . فقال أخيش لعبيده هو ذا ترون الرجل مجنوناً فلماذا تأتون به إليّ ... فذهب داود ونجا من هناك إلى مغارة عدلام " (صموئيل الأول ٢١ : ١٠ - ١٥) . وفي الرواية الثانية يستقبل أخيش داود استقبالاً حسناً ويُقطعه بلدة صقلغ : " وقال داود في قلبه إني سأهلك يوماً بيد شاؤل فلا شيء خير لي من أن أفلت إلى أرض الفلسطينيين . فقام داود وعبر هو والستمئة الرجل الذين معه إلى أخيش ملك جت ، وأقام عنده في جت .... فقال داود لأخيش : إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فليعطوني مكاناً في إحدى قرى الحقل فأسكن هناك .. الخ" (صموئيل الأول ٢٧ : ١ - ٦) .

ولدينا ثلاث روايات عن مسح شاؤل ملكاً . في الرواية الأولى يأتي شاؤل إلى بلد صموئيل باحثاً عن حمير أبيه الضالة وهناك يراه صموئيل ويأتيه كلام الرب بأن هذا الفتى هو الذي يملك على الشعب ، فيمسحه صموئيل ملكاً (صموئيل الأول : ٩) . وفي الرواية الثانية يطلب الرب من صموئيل أن يدعـو كل إسرائيل حسب أسباطهم فيستعرضهم أمامه فيختار منهم ملكاً . فتصعد الأسباط إلى صموئيل وتجتاز أمامه ، فيختار منها الرب سبط بنيامين ، ثم يستعرض سبط بنيامين عشائره فيختار الرب عشيرة مطري ، ثم تستعرض عشيرة مطري أُسرها فيختـار الرب أسرة قيس ، ومن أسرة قيس يختار الرب شاؤل ، فيمسحه

صموئيل ملكاً (صموئيل الأول ١٠) . وفي الرواية الثالثة ، يصعد ناحاش العموني على جلعاد ويستعبد أهلها ، فيرسل هؤلاء رسلاً يستنجدون بقبائل إسرائيل ، ويأتي الرسل إلى جبعه حيث شـاؤل . فخرج شاؤل وراء البقر من الحقل على بكاء الرسل واستنجادهم بقبائل إسرائيل ، فحل عليه روح الرب وغضب غضباً شديداً . أخذ بقرة وقطعها إلى اثنتي عشر قطعة وأرسلها بيد الرسل إلى كل تخوم إسرائيل قائلاً : من لا يخرج وراء شاؤل ووراء صموئيل هكذا يُفعل ببقره . فخرج الشعب وراء شاؤل كرجل واحد وهزموا العمونيين ، ثم عادوا وملكوا شاؤل عليهم (صموئيل الأول ١١١) .

ولدينا روايتـان عن لقاء شـاؤل بـداود ، في الأولى ينصح أتباع شاؤل بإحضار داود ليعزف على العود فيُسَرّي عن فؤاد شاؤل ، فيأتي إليه ويحبه شاؤل ويجعله حامل سلاحه (صموئيل الأول : ١٦) . وفي الاصحاح التالي مباشرة نجد شاؤل لم يجتمع بعد بداود ، فعندما ينبري داود للقاء الفلسطيني يسأل شاؤل عن الفتى وعن عائلته : " ولما رأى شاؤل داود خارجاً للقاء الفلسطيني قال لأبينير رئيس جيشه : إبن من هذا الغلام يا أبينير ؟ فقال أبينير : وحياتك أيها الملك لست أعلم فقال الملك : إسأل إبن من هـذا الغـلام . ولما رجع داود من قتل الفلسطيني ، أخذه أبينير وأحضره أمام شاؤل ورأس الفلسطيني في يده ، فقال له شاؤل إبن من أنت يا غلام ؟ فقال داود : إبن عبدك يسّي البيتلحمي" (صموئيل الأول : ١٧) . وفي هذه الرواية لا يظهر تعلق شاؤل بداود منذ البداية كما رأينا في الرواية السابقة ، بل أن ابنه يوناثان هو الذي يحب داود ويتعلق به ، فيضمه شاؤل إلى جماعته ولا يتركه يرحل إلى بيت أبيه .

وهناك روايتان عن طريقة موت شاؤل . ففي الأولى رأيناه يطلب من حامل سلاحه أن يقتله فيرفض فيسقط شاؤل على سيفه ويموت (صموئيل الأول ٣١ : ٤ ـ ٥) . أما في الرواية الثانية ، فإن شاباً عماليقياً يأتي إلى داود معفراً بالتراب ممزق الثياب ويخبره بأن شاؤل وأولاده قد قضوا في معركة جلبوع ، فيسأله كيف عرف بموت شاؤلفقال : " إني كنت في جبل جلبوع وإذا شاؤل يتوكأ على رمحه ، وإذا بالمركبات والفرسان يشدون وراءه . فالتفت إلى ورائه فرآني ودعاني فقلت هأنذا ، فقال لي : من أنت ؟ فقلت : عماليقي أنا ، فقال لي قف علي واقتلني لأنه قد اعتراني الدوار . فوقفت عليه وقتلته لأني علمت أنه لا يعيش بعد سقوطه ." (صموئيل الثاني ١ : ١ ـ ١٠) .

وعن مدة حكم شاؤل نقرأ في الاصحاح ١٣ : ١ أن شاؤل قد حكم مدة سنتين ، وهذا

لا يتناسب مع مجريات الأحداث اللاحقة . فشاؤل قد مسح ملكاً وهو شاب يافع ثم سقط في معركة جلبوع وهو كهل وله أولاد محاربون أشداء قتلوا معه في المعركة . وبعد موت شاؤل تقوم القبائل الإسرائيلية في الشمال بتنصيب ابنه ايشبوشت ملكاً عليها وعمره أربعون سنة (صموئيل الثاني ٢ : ٨ ـ ٩) ، وهذا يدل على أن فترة حكم شاؤل قد تجاوزت الأربعين سنة .

وعندما يقطع داود رأس جليات يقول النص : " وأخذ داود رأس الفلسطيني وأتى به إلى أورشليم ووضع أدواته في خيمته" . ونحن نعرف من آخر ذكر لأورشليم أنها ما زالت بيد اليبوسيين الكنعانيين ، وذلك في الموضع الذي أشرنا إليه في حينه في سفر القضاة ، والذي يصف أورشليم بأنها مدينة غريبة لا يوجد فيها أحد من بني إسرائيل (القضاة ١٩ : ١١ ـ ١٢) . ثم ماذا عن خيمة داود تلك التي يضع فيها أدواته والتي يبدو من المقطع أعلاه أنها عند أورشليم ؟ ومتى كان للفتى داود الذي ما زال يرعى غنم أبيه ، أو يضرب العود ويحمل أسلحة شاؤل ، خيمة في أورشليم؟ إن المقطع كله يبدو وكأنه منتزع من سياق قصة أخرى ومُدمج في هذه القصة ، وربما كان ينتمي إلى قصص داود اللاحقة بعد أن صار ملكاً وجعل من أورشليم عاصمة له .

نكتفي بهذا القدر اللازم من النقد النصي لسفر صموئيل الثاني . دون الدخول في كثير من التفاصيل الصغيرة ، التي يمكن لبحث آخر مكرس لنقد النصي أن يستعرضها ، وننتقل إلى سفر صموئيل الثاني الذي يبسط أمامنا أخبار فترة العصر الذهبي لإسرائيل التوراتية . أما عن النقد التاريخي والأركيولوجي لسفر صموئيل الأول ، فسوف يأتي ضمن النقد التاريخي والأركيووجي لأخبار المملكة الموحدة ، لأن أخبار شاؤل لم تكن سوى مدخلاً ومقدمة لأخبار داود وسليمان .

صموئيل الثاني ومملكة داؤد

بعد أن عرف داود بنبأ موت شاؤل وأولاده رثاه ورثا ابنه يوناثان بمرثية طويلة يقول فيها : " الظبي يا إسرائيل مقتول على شوامخك . كيف سقط الجبابرة . لا تخبروا في جت لا تبشروا في أسواق أشقلون ، لئلا تفرح بنات الفلسطينيين ، لئلا تشمت بنات

الغلف . يا جبال جلبوع ، لايكن طل ولا مطر عليكن ولا حقول تقدمات ، لأنه هناك طرح مجن الجبابرة مجن شاؤل بلا مسح بالدهن . من دم القتلى من شحم الجبابرة لم ترجع قوس يوناثان إلى الوراء ، وسيف شاؤل لم يرجع خائباً . شاؤل ويوناثان المحبوبان والحلوان في حياتهما لم يفترقا في موتهما . أخفُّ من النسور وأشد من الأسود . يا بنات إسرائيل إبكين شاؤل ... الخ" (صموئيل الثاني ١) .

ثم رحل داود إلى حبرون في الجنوب وأقام هناك . وفي حبرون جاء إليه رجال يهوذا ومسحوه ملكاً على بيت يهوذا . وأما القبائل الشمالية ، التي تدعى في النص بإسرائيل تمييزاً لها عن يهوذا فقد ملّكت عليها ابن شاؤل المدعو إشبوشت : "وأما أبنيير بن نير ، رئيس جيش شاؤل ، فأخذ إشبوشت بن شاؤل وعبر به إلى محنايم وجعله ملكاً على كل إسرائيل ، وكان إشبوشت بن شاؤل ابن أربعين سنة حين ملك على إسرائيل ، وملك سنتين ". وبعد ذلك اشتعلت الحرب بين إسرائيل ويهوذا ، ولم تنته إلا بموت اشبوشت ملك إسرائيل غيلة على يد اثنين من جماعته طمعاً في مكافأة من داود : " دخلا عند حر النهار إلى بيت إشبوشت وهو نائم نومة الظهيرة ، فدخلا في وسط البيت ليأخذا حنطة . فعند دخولهما البيت كان هو مضطجعاً في سريره في مخدع نومه ، فضرباه وقطعا رأسه وأخذا رأسه وسارا الليل كله وأتيا برأس إيشبوشت إلى داود إلى حبرون ، وقالا للملك : هو ذا رأس إشبوشت بن شاؤل عدوك الذي كان يطلب نفسك .. فأمر داود الغلمان فقتلوهما وقطعوا أيديهما وأرجلهما وعلقوهما على البركة في حبرون . وأما رأس اشبوشت فأخذوه ودفنوه" . فأتى رجال إسرائيل إلى داود في حبرون وملكوه على إسرائيل أيضاً . وبذلك ينتقل الملك إلى يهوذا (صموئيل الثاني : ١ - ٥) .

وكان أول عمل لداود بعد أن صار رأساً للملكة الجديدة هو الإستيلاء على أورشليم ، التي جعلها عاصمة له بعد أن أقام في حبرون حوالي السبع سنوات . وكانت أورشليم حتى ذلك الوقت مدينة كنعانية يسكنها اليبوسيون . وبعد استقراره في العاصمة الجديدة أرسل إليه حيرام الفينيقي ملك صور خشب أرز ونجارين وبنائين فبنوا لداود بيتاً . وبدأ داود يعيش عيشة الملوك المترفة وتسرّى بنساءٍ من أورشليم ولدن له بنين وبنات . وكانت أول حرب يخوضها هي حرب دفاعية ضد الفلسطينين الذين بادروا لقتاله بعد أن رأوا تزايد قوته ، فضربهم وطاردهم إلى تخومهم . وبعد ذلك جاء داود بتابوت العهد وأدخله إلى أورشليم في موكب

حافل وهو يرقص أمامه رقصاً طقوسياً حتى دخل المدينة حيث وضع التابوت في خيمة . ولكن الرب لم يكن راضياً عن مكان إقامته ، فتكلم مع ناثان النبي قائلاً: " إذهب وقل لعبدي داود ، هكذا قال الرب : أأنت تبني لي بيتاً لسكناي ؟ لأني لم أسكن في بيت منذ يوم أصعدت بني إسرائيل من مصر إلى هذا اليوم ، بل كنت أسير في خيمه وفي مسكن" (صموئيل الثاني : ٥ - ٧) . غير أن بناء بيت للرب كان مشروعاً يفوق امكانيات داود المتواضعة ، وكان على الرب أن ينتظر مجيء سليمان لينجز هذه المهمة (صموئيل الثاني ٥ : ٧) .

بعد أن أمن داود جانب الفلسطينيين المهزومين ، توجه إلى شرقي الأردن فضرب موآب وصار الموآبيون له عبيداً . ثم توجه شمالاً نحو مملكة صوبة الآرامية التي تعاضدها دمشق : " ضرب داود هدد عزر بن رحوب ملك صوبة حين ذهب ليرد سلطته عند نهر الفرات . فأخذ داود منه ألفاً وسبعمائة فارس وعشرين ألف رجل . وعرقب داود جميع خيل المركبات وأبقى منها مئة مركبة .فجاء آرام دمشق لنجدة هدد عزر ملك صوبة ، فضرب داود من آرام اثنين وعشرين ألف رجل . وجعل داود محافظين في آرام ، وصار الآراميون لداود عبيداً يقدمون الهدايا . وكان الرب يخلص داود حيثما توجه . وأخذ داود أتراس الذهب ، التي كانت على عبيد هدد عزر وأتى بها إلى أورشليم ، ومن باطح ومن بيروثاي مدينتي هدد عزر أخذ الملك داود نحاساً كثيراً . وسمع توعي ملك حماة أن داود قد ضرب كل جيش هدد عزر ، فأرسل توعي يورام ابنه إلى الملك ليسأل عن سلامته ويباركه ، لأن هدد عزر كانت له حروب مع توعي . وكان بيده آنية من فضة وآنية من ذهب وآنية من نحاس . وهذه أيضاً قدسها للرب الملك داود ، مع الفضة والذهب الذي قدسه من جميع الشعوب الذين أخضعهم : من آرام ومن موآب ومن بني عمون ومن الفلسطينيين ومن عماليق ومن غنيمة هدد عزر ملك صوبة .."(صموئيل الثاني : ٨) .

ورغم أن مملكة عمون في شرقي الأردن تظهر في النص السابق بين الممالك التي تم إخضاعها ، إلا أننا نجدها في الإصحاح الذي يلي مملكة مستقلة ، وعلى علاقات ودية مع داود إلى أن مات ملكها المدعو ناحاش وملك ابنة حانون بدلاً عنه . فأرسل داود رسلاً من قبله لتعزية حانون بوفاة أبيه ، ولكن حانون شك في أمر الرسل وظنهم جواسيس لداود ، فعاملهم معاملة سيئة وقص أنصاف لحاهم وثيابهم إلى وسطهم وأعادهم إلى داود . ثم تهيأ

للحرب واستأجر مرتزقة لعونه من آرام صوبة وغيرها من الدويلات المجاورة : " ولما رأى بنو عمون أنهم قد أنتنوا عند داود ، أرسل بنو عمون وأستأجروا آرام بيت رحوب وآرام صوبة عشرين ألف رجل ، ومن معكة ألف رجل ، ورجال طوب إثني عشر ألف رجل . فلما سمع داود أرسل يوآب وكل جيش الجبابرة " . ويحرز يوآب قائد جيش داود نصراً على بني عمون وعلى الآراميين المستأجرين لهم . ثم لا يستثمر نصره بمتابعة العمونيين المتراجعين إلى مدينتهم أو ملاحقة الآراميين الهاربين ، بل يقفل عائداً إلى أورشليم . ولكن هدد عزر يستجمع قواه مجدداً ويأتي بآراميين لمساعدته من وراء الفرات : " ولما رأى آرام أنهم انكسروا أمام إسرائيل اجتمعوا معاً . وأرسل هدد عزر فأبرز آرام الذي في عبر النهر فأتوا إلى حيلام وأمامهم شوبك رئيس جيش هدد عزر . ولما أُخبر داود ، جمع كل إسرائيل وعبر الأردن وجاء إلى حيلام ، فاصطف آرام للقاء داود وحاربوه .وهرب آرام أمام إسرائيل ، وقتل داود من آرام سبعمئة مركبة وأربعين ألف فارس ، وضرب شوبك رئيس جيشه فمات هناك . " (صموئيل الاثني : ١٠) .

عاد داود إلى أورشليم . وبعد سنة كاملة أرسل قائده يوآب وحاصر مدينة " ربة عمون " عاصمة العمونيين وأطال الحصار . أما داود فقد استسلم لحياة الرغد في أورشليم . وفي إحدى الأمسيات كان يتمشى على سطح بيته فرأى امرأة جميلة تستحم وراقت في عينيه ، فسأل عنها فقيل هي بتشبع امرأة أوريا الحثي ، وكان جندياً يحارب في جيش يوآب . فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه واضطجع معها ثم رجعت إلى بيتها . وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود ، فكتب داود رسالة إلى يوآب يقول فيها :" إجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت " . فمات أوريا ، وأرسل داود إلى امرأة أوريا وضمها إلى بيته فصارت له امرأة . أما يوآب فقد أحكم الحصار على مدينة "ربة عمون" وآلت إلى السقوط بيده ، فأرسل إلى داود طالباً منه الحضور ليأخذ المدينة بيده . فجمع داود كل الشعب وذهب إلى ربة وأخذها وقتل جميع أهلها . ولكن الرب كره ما فعله داود بأخذ زوجة أوريا الحثي وقتله الرجل بسببها ، فأرسل النبي ناثان الذي قال لداود : " كان رجلان في مدينة واحدة . واحد منهما غني والآخر فقير . وكان للغني غنم وبقر كثيرة جداً ، وأما الفقير فلم يكن له شيء إلا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها ورباها وكبرت معه ومع بنيه .. فجاء ضيف إلى الرجل الغني فعفا أن يأخذ من غنمه ومن بقره ليهيء للضيف الذي جاء إليه ، فأخذ نعجة الرجل الفقير وهيأ للرجل

الذي جاء إليه . فحمي غضب داود على الرجل جداً وقال لناثان : حي هو الرب ، إنه يُقتل الرجـل الفـاعل ذلك ، ويُرد النعجـة أربعـة أضعـاف .. فقـال ناثان لداود : أنت هو الرجل" (صموئيل الثاني ١١ و ١٢) .

و حدث بعد ذلك أنه كان لإبن داود المدعو أبشالوم أخت جميلة أسمها ثامار . فأحبها إبن داود الآخر المدعو أمنون ، وكان أخاً غير شقيق لأبشالوم . و أسقم أمنون حبُّ أخته ثامار حتى لزم بيته وفراشه . وأخيراً فكر بحيلة يستدرج بها أخته إلى فراشه : " فإضطجع أمنون وتمارض ، فجاء الملك ليراه فقال أمنون : دع ثامار أختي فتأتي وتصنع أمامي كعكتين فآكل من يدها .. فذهبت ثامار إلى بيت أمنون أخيها وهو مضطجع ... وقدمت له ليأكل فأمسكها وقال لها تعالي اضطجعي معي يا أختي . فقالت له : لا يا أخي لا تذلني ..فلم يشأ أن يسمع لصوتها بل تمكن منها وقهرها واضطجع معها " . فجعلت ثامار رماداً على رأسها ومزقت ثوبها وراحت تصرخ ، فجاء إليها أخوها أبشالوم وأسكتها وقادها إلى بيته مبيتاً خطة هادئة للإنتقام من أمنون . بعد مدة دعا أبشالوم أمنون وبقية إخوته أولاد داود الى وليمة ، وأوصى غلمانه أن يضربوا أمنون بعد أن تلعب الخمرة برأسه . ففعل غلمان أبشالوم بأمنون كما أمرهم وقتلوه . فقام جميع بني الملك وركبوا كل واحد على بغلة وهربوا . أما أبشالوم فقد توارى عن الأنظار ريثما يتعزى داود عن ابنه القتيل (صموئيل الثاني : ١٣) .

وكان أبشالوم صاحب مطامح . فصار يستميل قلوب الناس ويجلس للقضاء بينهم قبل وصولهم إلى باب الملك ، فأحبه الشعب ومال إليه . وعندما أحس أن الوقت قد حان للإنقلاب على أبيه ، أقام في مدينة حبرون وجمع حوله الأتباع والمؤيدين ، وأرسل دعاته بشكل خاص إلى قبائل إسرائيل في الشمال التي بايعت داود مكرهة بعد قتل اشبوشت ، واتفق معهم على نزع طاعة داود لدى سماعهم أن الأبواق قد ضربت في حبرون ونودي في الأسواق قد ملك أبشالوم . " فأتى مخبر إلى داود قائلاً إن قلوب رجال إسرائيل صارت وراء أبشالوم . فقال داود لجميع عبيده الذين معه في أورشليم قوموا بنا نهرب لأنه ليس لنا نجاة من وجه أبشالوم . أسرعوا للذهاب لئلا يبادر ويدركنا وينزل بنا الشر ويضرب المدينة بحد السيف . فخرج الملك وجميع بيته وراءه ، وكل الشعب في إثره .. وأما داود فصعد في مصعد جبل الزيتون . كان يصعد باكياً ورأسه مغطى ويمشي حافياً ، وجميع الشعب الذين معه غطوا كل واحد رأسه ، وكانوا يصعدون وهم يبكون " . ثم عبر داود ومن معه نهر

الأردن إلى الجهة الأخرى . أما أبشالوم فقد دخل أورشليم مدعوماً من قبائل إسرائيل . ولكن مشيريه نصحوه باللحاق بداود والقضاء على قوته العسكرية في شرقي الأردن : " فعبر أبشالوم الأردن هو وجميع رجال إسرائيل معه .. ونزل إسرائيل وأبشالوم في أرض جلعاد وهنا وجد داود أن المواجهة بينه وبين ابنه صارت محتومة ، فتجهز للحرب وقسم جيشه ثلاثة فرق عين على كل فرقة قائداً، وأوصاهم جميعاً ألا يمسوا ابنة أبشالوم بسوء ." وخرج الشعب إلى الحقل للقاء إسرائيل . وكان القتال في وعر أفرايم . فإنكسر هناك شعب إسرائيل أمام عبيد داود ، وكانت هناك مقتلة عظيمة ". ولم يحفظ القائد يوآب وصية داود فضرب أبشالوم بثلاثة سهام وهو عالق بأغصـان شجـرة بطم فقتله . وبعد أن أقام داود مناحة على ابنـه القتيل قفل عائداً إلى أورشليم . أما قبائل إسرائيل فقد مشت بعد أبشالوم وراء قائد جديد : " فصعد كل رجال إسرائيل من وراء داود إلى وراء شبع بن بكري . وأما رجال يهوذا فلازموا ملكهم من الأردن إلى أورشليـم ". وقبل أن تستقر الأمور لشبع بن بكري ، أرسل داود وراءه قائده يوآب فتعقبه وحاصره في مدينة آبل بيت معكه . ولما اشتد الحصار على أهل المدينة اتفقوا مع يوآب على تسليمه رأس شيع بن بكري مقابل فك الحصار عن مدينتهم ، فارتد يوآب برأس شبع وانتهت الفتنة (صموئيل الثاني : ١٤ ـ ٢٠) .

" وكان جوع في أيام داود ثلاث سنين ، سنة بعد سنة ، فطلب داود وجه الرب " . فقال له الرب إنه غاضب على الأرض لأن الملك شاؤل كان قد ضرب أهل مدينة جبعون بعد العهد الذي كان يشوع قد قطعه معهم منذ القدم (وهذه الحادثة غير واردة في أخبار شاؤل) . فجاء داود إلى الجبعونيين وسألهم كيف يستطيع التكفير عن خطيئة شاؤل . فطلب الجبعونيون أن يسلمهم داود سبعة من بني شاؤل يقدمونهم قرباناً للرب . فأخذ داود ولدي شـــاؤل من زوجتـــه رصفـة ، وخمسة أولاد لميكال ابنـة شاؤل وسلمهم إلى يد الجبعونيين " فصلبوهم على الجبل أمام الرب ، فسقط السبعة معاً وقتلوا في أيام الحصاد .. وبعد ذلك استجاب الله من أجل الأرض" (صموئيل الثاني : ٢١) .

وتختتم حياة داود بكارثة تحل في إسرائيل . فقد غضب الرب على داود لأنه قام بإحصاء الشعب لمعرفة عدد سكان مملكته " فجعل الرب وباءً في إسرائيل من الصباح إلى الميعاد ، فمات الشعب من دان الى بئر السبع ؛ سبعون ألف رجل وبسط الملاك يده على أورشليم ليهلكها ، فندم الرب عن الشر وقال للملاك المهلك الشعب : كفى ، الآن رويدك .

وكان ملاك الرب عند بيدر أرونة اليبوسي . فكلم داود الرب عندما رأى الملاك الضارب الشعب وقال : هأنا أخطأت وأنا أذنبت ، وأمـا هـؤلاء الخراف فماذا فعلوا ؟ " . ثم اشترى داود الأرض ، التي وقف عندهـا الملاك من صـاحبها أرنان اليبوسي وأقـام عنـدها مذبحـاً للرب (صموئيل الثاني : ٢٤) . أما ما يلي هذه الحادثة من أخبار شيخوخة داود وتنازع أولاده على العرش ، فيرد في سفر الملوك الأول ، الذي يفصِّل في سيرة الملك سليمان التي سوف ننتقل إليها بعد قليل .

النقد النصي

لسفر صموئيل الثاني

لم يحقق المحرر التوراتي في سفر صموئيل الثاني أية نقلة نوعية في أسلوبه ، من شأنها الإيحاء بإنتقاله من مرحلة التجميع التراثي غير المدقق إلى مرحلة التقصي التاريخي . فهذا السفر يمتح من نفس الذخيرة القصصية الشعبية والبطولية ، التي متح منها سفر القضاة . ولكن بينما توزعت أحداث سفر القضاة بين شخصيات مختلفة ومتباعدة زمنياً ، فإن أحداث صموئيل الثاني قد جُعلت تدور حول شخصية الملك داود، في محاولة لرسم صورة لملك ملحمي أسس التقاليد الملكية في إسرائيل . من هنا ، فقد يبدو سفر صموئيل لأول وهلة أكثر تسلسلاً وانسجاماً من سفر القضاة ، وإيحاءً بما يشبه التاريخ . إلا أن القراءة المدققة ما تلبث أن تظهر لنا مدى تفكك هذا السفر ، واستقلالية قصصه عن بعضها ، وتفرد كل منها بعقدة خاصة وسياق مغلق لا يؤدي إلى غيرها ، وذلك رغم الترتيب الزمني الذي اصطنعه المحرر من أجل ربطها وعقد الصلة فيما بينها . فحروب داود التي ذُكرت باقتضاب ، ولم تأخذ حيزاً من السفر يعادل حيز قصة اغتصاب أمنون لأخته ، يمكن أن تُنسب لأية شخصية في سفر القضاة ، مثل جدعون (القضاة : ٧ ـ ٨) أو يفتاح الجلعاوي (القضاة : ١١) أو إلى يشوع ، أو حتى إلى موسى الذي وصل في غزواته إلى حوران في سورية الجنوبية . فإذا تجاوزنا حروب داود انفتح أمامنا عالم من قصص ألف ليلة وليلة ؛ الملك يتمشى على السطح ويتلصص على امرأة عارية تستحم فيقع في غرامها ويقتل زوجها الجندي ليحصل عليها . أمنون يأتي بأخته ثامار بحيلة إلى سريره ويغتصبها . أبشالوم يولم لإخوته ويقتل من بينهم

أمنون . خروج الإبن على أبيه من أجل الاستئثار بالعرش وما جرى بينهما من حروب . أهل مدينة آبل بيت معكه يقطعون رأس شبع بن بكري ويسلمونه للقائد يوآب . التضحية بأولاد شاؤل السبعة وصلبهم على الجبل قرباناً للرب .. الخ . كما أن باستطاعتنا نقل أية قصة من هذه القصص المؤلفة لسيرة داود إلى سفر القضاة أو إلى يشوع أو حتى إلى أحد الأسفار الخمسة ، دون أن نشعر بغرابتها عن جوها الجديد . وهذا يدل على أننا ما زلنا في حيز الأدب ولم ننتقل بعد مع النص التوراتي إلى حيز التاريخ .

وتعطينا بعض التفاصيل الصغيرة للقصص فكرة عن كيفية تصور محرر صموئيل الثاني لمملكة داود . فهذه المملكة لم تكن أكثر من مشيخة قبيلة متواضعة ، وملوكها ليسوا أكثر من أمراء محليين لم يأخذوا بعد بأسباب التمدن . فالقتلة يدخلون بيت ملك إسرائيل إشبوشت عند الظهيرة وباب الملك مفتوح على مصراعيه ، ويأتون إلى صحن الدار متظاهرين بأنهم يأخذون قمحاً ، ثم يدخلون مخدع الملك وهو نائم نومة الظهيرة فيقطعون رأسه ويسيرون به ، دون أن يعترضهم حرس أو خدم أو حشم . وبيت داود لا يختلف كثيراً عن بيت إشبوشت الذي يستطيع دخوله أي عابر سبيل ، فرغم أن النص يقول بأن حيرام قد أرسل إلى داود خشب أرز ونجارين وبنائين ليصنعوا بيتاً لداود ، إلا أننا نجد بعد ذلك أن هذا البيت قائم بين بيوت الجنود العامة . فعندما يصعد داود ليتمشى على السطح يرى امرأة تستحم في بيتها ، وهذا يعني أنه لم يكن بين سطح داود وبيت المرأة التي كانت زوجة أوريا الجندي ، إلا بضعة أمتار سمحت للملك برؤية تفاصيل جمال المرأة المستحمة .

وفي سفر صموئيل الثاني يبدأ النص التوراتي بالتمييز بين إسرائيل ويهوذا ، وهو التمييز ، الذي سوف يستمر ويتأكد عبر الأسفار اللاحقة . فبعد أن كان المحرر يستعمل تعبير " كل إسرائيل " أو " كل الشعب " للدلالة على القبائل الاثني عشر بما فيها يهوذا ، فإنه يأخذ عبر سفر صموئيل الثاني بالحديث عن إسرائيل وعن يهوذا ، وتبدو يهوذا مستثناة من مصطلح " كل إسرائيل " الذي يستخدم في معظم المواضع للدلالة على القبائل الواقعة إلى الشمال من أورشليم ابتداءً من بنيامين . فبعد موت شاؤل الإسرائيلي : " أتى رجال يهوذا ومسحوا داود ملكاً على بيت يهوذا .... وأما أبنير رئيس جيش شاؤل فأخذ إشبوشت وعبر به إلى محنايم وجعله ملكاً على كل إسرائيل " (صموئيل الثاني : ٢) . وعندما ينحاز أبنير رئيس جيش شاؤل بعد ذلك إلى جانب داود يأتي إلى داود ويقول : " أقوم أذهب وأجمع إلى سيدي

الملك جميع إسرائيل فيقطعون معك عهداً " (صموئيل : ٣ : ٢١) . ومن الواضح في هذا المقطع أن المقصود بجميع إسرائيل هو القبائل الشمالية ، لأن يهوذا كانت قد بايعت داود منذ البداية . وبعد مقتل اشبوشت يأتي الإسرائيليون إلى داود فيبايعوه أيضاً ، وهنا نقرأ : "وجاء جميع أسباط إسرائيل إلى داود في حبرون ... وجاء جميع شيوخ إسرائيل إلى الملك إلى حبرون . فقطع الملك داود معهم عهداً .... ومسحوا داود ملكاً على إسرائيل . وكان داود إبن ثلاثين سنة حين ملك ... في حبرون مَلَك على يهوذا سبع سنين وستة أشهر ، وفي أورشليم ملك ثلاثاً وثلاثين سنة على جميع إسرائيل ويهوذا" (صموئيل الثاني ٥ : ٤ ـ ٥) . وبعد موت أبشالوم : " صعد كل رجال إسرائيل من وراء داود إلى وراء شبع بن بكري ، أما رجال يهوذا فلازموا ملكهم" (صموئيل الثاني ٢٠ : ٢) . وفي غير أمثال هذه المواضع المشار إليها أعلاه ، فإن المحرر يعود إلى استخدام مصطلح "كل إسرائيل" في الإشارة إلى إسرائيل ويهوذا معاً ، وخصوصاً في حديثه عن المعارك التي تخوضها هذه القبائل موحدة ضد عدو خارجي . من ذلك مثلاً ماورد في صموئيل الثاني ١٠ : ١٥ و ١١ : ١

النقد التاريخي والأركيولوجي لصموئيل الثاني

يفتـرض المؤرخـون أن شاؤل قد حكم بين ١٠٣٠ و ١٠٠٩ ق.م ، وداود بين ١٠٠٩ و ٩٠٦٩ ق.م ، وسليمان بين ٩٦٩ و ٩٣١ ق.م . إلا أن البينة التاريخية والأركيولوجية لم تتوفر حتى الآن على وجود هؤلاء الملوك ، ولا يوجد لدينا خارج النص التوراتي مصدر يتعرض لذكرهم بشكل مباشر ، أو يقدم مادة يمكن مقاطعتها مع كل ما ذكره النص التوراتي بخصوصهم .

فيما يتعلق بأخبار الملك داود في سفر صموئيل الثاني ، لدينا بضعة أسطر خصصها المحرر للحديث عن حروب داود وانتزع لها حيزاً ضيقاً بين خضم القصص التي تتحدث عن الصراع على السلطة وغراميات البلاط الملكي والدسائس السياسية . يحارب داود أولا الفلسطينيين ، ثم المؤآبين في شرقي الأردن . وأخبار مثل هذه الحروب تتخذ في النص التوراتي صيغة نمطية ومتكررة لا تسمح للباحث بتبيين العناصر التاريخية فيها ، إنها أشبه

بالعنصر التزيني الجاهز للاستخدام في رسم أية سيرة شخصية توراتية . ولعلنا قادرين على انتزاع أي خبر من أخبار هذه الحروب من مكانة وزرعه في أي مكان آخر دون أن نحدث في الرواية خللاً يذكر . بعد ذلك يتجه داود لقتال المدعو هدد عزر ملك صوبة ، دون أن يعطينا النص أي مبرر أو سبب مباشر أو غير مباشر لهذه الحرب . ويأتي الخبر هنا في صيغة غامضة ومختصرة حيث يقول : " وضرب داود هدد بن عزر بن رحوب ملك صوبة حين ذهب ليرد سلطته عند نهر الفرات . فأخذ منه داود ... الخ . فجاء آرام دمشق لنجدة هدد عزر ملك صوبة ، فضرب داود من آرام اثنين وعشرين ألف رجل . وجعل داود محافظين في آرام دمشق وصار الآراميون لداود عبيداً " . ولكن هذه المعركة لم تكن فاصلة بين الطرفين . فبعد أن طرد ملك عمون رسل داود وتهيأ لقتاله " أرسل بنوعمون واستأجروا آرام بيت رحوب وآرام صوبة عشرين ألف رجل ، ومن معكة ألف رجل ، ورجال طوب اثني عشر ألف رجل ...فتقدم يوآب والشعب الذين معه لمحاربة آرام فهربوا من أمامه . ولما رأه بنوعمون أنه قد هرب آرام هربوا ودخلوا المدينة . فرجع يوآب عن بني عمون وأتى إلى أورشليم" . بعد ذلك مباشرة تبدأ المعركة الثانية بين داود وهدد عزر : " ولما رآى آرام أنهم انكسروا أمام إسرائيل اجتمعوا معا . وأرسل هدد عزر فأبرز آرام الذي في عبر النهر فأتوا إلى حيلام وأمامهم شوبك رئيس جيش هدد عزر ... فاصطف آرام للقاء داود وحاربوه وهرب آرام من أمام إسرائيل" .

لقد سكب المؤرخون أطناناً من الحبر حتى الآن من أجل إعادة ترتيب هذه الأخبار المختصرة الغامضة ووضعها في إطار تاريخ مقبول ، فأخرجوا ممالك من العدم وأسبغوا عليها الطابع التاريخي ورسموا حدودها ووصفوا علاقاتها مع الممالك الوهمية الأخرى ، استناداً إلى الرواية التوراتية وحدها . ففيما يتعلق بمملكة صوبة احتار الباحثون بشأن موقعها وحدودها ، وخرجوا باستنتاجات واهية من شأنها خلق صورة مضخمة عن هذه المملكة . فالباحث هاليفي يقول أن صوبة هي تحريف لكلمة صهوبة ، التي تعني بريق الذهب أو النحاس ، وبما أن سلسلة جبال لبنان الشرقية غنية بالنحاس ، فإن من المرجح أن صوبة كانت تشمل الأراضي الممتدة إلى الشمال الغربي من دمشق ، وذلك من البقاع غرباً وحتى البادية شرقاً[1] . وقد سار بقية الباحثين على منوال هاليفي . يقول واين بيتارد في

---

١ ـ د. علي أبو عساف : الآراميون ، دار أماني ، طرطوس سورية ١٩٨٨ ، ص ٧٣

كتابه "دمشق في العصور القديمة" مايلي : " في أيام داود كانت مملكة صوبة أقوى وأهم دولة في وسط وجنوب سورية وخصماً عنيداً للمملكة الإسرائيلية الجديدة . أما عن موقع هذه الدولة وحدودها ، فإن معظم الباحثين اليوم يضعونها في البقاع الشمالي ، مع امتدادات نحو الشرق تصل إلى سهول حمص وتتجاوزها حتى البادية" (٢) .

لقد ورد الاسم صوبة لأول مرة في سفر صموئيل الأول ، الذي يذكر أن الملك شاؤل قد ضرب ملوك صوبة : " وحارب جميع أعدائه من حواليه ، موآب وعمون وآدوم وملوك صوبة والفلسطينيين " (صموئيل الأول ١٤ : ٤٧) . وهذا يعني أن صوبة هي منطقة جغرافية وليست مملكة ، وأن المملوك المذكورين هنا ليسوا سوى مشايخ قبائل نظراً للإشارة إليهم بصيغة الجمع . ولكننا في عصر داود نجدها فجأة وبعد عدة سنوات عبارة عن مملكة يحكمها ملك واحد إسمه هدد عزر . أما المصادر الخارجية فصامته تماماً عن ذكر هذه المملكة وعن ذكر ملكها هدد عزر ، الذي لم يرد له ذكر خارج النص التوراتي . ونحن نعجب كيف تكون مملكة صوبة في القرن العاشر قبل الميلاد " أقوى وأهم دولة في وسط وجنوب سورية " (على حد تعبير المؤرخ بيتارد ، الذي اقتبسنا منه أعلاه) ثم لا تحفل النصوص الآشورية والنصوص الآرامية بذكرها . ومن جهة أخرى فإنه لم يتوفر لدينا من منطقة البقاع الشمالي حتى الآن أية لقى أثرية يمكن أن تشير إلى وجود هذه المملكة ، أو عاصمتها ، التي لم يذكرها النص التوراتي ، أو أي مدينة من المدن التابعة لها . وكل هذا يشير بكل وضوح إلى أن مملكة صوبة التوراتية لم تكن إلا إمارة أو مشيخة قبلية قريبة زمنياً من عصر تحرير التوراة ، وأن المحرر التوراتي قد استعان بأخبار غامضة عن حروب أحد ملوك السامرة أو أورشليم المتأخرين مع هذه الإمارة الصغيرة وأدمجها في أخبار حروب داود .

أما بخصوص الممالك الأخرى التي حالفت صوبة ، وهي آرام بيت رحوب ومعكة وطوب ، فقد وصفت أيضاً من قبل المؤرخين بأنها دويلات هامة ، وجرى تعيين مناطقها ورسم حدودها اعتماداً على الإشارات الغامضة إليها في النص التوراتي . ففيما يتعلق ببيت رحوب ، جرى لمدة طويلة مطابقة هذه المملكة مع موقع رحاب على بعد ٥٠ كم إلى الشمال من مدينة عمان الحالية ، ولكن التنقيب الأثري في الموقع لم يعثر على أية لقى أثرية ترجع إلى عصر الحديد الأول ، لذا فقد نقل الباحثون موقع بيت رحوب وجعلوه في أسفل

2 - *Wayne . T . Pitard , Ancient Damascus , Eisenbrauns , Indiana 1987 , P . 89*

البقاع الجنوبي ، من هؤلاء الباحثين دبون سومر وأوكالاهان وأنغر وغيرهم . أما معكة فقد وضعت في سفوح جبل الحرمون مع امتدادات تصل إلى بحيرة الحولة ، وأما طوب فقد وضعت في منطقة حوان الجنوبية [٣] . ولكن هذا التعيين التعسفي لمناطق هذه الممالك التي يصفها النص التوراتي بالممالك الآرامية ، لايستند إلى أية بينة موضوعية خارجية ؛ فالنصوص الآرامية والنصوص الآشورية التي اعتمد عليها المؤرخون لكتابة تاريخ آرام في عصر الحديد ، لم تأت على ذكر هذه الممالك ، كما أن التنقيبات الأثرية في المناطق المفترضة لقيامها لم تنتج حتى الآن أية بينة على وجودها . الأمر الذي يدل على أنها لم تكن أيضاً إلا مشيخات قبلية دخلت في صراع مع بعض ملوك السامرة أو يهوذا المتأخرين .

ويستنتج المؤرخون من الإشارة المبهمة القائلة " فجاء آرام دمشق لنجدة هدد عزر .." بأن مدينة دمشق كانت في ذلك الوقت تابعة لهدد عزر ملك صوبة ، وأن داود قد استبدل إدارة هدد عزر بإدارة من قبله وعين على المدينة محافظين تابعين له مباشرة [٤] . غير أن القراءة العادية للنص والبعيدة عن التأويل ، تقول لنا أن هدد عزر قد دخل الحرب مع داود منفرداً وبقواته الخاصة ، ولو كانت دمشق في ذلك الوقت ولاية تابعة لصوبة لكانت قواتها في عداد جيش هدد عزر بشكل تلقائي . ومما يؤكد هذا المرمى الواضح للنص ، أن دمشق قد قررت فيما بعد وبشكل مستقل أن ترسل جيشها لنجدة آرام صوبة . أما عن تبعية دمشق لداود وعن أولئك المحافظين الذي عينهم لإدارتها ، فإن نص سفر الملوك الأول الذي يرصد أخبار الملك سليمان يخبرنا فيما بعد ، أن أحد رجالات هدد عزر المدعو رزون بن أليداع قد استقل عن سيده وجاء إلى دمشق فملك فيها (الملوك الأول ١١ : ٢٣ - ٢٤) . وبذلك يتجاهل سفر الملوك الأول مسألة تبعية دمشق لداود ولا يأتي على ذكر أولئك المحافظين الذي عينهم من قبله . وبشكل عام فإن الطريقة المبهمة التي تحدث فيها عن دمشق محرر سفر صموئيل الثاني ، تدل على أنه لم يكن يملك عنها معلومات واضحة ترقى إلى ذلك العصر ، فذكرها باقتضاب ودون تفاصيل تتعلق بتكوينها السياسي واسم ملكها وأوضاعها العامة . وأغلب الظن أن هذه الحرب المفترضة بين داود ودمشق هي انعكاس للأخبار المتأخرة عن حروب ملوك دمشق وملوك السامرة ويهوذا ، بعد ذلك بأكثر من قرنين

---

3 - Ibid , pp .88 - 89
4 - Ibid , p .94

من الزمـــان ، والتي توفــرت للمحـــرر التـــوراتي بعض المعلومات عنها ، كما سنوضح ذلك لاحقاً .

في المعـركة الثانية مع آرام صوبة يقول النص أن هدد عزر قد " أبرز آرام الذي في عبر النهر ، فأتوا إلى حيلام وأمامهم شوبك رئيس جيش هدد عزر" . ويبني المؤرخون على هذا الخبر أن ملك صوبة كانت له سلطة غير مباشرة على الدويلات الآرامية القائمة عند نهر الفـرات وأن هذه الدويـلات قد اجتمعت معاً تحت لواء هدد عزر وأتت إلى حيلام لقتال داود . ثم يسيرون أبعد من ذلك في استنتاجاتهم ويتوصلون إلى أن انتصار داود على هدد عزر وحلفائه ، الذين جاءوا من عبر النهر ، قد أوصل قوات داود إلى نهر الفرات وأنه قد أخضع كل المناطق الواقعة بين الفرات ودمشق . فإلى أي حد تتطابق هذه الاستنتاجات مع الوقائع التاريخية ؟

في القرن العاشر قبل الميلاد ازدهر على حوض الفرات الأوسط وعلى حوض الخابور الأسفل ، وهي المنطقة التي يدعوها التوراة بعبر النهر أو آرام النهرين ، عدد من الممالك الآرامية القوية ، التي صرنا اليوم نعرف الكثير عن تاريخها وحضارتها استناداً إلى النصوص الآشورية والآرامية ، وإلى المعلومات الأركيولوجية القيمة التي أفادتنا بها التنقيبات الأثرية في مواقعها الرئيسية . فقد أقامت قبيلة بيت لاقي الآرامية على ضفاف الخابور الأسفل وعلى ضفاف الفرات منذ القرن الحادي عشر ، وجعلوا لأنفسهم عاصمة في دوركتليمو . وتظهر الوثائق الكتابية ، التي اكتشفت في دوركتليمو أن مملكة بيت لاقي قد تمتعت بالحكم الذاتي تحت مظلة آشورية وحكمها ملوك آراميون خاضعون إسمياً للملك الآشوري . وجاورت مملكة بيت لاقي على الخابور مملكة آرامية أخرى هي مملكة بيت بحياني ، التي أسسها الشيخ بحياني ، الذي حقق استقـلالاً ذاتياً عن الآشوريين منذ وفاة تغلات فلاصر الأول عام ١٠٧٤ ق.م وجعل لنفسه عاصمة في جوزانا (تل حلف) . وتطلعنا الوثائق الآرامية ، التي وجدت في جوزانا على أسماء عدد من ملوك بيت بحياني الذي حكموا بين القرن الحادي عشر والقرن العاشر قبل الميلاد وهم على التوالي : بحياني وخديانو وكبارة وأبي سلامو . وإلى الشرق من مملكتي لاقي وبحياني قامت مملكة بيت عديني ، أقوى الممالك الآرامية على الفرات ، وشغلت المنطقة الممتدة من كركميش (جرابلس على الحدود التركية السورية) إلى مصب رافد البليخ . وقد بنى ملوك عديني عاصمة لهم في تل برسيب في مطلع القرن

الحادي عشر ، واستطاعـوا طرد الحاميـات، الآشورية من أهم مدن المنطقة حوالي عام ١٠٠٠ ق.م . وقد كشفت التنقيبات الأثرية في العاصمة برسيب على نصوص آرامية مهمة تلقي ضوءاً على تاريخ منطقة الفرات في القرن العاشر قبل الميلاد,وهو عصر مملكة داود وسليمان (٥) .

هذه هي أهم الممالك الآرامية التي قامت في "عبر النهر" أيام الفترة المفترضة لحكم الملك داود . فأيٌّ من هذه الممالك قد أنجد هدد عزر ملك صوبة وحارب إلى جانبه في ذلك الموقع المجهول المدعو حيلام ؟ وأي من هذه الممالك القوية التي كانت تقارع آشور ، كان خاضعاً لهدد عزر المجهول الهوية تاريخياً ، ولمملكة صوبة ، التي لانعرف عنها شيئاً خارج النص التوراتي ؟ لماذا لم يذكر محرر سفر صموئيل الثاني اسم أي من الممالك الآرامية التي انهزمت أمام جيش داود في موقعة حيلام ؟ والأهم من ذلك كله ؛ إذا كانت سلطة داود قد وصلت إلى الفرات ، لماذا لم يصطدم بالآشوريين ؟ ولماذا خلا الخبر التوراتي من أي ذكر لهم ولتواجدهم في عبر النهر ؟ ولماذا لم يرد ذكر لداود في الوثائق الآرامية ، التي اكتشفت في عواصم ومدن ممالك آرام في عبر النهر ؟ . إن الجواب على هذه التساؤلات بسيط جداً ، فمحرر سفر صموئيل الثاني ؛ من ناحية أولى ، لم يكن بين يديه أية معلومات موثقة عن فترة القرن العاشر قبل الميلاد ، ومن ناحية ثانية فإن هذا المحرر لم يكن يقصد إلى تقديم نص تاريخي موثق عن حروب داود ، بل إلى تزيين سيرة هذا الملك الملحمي بأخبار حروب جمعها من الذاكرة القبلية للمنطقة ، وصاغها بتعابير عامة لا تؤدي معلومة تاريخية محددة .

ولكي أوضح للقارىء مدى ابتعاد أخبار حروب داود عن معايير النص التاريخي ، وانتمائها إلى جنس الفولكلور الشعبي أكثر من انتمائها إلى جنس الكتابة التاريخية ، يكفي أن أضع أمامه أي نص من النصوص التاريخية لثقافات الشرق القديم لغرض المقارنة . لننظر على سبيل المثال النص التالي من حوليات الملك آشور ناصر بال الثاني (٨٨٣ ـ ٨٥٩ق.م) الذي يصف بدقة مسار حملته على بلاد الشام :

" غادرت بلاد بيت عديني وعبرت الفرات في ذروة فيضانه على قوارب مصنوعة من الجلود إلى كركميش ، حيث تلقيت جزية ملك الحثيين (تعداد للوزنات الذهبية والمواد الثمينة الأخرى المقدمة) . ملوك البلاد المجاورة جميعاً أتوا إلي فأمسكوا قدمي . أخذت منهم

---

٥ ـ د. علي أبو عساف : الآراميون ص.ص ٢٨ ـ ٣٨

رهـائن مشوا معي إلى لبنـان مشكلين طليعـة جيشي . غادرت كركميش متحـركاً على الطـريق الذي يقـع بين جبـال منزيغـاني وهـامـورجا ، تـاركاً بلاد أهانو على يساري (مملكة آرامية معروفة) . تقدمت نحو مدينة حزازو (مدينة اعزاز الحالية) التابعة للوبارنو ملك حطينة (مملكة آرامية معروفة في شمال حلب) ، حيث تلقيت الذهب وعباءات الكتان ، ثم تابعت فعبرت نهر عبري (نهر عفرين) حيث قضيت الليل ، ثم غادرت شاطىء نهر عبري نحو مدينة كونولو المقر الملكي للوبارنا ملك حطينة ، الذي وقع على قدمي لإنقاذ حياته . فأخذت منه .. (تعداد لأصناف الجزية المدفوعة) . غادرت كونولو وعبرت نهـر العاصي حيث قضيت الليـل . ثم تحـركت آخـذا الطـريق بين جبـل يـراكي وجبـل يعتـودي (حـارم والأقـرع) . ثم عبـرت جبـل ... لقضاء الليل عند نهر سنجارا (النهر الكبير الشمالي) ثم تابعت السير ... الخ " (٦) .

إن أي مقارنة بين هذا النص الآشـوري ونص صموئيـل الثـاني الذي يستعمل تعابير مثل : " ، وضرب داود هدد عزر بن رحوب حين ذهب ليرد سلطته عند نهر الفرات " أو "فلما رأى آرام أنهم انكسروا أمام إسرائيل اجتمعوا معاً . وأرسل هدد عزر فأبرز آرام ، الذي في عبر النهر" تظهر لنا الفرق الواضح بين النص الموثق والنص الأخيولي الذي يفتقر إلى أدنى مقومات الكتابة التاريخية .

إن داود ، الذي يؤكد المؤرخون التوراتيون بناءه لإمبراطورية كبيرة امتدت من الفرات إلى البحر المتوسط ، عبر مناطق وسط وجنوب سورية ، ليس في حقيقة الأمر إلا شبحاً تاريخياً ، لم يعد يؤرق إلا الحلقات الأكاديمية المحافظة التي مازالت تبحث ، وتأمل في الحصول على وثيقة واحدة تعطي تأييداً للرواية التوراتية . وقد وجد هؤلاء ضالتهم المنشودة في نقش قصير ومشوه عثر عليه حديثا المنقب الإسرائيلي أفراهام بيران في موقع دان بشمال فلسطين ، قرئت عليه كلمة واحدة واضحة تتألف من ستة أحرف هي "ب ي ت دود" ، وفسرت على أنها "بيت داود" ، وهو التعبير المستعمل في النص التوراتي للإشارة إلى أسرة أو سلالة داود . وقد أثارت هذه القراءة نقاشاً بين الاختصاصيين ، وتم تفنيدها بشكل علمي من قبل الباحث فيليب . ر . ديفس ، الذي جادل في أن الكلمة تدل على اسم مكان وليس على اسم علم .

---

5 - *Leo Openheime , Assyrian and Babylonian Historical Texts (in : J . Pritchard (edt) , Ancient Near Eastern Texts , p 275*

وإني لا أرى نفعاً من ايراد تفاصيل هذا الجدال لأن فيه مضيعة لوقت القارىء . ويمكن للمهتم مراجعة مجلة Biblical Archaeology الاعداد آذار / نيسان ١٩٩٤ و تموز / آب ١٩٩٤ و آذار / نيسان ١٩٩٥ .

سفر الملوك الأول

والعصر الذهبي لملكة سليمان

"وشاخ الملك داود ، تقدم في الأيام . وكانوا يدثرونه بالثياب فلم يدفأ . فقال له عبيده : ليفتشوا لسيدنا الملك على فتاة عذراء ، فلتقف أمام الملك ولتكن له حاضنة ، ولتضطجع في حضنك فيدفأ سيدنا الملك . ففتشوا على فتاة جميلة في جميع تخوم إسرائيل ، فوجدوا أبيشج الشمونية فجاءوا بها إلى الملك . وكانت الفتاة جميلة جداً ، فكانت حاضنة للملك " (الملوك الأول ١ : ١ ـ ٤) . وبينما كان داود يدفأ في أحضان الفتاة الصغيرة من البرداء ، انفجر الصراع على العرش بين أبنائه . فقد ابتدأ أدونيا ، وهو الأخ الأصغر لابيشالوم صاحب الانقلاب الأول واسم أمه حجيث ، بالدعوة لنفسه كولي للعهد مستغلاً حالة التسيب في الحكم ، وأعد مركبات وفرسان ، وكان خمسون رجلاً يجرون أمامه كلما خرج . وقد وقف إلى جانبه أبيثار الكاهن ويوآب القائد ورهط قوي من رجال داود ، بينما عارضه ناثان النبي ورهط آخر من رجال داود . وعندما استفحل أمر أدونيا وداود يغض الطرف عن نشاطاته ، جاء ناثان النبي إلى بتشبع أم سليمان قائلاً : " أما سمعت أن أدونيا ابن حجيث قد ملك وسيدنا داود لا يعرف ؟ إذهبي وادخلي إلى الملك داود وقولي له : أما حلفت أنت يا سيدي الملك لأَمتك قائلاً إن سليمان ابنك يملك بعدي وهو يجلس على كرسيّ ، فلماذا ملك أدونيا . وفيما أنت متكلمة هناك معه أدخل أنا وراءك وأكمل كلامك" . فعملت بتشبع بنصيحة ناثان واستطاع الإثنان اقناع داود ، الذي أعطى أوامره بأن يمسح سليمان ملكاً : " خذوا معكم عبيد سيدكم وأركبوا سليمان إبني على البغلة التي لي وانزلوا به إلى جيحون ، وليمسحه هناك صادوق الكاهن وناثان النبي ملكاً على إسرائيل . واضربوا بالبوق وقولوا ليحي الملك سليمان " . وفي ذلك الوقت كان أدونيا يقيم وليمة لأنصاره فسمعوا صوت ضجيج وهتاف ، وجاء مَن أخبرهم بأن سليمان قد ملك ، فخاف أدونيا من

بطش سليمان فقام وانطلق وتمسك بقرون المذبح ، وأرسل إلى سليمان أن يحلف له بأن لا يمسه بسوء : " فأرسل الملك سليمان فأنزلوه عن المذبح فأتى وسجد للملك سليمان . فقال له سليمان : إذهب إلى بينك " (الملوك الأول : ١ - ٢٣) .

ولم يطل الوقت بداود حتى مات ، بعد أن ملك أربعين سنة . وكان أول عمل يفتتح به سليمان عهده الملكي ، هو قتل أخيه أدونيا وساعده الأيمن يوآب قائد جيش داود . فأرسل سليمان المدعو بناياهو بن يهوداع ساعده الأيمن وصديقه ، فضرب أدونيا بالسيف . ولما سمع يوآب بالخبر التجأ إلى خيمة الرب وتمسك بقرون المذبح : " فارسل سليمان بناياهو قائلاً إذهب إبطش بـه . فدخل بناياهو إلى خيمة الرب وقال له : هكذا يقول الملك ، اخرج . فقال : كلا ولكنني هنا أموت . فرد بناياهو الجواب على الملك قائلاً هكذا تكلم يوآب وهكذا جاوبني . فقال له الملك إفعل كما تكلم وابطش به وادفنه وأزل عني الدم الزكي الذي سفكه يوآب . " . فصعد بناياهو وضرب يوآب بالسيف وهو في خيمة الرب متمسكاً بقرون المذبح ، وعين سليمان بناياهو قائداً على الجيش بدلاً من يوآب (الملوك الأول : ١) .

وبعد ذلك ودون مقدمات يخبرنا الاصحاح الثالث في مطلعه بأن سليمان قد صاهر فرعون ملك مصر : "وصاهر سليمان فرعون ملك مصر ، وأخذ بنت فرعون وأتى بها إلى مدينة داود إلى أن أكمل بناء بيته وبيت الرب وسور أورشليم حواليها" . ثم تراءى الرب لسليمان في حلم ليلاً : " وقال الله اسأل ماذا أعطيك ؟ فقال سليمان ... أيها الرب إلهي ، أنت ملكت عبدك مكان داود أبي وأنا فتى صغير لا أعرف الخروج والدخول . وعبدك في وسط شعبك الذي اخترته ، شعب كثير لا يحصى ولا يعد من الكثرة . فاعط عبدك قلباً فهيماً لأحكم على شعبك وأميز بين الخير والشر . لأنه من يقدر أن يحكم على شعبك العظيم هذا ؟ ... فقال الرب : هو ذا قد فعلت حسب كلامك . هو ذا أعطيتك قلباً حكيماً ومميزاً حتى إنه لم يكن مثلك قبلك ولا يقوم بعدك نظيرك . وقد أعطيتك أيضاً ما لم تسأله غنى وكرامة ، حتى إنه لا يكون رجل مثلك في الملوك كل أيامك ". ثم ينتقل النص إلى اعطائنا مثالاً حياً عن حكمة سليمان . فهناك امرأتان زانيتان تسكنان معاً ، ولكل منهما إبن رضيع في سن واحدة . فمات ابن الأولى في الليل ، فاستبدلته بالابن الحي للثانية وارقدته إلى جوارها وادعت أنه ابنها وأن الميت ابن زميلتها . فجاءتا إلى سليمان ليحكم بينهما وكل واحدة تدعي أن الولد الحي هو ابنها . فقال سليمان : إيتوني بسيف . فأتوا بسيف بين يدي

الملك . فقال الملك : اشطروا الولد الحي شطرين واعطوا نصفاً للواحدة ونصفاً للأخرى . فاضطرم قلب الأم على ابنها وقالت لهم أن يعطوه للأخرى ولا يميتوه . عند ذلك عرف سليمان أنها أم الولد الحي وأعطاه لها . "ولما سمع جميع إسرائيل بالحكم ، الذي حكم به الملك ، خافوا الملك لأنهم رأوا حكمة الله فيه لإجراء الحكم" (الملوك الأول : ٣) .

وفيما عدا هذه القصة فإن المحرر لا يسوق لنا أمثلة أخرى عن حكمة سليمان ، رغم أنه يعود إلى القول في الإصحاح التالي : " وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع بني المشرق وكل حكمة مصر . وكان أحكم من جميع الناس ... وكان صيته في جميع الأمم حواليه . وتكلم بثلاثة آلاف مثل ، وكانت نشائده ألفاً وخمساً . وتكلم عن الأشجار من الأرز ، الذي في لبنان إلى الزوفا النابت في الحائط . وتكلم عن البهائم وعن الطير وعن الدبيب وعن السمك . وكانوا يأتون من جميع الشعوب ليسمعوا حكمة سليمان " . وقد عمد سليمان إلى تقسيم مملكته في الداخل إلى اثنتي عشرة مقاطعة إدارية عليها وكلاء معينين من قبله يديرون شؤونها . وقد زوج بعضاً من بناته إلى المقربين إليه من هؤلاء الوكلاء والحكام لضمان ولائهم . أما عن أحوال إمبراطورية سليمان المترامية الأطراف ، فإن النص يصفها بالكلمات التالية ." وكان يهوذا وإسرائيل كثيرين كالرمل ، الذي على البحر في الكثرة . وكان سليمان متسلطاً على جميع الممالك من النهر إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر . كانوا يقدمون الهدايا ويخدمون سليمان كل أيام حياته . وكان طعام سليمان لليوم الواحد ثلاثين كـر سميذ وستين كر دقيق ، وعشرة ثيران مسمنة وعشرين ثوراً من المراعي ومئة خروف ، ما عدا الأيائل والظباء واليحامير والإوز المسمن . لأنه كان متسلطاً على كل ما عبر النهر من تفسح إلى غزة ، على كل ملوك عبر النهر . وكان له صلح من جميع جوانبه حواليه . وسكن يهوذا وإسرائيل آمنين كل واحد تحت كرمته وكل واحد تحت تينته من دان إلى بئر السبع كل أيام سليمان . وكان لسليمان أربعون ألف مذود لخيل مركباته واثنا عشر ألف فارس " (الملوك الأول : ٤) .

وأرسل حيرام ملك صور الفينيقية رسلاً إلى سليمان يهنئه بعد أن سمع أنهم مسحوه ملكاً . فأرسل سليمان إلى حيرام طالباً منه تزويده بخشب أرز من لبنان وبنجارين وبنائين ، لأنه ليس مثل الصيدونيين من يعرف قطع الخشب . ووعده أن يرسل له مقابل ذلك حنطة وزيتاً . فوافق حيرام ، وعقد الاثنان بينهما عهداً وصنعوا صلحاً . ولما ابتدأ سليمان باستلام

شحنات الخشب ، شرع ببناء هيكل الرب ، وبناء قصور له ولزوجاته . وقد سخر سليمان في أعمال البناء آلافاً مؤلفة من الشعب . فثلاثون ألفاً يروحون ويجيئون إلى لبنان بالتناوب ، وسبعون ألفاً يحملون أحمالاً ، وثمانون ألفاً يقطعون في الجبل ، ما عدا المشرفين الذين بلغ عددهم ثلاثة آلاف . فاكتمل بناء البيت في السنة الأربعمئة والثمانين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر ، والتي وافقت السنة الرابعة لحكم سليمان . فجمع سليمان شيوخ إسرائيل وكل رؤوس الأسباط ، لإصعاد تابوت عهد الرب وخيمة الإجتماع ، وتم إدخال التابوت ووضعه في مكانه في محراب البيت في قدس الأقداس . "وكان لما خرج الكهنة من القدس أن السحاب ملأ البيت ولم يستطع الكهنة أن يقفوا للخدمة بسبب السحاب ، لأن مجد الرب ملأ بيت الرب". ووقف سليمان أمام المذبح وكل جماعة إسرائيل تنظر إليه وبسط يديه إلى السماء وقال : " أيها الرب إله إسرائيل . ليس مثلك إله في السماء من فوق ولا على الأرض من أسفل . حافظ العهد والرحمة لعبيدك السائرين أمامك بكل قلوبهم ... الخ " (الملوك الأول : ٥ ـ ٨) .

وبعد مدة ، صعد فرعون ملك مصر وأخذ مدينة جازر ، التي كانت حتى ذلك الوقت مدينة كنعانية مستقلة عن سليمان " فأحرقها بالنار وقتل الكنعانيين الساكنين في المدينة ، وأعطاها مهراً لابنته امرأة سليمان" . فأخذها سليمان وأعاد بناءها ، كما أعاد بناء مدن حاصور ومجدو وجازر . كما بنى بعلة وتدمر في البرية . وبنى سليمان سفناً على شاطىء بحر سوف (الأحمر) واستخدم لتسييرها في البحر عمالاً فينيقيين من صور أرسلهم له حيرام . فأتوا إلى بلاد يدعوها النص أوفير ، وأخذوا من هناك أربعمئة وعشرين وزنة ذهب أتوا بها إلى الملك سليمان . (الملوك الثاني : ٩) .

وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جداً ، وبجمال حاملة أطياباً وذهباً كثيراً وحجارة كريمة. " فلما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان والبيت ، الذي بناه وطعام مائدته ومجلس عبيده وموقف خدامه وملابسهم وسقاته ومحرقاته التي كان يصعدها في بيت الرب ، لم يبق فيها روح بعد . فقالت للملك : صحيحاً كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك ، ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيناي ... وأعطت الملك مئة وعشرين وزنة ذهب وأطياباً كثيرة جداً وأحجاراً كريمة ... وأعطى الملك سليمان لملكة سبأ كل مشتهاها الذي طلبت ، عدا ما

أعطاها إياه حسب كـرم الملك سليمان ، فانصـرفت وذهبت إلى أرضـها هي وعبيـدهـا " (الملوك الأول ١٠ : ١ - ١٣) .

وكان وزن الذهب الذي أتى لسليمان في سنة واحدة ست مئة وستاً وستين وزنة ذهب ، وذلك عدا الذي أتاه من ضرائب التجار وتجارتهم ومن الولاة الذي عينهم في المقاطعات . وعمل مئتي تـرس من ذهب مطرق في كل واحد منها ستمئة شاقل من الذهب ، وثلاثمئة مجن من ذهب مطرق في كل واحد منها ثلاثة أمناء من الذهب . وهذه جعلها سليمان في أحد بيوته المعروف ببيت وعر لبنان . وفي ذلك البيت كانت جميع آنية شرب الملك سليمان وطعامه من الذهب ، لأن الفضة لم تحسب شيئاً في أيامه . وقد جعل في بحر فينيقية أيضاً سفناً تبحر مع سفن حيرام إلى ترشيش (اسبانيا) وتأتي من هناك بالذهب والفضة والعاج ، فتعاظم الملك سليمان على كل ملوك الأرض في الغنى والحكمة ، وكانت كل الأرض ملتمسة وجه سليمان . وكانوا يأتون إليه كل واحد بهديته ، بآنية فضة وآنية ذهب وحلل وسلاح وأطياب وخيل وبغال ، سنة فسنة . وقد بلغ من ثراء المملكة في عهده أن الفضة في أورشليم كانت مثل الحجارة ، وخشب الأرز مثل خشب الجميز الذي في السهل لكثرته . (الملوك الثاني ١٠ : ١٤ - ٢٩) .

وأحب الملك سليمان نساء غريبات كثيرات ، من موآبيات وعمونيات وآدوميات وصيدونيات وحثيات ، من الأمم التي نها الرب بني إسرائيل عن الدخول إليهن حتى لا يملن قلوبهم وراء آلهتهن ، فكانت له سبعمئة من النساء السيدات وثلاثمئة من السراري . وكان في زمان شيخوخته ، أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ، فذهب سليمان وراء عشتروت إلهة الصيدونيين وملكوم إله العمونيين . " فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل ، الذي تراءى له مرتين وأوصاه في هذا الأمر ألا يتبع آلهـة أخرى ، فلم يحفظ ما أوصى به الرب . فقـال الـرب لسليمان : من أجل أن ذلك عندك ، ولـم تحفـظ عهـدي وفرائضي التي أوصيتـك بها ، فإني أمـزق المملكـة عنـك تمـزيقـاً وأعطيـها لعبـدك ." (الملوك الأول ١١ : ١ - ١٣) .

وأقام الرب في وجه سليمان ثلاثة أعداء . أولهم هدد الآدومي الذي كان من نسل الملك في آدوم ، وهرب إلى مصر عقب حملة يوآب قائد داود على آدوم ، ثم عاد من هناك بعد أن سمع بموت داود ومقتل يوآب ، فملك في آدوم وقاوم سليمان . والخصم الثاني هو رزون بن

أليداع ، وكان قائداً في جيش هدد عزر ملك صوبة ، ثم استقل بنفسه وجمع حوله الأتباع والجنود بعد حملة داود على هدد عزر ، ثم دخل دمشق فملك فيها . وكان خصماً لإسرائيل طيلة أيام سليمان . أما الخصم الثالث فكان من بطانة سليمان ، واسمه يربعام بن نباط ، من سبط أفرايم الإسرائيلي ، وكان عاملاً لسليمان في منطقة إسرائيل . وقد خرج يربعام عن طاعة سليمان بعد تلقيه بشارة من النبي أخيا الشيلوني بأن الرب يملّكه على إسرائيل : " لما خرج يربعام من أورشليم ، لاقاه أخيا الشيلوني النبي في الطريق وهو لابس رداءً جديداً . فقبض أخيا على الرداء الجديد الذي عليه ومزقه اثنتي عشرة قطعة ، وقال ليربعام : خذ لنفسك عشر قطع ، لأنه هكذا قال الرب إله إسرائيل : هأنذا أمزق المملكة من يد سليمان وأعطيك عشرة أسباط ، ويكون له سبط واحد من أجل عبدي داود ومن أجل أورشليم المدينة التي اخترتها من كل أسباط إسرائيل ، لأنهم تركوني وسجدوا لعشتاروت إلهــة الصيدونيين ...وآخذك فتملك حسب كل ما تشتهي نفسك وتكون ملكاً على إسرائيــل " . ولما بدأ يربعام نشاطاته السرية للإستقــلال عن أورشليم ، طلب سليمـان قتلـه " فقام يربعام وهـرب إلى مصـر ، إلى شيشق ملك مصر ، وكان في مصـر إلى وفـاة سليمان ... وكانت الأيـــام التي ملك فيها سليمان في أورشليم على كل إسرائيـل أربعين سنــة ، ثم اضطجع سليمـــان مع آبائــه ودفــن في مدينــة داود أبيه ، وملك رحبعام ابنه عوضاً عنه" (الملوك الأول ١١ : ١٤ - ٤٣) .

رجع يربعام بن نباط من مصر بعد أن سمع بوفاة سليمان . أما رحبعام بن سليمان فقد صعد إلى مدينة شكيم في الشمال حيث اجتمع هناك جميع إسرائيل ليملكوه عليهم . فكلموه قائلين : " إن أباك قسى نيرنا ، وأما أنت فخفف الآن من عبودية أبيك القاسية ، ومن نيره الثقيل ، الذي جعله علينا فنخدمك ... فأجاب الملك بقساوة ، وترك مشورة الشيوخ ، التي أشاروا بها عليه وكلمهم حسب مشورة الأحداث قائلاً : إن أبي ثقل نيركم ، وأنا أزيد على نيركم ، أبي أدبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقارب ... فعصى إسرائيل على بيت داود إلى هذا اليوم . ولما سمع جميع إسرائيل بأن يربعام قد رجع ، أرسلوا فدعوه إلى الجماعة وملكوه عليهم " . وأما رحبعام فقد تبعه سبط واحد هو سبط بنيامين ، إضافة إلى سبط يهوذا ، الذي كان قد ملّكه بعد وفاة أبيه . (الملوك الأول ١٢ : ١ - ٣٠) .

ولكي يكرس يربعام الاستقلال عن أورشليم ، كان لابد له من الاستقلال الديني وصرف

نظر مواطنيه عن هيكل الرب فيها . لذلك فقد عمد إلى بناء معبدين في إسرائيل واحد في بيت إيل والآخر في دان ، ووضع في كل منهما عجلاً ذهبياً ، وقال للإسرائيليين : " كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم . هو ذا آلهتك يا إسرائيل ، الذين أصعدوك من مصر ... وبنى بيت المرتفعات وصيَّر كهنة من أطراف الشعب لم يكونوا من بيت لاوي . وعمل يربعام عيداً في الشهر الثامن في اليوم الخامس عشر من الشهر كالعيد الذي في يهوذا" (الملوك الأول ١٢ : ٢٥ - ٣٣) .

ولم يكن رحبعام و أهل يهوذا أكثر احتراماً لهيكل الرب في أورشليم من أهل إسرائيل : " وعمل يهوذا الشر في عيني الرب وأغاروه أكثر من جميع ما عمل آباؤهم بخطاياهم ، التي أخطأوا بها . وبنوا هم لأنفسهم أيضاً مرتفعات وأنصاباً وسواري على كل مرتفع وتحت كل شجرة خضراء . وكان أيضاً مأبونون في الأرض(*) . فعلوا حسب كل أرجاس الأمم الذين طردهم الرب من أمام بني إسرائيل . وفي السنة الخامسة للملك رحبعام ، صعد شيشق ملك مصر إلى أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك ، وأخذ كل شيء ، وأخذ أتراس الذهب التي عملها سليمان ، فعمل الملك رحبعام عوضاً عنها أتراس نحاس ... وكانت حرب بين رحبعام ويربعام كل الأيام . ثم اضطجع رحبعام مع آبائه ودفن في مدينة داود . وملك أبيام إبنه عوضاً عنه ." (الملوك الأول ١٤ : ٢١ - ٣١) .

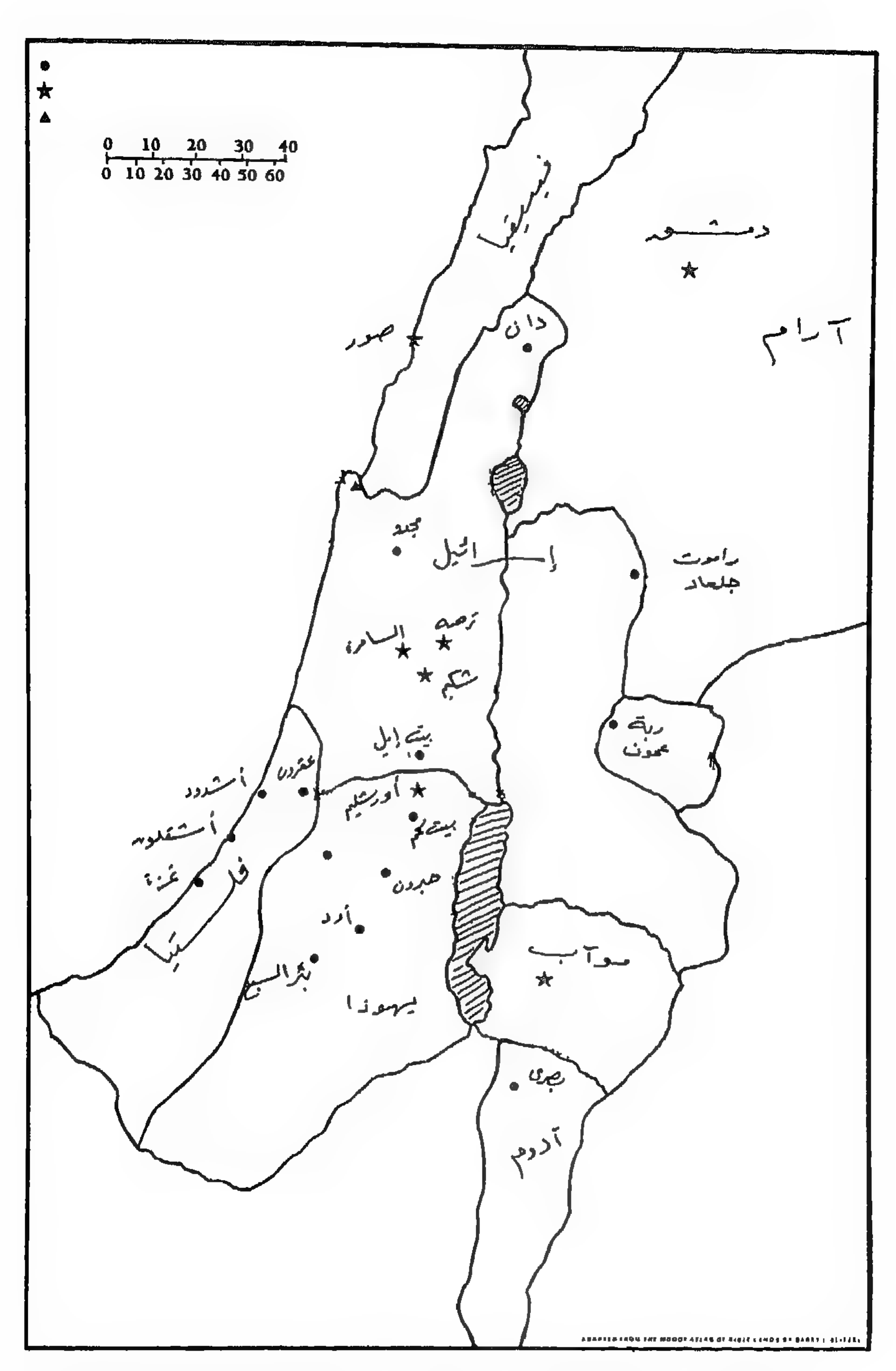
" في السنة الثامنة عشر للملك يربعام بن نباط ، ملك أبيام على يهوذا ، ملك ثلاث سنين في أورشليم .. وسار في جميع خطايا أبيه ، التي عملها ، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود .. وكانت حرب بين أبيام ويربعام . ثم اضطجع أبيام مع آبائه فدفنوه في مدينة داود ، وملك آسا ابنه عوضاً عنه . في السنة العشرين ليربعام ملك إسرائيل ، ملك آسا على يهوذا . ملك إحدى وأربعين سنة في أورشليم .. وعمل آسا ما هو مستقيم في عيني الرب كداود أبيه . وأزال المأبونين من الأرض ، ونزع جميع الأصنام التي عملها آباؤه" (الملوك الأول ١٥ : ١ - ١٢) .

(*) ـ الأنصاب والسواري من رموز آلهة الخصب الكنعانية . والسارية عبارة عن جذع شجرة يوضع في المقامات الخلوية أو في محاريب المعابد للإشارة إلى حضور الإلهة عشتاروت . والمرتفعات مذابح تقام على رؤوس الجبال وتقام حولها طقوس الخصب في الهواء الطلق . وأما المأبونون ، فهم الذكور المخنثون المخصصون للبغاء الديني .

أما في إسرائيل ، فبعد فترة حكم دامت حوالي عشرين سنة ، توفي يربعام أول ملوك إسرائيل وكانت وفاته في السنة الثانية لحكم آسا في يهوذا . فملك ابنه ناداب عوضاً عنه ، وحكم سنتين فقط ، وعمل الشر في عيني الرب وسار في طريق أبيه . فخرج عليه المدعو بعشا من سبط يساكر وقتله وأباد كل بيت يربعام . ثم قامت حرب ضروس بين إسرائيل ويهوذا ، استعان فيها آسا ملك يهوذا بملك دمشق المدعو بن هدد بن طبريمون بن حزيون ، وأرسل له هدية من جميع آنية الذهب والفضة الباقية في خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك . فصعد ملك دمشق وضرب كل المدن الشمالية من إسرائيل وأخذها ، فكف بعشا يده عن يهوذا ، وعاد بن هدد إلى دمشق .

ثم توفي بعشا ملك إسرائيل بعد حكم دام أربعاً وعشرين سنة وملك ابنه إيله عوضاً عنه وبعد سنتين خرج عليه القائد العسكري المدعو زمري ، ودخل عليه في بيته وهو يشرب ويسكر فقتله ، وضرب كل بيت بعشا بحد السيف . ولكن القطعات العسكرية ، التي كانت في ذلك الوقت تقاتل الفلسطينيين ، لم تقف إلى جانب زمري ، بل تحولت إلى رئيس الجيش المدعو عُمري ، فجاء عمري وحاصر زمري في العاصمة ترصة وأخذها وأما زمري فقد أحرق على نفسه البيت ومات بعد أن حكم سبعة أيام فقط . وحكم عمري اثنتي عشرة سنة ؛ ست منها في مدينة ترصة وست في السامرة . وهي العاصمة الجديدة التي بناها لنفسه .

وعمري هذا ، هو أول ملك اسرائيلي موثق تاريخياً . ومعه تدخل الرواية التوراتية لأول مرة مسرح التاريخ ، بعد حوالي ألف سنة من عمر إسرائيل التوراتية . ولسوف أتوقف في قراءتي لسفر الملوك الأول عند هذه النقطة . لأن ما يلي من أخبار مملكتي إسرائيل ويهوذا ، سوف يعالج لاحقاً من خلال أخبار مملكة آرام دمشق وعلاقاتها الدولية مع آشور وبقية دول المنطقة .



٤ ـ مساحة كل من اسرائيل ويهوذا بعد المد التوسعي خارج المناطق الهضبية (وفق الرواية التوراتية)

النقد النصي

لسفر الملوك الأول :

في سفر الملوك الأول ، لدينا قسمان متمايزان في المضمون وفي الأسلوب . يشمل القسم الأول الإصحاحات من ١ إلى ١١ ، ويتضمن أخبار الملك سليمان ، أما القسم الثاني فيمتد حتى نهاية السفر ويتضمن أخبار ملوك إسرائيل ويهوذا بعد انقسام المملكة الموحدة . يسود في القسم الأول أسلوب الجمع التراثي ، الذي يستمد مادته من ذاكرة شعبية مشوشة تمتح من مصادر متنوعة وفترات تاريخية متباعدة . أما القسم الثاني فقد تمت معالجته وصياغته بأسلوب جديد سوف يستمر إلى سفر الملوك الثاني ، الذي يغطي بقية أخبار المملكتين وصولاً إلى السبي البابلي . ورغم أن هذا الأسلوب الجديد لم يتخل تماماً عن أسلوب الجمع التراثي ، إلا أنه أضاف إليه طريقة في السرد الإخباري تقترب من الكتابة التاريخية وإن لم ترق إليها تماماً . ويبدو أن المحررين هنا قد أخذوا بالاعتماد عن بعض المصادر الكتابية القريبة إلى عصر تدوين الأسفار التوراتية ، بينها ثبت ملوك يهوذا وثبت ملوك إسرائيل ، التي يشار إليها في النص بأخبار الأيام لملوك يهوذا وأخبار الأيام لملوك إسرائيل . ولسوف نرى عبر فصول القسم الثاني من دراستنا أن هذه المصادر ، في حال وجودها ، لا تتمتع بقدر كاف من المصداقية التاريخية . فإذا أضفنا إلى نقص المصداقية التاريخية في مصادر المحررة استمراره في رؤية الأحداث وترتيبها من خلال المنظور الإيديولوجي لعملية التحرير برمتها ، وما ينجم عن ذلك من انتقائية وهوى في اختيار الأحداث ، لرأينا أن الاختلاف في الأسلوب لم يحمل اختلافاً في الرسالة والمضمون ؛ ذلك أن المحرر التوراتي قد بقي أميناً للهدف الرئيسي من تدوين الأسفار التوراتية وهو : تجذير الأصول . فابتداءً من منتصف سفر الملوك الأول تنتهي المرحلة الأولى من عملية تجذير الأصول ، والتي أسست من خلالها لمفهوم "كل إسرائيل" ، وتبدأ المرحلة الثانية وهي التأسيس لأصول مملكتي إسرائيل ويهوذا ، وأصول دمار هاتين المملكتين . إن همّ المحرر التوراتي في فترة التدوين كان التأمل في مسألة خراب المملكة ، وفي أسبابه ، وفي الأحداث التي قادت إلى ذلك الخراب . إلا أنه قد

بقي أميناً أيضاً لرؤيتـه الإيديولـوجية ، ينأى بنفسه عن تلمس الأسبـاب التاريخيـة الحقيقيـة الفاعلـة في عمليـة التدهـور والدمـار ، مركـزاً على المسألـة اللاهـوتية وعلى علاقـة الرب بشعبه ، كمحـرك رئيسي في صيـرورة التاريخ . وسيكـون علينا أن ننتظـر إلى القـرن الثاني قبـل الميـلاد ، وهي فتـرة تدوين أسفـار المكابيين ، لكي نتلمس تغييـراً جذريـاً في أسلـوب النص التوراتي ، واكتسابه لأول مـرة شكل الكتابـة التاريخيـة ومضمونها . ذلك أن أسفـار المكابيين قد دونت باللغـة اليونـانية ، ومحرروها متأثرون بالثقافة اليونانية ، التي عرفت جنس الكتابة التاريخية وبرعت فيه .

تصل قصة إسرائيـل التـوراتية ذروتها عنـد أخبـار الملك سليمان . فعصر سليمان هـو العصـر الذهبي الذي مضى إلى غير رجعـة ، والذي ابتـدأ بعده العـد العكسي باتجـاه الهاويـة . والمحـرر هنا يستخـدم معظم العناصـر التي تستخدمها قصص العصـر الذهبي المعروفـة في أساطير وخرافـات الشعـوب ، والتي تعتمد على كل عجيب وغريب ومدهش . فأهـل إسرائيل ويهـوذا كانوا : " كثيرين كالرمـل على البحـر في الكثـرة ، يأكلـون ويشربـون ويفرحـون " . و " سكن يهـوذا وإسرائيـل آمنين كل واحـد تحت كرمتـه وتحت تينتـه من دان إلى بئـر السبع كل أيـام سليمان". وهذا الـوصف يذكـرنا بأسطـورة العصـر الذهبي السومـرية ، التي تقـول : " أرض دلمون مكان طاهـر ، أرض دلـون مكان نظيف . في أرض دلـون لا تنعق الغـربـان ولا تصرخ الشوحـة صراخها المعـروف . حيث الأسد لا يفتـرس أحـداً ، ولا الذئب ينقض على الحمـل . حيث لا يعـرف أحـد رمـد العين ، ولا يعـرف أحد آلام الرأس . ولا يشتكي الرجـل من الشيخوخـة ، ولا المرأة من العجـز . حيث لا وجـود لمنشد ينـوح ، ولا لجـوال يندب .."(٧) ولكي تكتمل هذه الصـورة البهية لشعب يعيش عيشـة الوفـرة والدعـة والإطمئنان ، لابد من تزيينها بما يدل على اتساع المملكـة وعظمتها وانتشار السلم في أرجائها وخضـوع حكامها الطوعي : " وكان سليمان متسلطاً على جميع الممالك من النهـر إلى أرض فلسطين وإلى تخـوم مصر . كانـوا يقدمون الهدايـا ويخدمـون سليمان كل أيـام حياته " . وقد أخـذ المؤرخـون

---

7 - *S . N . Kramer , Sumerian Mythology , New York 1961 .*

التوراتيــون هــذه المعلومة التزيينية على أنها خبر تاريخي ، رغم أن المحرر هنا يتابع رسم صــورته لسليمان بالأسلوب نفسه ، عندما يقول مباشرة بعد إخبارنا عن اتساع مملكة سليمان : " وكان طعام سليمان لليوم الواحد ثلاثين كرّ سميذ وستين كرّ دقيق وعشرة ثيران مسمنة وعشرين ثوراً من المراعي ومئة خروف ، ماعدا الأيائل والظباء واليحامير والإوز المسمن " . ولاندري لماذا تؤخذ المعلومة الأولى على أنها تاريخ بينما تؤخذ الثانية على أنها من قبيل المبالغة والشطح ؟

ومن الطبيعي أن لا يكــون رأس هذه المملكــة اليوتــوبية رجــلاً عسكرياً ، بل رجــل عقل وحكمــة . من هنــا " فاقت حكمة سليمان حكمــة جميع المشــرق وكل حكمــة مصر .. وكانــوا يأتــون من جميع الشعــوب ليسمعوا حكمة سليمان ، من جميع ملوك الأرض الذين سمعوا بحكمته " . وهنا لا يقــدم لنا النص إلا مثالاً واحــداً عن حكمة سليمان ، التي فاقت كل حكمة مصــر ، وهو قصة ساذجــة عن امرأتين تحتكمان بشأن طفــل بينهما ، وهي قصــة ذات عناصر مألوفــة ومعروفة في الفلكلــور الشعبي . وأمــا عن أولئك الملــوك الذين سمعــوا بحكمة سليمان وجاءوا ليستمعوا إليه ، فلا يذكـر النص منهم إلا ملكــة سبأ التي لا يطلعنا على اسمها ، ولا يقــول لنا من أين جاءت وأين تقع مملكتها . ولما كانت مملكــة سبأ التاريخيــة في الجزيــرة العربيــة لم تزدهر إلا في القرن الرابع قبل الميلاد ، فإن سبأ المعنية في أخبــار سليمان هي قبيلــة السبئيين التي كانت تتجول في شمال الجزيــرة العربية خــلال العصر الآشوري الجديد ، وورد ذكرها في أكثر من نغش كتابي آشوري من القــرن السابع قبــل الميلاد . وقد كان لبعض القبائل العربية ، التي وردت في السجلات الآشورية ملكات شهيرات محاربات ، منهن الملكة شمسة والملكة زبيبة والملكة طاربو (٨)

ورغم أن مملكــة سليمان لم يكن لها مرفــأ بحــري على شاطىء المتــوسط ، الذي تقاسمه الفينيقيــون والفلسطينيــون ، فقد جعــل محــرر السفــر لسليمان سفناً تمخــر عباب البحــر إلى جانب سفن حيــرام ملك صــور ، وتأتي إليــه بأكداس الذهب من المدن البعيــدة ، حتى صــارت الفضــة بلا قيمة وتكدست في شــوارع أورشليم مثــل

---

٨ ـ للإستــزادة حول موضوع الملكات العربيات ، راجع مؤلفي : الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم ، دمشق ١٩٨٩ ، الصفحات ١٢٥ و ٢٩٠ - ٢٩١

الحجـارة . وكان وزن الذهب ، الذي أتى لسليمان في سنـة واحـدة ستة مئة وستاً وستين وزنة . ومثـل هذا الذهب لم يتـوفر في سنة واحـدة لنينوى عاصمـة آشـور في قمـة عصـرها الإمبراطـوري ، ولا لطيبة تحـوتمس الثالث ولا لرومـة يوليوس قيصـر . ونحن هنا لم نأخـذ بالحسبان أكداس الذهب ، التي استخدمت لطلي جـدران الهيكل من الداخـل ، ولصنع المذبـح والآنيـة الطقسية وغيـرها : " وعمل سليمان جميع آنيـة بيت الرب المذبـح من ذهب ، والمائـدة التي عليها خبـز الوجـوه من ذهب ، والطسوس والمقـاص والمنـاضح والصحـون والمجـامـر من ذهب خـالص ، والوصـل لمصاريـع البيت الداخلي أي لقدس الأقـداس ، ولأبـواب البيت أي الهيكل ، من ذهب .." (٧ : ٤٨ - ٥٠) . ولكن هـذه الأكداس المكدسـة من الذهب تستخـدم لصناعـة كل شيء تقريبـاً ، تبـدو صـورة متواضعـة إذا عرفنا أن الحجارة الكريمة كانت تستخدم منشـورة فتصنع منها حجـارة للأساسات وللجـدران : " وأمـر الملك أن يقلعوا حجـارة كبيرة ، حجـارة كريمة لتأسيس البيت ، حجارة مربعة " (٥ : ١٧) . وأيضاً : " وعمل بيتـاً لإبنة فرعـون التي أخذهـا سليمان ، كهذا الـرواق . كل هـذه من حجـارة كريمـة كقيـاس الحجـارة المنحوتـة ، منشـورة بمنشـار من داخل ومن خـارج ، من الأساس إلى الإفـريـز ، وكان مؤسساً على حجـارة كريمة ، حجـارة عظيمـة ، حجـارة عشر أذرع وحجـارة ثمـان أذرع " (٧ : ١٠ - ١١) .

إن المحـرر التوراتي ، الذي يقـدم لنا هـذه الصـور التي لم تحـلم بمثلها ألف ليلة وليلة ، هو الذي يقـول لنا بعـد ذلك أن الملك سليمان هـو الذي بنى تدمر في البرية ! والمؤرخـون التوراتيون يطلبون منا أن نصدق ذلك .

أمـا عن قصـة زواج سليمان بابنة فرعـون مصر ، الذي لم يذكر لنا اسمه ، كما هي العادة ، فمن الواضح أن المحـرر ، الذي ساقها لنا لم يكن يعـرف شيئاً عن تقاليد فراعنـة مصـر وبروتوكولات البلاط المصري فمن المعـروف والمؤكد تاريخيـاً أن الأسر الملكيـة المصرية ، وعبر جميع العصـور ، لم تزوج قط واحـدة من أميـراتها إلى أي ملك أجنبي ، رغم أن بعضـاً من الفراعنـة والأمـراء المصريين قد تزوجوا من عائلات ملكية أجنبية . فملوك عصر العمارنة قد تزوجـوا من أميرات ميتانيـات ، ولكنهم لم

يزوجـــوا واحدة من بناتهم إلى ميتاني . وعندما بلغت العـــلاقات الديلــوماسية أحسن أحـــوالها بين ملـــوك بابل الكاشيين وفراعنـــة الأسر الثامنة عشرة ، أرسل أحـــد هؤلاء الملــوك عدداً من الأميرات الكاشيات ليكن زوجـــات لأمـــراء مصريين ، وتقدم مراراً بطلب الـــزواج من أميـــرة مصريـــة ولكن البـــلاط المصري اعتـــذر وتهرب من تلبية الطلب . وعندما ازداد إلحاح الملك أرسل إليـــه البلاط المصـــري فتاة جميلـــة من أصل غير ملكي ، على أنها إبنـــة الفرعـــون.(٩) وحـــدث الشيء نفسه بين البـــلاط المصـــري والملك الفارسي قمبيز ، ملك العـــالم في ذلك الـــوقت . ويـــروي لنا هيرودوتس الإغريقي أنه عندمـــا ألح قمبيز في طلبـــه الزواج من ابنـــة الفرعـــون ، وكانت مصـــر عندهـــا في آخـــر مراحـــل انحطاطها الحضـــاري والسياسي ، قـــام الفرعـــون باختيـــار فتـــاة جميلـــة من فتيات البلاط وأرسلها إلى قمبيز على أنها ابنتـــه . وعنـــدما اكتشف الملك الفارسي الخدعـــة اتخذهـــا ذريعة لغـــزو مصر فاحتـــلها من أقصاها (١٠) . فكيف يخـــرق البلاط المصـــري هذا التقليد الراســـخ منـــذ القدم من أجـــل سليمان ، الذي لم تذكـــره وثيقـــة تاريخيـــة واحـــدة تنتمي إلى عصـــره أو إلى العصور اللاحقة ؟

وفي قصـــة زواج الملك سليمان من ابنـــة الفرعـــون ، يقع المحـــرر في تنـــاقض يظهر الطـــابع الخيالي لنفـــوذ سليمان الداخلي والخـــارجي . فقد صعـــد فرعـــون مصر المجهـــول الإسم على فلسطين وأخـــذ مدينة جـــازر الكنعـــانية وأعطاها مهراً لإبنته ، التي زوجها من سليمان . فإذا علمنا أن مدينـــة جـــازر هذه لا تبعـــد عن أورشليم أكثر من بضع عشرات من الكيلومترات ، لعرفنا مدى النفوذ الفعلي للملك سليمان ، الذي وصلت سلطته إلى الفـــرات وكان عاجـــزاً عن ضم مدينـــة كنعانية قوية لا تبعد إلا رمية حجر عن عاصمته.

---

9 - C . H Gardon , The Anient Near East , Norton , NewYork 1965 , PP . 90 - 91

١٠ ـ تاريخ هيرودوتس ، ترجمة حبيب فندي بسترس ، بيروت ١٨٨٦ ص.ص ١٩٤ – ١٩٥

النقد التاريخي والأركيولوجي

لأخبار المملكة الموحدة

في الوقت الذي كانت فيه ملكة مجهولة الإسم والموطن تزور سليمان لكي تتأكد مما سمعته عن أخبار عظمته ، كانت منطقة الشرق القديم تموج بالأحداث السياسية الكبرى . ففي القرن العاشر قبل الميلاد ، كان الآراميون الذين طبعوا الألف الأول بطابعهم الثقافي ، قد شكلوا ممالكهم فيما بين حوض الخابور وسورية المجوفة ، وفيما بين جبال زاغروس وأطراف الصحراء العربية ، واتخذت الثقافة الآرامية ملامحها الثابتة . كما كانت الثقافة الفينيقية على شاطىء المتوسط من أرواد إلى صور ، تطبع حوض المتوسط بطابعها السوري الكوني . فمن منطقة حران شرقاً إلى سهل العمق غرباً ، على طول المنطقة الشمالية السورية ، تشكلت ممالك آرامية قوية يدعوها المؤرخون الغربيون خطأ بالممالك الحثية الجديدة ، نظراً لتأثر فنونها بالتقاليد الفنية الحثية ، ونزوح عناصر حثية إليها بعد انهيار مملكة حاتي في الأناضول .(*) كما قامت ممالك آرامية أخرى في حوض الخابور والفرات ، وفي منطقة حلب ، وفي المناطق الممتدة من حلب شمالاً إلى دمشق في الجنوب . وفي المناطق المحصورة بين مملكتي دمشق وحماة الآراميتين والشريط الساحلي الفينيقي ، استمرت مملكة آمورو القديمة التي نعرفها من رسائل تل العمارنة ، وكانت عاصمتها سيميرا (التي تم اكتشافها مؤخراً في تل الكزل على مسافة بضعة كيلومترات من طرطوس باتجاه حمص) أكبر مدينة على السهول الساحلية السورية . وفي القرن العاشر قبل الميلاد بدأ المد الإمبريالي الآشوري ، وتحولت الحملات الآشورية الإستعراضية التي ابتدأت منذ القرن الثاني عشر إلى حملات توسع واخضاع . فابتدأ ملوك آشور أولاً بفرض نفوذهم الإسمي على الممالك الآرامية عند الفرات والخابور ، ثم أخذوا منذ مطلع القرن التاسع بالإقتراب تدريجياً نحو مناطق غربي الفرات .

لا يعكس سفر الملوك الأول شيئاً من أخبار هذا العالم حول مملكة سليمان . ومن بين جميع الممالك القريبة والبعيدة ، التي كانت قائمة في القرن العاشر قبل الميلاد ، لا يذكر النص التوراتي إلا دمشق وصور ومصر . فيما يتعلق بدمشق لا يعطينا النص إلا خبراً مقتضباً

(*) ـ حول النظرة الجديدة للممالك الحثية الجديدة وطابعها الآرامي ، انظر كتاب باولو ماتييه
- Paolo Mathiae , Ebla , Hoder and Stonghthon , London 1980 , PP. 15 - 21

عن دخول رزون بن اليداع إليها وتنصيب نفسه ملكاً على المدينة . وفيما يتعلق بصور يركز على العلاقات الديبلوماسية بين ملكها المدعو حيرام وبين سليمان ، والمشاريع التجارية البحرية المشتركة بينهما . ولكننا لا نملك حتى الآن أية وثيقة كتابية أو أركيولوجية تؤكد وجود ملك على مدينة صور في القرن العاشر قبل الميلاد اسمه حيرام . وقد ادعى يوسيفوس اليهودي في تاريخه الذي وضعه في أواخر القرن الأول الميلادي أن حوليات ملوك صور قد ذكرت حيرام ، ونقل مقتبسات عن هذه الحوليات وردت عند مؤلفين كلاسيكيين مثل دايوس بوليستر Dius Polyhistor وميناندر الإفسوسي Menander of Ephesus ، ممن لم تصلنا مؤلفاتهم . وفيما يتعلق بمصر ، لا نعرف إلا أن فرعون ملك مصر قد أرسل ابنته إلى سليمان لتكون زوجة له . وبما أن النص التوراتي لا يعطي أية تفاصيل أخرى ، فقد افترض المؤرخون أن حما سليمان هو الفرعون سيامون آخر فراعنة الأسرة الواحدة والعشرين ، لأن الفرعون شيشق ، الذي خلفه ،كان من أعداء سليمان واستقبل خصمه يربعام بحفاوة عندما لجأ إليه . ولكن النصوص المصرية من عصر الفرعون سيامون لا تذكر شيئاً عن سليمان ولا عن مملكة سليمان . وكذلك الأمر فيما يتعلق بالنصوص المصرية من عصر الفرعون شيشق ، فرغم أن هذا الفرعون هو أول ملك أجنبي تتقاطع عنده الرواية التوراتية مع المصادر الخارجية ، إلا أن سجلاته قد تجاهلت تماماً وجود مملكة قوية موحدة في فلسطين ، ولم تأت على ذكر الملك سليمان لا من قريب ولا من بعيد ولا فيما يشبه الإشارة . ورغم أن النص التوراتي يقول بأن شيشق قد صعد على أورشليم بعد وفاة سليمان وأخذ جميع كنوز بيت الرب ، إلا أن سجل الحملة الوحيدة لشيشق على آسيا ، لا يذكر لنا مدينة أورشليم ولا أية مدينة مهمة من مدن يهوذا [١١] .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن النصوص الآشورية ، التي أعطتنا معلومات تفصيلية عن كل الدول المهمة التي قامت في بلاد الشام خلال القرن العاشر ، قد تجاهلت أيضاً قيام مملكة قوية في فلسطين وصلت مناطق نفوذها إلى الفرات ، وتجاهلت وجود ملك عليها أطبقت شهرته الآفاق اسمه سليمان ، يأتي إليه ملوك الأرض لتقديم الطاعة والولاء والاستماع إلى حكمته ، لتوصلنا إلى نتيجة واحدة ؛ فإما أن التاريخ قد أحبك مؤامرة صمت مقصودة ،

---

١١ ــ من أجل الاطلاع على نص حملة شيشانق ، انظر كتاب
- James Pritchard , Ancient NewEastern Texts , PP . 263 - 264

وإما أن هذه المملكة الموحدة لم يقم لها قائمة إلا في خيال المحرر التوراتي . والكلمة الفصل في ذلك ستكون لعلم الآثار . فماذا يقول علم الآثار في مسألة المملكة الموحدة لكل إسرائيل ، بعد قرن كامل من بداية عملية التنقيب في فلسطين ، وخصوصاً في موقع أورشليم مفتاحنا إلى اللغز ؟

عندما بدأت التنقيبات الأثرية في أورشليم ، توجه المنقبون إلى مدينة القدس بموقعها الحالي . يبحثون عن حدود أورشليم القديمة . ثم تبين بعد ذلك أن المدينة اليبوسية تقع بكاملها إلى الجنوب من المدينة الحالية على الجزء الجنوبي من سلسلة تلال القدس الشرقية ، التي يشغل جزءها الأوسط الحرم الشريف ويدخل جزءها الشمالي ضمن الحدود التقليدية لمدينة القدس . وقد راوحت عمليات التنقيب في مكانها زمناً طويلاً ، إلى أن باشرت حملة المنقبة البريطانية السيدة كاثلين كينيون أعمالها في مطلع ستينيات القرن العشرين ، وكشفت عن كل ما يمكن الكشف عنه في موقع أورشليم العصور القديمة وموقع الهيكل .

ففيما يتعلق بموقع أورشليم ، استطاعت المنقبة رسم حدود المدينة اليبوسية على التل الشرقي ، وكشفت عن أساسات سورها الذي يعود إلى حوالي عام ١٨٠٠ ق.م ، وهو تاريخ بناء أورشليم لأول مرة كمدينة مسورة (انظر الخريطة) . وقد لاحظت السيدة كينيون آثار إصلاحات متتالية على هذا السور أبقته قائماً حتى دمار مدينة أورشليم عام ٥٨٧ ق.م على يد البابليين ، حيث وجدت المنقبة آثار تدمير شامل في السور وفي أبنية المدينة . إلا أن أعمق ما استطاعت عمليات التنقيب الوصول إليه هو أورشليم عصر نبوخذ نصر ، أما المدينة السليمانية الأقدم ، والعاصمة المفترضة للمملكة الموحدة ، فلم يتم العثور على بنية واحدة من بناها ، بسبب استخدام حجارتها لبناء الطبقات السكنية التي قامت فوقها . و بذلك تعطينا التنقيبات سوراً يرجع إلى عام ١٨٠٠ ق.م ومدينة ترجع إلى عام ٥٨٧ ق.م ، أما ما بينهما فمفقود تماماً . من هنا ، فإن علم الآثار كما تقول السيدة كينيون ، لا يستطيع تقديم أية فكرة عن مدينة العصر الذهبي وثرائها وعن قصور سليمان التي بناها له ولزوجاته . وتفترض المنقبة أن هذه القصور إن وجدت ، لا بد أن تكون قد أقيمت في المنطقة الشمالية خارج السور القديم للمدينة ، بين السور الشمالي لها وسور الحرم الشريف ، لأن المساحة الصغيرة للمدينة وازدحام بيوتها لا تسمح ببناء مثل تلك القصور الواسعة الأرجاء . وبما أن سور المدينة اليبوسية قد تم وصله بسور جديد يرجع تاريخ بنائه إلى القرن العاشر وهو يكاد الآن

يلامس سور الحرم الشريف (انظر الخريطة) ، فإن المنقبة ترجح أن المدينة السكنية في القرن العاشر قد توسعت لتشمل المنطقة التي كانت خالية إبان الألف الثاني قبل الميلاد ، وأنها قد ضمت القصور السكنية والإدارية للعاصمة السليمانية . وبما أن هذه المنطقة السكنية للقرن العاشر قد زالتْ مع زوال المدينة السليمانية ، فإن المنقبة لا تستطيع إعطاء أية فكرة عن نوعية وطبيعة المنشآت التي قامت هنا (١٢) .

أما فيما يتعلق بموقع هيكل سليمان ، فقبل الدخول في التفاصيل الأركيولوجية ، يستحسن إعطـــاء القارىء لمحـــة عن تاريخ هذا الهيكل . فمن المفترض أن الملك سليمان قد بنى الهيكل حـــوالي منتصف القـــرن العاشر قبـــل الميلاد ، خارج أســـوار أورشليم في حقل أرنـــان اليبوسي الذي أقـــام فيه داود مذبحـــاً للرب (راجع آخر قصة من قصص داود في عرضنا السابق) . ومن المفترض أن هـــذا الهيكل قد استمر قائماً إلى أن تم تدميره مع بقيـــة المدينة على يد البابليين عـــام ٥٨٧ ق.م . بعـــد استيلاء قورش الفارسي على بابـــل وجميع ممتلكاتها ، سمح هذا الملك بعـــودة الجماعـــات ، التي تم سبيها خلال العصر الآشـــوري والبابلي الجديـــد ، إلى مواطنها ، وبينهم أولئك المسبيين من أورشليم عقب حملة نبـــوخذ نصر عليها ، فعـــاد مسبيو أورشليم على عـــدة دفعات . وقد قاد الدفعـــة الثانيـــة من العائدين المدعـــو زَرُبال الذي عينه الفرس والياً على المدينـــة . وتقول الروايـــة التوراتيـــة في سفر عزرا ، بأن زَرُبابـــل هذا هـــو الذي أعاد بناء هيكل سليمان المهدم في أورشليم (حـــوالي عام ٥٢٠ ق.م) . وقـــد دعي هذا الهيكل الجديد بهيكل زربابـــل أو بالهيكل الثـــاني ، وبقي قائماً إلى العصـــر الرومـــاني . وعندمـــا عين الرومـــان المدعـــو هيـــرود ملكاً على أورشليم ومنطقـــة اليهـــودية في عام ٣٧ ق.م ، قـــام بتوسيع هيكل زربابـــل والإضافـــة إليه حتى بلغت مساحتـــه ضعف المساحـــة الأصليـــة . بقي هيكل هيرود قائماً قرابـــة قـــرن من الزمان ، ثم تم تدميره على يد الرومان مع بقية المدينة عام ٧٠ ميلادية ، وبقي موقعه خـــراباً إلى أن تم بنـــاء المسجد الأقصى في مكانه ، في القرن السابع الميلادي . وقد استخـــدم المعماري الأمـــوي أساسات سور هيـــرود نفسها لرفع ســـور المسجـــد الأقصى ، كما استخـــدم الأرضيات القديمة فأقام عليها منشآت المسجد .

---

12 - Kathleen kenyon , Digging up Jerusalem , ErnestBen , London 1974 , PP 76 - FF

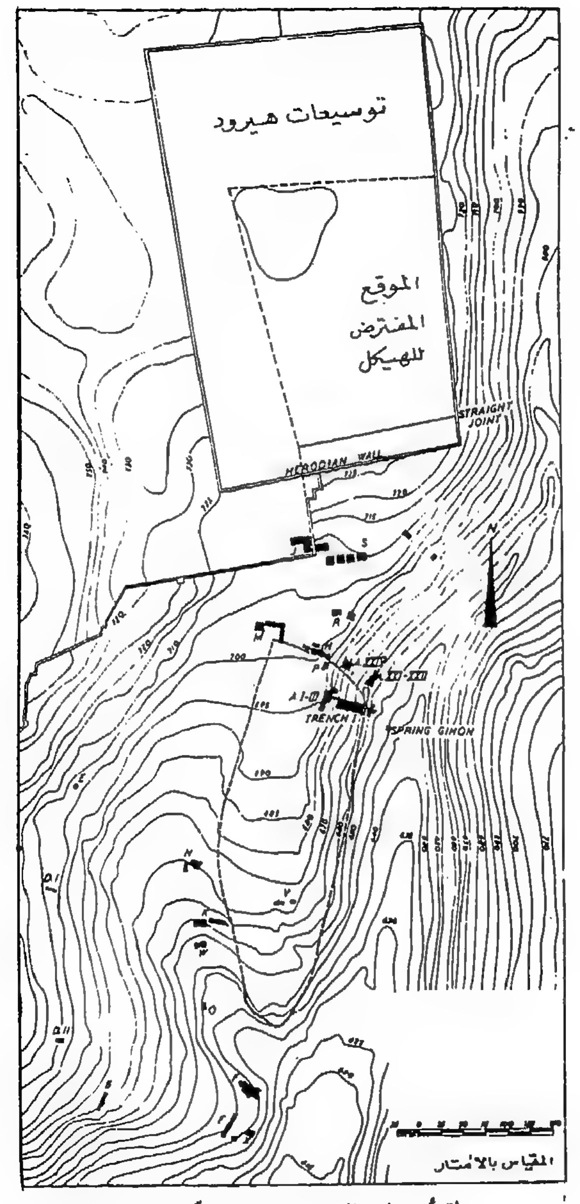
عثرت حملة السيدة كينيون على جزء لا بأس به من أساسات سور هيرود ، الذي يرجع إلى أواخر القرن السادس قبل الميلاد . وقد ميزت المنقبة سور زربابل من سور هيرود اعتماداً على التقنية المستخدمة في نحت الأحجار ، لا على أية بينة ستراتيغرافية مقنعة ؛ فقد وجدت أن قسماً من سور هيرود قد بني بحجارة استُخدِمت في نحت سطحها الخارجي تقنية معروفة في بعض البنى المعمارية التي ترجع في تاريخها إلى العصر الفارسي ، فأرجعت هذا القسم من السور إلى العصر الفارسي واعتبرته البقية الوحيدة الباقية من هيكل زربابل . أما هيكل القرن العاشر الذي بناه سليمان ، وفقاً للرواية التوراتية ، فلم يتم العثور على حجر واحد من أساساته أو أي أثر يدل على أنه قد قام في يوم من الأيام . ومن الجدير بالذكر أن الحائط المدعو بحائط المبكى هو من الأجزاء الباقية من سور هيكل هيرود ، أما البرج الوحيد القائم على السور والمدعو ببرج داود ، فيرجع إلى فترة المكابيين في القرن الثاني قبل الميلاد [١٣]

أما خارج مدينة أورشليم ، و فيما عدا بعض المدن الكنعانية المهمة مثل مجدو وحاصور وجازر ، فإن التنقيبات الأثرية في المستويات العائدة للقرن العاشر قبل الميلاد ، لم تعثر على أية دلائل تشير إلى تقدم حضاري وازدهار اقتصادي ، في كل مكان من المناطق المفترضة للملكة السليمانية . فأهل هذه المناطق كانوا يعيشون حياة فقيرة جداً وبسيطة إلى أبعد الحدود ، وتدور دياناتهم حول آلهة الخصب الكنعانية التي عثر على العديد من مقاماتها وعلى تماثيل آلهتها[١٤]

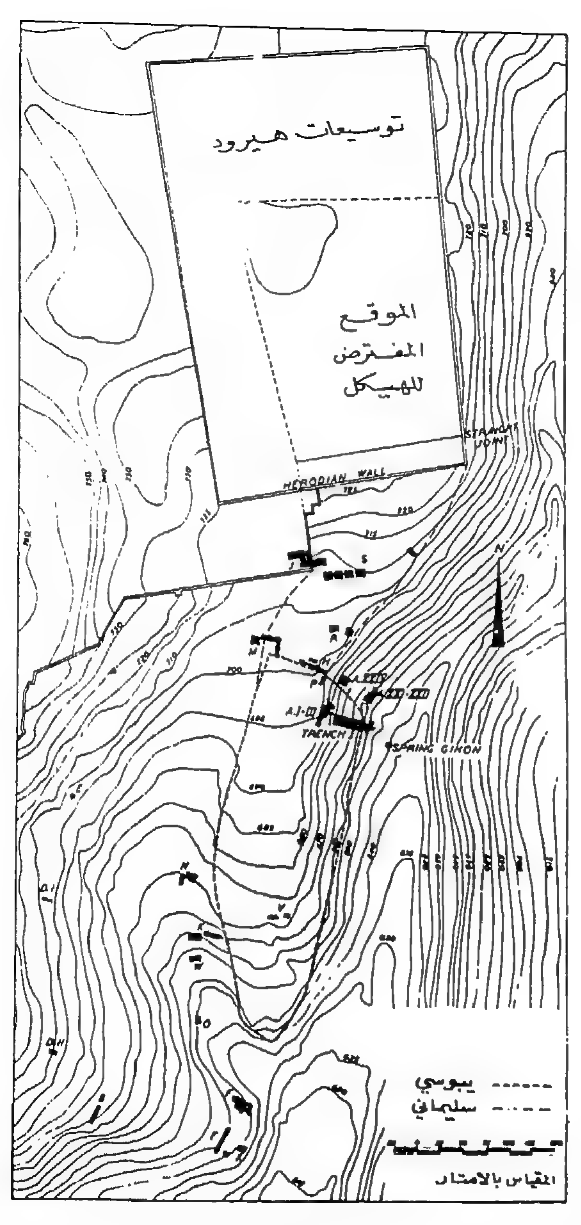
ومن ناحية أخرى ، فإن مسحاً أركيولوجياً عاماً لجميع مناطق الهضاب المركزية ومرتفعات يهوذا (وهي المناطق التي يتفق جميع الباحثين اليوم على أنها الأمكنة التقليدية ، التي تشكلت فيها إسرائيل بالمفهوم التوراتي) قد جرى خلال العشرين سنة الأخيرة ، وطال كل كيلومتر مربع تقريباً فيها . وقد استخدم المنقبون الأسلوب الجديد الذي يعتمد على شبكة من المعلومات المتقاطعة ، التي تقدمها العلوم المساعدة لعلم الآثار مثل

---

13 - Ibid , pp 76 - FF
14 - Kathleen kenyon , Archaeology in the Holy Land , pp253 - 254 .



٥ ـ خريطة أورشليم اليبوسية ، وفق المنقّبة كاثلين كينيون



٦ ـ خريطة أورشليم القرن العاشر . ويظهر عليها التوسعات المعزوة إلى سليمان

الإنثربولـوجيا والسيسيولـوجيا وعلم النباتات وعلم البيئة الطبيعية وغيرها ، وذلك وفق مفهوم حديث يدعى بمفهوم الأنظمة المتعاونة (Inter dıciplınary perspective) وتظهر نتائج هذا ، المسح الذي تراكمت نتائجه خلال السنوات القليلة الماضية ، أن منطقة يهوذا كانت خالية من السكان تقريباً خلال عصر البرونز الأخير فيما بين مدينة أورشليم في شمال يهوذا ومدينة حبرون في جنوبها ، عدا موقعين صغيرين هما خربة رابـوض وبيت زور ، وذلك بسبب الجفـاف ، الذي عم المنطقـة وبلـغ ذروتـه حـوالي عـام ١٢٠٠ ق.م . أمـا في عصـر الحديـد الأول (١٢٠٠ ـ ١٠٠٠ ق.م) فقد ظهر إلى جانب خربة رابوض وبيت زور ، عدد قليل من القرى الصغيرة قرب مصادر المياه على الأطراف الشرقية لبادية يهـوذا . وتظهـر المخلفـات الماديـة لهذه القـرى ، مثـل الفخـاريات وغيـرها ، استمراراً ثقافيـاً لعصـر البرونـز الأخيـر وعصـر الحديد الأول . ومع التقـدم في عصـر الحديـد الثاني (١٠٠٠ ـ ٧٠٠ق.م) وخصوصاً في جزئه الأخيـر ، يتزايد عدد المواقع الجديدة بشكل كبير وتظهر في كل مكان تقريباً من منطقة يهوذا . إلا أن هذا التوسع في المواقع الجديدة لعصر الحديد الثاني ، لم يأت نتيجة لإقتلاع السكان السابقين واستبدالهم بسكان جدد ، لأن المخلفات المادية للحديد الثاني بكامله تظهر انتماءً كاملاً للثقافة المحلية في الحديد الأول وفي البرونز الأخير [١٥] .

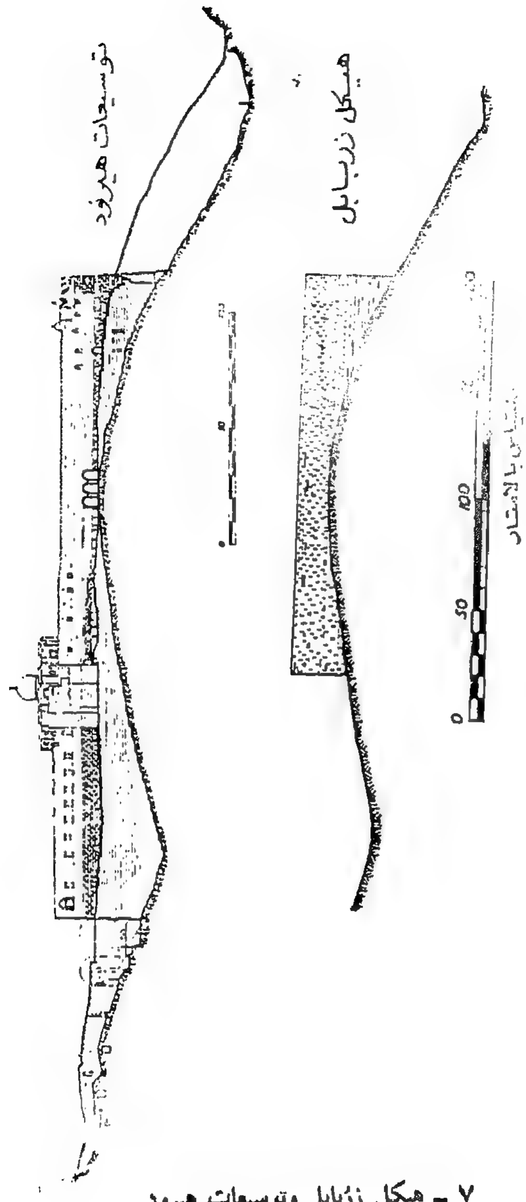
وتبدي منطقـة الهضاب المركـزية نمطاً في إعـادة الإستيطان مشابهاً لما رأينـاه في مرتفعات يهـوذا ، ولكن مع فـارق زمني كبير[١٦] فقد كانت المنطقـة خاليـة أيضاً من السكان تقريباً خـلال عصـر البرونـز الأخيـر ومطلع عصـر الحديد ، ثم ابتـدأت إعـادة الإستيطان مع بدايـات عصر الحديد الأول (١٢٠٠ ـ ١٠٠٠ ق.م) واستمرت بإيقـاع متزايد حتى نهايته ، وذلك بتأثيـر عودة المناخ المطري إلى المنطقة إلا أن هذه العملية لم تصل ذروتها إلا في سياق عصر الحديد الثاني ومع مطلع القرن التاسع تقريباً . وترافق ذلك مع تمركز السلطة السياسية في مدينة السامرة ، التي تحولت إلى عاصمة لدولة إقليمية كبيرة في فلسطين . وهذه الحقائق الأركيولوجية فيما يتعلق بمنطقتي إسرائيل ويهوذا تقودنا إلى النتائج التالية :

---

١٥ ـ عن تقارير ألرية للمنقبين الإسرائيليين فنكلشتاين ومازار وكوشافي . أنظر توماس . ل . تومبسون:

- TH . L . Thompson , Early History of the Israelite People , pp282 - 289 .

16 - ibid , p.289



٧ ـ هيكل زرُبابل وتوسيعات هيرود

١ ـ لقد سبقت عملية استيطان الهضاب المركزية عملية استيطان مرتفعات يهوذا بنحو قرنين من الزمان . كما سبق قيام الدولة في الشمال قيامها في الجنوب بالمدة نفسها تقريباً.

٢ ـ إن القاعدة السكانية والإقتصادية لقيام مملكة في الهضاب المركزية ،لم تتوفر قبل استهلال القرن التاسع وبناء مدينة السامرة.

٣ ـ إن القاعدة السكانية والإقتصادية لقيام مملكة في مرتفعات يهوذا بقيادة أورشليم ، لم تتوفر قبل أواخر القرن الثامن قبل الميلاد .

٤ ـ وهـذا يعني أن منطقـة إسرائيـل قد تحولت إلى دولـة إقليميـة قويـة قبل قرنين تقريباً من توفر الشروط الملائمة لقيام مملكة إقليمية قوية في منطقة يهوذا . ولا يوجد قاعدة مشتركة جمعت بين المنطقتين فيما يدعى المملكة الموحدة لكل إسرائيل خلال القرن العاشر قبل الميلاد [١٧]

إن نظـرة واحـدة إلى خريطـة أورشليـم القـرن العاشـر قبل الميلاد ، تعطي فكرة عن ضآلـة المدينـة . فهي تشغـل ذروة القسـم الجنـوبي من سلسلـة تلال القـدس الشرقيـة ، ولا يبلغ طـولها مع توسعاتها نحـو الشمال أكثـر من ٥٥٠ م ، أمـا عرضها الذي كان محكـوماً بالمنحـدرات الهضبيـة فلم يتجـاوز الـ١٥٠ م . فإذا أضفنـا إلى ذلك أن الدراسات الحديثـة للأوضاع السكانيـة لفلسطين القديمـة ، تظهـر أن عدد سكان أورشليم خـلال القـرن العاشر قبـل الميـلاد لم يتجـاوز الألفي نسمـة ، وأن عدد سكان فلسطين من أقصاهـا إلى أقصـاها ، وبجميع منـاطقها الساحلية والداخلية والهضبية والصحراوية ، لم يتجاوز وفق أكثر التقديرات تفاؤلاً المئة ألف نسمة [١٨] ، لأدركنا أي شبح تاريخي ترسمه لنا الرواية التوراتية عن مملكة كل إسرائيل الموحدة خلال أيام داود وسليمان.

نتيجة ومنعطف جديد:

لقد تتبعنا في القسم الأول من دراستنا هذه الرواية التوراتية حول أصول إسرائيل ، وقمنا بإجراء المقارنة بين الخبر التوراتي والمعلومات التاريخية والأركيولوجية المؤكدة ، وذلك

---

17 - Ibid , pp . 288 - 292 - 312 - 313
18 - Ibid , end note p 58

عند كل مرحلة من مراحل القصة التوراتية وصولاً إلى موت الملك سليمان وانقسام المملكة الموحدة. ولكننا لم نعثر على أثر لإسرائيل التوراتية ، ولم يتقاطع الخبر التوراتي خلال ألف عام ، وفي أية نقطة من مسار القصة مع تاريخ وأركيولوجيا فلسطين والشرق الأدنى القديم .
والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو : هل هناك إسرائيل تاريخية يمكن إحلالها محل إسرائيل التوراتية ، وما هي الصورة التاريخية لإسرائيل وللمسرح الفلسطيني خلال عصر الحديد ، الذي شهد مولد دولتي إسرائيل ويهوذا .

الباب الثاني

إسرائيل التاريخية

وآرام دمشق

الفصل الأول

نظريات في نشوء اسرائيل

إن الفشل ، الذي حالف الباحثين المحافظين ، حتى الآن ، في إيجاد مستندات تاريخية لإسرائيل التوراتية ، قد قاد إلى الإستقلال التدريجي للبحث في أصول إسرئيل عن البحث التوراتي والبحث اللاهوتي . وفيما عدا البقية المتعنتة من تلامذة أولبرايت ، والحلقات الأكاديمية ذات الخلفية اللاهوتية ، فإن الباحثين اليوم يضربون صفحاً عن كل ما سبق فترة الإستقرار في كنعان ، باعتباره "ماقبل التاريخ" بالنسبة لمسألة أصول إسرائيل ، ويركزون دراستهم على عصر الحديد الأول والفترة الإنتقالية من البرونز الأخير إلى عصر الحديد ، وذلك من أجل الكشف عما حدث فعلاً في فلسطين وأدى إلى نشوء إسرائيل .

١ ـ نظرية آلت في التسرب السلمي

في عـام ١٩٢٥ ، نشـر الباحث الألماني البريخت آلت Albrecht Alt بحثه المعنـون "توطن الإسرائيليين في فلسطين" ، وذلك ضمن كتاب موسوعي أشرف على تحريره عنوانه "مقالات في تاريخ وديانة العهد القديم"[١] . وقد بسط آلت في ذلك البحث نظريته في أصل إسرائيل ، والتي كان لها تأثير كبير على مسار البحث منذ ذلك الوقت . يبتدىء آلت دراسته لأصول إسرائيل من عصر القضاة ، أما ما قبل ذلك من المرويات التوراتية فليست عنده إلا من قبيل الأدب الخيالي ، الذي تمت صياغته في الفترات المتأخرة ، بهدف خلق

١ ـ أنظر الطبعة الإنكليزية الأحداث للكتاب الصادر عام ١٩٦٨

- Albrecht Alt , Essays on Old Testament History and Religion, N .Y Doubleday 1968 . PP 175 - 221

أصول متجذرة لإسرائيل وديانتها في الماضي البعيد . وجد آلت من دراسته لأسماء المواقع التي تعزو الرواية التوراتية سكنها من قبل أوائل الإسرائيليين في سفر القضاة ، أن هذه المواقع كانت بعيدة عن مناطق دويلات المدن الكنعانية ، وقامت في المناطق الهضبية شبه الخالية من السكان تقريباً . من هنا كان منطلقه في بناء نظريته في التسرب السلمي للجماعات ، التي شكلت فيما بعد إسرائيل . لقد لاحظ هذا الباحث من مقاطعته للعديد من المعلومات ، أن الهضاب المركزية لفلسطين كانت شبه خالية من السكان خلال عصر البرونز الأخير ، وخصوصاً منذ فترة تل العمارنة حوالي ١٣٥٠ ق.م ، ولم تكن تحتوي إلا على عدد قليل جداً من القرى الصغيرة والمتباعدة . وكانت مدينة شكيم في الشمال هي المدينة الوحيدة المهمة فيما بين أورشليم جنوباً ووادي يزرعيل (مرج ابن عامر) في الشمال . وقد بقي وضع الهضاب المركزية على هذه الحالة حتى عام ١٢٥٠ ق.م عندما بدأ مسرح الحدث التوراتي بالتوضح في هذه الرقعة . وفي الحقيقة ، فإن هذا الإستنتاج المبكر الذي توصل إليه آلت بنفاذ بصيرته،قد أثبته المسح الأركيولوجي للهضاب المركزية بعد أكثر من نصف قرن على ظهور دراسة آلت .

ويعتقد آلت أن الجماعات التي شغلت الهضاب المركزية ، كانت عبارة عن عشائر بدوية من أصول مختلفة أخذت بالتسرب تدريجياً إلى هذه المنطقة ، وعلى فترات متقطعة ومتباعدة ، اعتباراً من منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، تسوق قطعانها الصغيرة عبر نهر الأردن باحثة عن مراعٍ جديدة في كنعان . وكان هؤلاء الرعاة يتوقفون خلال الشتاء والربيع عند أطراف المناطق الزراعية ، فإذا يبست الأعشاب صيفاً ، أخذوا بالتوغل أكثر فأكثر نحو المناطق الزراعية من أجل رعي القش المتبقي بعد الحصاد ، وذلك بالإتفاق مع أصحاب الحقول ، الذين كانوا يدخلون معهم في علاقات منافع متبادلة . وشيئاً فشيئاً ، وجد بعض هذه العشائر أماكن مناسبة لإقامتهم في المناطق الخالية الفاصلة بين دويلات المدن الكنعانيـة ، والبعيدة عن نفـوذ المراكز السياسية الهامة ، وعن النفوذ المصري في وادي يزرعيل ، فتوطنوا هناك وأخذوا بالإستقرار والزراعة دون أن يسببوا تهديداً أومخاوف لأي فريق ، ولم يكن لهذه الجماعات من حاجة إلى العنف وإلى اكتساب الأرض بالقوة . ثم إن هذه العشائر المسالمة والمتباعدة عن بعض ، أخذت بالتقارب بعد فترة من الإستقرار ، وأخذت تدريجياً بالإحساس بنوع من الرابطة فيما بينها . ومن المرجح أن عبادة واحدة قد نشأت

بينها تدريجياً وتركزت طقوسها حول مقام مقدس أو مذبح مشترك ، الأمر الذي زاد من ترابطها وإحساسها بالتمايز عمن حولها . وعندما أخذت أكبر هذه العشائر بتوسيع مناطقها على حساب مناطق الكنعانيين ، وذلك في أواخر عصر القضاة ، وقع الصدام العسكري مع الكنعانيين على شكل حروب محلية محدودة . وهذه الحروب هي التي بقيت ذكراها قائمة في الأذهان بشكل غامض ومشوش ، وأدت فيما بعد إلى نشوء تقليد الفتح العسكري واكتساب كنعان بالقوة ، مما يذكره سفر يشوع . ثم تنادت هذه الجماعات بعد أن أحست بوحدة مصالحها ، إلى إقامة المملكة الموحدة ، التي ابتدأت بحكم الملك شاؤل .

وينطلق آلت في نظرته إلى أصول إسرائيل من موقف مخالف تماماً لموقف الباحث أولبرايت ؛ فبينما كان همّ أولبرايت أن يزرع جذور إسرائيل في التربة الأوسع لثقافة الشرق القديم ، فإن آلت والمدرسة التي ينتمي إليها ، بنظرتهم الشكوكية إلى القيمة التاريخية لروايات الآباء و الخروج ويشوع ، يجدون أنه من غير المجدي البحث عن أصول إسرائيل في الفترات السابقة لعصر القضاة وتشكيل المملكة الموحدة . وهنا ، وبدلاً من توطين أصول إسرائيـــل في الثقافـــة المحليـــة ، والبحث عن نـــواحي اللقاء والإنسجام ، فإن آلت يلجأ إلى إبراز أصول إسرائيل من خلال تضادها وتناقضها مع محيطها ، ويركز على ثنائية إسرائيـل ـ كنعان . إن المفتاح الرئيسي لفهم نشوء إسرائيل كهوية متميزة في المنطقة ، هو البحث عن إختلافها وتفردها وتميزها عن المحيط الكنعاني الأوسع والأقدم . أما الجوانب ، التي يجدها آلت مشتركة بين ما هـــو إسرائيلي وما هو كنعاني ، فيعزوها إلى قيام الإسرائيليين لاحقاً بتبني جوانب معينة من الثقافة الكنعانية ، وهي جوانب غير أصلية في إسرائيل كما يعتقد .

يستخدم آلت مصطلح "كنعان" وصفة "كنعاني" للدلالة على دويلات المدن الفلسطينية وما يتعلق بها خلال عصر البرونز الأخير ، وهي الدويلات التي نعرف عنها من رسائل تل العمارنة ومن وثائق الإمبراطورية المصرية عموماً العائدة لذلك العصر . وهو يصفها بأنها دويلات زراعية يحكمها ملوك متسلطون ، مرتبطة ثقافياً بالعالم السوري المسماري ، وذات ديانة تقليدية وثنية . أما مصطلح " إسرائيل" وصفة "إسرائيلي" فهو مفهوم تجريدي عند آلت استمده من نفي كل ما هو كنعاني . فالمصطلح والحالة هذه يشير إلى ثقافة قبلية ، ورعوية شبه بدوية ، ومعتقد ديني توحيدي ، ونظام حكم بدائي ديمقراطي . وثنائية كنعان ـ إسرائيل

عند آلت ، ليست ثنائية تضاد ثقافي فقط ، بل ثنائية تتابع زمني أيضاً ؛ فعصر البرونز الأخير هو عصر كنعاني ويدل على كامل فلسطين قبل وصول الإسرائيليين ، أما ما تلاه من عصر الحديد فإسرائيلي ، أو فلسطين في طريقها لأن تغدو إسرائيل . من هنا ، فقد أعطى هذا الباحث لنفسه الحق في دراسة نصوص عصر البرونز الأخير ، واستقراء آثاره سواء في فلسطين أم خارجها ، دون الإستعانة بالنص التوراتي أو الرجوع إليه ، وذلك على عكس موقفه من نصوص وآثار عصر الحديد الذي يعتبره فاتحة للعصر الإسرائيلي .

لقد وضع آلت نموذجاً لنشوء إسرائيل غدا سُنَّة متبعه بعده . ويعتمد هذا النموذج على وصف التغيرات الإجتماعية والسياسية ، التي أدت إلى الإنتقال من عصر البرونز إلى عصر الحديد ، أو من فلسطين دويلات المدن الكنعانية في السهول والوديان إلى فلسطين المملكة الموحدة في المناطق الهضبية ، والتي بسطت سلطتها فيما بعد على بقية دويلات المدن الكنعانية . من هنا ، فقد صار من البديهي التحدث في الأدبيات التاريخية عن كل ما هو كنعاني باعتباره يمت الى البرونز الأخير، وعن كل ما هو إسرائيلي باعتباره يمت إلى عصر الحديد . أما الجانب الأخر من نظريته ، والذي يؤكد على التسرب السلمي وينفي الفتح العسكري لأرض كنعان ، فقد بقي موضع جدال بين الباحثين . وقد عارضته منذ البداية مدرسة أولبرايت ، التي بقيت حتى النهاية من أنصار نظرية الإقتحام العسكري ، ويعارضه في الوقت الحاضر بعض الباحثين الإسرائيليين من أمثال يا دين Yadin ومالامات malamat ، وذلك رغم أن نتائج المسح الأركيولوجي لفلسطين تثبت يوماً بعد يوم نظرية التسرب التدريجي . فأحداث سفر يشوع لم تؤكدها حتى الآن نتائج التنقيب الأثري ، أما التسرب التدريجي فيمكن لأنصاره لإعتماد على الوقائع الأركيولوجية الجديدة . لقد استطاع المنقب موشي كوشافي العثور على مئة قرية زراعية صغيرة نشأت في منطقة أفرايم بالهضاب المركزية خلال عصر الحديد الأول[٢] كما عثر المنقب آدم زرتال في منطقة منسي بالهضاب المركزية أيضاً على ١٣٦ قرية جديدة خلال الفترة نفسها .[٣]

---

٢ ـ عن تقرير للمنقب الإسرائيلي : Kochavi ، أنظر

- *Joseph A . Callaway , The Settelment in Canaan (in : Hershel Shanks , edt , Ancient Israel , p . 71*

3 - Adam Zertal , Israel Inters Canaan , Bibical Archaeolog Review , September 1991

ولكن من يستطيع القول أن هذه القرى الجديدة هي قرى إسرئيلية؟ إن الدلائل تتزايد اليوم على أن أولئك القادمين الجدد إلى المناطق الهضبية في فلسطين كانوا بشكل رئيسي من المزارعين ومربي الماشية المستقرين ، ولا علاقة لهم بالبداوة أو الرعي المتنقل ، وأنهم من أصل محلي لا خارجي . يضاف إلى ذلك أن ظهور القرى الجديدة في فلسطين إبان عصر الحديد الأول لم يكن وقفاً على المناطق الهضبية فقط ، وأن إعادة استيطان المناطق التي هجرت خلال عصر البرونز الأخير ، هي عملية مرتبطة بعودة المناخ المطري . إن أخذ كل هذه الحقائق بعين الإعتبار يؤكد لنا بأن التغييرات السكانية في المناطق الهضبية ، لا عـلاقة لها من قريب أو بعيد بنشوء إسرائيل التوراتية .

إن ثنائية كنعان - إسرائيل ، التي رسختها بنظرية آلت ، لم تنشأ نتيجة لوصف مباشر وبسيط لمجموعتين بشريتين متعاصرتين ومعروفتين تاريخياً هما الإسرائيليون والكنعانيون ، بل جاءت نتيجة وصف تخيلي يعتمد التوفيق بين الرواية التوراتية والمصادر التاريخية . فصورة الكنعانيين عند آلت وغيره من الباحثين التقليديين ، مستمدة من تفسير النصوص المصرية لعصر البرونز وتطعيمها بالصورة العرقية التوراتية عنهم . وأما صورة الإسرائيليين فمستمدة فقط من الرواية التوراتية المتأخرة ، والتي لا تعكس سوى صورة جماعة السبي البابلي ، من بني يهوذا ، عن أنفسهم وعن أصولهم . وفي الحقيقة ، فإننا اعتماداً على المكتشفات الأثرية في كل مواقع القرى والمدن الفلسطينية ، لا نستطيع التمييز بين ما هو كنعاني وما هو إسرائيلي . ففي المواقع القديمة مثل مجدو وحاصور وشكيم ، والتي استمرت من عصر البرونز إلى عصر الحديد ، تُظهر الآثار المادية صورة ثقافة محلية مستمرة وغير منقطعة ، من عصر البرونز الوسيط إلى البرونز الأخير فعصر الحديد الثاني . كما تظهر الخزفيات والمخلفات المادية الأخرى في مواقع القرى الجديدة ، التي ظهرت إبان عصر الحديد الأول انتماءً للثقافة المحلية وارتباطاً كاملاً بثقافة عصر البرونز الأخير . وكذلك الأمر فيما يتعلق بالمدن التي بنيت في عصر الحديد ، ومثالنا الوحيد عليها هو مدينة السامرة ، فهنا يبدي كل أثر من آثار تنظيم المدينة وعمارتها و خزفياتها وفنونها التشكيلية انتماءً إلى الثقافة الفلسطينية التقليدية والثقافة الفينيقية المجاور .

كل ذلك يدعونا إلى القول مع السيدة كاثلين كينيون ، التي قضت جل حياتها المهنية في التنقيب في أورشليم وأريحا وعدد آخر من المواقع الفلسطينية ، أنه لا يوجد وقت فيما بين

عصر البرونز الأخير وعصر الحديد ، نستطيع أن نلاحظ فيه تغيراً حضارياً يشير إلى حلول أقوام جديدة في فلسطين ، سواء في المناطق الهضبية أم في غيرها [٤] ، وإلى نشوء ثنائية إسرائيل - كنعان كواقع ثقافي ملموس . لقد كانت تقارير السيدة كينيون الأثرية بمثابة قمة نتاج الأركيولوجية التقليدية في فلسطين . ورغم أن هذه الباحثة لا تنتمي إلى الفريق المحافظ الذي يسعى إلى إيجاد الدعم الأركيولوجي للرواية التوراتية ، إلا أنها لم تنح جانباً ، الرواية التوراتية التي كانت حاضرة على الدوام كشاهد نفي أو إثبات . ومع ذلك فإنها توضح على الدوام عدم إمكانية تمييز ماهو إسرائيلي عما هو كنعاني ، وذلك في جميع المواقع وعبر كل المراحل .

٢ ـ نظرية الانتفاضة الداخلية

إذا لم يكن الإسرائيلون قد وفدوا من خارج كنعان، فلا بد أنهم شريحة إجتماعية محلية فرزتها ظروف معينة عن المجتمع الكنعاني . وهذا ما تقول به نظريـــة ظهرت في ستينيات القــرن العشرين على يـد الباحث مينـدنهل Mendenhall ، وطــورها بعده الباحث غوتوالد gottwald .

يرفض مينـدنهل من حيث الأساس نظرية الأصل الخارجي الرعوي للجماعات الإسرائيلية التي تسربت إلى المناطق الهضبية بحثاً عن المراعي . وهو يرى أن الجماعات التي شكلت إسرائيل فيما بعد ، هي شرائح فلاحية كنعانية لجأت إلى الثورة في وجه حكام دويلات المدن الطغاة ، وأن خميرة هذه الحركة الثورية كانت جماعة آبقة من العبودية في مصر ، جاءت معها بعبادة يهوة التي تبنتها الجماعات الفلاحية الثائرة . وقد كان تبني الجماعات الثائرة لعبادة يهوه بمثابة إعلان لرفضها لكل ما تمثله دويلات المدن الكنعانية المتسلطة على الشرائح الزراعية المضطهدة . ويعقد ميندنهل صلة بين عبران عصر الحديد الذين استهلوا هذه الثورة ، وعابيرو عصر العمارنة في البرونز الأخير . فالعابيرو والعبراني عنده متعادلان ، والكلمة تدل على تلك الشرائح الإجتماعية المحرومة في مجتمعات الشرق القديم ، والتي لجأت بسبب وضعها العام إلى التمرد والعصيان على النظام الفاسد لدولة

---

4 - Kathleen kenyon , Archaeology in the Holy Land , P . 200

المدينة الكنعانية . وهو إذ يفهم ويفسر اضطرابات العابيرو في فلسطين إبان القرن الرابع عشر قبل الميلاد من خلال هذا المنظور ، فإنه يعتقد أن روح التمرد والمقاومة قد استمرت لدى هذه الشرائح منذ ذلك الوقت ، ثم أعلنت عن نفسها مجدداً في القرن الثاني عشر قبل الميلاد بين الجماعات القديمة ذاتها . إلا أن ما يميز التمرد العبراني اللاحق عن تمرد العابيرو ، هو أن التمرد العبراني كان تمرداً دينياً في جوهره ، وأن أصحابه كانوا يبحثون عن الحرية الدينية تحت لواء عبادة يهوه المناقضة لعبادة الأبعال الكنعانية . من هنا ، فإن إسرائيل في نشأتها كانت تلاحماً دينياً لجماعات محلية في أصلها ، وأن القرى الزراعية الكنعانية قد صارت عبرانية باختيارهـا لديانـة يهوه ، ورفضها للنظام السياسي الكنعاني في المدن الكبرى . [٥]

أما الباحث غوتوالد Gottwald فقد تبنى نظرية ميندنهل في الإنتفاضة الداخلية مع بعض التعديلات التي تعتمد الأفكار الماركسية (١٩٧٩) . يتفق غوتوالد من حيث المبدأ مع ميندنهل في أن الجماعات الإسرائيلية الأولى كانت شرائح مضطهدة من الفلاحين والمزارعين والرعاة ، ومن الجماعات الهامشية التي تقع خارج الإطار الإجتماعي والسياسي لدويلات المدن الكنعانية . إلا أنه يرى في ثورة هؤلاء انتفاضة طبقيـة بالمفهـوم الماركسي ، لا ثورة . فهذه الشرائح المضطهدة في فلسطين قد ثارت ضد دويلات المدن الإقطاعية ونظمها السياسية ، التي تديرها ارستقراطية نبيلة تعمل على استغلال وقمع الشرائح الاجتماعية المحرومة [٦] .

ولقد طور كاتب هذه السطور من جهته ، وبشكل مستقل ، منذ مطلع الثمانينيات نظرية في أصول إسرائيل قريبة من نظرية ميندنهل وغوتوالد ، وتختلف عنها في أنها أسقطت عنصر الثورة الداخلية ، وركزت على التمايز الديني عن الوسط الكنعاني ، وما تبعه من تمايز اجتماعي وثقافي أدى في النهاية إلى ما يشبه التغاير الإثني الذي كرسه فيما بعد كهنة يهوذا خلال السبي البابلي وما تلاه . وقد عرضتُ أفكاري هذه في عدد من المحاضرات التي ألقيتها في منتديات ثقافية سورية ، وفي بحث مطول نشر في مجلة الفكر الديمقراطي

---

5 - G . A . Mendenhall , the Hebrew Conquest of Palestin, Bibical Archaeologist , 25 1962 , PP 66 - 68 .

6 - N . K . Gottwald The Tribes of Yahweh, Maryknoll , N . Y . Orbis Books 1979

الصادرة في قبرص .ويعبر المقطع التالي ، الذي اقتطفه للقارىء من آخر هذا البحث عن الخطوط العامة للنظرية :

" لقد أوصلتنا دراسة المخلفات المادية للثقافة الإسرائيلية ، إلى القول بأن أرض فلسطين لم تعرف شعباً متميزاً إسمه الشعب الإسرائيلي ، ولا ثقافة خاصة يمكن تعريفها بالثقافة الإسرائيلة . فكل ما كشف عنه علم الآثار يشير إلى ثقافة سورية كنعانية في تطورها الذاتي الطبيعي . ثم جاءت دراستنا للتراث اللغوي والأدبي والديني للثقافة الإسرائيلية لتدعم نتائجنا المبدئية . فاللغة التي نطق بها الإسرائيليون وكتبوا بحرفها هي لغة كنعانية ، وآدابهم هي آداب كنعانية ، ومعتقدهم التوراتي الذي وجدوا فيه مصدر تميزهم قد نشأ وتطور نتيجة لجدليات المؤسسة الدينية الكنعانية . ولا ينجم عن ذلك كله إلا القول بأن الشعب الذي أنتج مايدعى بالثقافة الإسرائيلية ، هو فئة كنعانية لم تغادر فلسطين قط ، وربما استوعبت إليها فئة ضئيلة من النازحين من مصر . وعندما بدأ كهنة يهوه في المنفى بتحرير أسفار التوراة ، في فترة انحلال المجتمع الإسرائيلي وتآلب القوى الكبرى عليه ، كتبوا تاريخ بني إسرائيل من وجهة نظرهم ، فجعلوا منهم فئة متميزة منذ البداية ، سعياً وراء ترسيخ الشكل الأخير للدين اليهودي ، الذي صار مصدر تماسكهم وأملهم في الوقوف في وجه الفناء . لقد ميز كهنة يهوه ، أخيراً ، أنفسهم ومن صار معهم عن كنعان تمييزاً مطلقاً ، وجعلوا من الفارق الديني الذي يفصلهم عن بقية الكنعانيين ، فارقاً في كل شيء " . (٧)

وفي الحقيقة ، فإن نظرية الإنتفاضة الداخلية بشقيها الديني والطبقي ، تبقى نظرية قائمة على تجريديات ذهنية لا أساس لها في الواقع الإجتماعي والسياسي لفلسطين في عصر الحديد . فإضافة إلى أن معلوماتنا التاريخية لا تؤيد وقوع مثل هذه الإنتفاضة في أي وقت فيما بين ١٢٠٠ - ١٠٠٠ ق.م ، فإن الشواهد الآثارية تؤكد أن المناطق الهضبية في فلسطين ، والتي يفترض ميندنهل أن أتباع عبادة يهوه قد لجأوا إليها في مطلع عصر الحديد ، كانت خالية من السكان تقريباً كما أوضحنا سابقاً . يضاف إلى ذلك أن مفهوم دولة المدينة في فلسطين باعتبارها قوة كبرى ، ذات بلاط واسع وملك مستبد حوله حاشية وأمراء ونبلاء وإدارة بيروقراطية . وجيش عرمرم ، هو مفهوم مغلوط فيما يتعلق بفلسطين ، ويعتمد على

---

٧ - فراس السواح ، أركيولوجية فلسطين والتوراة السورية ، مجلة الفكر الديمقراطي ، نيقوسيا - قبرص ، العدد الأول ١٩٨٨

سوء فهم رسائل تل العمارنة من جهة ، وعلى مقارنة دويلات فلسطين عصر العمارنة بدويلات فلسطين في عصر الحديد . فالمدن الفلسطينية كانت في واقعها أشبه بالقرى الصغيرة المسورة مقارنة بمثيلاتها في سورية ، ولم يكن أكبر هذه المدن يضم داخل أسواره أكثر من بضعة آلاف لا تتجاوز الخمسة في أفضل الأحوال . ورغم ذلك فقد كان وضع هذه المدن في عصـر الحديد أسوأ بكثيـر من وضعها في عصـر تل العمارنة ، وذلك بسبب تنـاقص السكان الناجم عن الإقتـلاع السكاني العـام ، الذي ميـز فترة الإنتقال بين البرونـز الأخيـر والحديد الأول [8]. من هنا ، فإن صورة الملك الكنعاني في دولة المدينـة الفلسطينية ، الذي يتحكم مع طبقـة النبلاء في ثروة البلاد ويمارس الظلم والإضطهاد على شرائح الفلاحين المحرومة ، هي صورة لا تتوافق مع واقع حال المنطقة وظروفها التايخية .

أما عن العنصر الروحي ، الذي كان السبب في نشوء إسرائيل وتميزها عن الوسط الكنعاني ، مما تقول به نظرية ميندنهل ونظرية كاتب هذه السطور ، كل على طريقته (يرى ميندنهل بأن الشرائح المضطهدة قد تحولت إلى ديانة يهوة التي جاءت إلى فلسطين ناجزة من الخارج ، بينما يـرى كاتب هذه السطـور في نظريتـه السابقة بأن ديانة يهوة التوراتية لم تأت ناجـزة من الخارج بل تطورت داخل المؤسسة الدينيـة الكنعانية) ، فـإن المسح الأركيولـوجي لجميع المراكـز السكنية في فلسطين من أكبر المدن إلى أصغر القرى ، لم يجد أثراً للمعتقدات والطقـوس التوراتيـة خلال كامل الفترة السابقة على السبي البابلي ليهوذا ؛ فلا هياكل للإله يهوة التوراتي ولا معـابد ولا مـذابح ، ولا نقوش تذكره بالطريقة التي تقدمه بها الأسفار التوراتية . لقد كان هناك في فلسطين إله اسمـه يهوه ، ولكنه غير يهوة إله التوراة ، لأنه يظهر في النقـوش القليلة التي ذكرته ، إلى جـانب بقية الآلهة الكنعانية مثل إيل و بعل ، وتذكر إلى جانبه زوجته المدعـوة عشيرة ، والتي كانت في النصوص الكنعانيـة الأوغاريتيـة زوجـة الإلـه إيل . ففي موقع اجـرود جنـوب فلسطين ، اكتشف المنقبـون عام ١٩٧٥ عدداً من النقـوش الكتابيـة على الفخـار تعـود إلى القـرن الثامن قبـل الميلاد ، يـرد فيها اسم الإله يهـوه بين عـدد من الآلهـة الكنعانيـة الأخـرى مثـل إيل وبعـل وعشيرة . نقـرأ في إحـدى هذه

8 - *Th . L - Thompson , Early History of the Israelite Peaole , PP . 58 - 59 .*

النقوش ما يلي : " فليباركك الإله يهـوه وعشيرته (زوجته عشيرة) ليباركك يهوه ويحفظك ويبقى إلى جانبك" . وفي نقش على الفخار من السامرة نجد أن الإله يهوه يلقّب بالعجل ، وذلك على طريقة آلهة أوغاريت . كما اكتشف في موقع السامرة حديثاً مقاماً دينياً يحتـوي على تمثال برونـزي للعجـل المقدس ، الذي يرمـز هنا على الأغلب للإله الكنعـاني يهوه[٩] . وفي مكان لا يبعـد كثيراً عن جـدار هيكل سليمان المفترض ، عثرت المنقبـة كاثلين كينيـون على معبـد كنعـاني في أورشليم يرجع بتاريخه إلى الهزيع الأخيـر من حيـاة أورشليم قبـل الدمـار البابلي ، يتصدر الحرم الرئيسي فيه نصب المازيـوت المعروف في بقيـة المعابـد الكنعانيـة ، وهـو عبـارة عن عمودين حجريين يرمـزان إلى ألـوهة الخصب . كما عثرت المنقبـة في مستودع تـابع لهذا المعبـد على عدد كبيـر من الدمى العشتاريـة التي تمثـل إلهة الخصب الكنعانيـة في وضعيتها التقليديـة المعـروفة ، التي تظهـر الإلهة ممسكة بنهديها[١٠] . وفي بقيـة مـواقع المدن الفلسطينية ، تم العثـور في المستويات العـائدة لعصر الحديد الثاني على كثير من الدمى العشتـارية في أوضـاع مختلفـة، وخصوصاً في موقـع بيت شمش حيث تظهـر الإلهـة هنا في هيئـة الحامـل مع التركيـز على البطـن الكبيـر المنتفخ [١١] .

ويبـدو لي الآن بوضوح ، أن ماكنت قد توصلت إليه في نظريتي السابقة ، التي تقول بأن المعتقد التوراتي قد تطور داخل الديانة الكنعانية ذاتها ، قد اعتمد بشكل رئيسي على النقد النصي لأسفـار التـوراة ، ودون تقييم حقيقي للبينات الأركيولـوجية المتعلقـة بالموضوع ، والتي تؤكد بما لا يدع مكاناً للشك أن المعتقـد التوراتي ، وخصوصاً كما ترسمه أسفار الأنبيـاء ، لم يكن له وجـود في فلسطين خـلال النصف الأول من الألف الأول قبـل الميلاد . ولسوف نبين في الفصـول الأخيـرة من هـذا الكتاب أسباب وكيفية نشوء المعتقـد التـوراتي خـلال القـرون الثلاثة التي تلت السبي البابلي ، ودور هذا المعتقد في تكوين الجماعة اليهودية .

---

9 - Hershel Shanks , edt , Ancient Israel , Prentice Hall , New Jersey 1988 , PP . 82 - 112
10 - Kathleen Kenyon , Digging Up Jerusalem , PP . 137 - 141 .
11 - Kathleen Kenyon , Archaeology in the Holy Land , P . 253 .

٣ ـ نظرية بوتقة الإنصهار

ترتبط هذه النظرية بشكل رئيسي بالباحث ماكسويل ميللر J . Maxwell Miller من جامعة Emory بالولايات المتحدة ، والذي تطرقنا إلى أفكاره خلال عرضنا لمسألة نصب مرنفتاح .فبعد استقصاء دقيق للوثائق الكتابية والمادة الأركيولوجية ودراسة معمقة لسفر القضاة ، توصل ميللر إلى نتيجة مفادها أن الإسم " إسرائيل" الوارد في نصب الفرعون مرنفتاح ، يشير إلى تجمع لثلاث قبائل كنعانية في منطقة الهضاب المركزية هي أفرايم ومنسي وبنيامين . وقد كانت أفرايم هي القبيلة الرائدة في هذا التجمع ، الذي ضم فيما بعد قبيلة جلعاد في عبر الأردن . كما لاحظ من دراسته لسفر القضاة ، أن التقاليد الأقدم التي بنيت عليها أحداث هذا السفر ، تربط القبائل الإسرائيلية بشكل رئيسي بمناطق الهضاب المركزية التي كانت الموطن الأساسي لهم ، وبقوا ضمن حدودها حتى تشكيل المملكة الموحدة . وقد أخذ هذا التجمع الأولي للقبائل الأربعة بالتوسع تدريجياً حتى بلغ عشرة قبائل ، وهي القبائل التي دعتها القاضية دبورة إلى القتال معها ضد يابين ملك حاصور (القضاة ٥ : ١٢ ـ ١٨) . ومع انتقال الحكم إلى الملك داود ، توسع الإتحاد القبلي ليشمل اثنتي عشرة قبيلة بينها قبيلة يهوذا الجنوبية . ويرى ميللر أن هذه القبائل جاءت من أصول مختلفة ، ودخلت الهضاب المركزية على فترات متباعدة ، من هنا فإننا لا نستطيع وضع تاريخ محدد لما يسمى بالإستقرار الإسرائيلي في كنعان . وبذلك يجدد ميللر فكرة الباحث آلت عن التسرب التدريجي عبر فترة طويلة من الزمن ، وينحّي بشكل ضمني تلك المطابقة بين ظهور الإسرائيليين في كنعان وبين عصر الإنتقال من البرونز الأخير إلى عصر الحديد . فإسرائيل كمفهوم إثني وسياسي قد نجمت عن بوتقة انصهار ضمت جماعات مختلفة ومتنوعة ، إستغرق تقاربها واندماجها فترة طويلة من الزمن ، في عملية أكثر تعقيداً بكثير من الرواية التوراتية البسيطة التي يعرضها سفر يشوع أو سفر القضاة[١٢].

12 - *J . M . Miller and A . D . H . Hayes , History of Ancient Israel and Judah , Philadilphia , Westmentster , 1986 .*

ويمكن وضع أفكار الباحث ليمش Lemche ضمن الخطوط العامة لنظرية بوتقة الإنصهار . فقد قام هذا الباحث في عمله المعنون Early Israel والصادر عام ١٩٨٥ بالمحاولة الثانية الهامة بعد آلت ، التي تهدف إلى دراسة بدايات إسرائيل بشكل مستقل عن الرواية التوراتية . وقد توصل ليمش إلى نتيجة مفادها أنه لا يوجد لدينا من الحقائق الموضوعية ما يبرر الحديث عن مفهوم إسرائيل قبل فترة المملكة الموحدة ، وبدلاً من الإعتماد على الرواية التوراتية يلجأ الباحث إلى دراسة فترة التحول من البرونز الأخير إلى عصر الحديد ، من أجل البحث عن أصول إسرائيل خلال هذه الفترة . وقد قادته دراسة نتائج علم الآثار إلى ملاحظة الاستمرارية الثقافية بين هذين العصرين اللذين وجد فيهما حلقتين متتابعتين في ثقافة كنعانية محلية لا انقطاع فيها ولا فجوات . من هنا ، فإن إطلاق صفة كنعاني على عصر البرونز وصفة إسرائيلي على عصر الحديد ليس له ما يبرره على الإطلاق ، وثنائية كنعان ـ إسرائيل لا تقوم على أساس أركيولوجي وتاريخي حقيقي . وهذا ما قاد الباحث إلى تقصي أصول إسرائيل في المصادر المحلية ، فهو يرى أن بعض الشرائح الإجتماعية المحرومة في مناطق السهول ، قد أخذت بالنزوح تدريجياً نحو الهضاب المركزية منذ عصر البرونز الأخير ، وبشكل خاص بعد فترة تل العمارنة ، وأخذت بتشكيل وحدات سياسية بدائية ، ترابطت شيئاً فشيئاً بسبب عزلتها عن طرق التجارة المحلية والدولية ، وشكلت إسرائيل . (١٣)

٤ ـ النظرية الأركيولوجية الحديثة

تعتبر هذه النظرية بمثابة الصياغة العلمية لنظرية التسرب السلمي ونظرية بوتقة الإنصهار . وتمت صياغتها على يد الأركيولوجيين الإسرائيليين المحدثين بشكل رئيسي ، مدفوعين بنظرية آلت عن الإستقرار السلمي والتسرب التدريجي . وقد ولدت النظرية كخلاصة لتفسيرات نتائج المسح الأركيولوجي الشامل لمناطق مرتفعات الجليل والهضاب المركزية ومرتفعات يهوذا ، والذي نشط فيما بين سبعينيات وتسعينيات القرن العشرين على

13 - N . P . Lemche , Early Israel , Vetus Testament Suplement , Lieden 1985 .

يد منقبين من أمثال Z . Gal و R . Frankel و A . Zertal و Finkelstein و Kochavi .
ولسوف أركز فيما يلي على تنقيبات آدم زرتال Adam Zertal في الهضاب المركزية ، والخلاصات النظرية ، التي بناها على نتائج هذه التنقيبات ، وكذلك على الخلاصات النظرية لزميله فينكلشتاين Finkelstein التي تطور خلاصات زرتال .

إختار آدم زرتال لمسحه الأركيولوجي منطقة مَنسي التوراتية التي تشكل مع منطقة أفرايم ٨٠٪ تقريباً من مساحة الهضاب المركزية . تبلغ مساحة منسي حوالي ٢٠٠٠ كم٢ ، يحدها من الشرق نهر الأردن ، ومن الغرب الطريق الدولي المعروف أيام الرومان بطريق البحر ، ومن الشمال وادي يزرعيل ، ومن الجنوب مدينة شكيم ضمناً والتي تقع على تخوم منطقة بنيامين . وقد إبتدأ زرتال العمل مع فريق موسع من الإختصاصيين في عدد كبير من العلوم المساعدة عام ١٩٧٨ ، واستمر اثنتي عشرة سنة حتى عام ١٩٩٠ . قام فريق العمل خلال هذه المدة الطويلة بمسح كل متر مربع من منطقة منسي سيراً على الأقدام ، وجمع عدداً هائلاً من المعلومات الآثارية والمعلومات الأخرى التي تعين على تفسيرها ، وذلك مثل ارتفاع الموقع المكتشف عن سطح البحر وعن المنطقة المحيطة به ، الوضع الطبوغرافي والجيولوجي للموقع ، نوعية التربة ، المحاصيل التي تزرع حوله الآن والمحاصيل التي زرعت في الماضي ، قرب الموقع إلى مصادر المياه وإلى الطرق العامة ، إطلالة الموقع على بقية المواقع الأخرى ..الخ . وفي النهاية تم الإستعانة بالحاسوب من أجل تحليل هذه الكمية الهائلة من المعلومات[١٤] .

لقد عثر فريق زرتال على ١١٦ قرية زراعية تعود إلى النصف الثاني من عصر البرونز الوسيط ، وعلى ٣٩ قرية زراعية من عصر البرونز الأخير ، وعلى ١٣٦ قرية زراعية من عصر الحديد الأول . أي أنه بعد الهبوط الحاد في منحنى الإستيطان خلال البرونز الأخير بسبب الجفاف العام ، عاد المنحنى إلى الصعود خلال عصر الحديد الأول بعد عودة المناخ المطري ، وهي الفترة المفترضة للإستيطان الإسرائيلي في الهضاب

---

١٤ ـ المعلومات التي أقدمها هنا عن نتائج تنقيب زرتال وأفكاره مستمدة من دراسته المنشورة في مجلة علم الآثار التوراتي عام ١٩٩١ ، انظر :
- *Adam Zertal , Israel Inters Canaan , Biblical Archaeology , September 1991 .*

المركزيــة. كما تبين من تحليل المعلــومات أن معظم مواقع عصر البرونــز الوسيط وعصر البرونــز الأخيــر كانت متوضعة في المناطق الأكثر خصوبــة من الهضاب المركزيــة ، مثل الأوديــة التي يسيل فيها ماء المطر ،أما معظم مواقع عصر الحديد فكانت متوضعة في المناطق المرتفعة ذات الطبيعــة الصعبة والتربة القليلة الخصوبة . وإضافة إلى ذلك ، فقد لاحظ زرتــال أن أولى المواقع التي ظهرت في الهضاب المركزية قد توضعت في وادي الأردن والمنحــدرات الشرقية للهضاب ، ومع التقدم زمنياً في عصرالحديد الأول تأخذالقرى الجديدة بالظهور أعمق فأعمق نحو الغرب ، معتمدة في زراعتها على القمح والشعير . وفي آخر مراحل الإستيطان خلال القرن الحادي عشر يأخذ القرويون باستصلاح المنحدرات وتسوية المدرجات التي تصلح لزراعة المحاصيل المتوسطية كالكرمة والزيتون .

وبما أن المنقب زرتال يفترض مسبقاً بأن القرى الجديدة في منطقة الهضاب المركزية هي قرى إسرائيليــة ، فإنه يفسر ظهــورها أولاً في المناطق الأقــل خصــوبة بوجود الكنعانيين في المناطق الخصيبة ، وهذا مادفع القادمين الجــدد إلى الإستقــرار في المناطق غير المملــوكة من قبل أحد . كما أنــه يفسر سبب ظهــور القرى الأولى في المنحــدرات الشرقيــة للهضاب المركزيــة ثم زحفها التدريجي نحــو الأعلى وصــولاً إلى المناطق المرتفعــة ، بأن القادمين الجــدد قد جــاءوا من المناطق الرعــوية في شرقي الأردن ، وبدأوا الإستقــرار التدريجي في وادي الأردن والمنحــدرات الشرقيــة ثم تغلغلــوا نحو الداخل . كما يــرى زرتــال بأن المجموعتين الكنعانيــة والإسرائيليــة كانتا متعايشتان بشكل سلمي في المنطقــة ، وأن الكنعانيين القــدمــاء في الأرض قــد سمحــوا للإسرائليين بالإستقــرار في المناطق البعيــدة منهم وبنــاء قراهم الجديدة . وذلك أن المناطق التي شغلها القادمــون الجــدد كانت عديمــة المصــادر المائيــة الطبيعيــة ، وكان أهلها مضطــرون لجلب الماء من مناطق الكنعانيين البعيدة بالاتفاق معهم . أما عن كيفية جلب هذه المياه وطريقــة خزنها ، فإن زرتــال يعتقــد بأن تلك الجــرار الضخمــة التي وجــدت في المواقــع الإسرائيليــة الأولى ، والتي تشكل الجــزء الأكبــر من المكتشفــات الفخــاريــة في هذه المواقــع ، قد استخدمت لهــذه الغــايــة ويدعم هــذا الإستنتــاج في رأيــه أن هــذا النــوع من الجــرار الضخمــة قــد بدأ

بالإختفاء مع حلول عصر الحديد الثاني ، وشيوع استخدام الأدوات الحديدية ، من معاول وغيرها ، والتي ساعدت سكان المناطق المحرومة من المياه على حفر خزانات مكشوفة واسعة في الصخر ، من أجل تخزين مياه المطر في الشتاء واستخدامها في الصيف .

وقد قام المنقب كوشافي من ناحيته باختيار منطقة أفرايم التوراتية في الهضاب المركزية ، واستطاع مع فريقه المؤلف على طريقة فريق آدم زرتال ، وباستخدام نفس التقنيات الأركيولوجية ، اكتشاف مئة قرية زراعية ظهرت تدريجياً خلال عصر الحديد الأول في منطقة أفرايم [١٥]. وبذلك يصل عدد القرى الزراعية ، التي قامت في الهضاب المركزية فيما بين ١٢٠٠ و ١٠٠٠ ق.م ، إلى ٢٣٠ قرية جديدة ، بعد فترة الفراغ السكاني خلال النصف الثاني من عصر البرونز الأخير . ويتفق كوشافي مع زرتال في الخطوط العامة للتفسير معتبراً أن القرى الجديدة هي قرى إسرائيلية ، وأن الجماعات التي شكلتها هي جماعات رعوية زحفت تدريجياً من مناطق شرقي الأردن . غير أن الأركيولوجي الإسرائيلي المعروف I . Finkelestein ، الذي قام بتلخيص نتائج المسح الأركيولوجي للمنطقة الهضبية في فلسطين في كتاب شامل اسماه : أركيولوجية المواقع الإسرائيلية ، يرى أن المواقع الجديدة في الهضاب المركزية هي بالفعل مواقع إسرائيلية ، ولكن من شكلوها لم يأتوا من خارج فلسطين بل من داخلها . فقد أدى الجفاف ، الذي حل بالمنطقة خلال عصر البرونز الأخير إلى اقتلاع شامل للسكان في منطقة الهضاب المركزية ، وحولهم إلى رعاة متنقلين . وعندما عاد المناخ المطري سيرته الأولى عادت هذه الجماعات المقتلعة إلى مواطنها السابقة واستقرت فيها [١٦] . وبذلك يعمل فنكلشتاين على تجذير القبائل الإسرائيلية في المنطقة ويؤكد على الطابع الإثني المستمر والمتميز لهذه الجماعات ، التي شكلت إسرائيل فيما بعد .

لقد أراد أصحاب النظرية الأركيولوجية الحديثة إنقاذ ما تبقى من السمعة

---

١٥ ـ عن تقرير للمنقب الاسرائيلي كوشافي . انظر :

- *Joseph A . Callaway , op . cit , p . 71 .*

16 - Th . L . Thompson , op . cit , P . 160 .

التاريخيـــة للروايـــة التوراتيـــة ، عن طـــريق إثبات ـجـ هـ الروايـــة وإسقاط جميع تفاصيلها ولكن النتـــائج التي خـــرجوا بها قـد دقت ، والى الأبد ، المسمار الأخير في نعش هذه الرواية بجوهرها وجميع تفاصيلها،وقدمت لنا المادة اللازمة لكتابة تاريخ فلسطين في عصر الحديد الأول والثاني ، ودراسة مسألة أصول إسرائيل ، بشكل علمي مستقل عن التوراة . وهذا ما قام به على أكمل وجه وجه الباحث توماس .ل . تومبسون في كتابه الصادر عام ١٩٩٢ تحت عنوان The Early History of the Israelite People . وسوف نشير الى أهم أفـكار هـذا الباحث في مـواضع الإستفـادة منها عبـــر الصفحات المقبلة من هذا الكتاب .

الفصل الثاني

إسرائيل التاريخية

لقد غدا من نافلة القول ، اليوم ، الحديث عما يسمى " بكل إسرائيل" ككيان إثني أوسياسي ، في سياق عصر الحديد الأول . والإسم "إسرائيل" لا يمكن إطلاقه على أي إقليم في فلسطين قبل حلول عصر الحديد الثاني . وحتى هنا ، فإننا لا نستطيع إطلاق اسم إسرائيل إلا على الدولة الاقليمية المعروفة بدولة السامرة ، وهي الدولة التي أقامها الملك عُمري عقب بنائه مدينة السامرة حوالي عام ٨٨٠ ق.م . إن كل ما بين أيدينا من معلــــومات كتابية وأركيولوجية موثقة ينفي وجود أية استمرارية إثنية وسياسية بين الإسم " إسرائيل " المذكور في نصب مرنفتــاح ، ومملكــة إســرائيل بعاصمتها السامــرة ، التي قــامت في منطقة الهضاب المركـــزية خـــلال القرنين التاسع والثامن قبـــل الميـــلاد ، وهي مملكـــة موصوفة في التوراة وفي النصوص الآشوريـــة على حد سواء . وقد ألمحنا في موضع سابق من هذا الكتاب الى أن نص الفرعون شوشانق (شيشق التوراتي) الذي يصف حملته على فلسطين ومناطق الجنوب السوري ، خلال أواخر القرن العاشر قبل الميلاد ، وهي حملة موجهة أساساً الى طرق التجارة الدولية ، لا يشير إلى وجـــود مملكة قـــوية موحـــدة تحت لــواء أورشليم أو أيـــة مدينـــة أخـــرى في فلسطين . ونستـــدل من وجـــود بقـــايـــا نصب تـــذكاري أقامـــه الفرعـــون شوشـــانق في موقـــع مجـــدو بـــوادي يزرعيل شمـــالاً [١]، ومن عـــدم ذكـــر مدينـــة أورشليم أو أيـــة مدينـــة أخـــرى في يهـــوذا أو الهضـــاب المركـــزية ، أن هذه المناطق الهامشية في فلسطين لم تستـــرع انتبـــاه الفرعـــون شوشانق ، الذي كان مهتماً بالدرجـــة الأولى بتدعيم الوجـــود المصري في مناطقه التقليديـــة السابقة . كما ألمحنا أيضاً ، إلى أنه بصرف النظـــر عن تلك الإشـــارة الغامضة إلى

---

1 - Jamer Pritchard , Ancient Near Eastern Texts , op . cit , PP . 263 - 264 .

إسرائيل في نصب مرنفتاح ، والتي يجمع المؤرخون اليوم عن عدم صلتها بإسرائيل التوراتية ، فإن النصوص المصرية عبر التاريخ لم تتعرض لذكر إسرائيل في أية صورة أو أية صيغة . أما النصوص الآشورية ، التي ساعدت المؤرخين المحدثين على رسم الخارطة السياسية والبشرية لمنطقة الشرق القديم خلال عصر الحديد ، فلم تذكر الإسم " إسرائيل" إلا في أواسط القرن التاسع قبل الميلاد ، وفي معرض الإشارة إلى دولة السامرة تحديداً . وأما مملكة يهوذا فلم يرد ذكرها في الوثائق الآشورية إلا مع أواخر القرن الثامن قبل الميلاد.

وأما الحديث عن كنعان باعتبارها نقيض إسرائيل والخلفية العامة التي ميزت إسرائيل نفسها عليها ، فيمت إلى ماضي البحث التاريخي و إلى نظريات تعتمد مسلمات لم تخضع للنقد والتمحيص . فعصر البرونز الأخير ليس كنعانياً أكثر من عصر الحديد ، وعصر الحديد ليس إسرائيلياً في مقابل عصر البرونز الكنعاني . ذلك أن المكتشفات الأثرية في العصرين تعطينا صورة ثقافة فلسطينية مستمرة ، واحدة ، وغير منقطعة أو متلونة بلون خارجي غريب عليها . وكل المدن التي تهدمت خلال الفترة الإنتقالية بين العصرين قد أعيد بناؤها وسكنها من قبل نفس الذخيرة السكانية الفلسطينية . وهذا ما ينفي وبشكل قاطع قدوم أقوام جديدة حلت محل السكان الأصليين ، أو أقامت إلى جانبهم وأثرت فيهم ثقافياً وعرقياً . إن لجوء الآثاريين الإسرائيليين وزملائهم من الملتصقين بالمنهج المحافظ القديم ، إلى استخدام وصف كنعاني لكل ما يمت إلى ثقافة عصر البرونز ، واستخدام وصف اسرائيلي لكل ما يمت إلى عصر الحديد ، لا يصدر إلا عن موقف متعنت . وهؤلاء أنفسهم لا يستطيعون تقديم أي معيار علمي موضوعي للتفريق بين الأثر الكنعاني من عصر البرونز والأثر الإسرائيلي المزعوم من عصر الحديد ، سواء في حقل الخزفيات أو الفنون التشكيلية أو الفنون المعمارية ، وحتى في مجال اللغة والدين وما إلى ذلك من النواتج التجريدية للثقافة الفلسطينية .

إن كل ما في حوزتنا حتى الآن ، وهو كثير بفضل تراكم المعلومات الآثارية خلال ربع القرن الماضي ، ينفي وبشكل قاطع أي وجود لإسرائيل التوراتية خلال عصر الحديد الأول . فبناءً على الرواية التوراتية ، يتفق المؤرخون التقليديون على أن مملكة شاؤل قد قامت

حوالي عام ١٠٢٠ ق.م وضمت القبائل الشمالية المدعوة بالإسرائيلية ، ثم قامت مملكة داود وسليمان فيما بين ١٠٠١ و ٩٣١ ق.م ، التي شملت مطقة يهوذا الجنوبية إلى جانب منطقة إسرائيل ، فيما يدعى بالمملكة الموحدة لكل إسرائيل ، ثم انقسمت بعد ذلك الى مملكتين . إلا أن الصورة العامة التي قدمها لنا المسح الأركيولوجي الشامل عن عملية استيطان الهضاب المركزية وتطور هذه العملية خلال الحديد الأول ، تظهر لنا أن الإستبطان لم يبلغ ذروته إلا في سياق الحديد الثاني ، الأمر الذي لا يسمح لنا بإفتراض قيام مملكة لإسرائيل في الشمال قبل بدايات القرن التاسع قبل الميلاد . كما أن هناك من الأسباب ما يدعونا لأن ننفي أكثر ، قيام مملكة يهوذا في الجنوب خلال الفترة نفسها ، لأن حركة الإستيطان هنا لم تنضج إلا بعد فترة لا بأس بها من تشكيل مملكة إسرائيل ـ السامرة ، والأوضاع الملائمة لتكوين مملكة في يهوذا لم تتوفر إلا في سياق القرن الثامن .وهذه الحقائق تنفي وجود قاعدة مشتركة تجمع إسرائيل إلى يهوذا في تكوين إثني وسياسي.

إن أسرة الملك عمري التي بنت مدينة السامرة ، هي الأسرة التي شكلت ولأول مرة دولة أسمها إسرائيل . وهذه الأسرة معروفة تاريخياً وملوكها موصوفون في النصوص الآشورية ، إلا أننا لا نملك الأساس التاريخي الذي يمكننا من عقد صلة بين ملوك السامرة هؤلاء والملوك المزعومين للملكة الموحدة ، أو الإفتراض بأن هذه المملكة الموحدة هي الأصل التاريخي لإسرائيل السياسية . فمع بناء السامرة فقط ، يتوفر لدينا من الوثائق التاريخية والأركيولوجية ما يكفي للحديث عن اسرائيل التاريخية ، ولكن بصيغة " دولة إسرائيل " أو " دولة السامرة" ، وهي دولة فلسطينية محلية أنشأها الملك عمري حوالي عام ٨٨٠ ق.م واستمرت أقل من قرنين من الزمان ، حيث دمرها الآشوريين حوالي عام ٧٢١ ق.م وسبوا أهلها إلى آشور . وهؤلاء المسبيون لم يرجعوا قط إلى مواطنهم في فلسطين ، بل ذابوا عرقياً بين الجماعات التي أقاموا بين ظهرانيها . أما قبل صعود أسرة عمري وبناء مدينة السامرة ، فإنه من العبث التحدث عن اسرائيل سياسية أو إثنية في المنطقة ، ومفهوم " كل إسرائيل" هو نتاج التقاليد التوراتية المتأخرة ، والتي بنيت أساساً على وجود تاريخي لإسرائيل ـ السامرة ، وليس العكس .

إن المنظور الضيق لخلاصات الباحث الإسرائيلي فينكلشتاين ، وغيره من أصحاب النظرية الأركيولوجية الجديدة ، والذي تم تحديده زمنياً بعصر الحديد الأول ، وجغرافياً بمنطقة

الهضاب المركـزية ،في سياق بحثه عن أصول إسرائيل ، هو منظور منحرف الرؤية ؛ فنحن لا نستطيع أن نحصر بحثنا وتحليلنا في هذه المرحلة وفي هذه المنطقة فقط، لأننا نكون بذلك قد سلمنا مسبقاً بجواب السؤال الذي نبحث عنه . وفي الحقيقة فإن عنوان كتاب فنكلشتاين نفسه ، أي " أركيولوجية المواقع الإسرائيلية " ، يدل على أن الباحث يسلم منذ البداية بأن القرى الزراعية التي نشات في الهضاب المركزية هي قرى إسرائيلية ، وأن إثنية هذه التجمعات وأصلها العرقي والثقافي هو أمر مفروغ منه . وذلك في الوقت الذي يطلعنا فيه المسح الأركيولوجي للمناطق الفلسطينية الأخـرى ، على أن القـرى الجديدة في عصر الحديد الأول لم تكن وقفاً على الهضاب المركـــزية بل شملت أيضاً مناطق أخـــرى وخصوصاً في المناطق الساحلية ووادي يزرعيل [٢]. فلماذا تكون قرى الهضاب المركزية اسرائيلية وقرى السهول كنعانية ؟ أما اقتراح فنكلشتاين بأن أصول الجماعـــات الجديدة في الهضاب المركزية يجب تتبعها في الرعوية الفلطسينية المحلية ، وأن أهل القرى الجديدة هم مزارعو الهضاب المركزية في عصر البرونز الوسيط ممن مروا بفترة رعوية طويلة خلال عصر البرونز الأخير بسبب الجفاف ، فإقتراح يبدو جذاباً للوهلة الأولى ، غير أنه إقتراح نظري محض ولا يقوم على أساس أركيولوجي أو تاريخي متين ، ودافعه الوحيد هو رغبة هذا الباحث في التوكيد على الإستمرارية الإثنية في منطقة الهضاب المركزية بإعتبارها إثنية إسرائيلية.

إن الفترة الإنتقالية ، التي جلبت معها انهيار البنى الإقتصادية لفلسطين ، قد أحدثت تغييراً جذرياً في استراتيجيات تحصيل المعاش ، حيث تحول الإقتصاد المتوسطي التقليدي المعتمد على إنتاج سلع التبادل النقدي مثل الكرمة والزيوت والخمور ، الى اقتصاد الكفاف وهو اقتصاد أقل استقراراً ويقوم على زراعة الحبوب وعلى الرعي . وقد أدى هذا التحول إلى اقتلاع عدد كبير من السكان من مناطقهم التقليدية ودفعهم إلى البحث عن مناطق اخرى . فإذا أخذنا بعين الإعتبـار وضع فلسطين المتاخم لمنطقة السهوب ، وكذلك الإقتلاع السكاني الذي حدث خارج فلسطين أيضاً ، في المناطق المجاورة وفي منطقة عالم المتوسط بشكل عام خلال منقلب الألفية الأولى قبل الميلاد ، فإن دولتي إسرائيل ويهوذا ، اللتين نشأتا خلال عصر الحديد الثاني كجزء من النظام العالمي للإمبراطورية الآشورية ، قد ضمتا إليهما

2 - Th . L . Thompsan , Early History of the Israelite People , P . 220 .

عدداً من الجماعات الزراعية المحلية ، التي تبحث عن بديل لوضعها المتدهور في مناطق السهول والوديان ، وكذلك عدداً من الجماعات الرعوية من السهوب الواقعة الى الجنوب والشرق من المناطق الزراعية ، وأيضاً جماعات مقتلعة من مواطنها في أماكن بعيدة من حوض المتوسط . ونظراً لوضوح الإستمرارية الثقافية من عصر البرونز الأخير إلى عصر الحديد الأول فالثاني ، فإن القسم الأكبر المكون للتركيب السكاني للمناطق الهضبية يجب أن يكون قد جاء من المناطق الفلسطينية الزراعية الأخرى ، لأن الجماعات الرعوية المتنقلة ليست ناقلا جيداً للثقافة[3].

وهذا يعني أن المنطقة التي كانت نواة مملكة إسرائيل ، لم تكن ذات طابع إثني مميز مع بداية عودة الإستيطان إلى الهضاب المركزية ، ومفهوم إسرائيل لم يكن له وجود . ثم بدأ التكوين الإثني بالتوضح في سياق عملية التوطن خلال عصر الحديد الأول . ذلك أن توطيد التبادل التجاري المحلي ، قد أدى تدريجياً إلى تشكيل بنى سياسية بدائية على شكل عشائر تقاربت تدريجياً ، ثم قادت المركزية السياسية المتزايدة ، والتي أملتها الشروط المتعلقة بإدارة نظام إقتصادي دخل مرحلة الإزدهار ، إلى تكوين الدولة وبناء مدينة السامرة . وبذلك يكون الطابع الإثني لمنطقة إسرائيل ، قد جاء نتيجة عملية معقدة وطويلة ، ولم يكن سابقاً عليها . وهذا يعني أن استخدام مصطلح إسرائيل للدلالة على أرض أو على شعب أو على تكوين سياسي ، لا معنى له قبل ظهور دولة اسرائيل السياسية في مطلع القرن التاسع ، ولا معنى له بعد دمارها النهائي عام ٧٢١ ق.م[4].

وفيما يتعلق بيهوذا ، فقد شهدت المنطقة خلال القرن العاشر وأوائل القرن التاسع قبل الميلاد تحولاً من اقتصاد محصور بالرعوية الى اقتصاد القرية . وخلال القرنين التاليين ، أي التاسع والثامن قبل الميلاد ، شهدت هضاب يهوذا ازدياداً متسارعاً في السكان أدى الى توضيح بنيتها السياسية كمنطقة موحدة . و قد ساعد على ذلك تركيز المزارعين على الزراعة المكثفة ، واعتماد شبكة تجارة محلية ودولية موضوعها منتجات التبادل النقدي مثل الزيوت والخمور والأخشاب وغيرها . أما مدينة أورشليم ، فلم تكن في مطلع عصر الحديد الثاني (١٠٠٠ق.م) سوى بلدة متواضعة بمقياس ذلك العصر ، ولم يكن لها نفوذ إلا على المنطقة الزراعية الصغيرة المحيطة بها . وقد أخذ

---

3 - Th . L . Thompsan , op . cit , p324 .
4 - Ibid , p . 327 .

النفوذ السياسي للمدينة بالتزايد مع توسع عملية الإستيطان في تلال يهوذا في سياق عصر الحديد الثاني ، وزيادة حجم الإنتاج الزراعي الحيواني ، وتوسع عملية التبادل التجاري . فصارت أورشليم مركزاً لتسويق السلع التجارية ، وأخذت تبسط سلطتها السياسية على قرى منطقة يهوذا ، التي لم تخضع حتى ذلك الوقت إلى سلطة مركزية ، ثم دخلت في منافسة حادة مع مراكز حضرية مهمة أخرى في الجنوب ، مثل جازر ولخيش وحبرون . إلا أن أورشليم لم تأخذ وضع الدولة الإقليمية القوية فعلاً ، قبل الربع الأخير للقرن الثامن قبل الميلاد . وقد ساعدها على تحقيق هذا الوضع دمار مدينة السامرة عاصمة إسرائيل ودمار لخيش في الجنوب ، فاستوعبت المهاجرين من المناطق المنكوبة وتزايد عدد سكانها بشكل ملحوظ ، وتشكلت فيها نخبة اجتماعية وسياسية مسيطرة ، ومال مجتمعها من البساطة نحو التركيب والتمايز الطبقي . وفي هذا الوقت بالذات يمكن أن نتصور بناء معبد كبير على تلك الدرجة من الفخامة والأبهة الموصوفة في سفر الملوك الأول . إن تزايد ثروة أورشليم وإزدهار أوضاع النخبة فيها ، وتزايد تداخلها في سياسة التجارة الدولية ، قد أدى أخيراً الى صدامها مع آشور ، ثم الى دمارها فيما بعد على يد البابليين عام ٥٧٨ ق.م [٥] .

إعتماداً على كل ما قدمناه حتى الآن ،نستطيع تلخيص ما توصلنا إليه حول إسرائيل التوراتية وعلاقتها بإسرائيل التاريخية بالنقاط التالية:

١ - إن النقد النصي والتاريخي والأركيولوجي لروايات الآباء والخروج ، قد أوصلنا إلى القول بكل ثقة علمية بأن جميع الوقائع تنفي نفياً قاطعاً وجود كيان إثني اسمه " كل إسرائيل " خلال أية فترة من عصر البرونز الوسيط أو عصر البرونز الأخير ، وصولاً إلى مطلع عصر الحديد الأول حوالي ١٢٠٠ ق.م .

٢ - إن الشواهد الأركيولوجية من الفترة الإنتقالية من عصر البرونز الأخير إلى عصر الحديد ، تنفي نفياً قاطعاً رواية سفر يشوع عن الإقتحام العسكري لأرض كنعان . ذلك أن نتائج التنقيب الأثري في مواقع المدن التي يعزو النص التوراتي تدميرها إلى يشوع ، تُظهر عدم تطابق تاريخ دمار معظم هذه المدن مع التاريخ المفترض لقدوم الإسرائيليين إلى كنعان . أما المواقع التي يتزامن تاريخ الدمار فيها مع قدوم الإسرائيليين ، فإن الشواهد الأثرية الصامتة لا يمكن أن ترجح رواية سفر يشوع ، بسبب وجود العديد من المرشحين لتدمير هذه المدن

5 - *Ibid* , *PP* . 332 - 334 .

خلال تلك الفترة ، وخصوصاً الفرعون مرنفتاح وشعوب البحر . ومن ناحية ثانية ، فإن المواقع المهدمة التي أعيد بناؤها في سياق عصر الحديد الأول ، تظهر ارتباطاً عضوياً بثقافة البرونز الأخير.

٣ ـ إن نتائج المسح الأركيولوجي الشامل لمنطقة الهضاب المركزية ولمنطقة مرتفعات يهوذا ، في المستويات الأثرية العائدة لعصر الحديد الأول ، تنفي نفياً قاطعاً ظهور مجموعة إثنية واحدة في كلا المنطقتين خلال الفترة المفترضة لعصر القضاة والإستقرار في الأرض . فالقرى التي ظهرت بشكل بطيء في الهضاب المركزية خلال عصر الحديد الأول كانت قرى كنعانية من أصل زراعي محلي ، مرتبطة ثقافياً بعصر البرونز الأخير ، ولا علاقة لها بالقبائل الرعوية التوراتية . وقد سبق استيطان منطقة الهضاب المركزية الإستيطان في منطقة يهوذا بحوالي قرنينن من الزمان ، الأمر الذي ينفي وجود قاعدة مشتركة بين المنطقتين ، كما ينفي قيام كيان إثني يشتمل على " كل إسرائيل" خلال فترة عصر القضاة التي تغطي كامل فترة الحديد الأول .

٤ ـ لم يتوفر خلال القرن العاشر قبل الميلاد الأساس السكاني والإقتصادي اللازم لقيام مملكة قوية في الهضاب المركزية أو مرتفعات يهوذا ، ناهيك عن قيام مملكة موحدة متسعة الأرجاء بسطت سلطانها على كامل أراضي فلسطين . فإضافة إلى الفقر المدقع لقرى الهضاب المركزي المبعثرة ، فإن منطقة يهوذا كانت شبه خالية من السكان ، وأورشليم كانت بلدة متواضعة وغير صالحة لأن تكون عاصمة للمملكة المذكورة في التوراة .

٥ ـ لا يوجد ذكر لكيان سياسي اسمه إسرائيل في جميع وثائق الشرق القديم قبل أواسط القرن التاسع قبل الميلاد (أي بعد أكثر من قرن على تشكيل مملكة كل إسرائيل التوراتية) عندما بدأ اسم إسرائيل يظهر في السجلات العسكرية الآشورية ، وللدلالة حصراً على مملكة السامرة ، التي تشكلت تاريخياً حوالي عام ٨٨٠ ق.م . وكذلك الأمر في مملكة يهوذا ، التي لم يرد ذكرها في السجلات الآشورية إلا نحو نهاية القرن الثامن قبل الميلاد ، وعندما بدأت مملكة اسرائيل بالأفول .

٦ ـ لا يوجد في وثائق الشرق القديم ذكر لكيان سياسي اسمه إسرائيل بعد دمار مملكة السامرة على يد الآشوريين عام ٧٢١ ق.م ، وسبي أهلها الذين لم يرجعوا إلى أوطانهم قط. أما المقاطعة الآشورية التي قامت في الهضاب المركزية بعد سبي الإسرائيليين وإحلال أقوام

جديدة محلهم فقد دعيت بمقاطعة السامرة ، واستمرت تدعي بهذا الاسم خلال العصر الفارسي والهلينستي والروماني . وفيما يتعلق بمنطقة يهوذا فقد أُطلق عليها اسم مقاطعة اليهودية بعد عودة المسبيين اليها من بابل . واستمر هذا الاسم قائماً حتى العصر الروماني.

٧ ـ لا يوجد أثر للمعتقد الديني التوراتي في منطقتي إسرائيل ويهوذا،وفي بقية أنحاء فلسطين ، خلال الفترة السابقة على السبي البابلي ، والديانة التي سادت هنا هي ديانة كنعانية تقليدية . إن جميع المعابد والمقامات الدينية وتماثيل وشارات الألوهة مما كشفت عنه التنقيبات في المستويات الأثرية العائدة إلى عصر الحديد الأول والثاني ، تشير إلى استمرار طبيعي للمعتقدات الدينية لعصرالبرونز في فلسطين . أما الإله يهوه ، الذي تركز حوله المعتقد التوراتي فيما بعد ، فقد كان على ما يبدو المعبود الرئيسي في السامرة ويهوذا إلى جانب آلهة البانثيون الكنعاني الفلسطيني .

ولعل أوضح برهان على ما أسوقه هنا ، هو مخطوطات جزيرة الفيلة التي اكتشفت في الجزيرة المدعوة بهذا الاسم عند منطقة أسوان بمصر العليا . فلقد عاش في هذه الجزيرة ، التي تتوسط النيل جالية من منطقة يهوذا منذ مطلع القرن السادس قبل الميلاد ، عمل أفرادها كمرتزقة في الجيش المصري فترة طويلة قبل أن يستقروا مع أسرهم في هذه المنطقة النائية عن فلسطين . وقد حافظت هذه الجالية على عاداتها وتقاليدها ومعتقداتها السابقة لتكوين المعتقد التوراتي وتركت لنا عدداً من الوثائق الكتابية باللغة الآرامية يرجع تاريخها إلى الفترة الواقعة بين عامي ٤٩٥ و ٣٩٤ ق.م ، وهي ذات الفترة التي شهدت إعادة سكن أورشليم وبناء هيكل زربابل المدعـو بالهيكل الثاني . وتضم المخطوطات المكتشفة وثائق تجارية وعقود زواج ، ومراسلات بين رئيس الجالية المدعو جيدانية وعدد من الشخصيات السياسية في فلسطين . وقد قدم الباحث الإسرائيلي Bazalel Borten من الجامعة العبرية أحدث قراءة لهذه المخطوطات ونشرها تباعاً فيما بين عامي ١٩٦٨ و ١٩٧٩ في عدد من الكتب والأبحاث العلمية [٦] . وتطلعنا المخطوطات على أن جالية جزيرة الفيلة هذه ،قد بنت هيكلاً لإلهها الرئيسي المدعو ياهو (= يهوه) ، وذلك منذ بدايات استقرارها في الجزيرة . وعندما تهدم الهيكل قام رئيس الجماعة جيدانية بالكتابة الى الحاكم الفارسي لمنطقة اليهودية طالباً عونه المادي على بناء هيكل ياهو ، الذي اعتبره نظيراً لهيكل زربابل في أورشليم ، كما كتب

6 - J . D . Purvis , Exile and Returne (in : Hershel Shanles ,Ancient Israel , PP . 164 - 165 .

حول نفس الموضوع إلى حاكم منطقة السامرة . وهناك رسائل أخرى بعث بها جيدانة هذا إلى كهنة أورشليم يستعلم منهم عن بعض القضايا الطقسية والسنن الدينية . الأمر الذي يدل بوضوح على أن جماعة جزيرة الفيلة كانت ترى في معتقدها وطقوسها استمراراً طبيعياً للمعتقدات والطقوس المعروفة في يهوذا . إلا أن هذه المعتقدات والطقوس كما تبدو في مخطوطات الفيلة لا تمت إلى الدين التوراتي بصلة ، فالإله ياهو رغم علو مكانته ليس الإله الأوحد للجماعة ، بل تظهر إلى جانبه زوجته التي تشير اليها المخطوطات باسم عنات ياهو ، والتي ظهرت في النقوش الكتابية من فلسطين تحت اسم عشيرة أو عشيرة يهوه . كما تذكر المخطوطات اسماء آلهة أخرى مثل إيشيم وبت إيل وعناة ـ بت ايل وغيرهم . وبما أن الجالية في جزيرة الفيلة قد سمحت لنفسها بطلب المعونة من سكان يهوذا والسامرة من أجل إعادة بناء هيكل ياهو ، وتشاورت مع رجال الدين هناك حول مسائل دينية مشتركة ، فإن الإستنتاج المنطقي الذي يطرح نفسه ، هو أن ديانة يهوه في فلسطين لم تكن حتى ذلك الوقت المتأخر قد اكتسبت الشكل التوراتي بعد ، وأنها ما زالت في طور التشكل على أيدي كهنة أورشليم بعد العودة من المنفى .

إن خلاصة ما يمكن قوله فيما يتعلق بإسرائيل ويهوذا التاريخيتين ، هو أن هاتين الدولتين قد نشأتا تباعاً في فلسطين كجزء من النظام العالمي للإمبراطورية الآشورية ، ثم دخلتا في صراع مرير إبان فترة صعود مدينة أورشليم ، من أجل السيطرة التجارية والسياسية على منطقة فلسطين وشرقي الأردن . وقد واجهت كل منهما منفردة وعلى طريقتها الخاصة المد التوسعي لكل من مملكة آرام دمشق ، التي نشأت خلال نفس الفترة ، ومملكة آشور . وبما أننا لا نستطيع فهم مسار حياة هاتين الدولتين والأحداث التي قادت إلى دمارهما ، إلا من خلال علائقهما مع دمشق وآشور ؛ القوتين العظميين في ذلك الوقت ، فإننا سوف نعمد في القسم الثاني من دراستنا هذه إلى تقصي تاريخ إسرائيل ويهوذا من خلال تشابك هذا التاريخ محلياً مع تاريخ دمشق ودولياً مع النظام العالمي الآشوري . وسيكون اعتمادنا بالدرجة الأولى على النصوص التاريخية الآشورية ثم الآرامية ، وبالدرجة الثانية على أخبار ملوك يهوذا والسامرة في سفري الملوك الأول والثاني ، وذلك بعد نقدها وتمحيصها ومقارنتها

بالمصـــادر الخارجيـــة من أجـــل فـــرز الخيالي عن الواقعي فيها . وسنبتديء أولاً برسم الصـــورة التاريخيـــة لصعـــود مملكـــة دمشق ، وتكوينها لإمبراطوريـــة سوريـــة غير معلنـــة ضمن مناطق غربي الفرات تحت قرار سياسي واحد يتخذه ملك آرام المقيم في دمشق .

الفصل الثالث

الآراميون

والخلفية التاريخية العامة لصعود دمشق

الآراميون

لا يوجد مكان تعايشت فيه الثقافة البدوية مع الثقافة الحضرية ، وتبادلتا الاعتماد على بعضهما البعض ، مثل منطقة الهلال الخصيب . فمنذ العصر النيوليتي كان سكان المنطقة يتبادلون الأدوار ، حيث يتحول الرعاة إلى مزارعين مستقرين كلما مال المناخ نحو الرطوبة والبرودة ، ويتحول المزارعون المستقرون إلى رعاة كلما جف المناخ وعز المطر . ولعل التفسير الأقرب الى الصواب لظاهرة الهجران المفاجىء للقرى الزراعية النيوليتية في بعض أحقابها ، وخلوها من السكان دون شواهد على حدوث تدمير متعمد أو زلازل وحرائق في مواقعها ، هو ذلك التفسير الذي يرى في تلك الظاهرة نتاجاً لتحول مناخي دفع السكان الى ترك الزراعة والتجول مع قطعانهم بحثاً عن المرعى ، ثم العودة إلى مواقعهم السابقة أو الإستقرار في غيرها مع عودة الشروط الملائمة للزراعة مجدداً .

وقد بقي القوم على هذا الحال ، حتى بعد ظهور المدن وارتقاء الحضارات الكبرى في المنطقة . ولعل أكبر مثال على التحول الجمعي لثقافة بأكملها ، تقريباً ، من حياة القرية الزراعية وحياة المدن الكبرى الى حياة الرعي المتنقل أو البداوة ،هو ماحدث في مناطق بلاد الشام خلال الفترة الإنتقالية من عصر البرونز المبكر إلى عصر البرونز الوسيط (أي فيما بين أواخر الألف الثالث وأوائل الألف الثاني قبل الميلاد) . فخلال هذه الفترة انتهى المناخ المطري البارد الذي ساد المنطقة منذ أواسط الألف الرابع قبل الميلاد ، وتبعه مناخ حار وجاف أدى إلى انهيار شامل لثقافة عصر البرونز المبكر ، فانهارت المملكة القديمة في مصر و إمبراطورية

أكاد في وادي الرافدين ، وفي المناطق السورية هُجرت، معظم القرى الزراعية والكثير من المدن التي تقع في المناطق الحساسة للجفاف ثم تحولت بعد فترة إلى أطلال . وقد عثر المنقبون في مواقع هذه المدن المهدمة خلال أواخر عصر البرونز المبكر ، وخصوصاً في منطقة فلسطين ، على آثار واضحة تشير إلى قيام حياة بدوية على أطراف المدن القديمة ،فظنوا أن هؤلاء البدو هم المسؤولين عن ذلك التدمير . وفي الحقيقة ، فإن ما لاحظه المنقبون لم يكن سوى ظاهرة عادية ومألوفة في سياق حضارة الشرق القديم ، حيث تحل البداوة محل الحضـارة وتنتقل هذه إلى تلك ، كوسيلة عمليـة للتعامل مع الطبيعة في هذا الجزء من العالم . ففي نهاية عصر البرونز المبكر أخذت الجماعات الآمورية بالظهور حول المدن المهدمة وحول المدن التي بقيت تتنفس بصعوبة في ظل الأوضاع الإقتصادية المتردية . ولكن هذه الجماعات البدائية نفسها هي ، التي كتبت الصفحة التالية في حضارة الشرق القديم ، وأعني بها حضارة البرونز الوسيط .

ولقد أعاد التاريخ نفسه في الفترة الإنتقالية من عصر البرونز الأخير إلى عصر الحديد ، عندما أدت الكارثة المناخية الشاملة إلى هجرات واسعة وتحولات سكانية شملت شرقي أوربا واليونان وبحر إيجه والأناضول وأقطار شرقي المتوسط . فانطلقت شعوب البحر من مواطنها في بحر إيجه تبحث عن أرض جديدة في الشرق ، وحلت المجاعة في جميع أرجاء المملكة الحثية وفي مناطق سورية وفلسطين . ويبدو أن المملكة الحثية قد انهارت من الداخل قبل وصول شعوب البحر إليها ، وكذلك المدن السورية التي كانت مزدهرة خلال البرونز الأخير مثل أوغاريت وغيرها . فمن المرجح أن أوغاريت قد هدمتها الزلازل قبل وقت من وصول شعوب البحر إليها،وهجرها أهلها لعدم قدرتهم الإقتصادية على إعادة البناء ، وكذلك بعض المدن الكبرى الأخرى في سورية وفلسطين . وربما تحول هؤلاء السكان إلى رعاة متنقلين أو أنهم أوغلوا شرقاً بحثاً عن أماكن أكثر ملائمة لإستقرار جديدة . وبذلك تكون شعوب البحر قد وصلت إلى مناطق مفقرة ومهدمة لم تشجعها على الإستقرار ، لذلك فقد تابعت هذه الجماعـات التائهة ، التي كانت ترتحـل مع نسائها وأطفالها وأدواتها المنزليـة الخفيفة ، مسيرتها نحو مصر حيث قضى الفرعون رمسيس الثالث على كل طاقتها وزخمها القتالي . ولم تمضي بضعة عقود حتى ذابت هذه الجماعات الغريبة في الأمكنة التي توقفت عندها ، وضاع أثرها .

خلال هذه الفترة القاتمة أخذت القبائل الآرامية ، التي كانت متواجدة منذ زمن طويل في البادية السورية وعلى أطراف المناطق الزراعية في الهلال الخصيب ، بالظهور على المسرح

مستفيدة من فترة الفراغ الشامل وحالة الفوضى والإضطراب ، التي ميزت نهاية البرونز الأخير وبداية عصر الحديد . وعندما أخذت موجة الجفاف بالإنحسار مع التقدم في عصر الحديد الأول (١٢٠٠ - ١٠٠٠ ق.م) ، كانت هذه القبائل قد استقرت في الأرض وأخذت ببناء القرى الزراعية فالمدن الكبرى فالممالك . وقد ساعدها على ذلك غياب القوى العظمى التقليدية من حولها، والوضع الداخلي المتضعضع لمناطق الجزيرة العليا وغربي الفرات وانعدام السلطة المركزية فيها . ومع مطلع القرن العاشر قبل الميلاد ، كان الآراميون قد شكلوا دويلات قوية على طول حوض الخابور وحوض الفرات الأوسط والأعلى ، وفي الشمال السوري فيما بين الفرات والبحر المتوسط ، وكذلك فيما بين حلب شمالاً ودمشق في الجنوب السوري . وفي مقابل الضغط الآشوري العسكري على بلاد آرام منذ مطلع القرن العاشر قبل الميلاد ، كان الآراميون يمارسون ضغطاً سلمياً ومعاكساً على منطقة وادي الرافدين وخصوصاً باتجاه بابل ، حتى استطاع الفرع الكلداني من المجموعة الآرامية السيطرة تماماً على جنوب بلاد الرافدين بعد فترة من التسرب التدريجي ، وأسس المملكة البابلية الجديدة في أواخر القرن السابع قبل الميلاد ، التي كان نبوخذ نصر ثالث ملوكها .

من الممالك الآرامية التي تكونت في سياق عصر الحديد الأول واستمرت خلال عصر الحديد الثاني ، مملكة بيت بحياني في حوض الخابور ، وكانت عاصمتها جوزان في موقع تل حلف ، الذي يقع في أقصى الشمال السوري عند منابع نهر الخابور . وقد تم اكتشاف موقع جوزان عام ١٨٩٩ صدفة من قبل المنقب الألماني فون أوبنهايم واستمر التنقيب فيه حتى عام ١٩٢٩ على فترات متقطعة . ونظراً لقلة المواقع القديمة المعروفة في سورية خلال ذلك الوقت ، فقد صنفت آيات النحت العظيم والعمارة الراقية لتل حلف تحت تسمية جديدة هي " الفن الحثي الجديد " ، ودعيت جوزان وغيرها من الممالك السورية التي اكتشفت بعدها بالممالك الحثية الجديدة ، وأخذ دارسو فنون وثقافة هذه الممالك بالبحث عن الروابط التي تجمعها إلى فنون وثقافة كل من آشور وحاتي ، وذلك دون النظر إلى الطبيعة الخاصة لهذه الثقافة وتفردها . ورغم أن تسمية " الحثي الجديد " قد بقيت مصطلحاً تاريخياً وفنياً وأركيولوجياً لفترة طويلة من الزمن ، إلا أن الإتجاهات الحديثة في علم الآثار وتاريخ الفن في سورية القديمة ، قد أخذت تتلمس الشخصية المستقلة لهذه الثقافة السورية في عصر الحديد ، وترى فيها طابعاً آرامياً رغم تأثرها بالثقافتين الحثية والآشورية ، وهو أمر طبيعي يفرضه تداخل التاريخ والجغرافية لهذه الثقافات المتقاربة . ويجب أن لا ننسى أن هذه المناطق من الشمال السوري قد استوعبت عدداً كبيراً من المهاجـــرين من آسيا الصغرى عقب إنهيار المملكة

الحثية ، وأن هؤلاء المهاجرين قد ساهموا في بناء ثقافة عصر الحديد السوري . ويقول المؤرخ وعالم الآثار المعروف باولو ماتييه مكتشف مدينة إيبلا ،بخصوص مصطلح " الحثي الجديد" أن هذا المصطلح من أكثر المصطلحات والمفاهيم التي كونها الباحثون المبكرون دوغمائية وخطأ ، وهو يحرم الفن السوري من كل أصالة وإبداع خاص (١).

وإلى الغرب من مملكة بيت بحياني الآنفة الذكر ، ظهرت مملكة بيت عديني ، التي شملت الأراضي الواقعة بين نهر بليخ والفرات وقد اكتشفت عاصمة هذه المملكة واسمها تل برسيب في موقع تل أحمر على الضفة الشرقية لنهر الفرات ، وعلى مسافة ٢٠ كم إلى الجنوب من بلدة جرابلس الحالية على الحدود التركية .وعثر في الموقع على كتابات تذكر اسم ملكها المدعو آخوني المعروف في السجلات الآشورية . كما عثر في بوابة قصر تل برسيب على أسود بازلتية ضخمة عليها نقوش للحاكم الآشوري ، الذي ولي المدينة بعد أن ألحقها الآشوريون بممتلكاتهم وحكموها بشكل مباشر (٢). وفي منطقة الفرات الأعلى قامت مملكة كريكش ، التي أكتشفت عاصمتها التي تحمل الاسم نفسه قرب بلدة جرابلس على الفرات ، وقد تبين من الألواح المسمارية المكتشفة في الموقع أن المدينة كانت مزدهرة قبل وصول الآراميين اليها . كما أن الوثائق الكتابية من مدينة ماري ومن مدينة حاتوسس عاصمة الحثيين تذكر كركميش كمدينة كبرى مزدهرة في عصر البرونز الوسيط ، وخصوصاً خلال عصر الامبراطورية الحثية في القرن الرابع عشر قبل الميلاد . ونستطيع في هذا الموقع القديم أن نتابع تشكل الفن المدعو بالحثي الجديد منذ بداياته الأولى ، ومن خلال تطوره الذاتي ، لنستكشف ملامح هذا الفن المتميز وتفرده كفن سوري أصيل (٣).

وإلى الشمال الشرقي من كركميش قامت مملكة حداتو . وقد اكتشفت عاصمتها التي تحمل اسم حداتو في موقع أرسلان طاش على مسافة ٣٠ كم شرقي الفرات . وأهم ما تم العثور عليه في الموقع مجموعة من المنحوتات العاجية ، التي تعبر عن مدرسة فنية سورية متميزة ، وتظهر روابط واضحة مع عاجيات فينيقيا وفلسطين (٤) . وفي مناطق غربي الفرات قامت مملكة بيت جوش في منطقة حلب وعاصمتها أرفاد ، التي يرجح أن تكون في موقع تل رفعت على مسافة ٣٥ كم إلى الشمال الشرقي من حلب . وفي أقصى الشمال الشرقي

---

1 - Paolo Matthiae , Ebla , Hodder and Stoughton , London 1980 , P . 19 .

٢ ـ د . علي أبو عساف ، الآراميون ، دار أماني ـ سورية ١٩٨٨ ص ٨٨ .

3 - Paolo Matthiae , op . cit , PP 19 - 20 .

4 - Ibid , P 24 .

قـامت مملكة يأدي التي سيطـرت على منطقة جبال الأمانوس ، وقد اكتشفت عاصمتها شمأل في موقع تل زنجرلي الحالي . ومن أهم ما أفاض به هذا الموقع من آيات فنية ، هو مجموعة من المنحوتات البارزة الضخمة على بوابات قلعة المدينة ، تشكل في حد ذاتها مدرسة سورية متميزة في هذا النوع من الفن . وقد ألحقت هذه المنحوتات ، من قبل مكتشفيها الأوائل في مطلع القرن العشرين بمدرسة النحت البارز الآشوري ، أما اليوم وبعد أن توفر لدينا ما يكفي من الأعمال الفنية المشابهة ، فإن الوقت قد حان لدراسة النحت السوري في استقلاله وتميزه كمدرسة قائمة في حد ذاتها[٥].

أما فيما يتعلق بآرامیي وسط وجنوب سورية ، فإن المعلومات على بدايات تواجدهم في هذه المنطقة قليلة جداً ومبعثرة . فمن المؤكد أن كلاً من حماه ودمشق قد وقعتا تحت السيطرة الآرامية منذ أواخر القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، إلا أن المعلومات التفصيلية تنقصنا عن بدايات التواجد الآرامي في هاتين المدينتين وعن الأسر الحاكمة الأولى فيها . والمعلومات التوراتية ، التي وردت عنهما ضمن أخبار داود وسليمان ليست مما يمكن الإعتماد عليه . وبخصوص الممالك الآرامية التي يذكرها سفر صموئيل الثاني ، وهي آرام معكة ، التي وضعها المؤرخون في سفوح جبل الحرمون مع امتدادات تصل إلى بحيرة الحولة ، وطوب التي وضعوها في شرقي الأردن شمالاً إلى الجنوب من جيشور ، وآرام صوبة التي صنعوا منها قوة كبرى في الشرق الأدنى ووضعوها في البقاع الشمالي مع امتدادات تصل شرقاً إلى البادية وأطراف الفرات ، فهذه جميعاً ممالك يحوم الشك حول وجودها أصلاً . وإنني أطرح هنا ، وبكل ثقة علمية ، رأياً مفاده أن هذه الممالك لم تقم أصلاً لا في القرن العاشر قبل الميلاد ولا في أية فترة لاحقة من تاريخ المنطقة . فمملكة داود ، التي دخلت في حروب مع هذه الممالك ،لم تكن قائمة في القرن العاشر قبل الميلاد ، كما أثبتنا سابقاً بالأدلة العلمية ، والوثائق الكتابية لممالك الشرق الأدنى القديم لم تحفل بذكر واحدة من هذه الممالك لا في القرن العاشر ولا بعده ، والتنقيبات الأثرية في جمع المواقع المفترضة لهذه الممالك لم تخرج بشاهد أثري واحد يدل على وجودها . فأي شيء يبقى بعد ذلك ، يدعونا إلى الاستمرار في الحديث عن " هذه الممالك المهمة والقوية " ؟ لقد أراد محررو التوراة ابتكار خصوم وهميين لمملكة وهمية وملك وهمي ، ونظراً لجهلهم الكامل بتاريخ تلك الحقبة التي يتحدثون عنها وبخارطتها السياسية ، وهو جهل استطعنا إثباته عبر نقدنا النصي والتاريخي سابقاً ، فقد

---

5 - Ibid , PP . 16 - 18 .

التقط هؤلاء المحررون أخباراً متواترة عن مشيخات آرامية قريبة اليهم زمنياً ، وجعلوا منها شعوباً وممالك قوية . أما هدد عزر ملك صوبة الأسطوري ، الذي امتدت سلطته من البقاع غرباً إلى نهر الفرات ، وفق ما يراه المؤرخون التقليديون ، فلا أدري لماذا لم يتساءل هؤلاء المؤرخون عن سبب صمت النصوص الآشورية في القرن العاشر قبل الميلاد عن ذكره ، وهي التي لم تترك مملكة ذات شأن في بلاد الشام إلا وذكرتها . والحقيقة كما أراها بخصوص هذا الملك أنه لم يكن سوى هدد عدر ملك دمشق الذي حكم في أواسط القرن التاسع قبل الميلاد ، وواجه الآشوريين في عدد من المواقع الحربية المهمة وردهم عن مناطق غربي الفرات ، وكانت أهم معاركه معركة قرقرة المشهورة على نهر العاصي . ونظراً لغموض وتضارب الأخبار التي توفرت لمحرري التوراة عن أحداث القرن التاسع ، فقد جعلوا هدد عدر هذا ملكاً على صوبة في القرن العاشر قبل الميلاد تحت اسم هدد عزر ، وأحلوا محله على عرش دمشق في أواسط القرن التاسع قبل الميلاد ملكاً اسمه بن هدد لم يكن موجوداً في ذلك الوقت . ولسوف اتطرق بالتفصيل إلى هذه المسألة في موضعها لاحقاً .

دمشق قبل العصر الآرامي

كانت دمشق بين المناطق الرائدة لثقافة العصر الحجري الحديث (النيوليتي) في المشرق العربي القديم . ورغم أننا لا نملك الأدلة من موقع المدينة ذاتها على تواجد إنسان العصر الحجري ، إلا أن انتشار المواقع النيوليتية حول المدينة ، مثل موقع تل أسود وموقع تل الرماد ، يدل على أن المنطقة كانت مسكونة منذ مطلع الألف السابع قبل الميلاد على أقل تقدير ، وأنها قد ساهمت في الثورة الثقافية الأولى في تـــاريخ البشرية ،والتي يدعوها الأركيولوجيون بثورة العصر الحجري الحديث (أو الثورة النيوليتية) . وبما أن مدينة دمشق العصر الإسلامي داخل السور ما زالت مسكونة حتى الآن ، وتجثم فوق الطبقات الأركيولوجية السابقة ، فإن قصور الأدلة الأثرية من موقع المدينة ذاته عن تلبية حاجة المؤرخ ، لا يقتصر على العصر الحجري بل يتعداه إلى جميع العصور التاريخية اللاحقة ، وذلك نظراً إلى صعوبة التنقيب في المناطق المأهولة ، إن لم يكن استحالته من حيث المبدأ .

من هنـــا ، فإن معلـــوماتنا عن دمشق في العصـــور القديمة مستمدة بشكل رئيسي من النقوش الكتابية للشعوب والثقافات المجاورة ، إضافة الى بعض المعلـــومات القليلة جداً التي يقدمها لنا موقع المدينة الإسلامية داخل السور ، والذي يتطابق إلى حد كبير مع موقع مدينة

العصر الروماني وما سبقه . فمن المؤكد اليوم أن معبد جوبيتر دمشق الذي بني في العصر الروماني لإله المدينة هدد،بعد أن طابق الرومان بينه وبين جوبيتر،يقع تحت المسجد الأموي الكبير ، وأن المعبد الآرامي الأصلي يقع تحت المعبد الروماني . كما يرجح الباحثون أن التل الذي يرتفع حوالي ستة أمتار ويقع على مسافة ٢٥٠ م إلى الجنوب من القوس الروماني المعروف باسم باب شرقي ، هو المكان الذي بنيت فيه القصور الملكية القديمة ، وأنه بمثابة أوكروبوليس دمشق . وفيما عدا ذلك فقد وصلنا أثر فني واحد فقط من جميع العصور القديمة للمدينة ، هو لوح حجري أبعاده ٨٠ × ٧٠ سم ، منقوش عليه صورة لسفينكس (أبو الهول) عثر عليه مدعوماً بجدار المعبد الروماني عام ١٩٤٠ ، أثناء عمليات ترميم وإصلاحات في المسجد الأموي . ويستشف من الأسلوب الفني لتنفيذ العمل أنه ينتمي الى القرن التاسع قبل الميلاد، وهو العصر الذهبي لآرام دمشق(٦).

يظهر الاسم " دمشق" لأول مرة في التاريخ حوالي عام ١٤٥٠ ق.م ، وذلك في سجلات الفرعون تحوتمس الثالث الحربية ، حيث ورد بصيغة تمسكو (تا ـ مس ـ كو) . ثم ظهر بعد ذلك بقرن من الزمان في رسائل تل العمارنة ، حيث ورد ثلاث مرات وبثلاث صيغ هي تمشقي (تي ـ مـا ـ اش ـ قي) ، ودمشقا (دي ـ مـاش ـ قا) ، دومشقا (دو ـ ما ـ اش ـ قا) . وفي السجلات الآشورية فيما بين القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد ، يرد اسم دمشق في معظم سجلات الآشورية على بلاد الشام ، وذلك بثلاث صيغ ، هي دمشقا (دي ـ ماش ـ قا) ، ودمشقي (دي ـ ماش ـ قي) ، ودمشقو (دي ـ ماش ـ قو). أما في النصوص الآرامية فيرد بصيغة واحدة هي دمشق (د. م . ش . ق) . وما زال علماء اللغات السامية مختلفون حول معنى الاسم وجذره السامي(٧) .

لم تكن دمشق مدينة مهمة خلال عصر البرونز الأخير (١٦٠٠ ـ ١٢٠٠ ق.م) ، وهو العصر الذي بدأ فيه اسم المدينة بالظهور في الوثائق الكتابية . ورغم أن المدينة تنتمي الى إقليم يمتد في الجنوب السوري اسمه أوبي (أو أوبو) ، إلا أننا غير متأكدين من أن دمشق كانت عاصمة لهذا الإقليم ، أو أنها كانت المدينة الرئيسية فيه . وجل ما وصلنا من معلومات عن إقليم أوبي وعن مدينة دمشق خلال عصر البرونز الأخير ، قد جاء في سياق معلوماتنا عن العلاقات بين القوى الكبرى الثلاث في ذلك الوقت ، وهي مصر وميتاني وحاتي . فمع مطلع عصر البرونز الأخير ، أخذت مملكة ميتاني الحورية بالخروج من مناطقها الرئيسية في

6 - wayne . T . Pitard , Ancient Damascus , Eisenbrauns Winonalake , Indiana , 1987 , P . 4
7 - Ibid , PP . 7 - 8

الشمال السورية والتوسع باتجاه أواسط سورية . وفي نفس الوقت تقريباً ابتدأ فراعنة الأسرة الثامنة عشر في مصر حركة مد إمبريالي مستمر باتجاه آسيا الغربية . وبعد ذلك أخذ الملوك الحثيون بالضغط على ميتاني من الشمال حتى استطاعوا إزالتها أخيراً من طريقهم كقوة عظمى ، ووقفوا وجهاً لوجه أمام مصر . وبين هذه القوى كانت مملكة قادش في سورية الوسطى على نهر العاصي (قرب حمص الحالية) هي القوة الكبرى في سورية ، وتسيطر على جميع الممالك الصغيرة في وسط وجنوب سورية ، ولكنها كانت موالية لمملكة ميتاني وتعمل من خلال استراتيجتها العسكرية والسياسية في المنطقة . وقد شنت مملكة قادش حملة كبيرة ضد الفرعون تحوتمس الثالث حوالي عام ١٤٥٠ ق.م، يساعدها في ذلك عدد من جيوش الممالك الصغيرة في سورية وفلسطين ، والتقت قواتها بالقوات المصرية عند مدينة مجدو بفلسطين ، في معركة حاسمة قررت نتيجتها مصير الوجود المصري في آسيا . ويذكر سجل حملة تحوتمس الثالث على قوات التحالف السوري في مجدو ، أن الفرعون الذي قاد المعركة بنفسه قد هزم ملك قادش وحلفاءه هزيمة منكرة . وفي نهاية هذا النص الطويل والمفصل يرد ذكر أسماء الممالك والمدن المقهورة وبينها مدينة دمشق ، التي تذكر بشكل عابر ودون التوكيد على قوتها أو أهميتها . ويبدو أن إقليم أوبي قد بقي منذ ذلك الوقت ضمن المناطق التقليدية للنفوذ المصري [٨].

مع التقدم في عصرالبرونز الأخير وازدياد صراع القوى العظمى على المناطق السورية ، يكتسب إقليم أوبي أهمية متزايدة ، نظراً لوقوعه على حدود التوتر الفاصلة بين مناطق نفوذ تلك القوى . وقد بقي هذا الإقليم بمثابة الحد الشمالي التقليدي للنفوذ المصري في آسيا الغربية ، وصولاً إلى عصر العمارنة الذي حمل معه تغييرات أسياسية في ميزان القوى ، وذلك بسبب تزايد المد الإمبريالي الحثي وتوسع أباطرة حاتي الجدد على حساب مملكة ميتاني : ومع اعتلاء الملك شوبيلو ليماس عرش حاتي ، قام بحملته السورية الأولى واستولى على كل أملاك ميتاني في الشمال السوري وجعل ملكها توشراتا تابعاً له . وبعد عودته المظفرة من واشوكاني عاصمة ميتاني استولى على المناطق الشمالية الغربية من سورية ، ثم هبط فاستولى على مملكة قطنة في سورية الوسطى (شرقي حمص في موقع تل المشرفة) ، ثم تابع جنوباً نحو أراضي إقليم أوبي ، الذي يدعوه الحثيون أبينا . ولكن ملك قادش المجاورة لقطنة (*) اعترض طريقه في محاولة منه لعون ميتاني ، فهزمه ثم قبض عليه

---

8 - Ibid , PP . 46 - 56 .

(*) ـ يتوسط موقع مدينة حمص الحالية بين موقعي قادش وقطنة اللذين لا يفصل بينهما أكثر من ٦٠كم

وأرسله أسيراً إلى حاتي ووضع مكانه على عرش قادش ابنه المدعو ايتوغاما ، الذي حول ولائه من ميتاني إلى حاتي . بعد ذلك تابع مسيرته نحو أوبي فاستولى عليها وهزم ملكها المدعو أريوانا . وعند هذه النقطة في الجنوب السوري تنتهي حملة شوبيلوليماس ويقفل عائداً إلى عاصمته في الأناضول ، بعد أن فتح صفحة جديدة في التوازن الدولي ، حيث غابت ميتاني كقوة عظمى ، ووقفت حاتي وجهاً لوجه أمام مصر [٩].

ويبدو أن حملة حاتي على سورية الوسطى والجنوبية لم تعزز مواقعها تماماً إلا في قادش ، التي بقي ملكها المعين من قبل الحثيين إيتوغاما يسعى جاهداً لرعاية مصالحهم في المنطقة، ويتدخل في شؤون الدويلات السورية والفلسطينية إبان فترة الإضطرابات التي سادت المنطقة خلال حكم الفرعون اخناتون . وفي مقابل ملك قادش الذي كان يرعى مصالح حاتي ، يتكرر في رسائل تل العمارنة ذكر شخصية عسكرية هامة اسمها بيرياوازا . ولا نعرف على وجه التحديد منصب هذا القائد العسكري ، لأن الرسائل كانت تشير اليه بالإسم فقط وكأنه أشهرمن أن يعرّف. ويبدو أنه كان المفوض المصري الأعلى في المنطقة رغم أنه من أصل آري لا من أصل مصري (*) . ويرتبط اسم بيرياوازا هذا بمدينة دمشق ، إذ نعرف من إحدى الرسائل المتبادلة بينه وبين الفرعون أنه قد هرب من وجه أعدائه وإنسحب إلى دمشق . ثم نعرف أنه قد انتقل من دمشق الى مدينة كاميدو في البقاع الجنوبي ، ومن هناك أرسل إلى الفرعون قائلاً أنه متحصن الآن في مدينة الملك . من هنا يعتقد بعض دارسي رسائل تل العمارنة بأن بيرياوازا كان حاكماً لمدينة دمشق ، ويدعوه الباحث وليم فوكسويل أولبرايت بأمير دمشق . لا ندري كيف عادت أوبي وقطنة إلى الجانب المصري بعد حملة شوبيلوليماس ، ولكن المؤكد أن دمشق وقطنة كانتا مواليتان للفرعون أخناتون ومفوضه بيرياوازا خلال الأحداث التي تغطيها تلك الرسائل . نقرأ في رسالة من ملك قطنة إلى الفرعون قوله : " إن قطنة خاضعة تحت قدمي مولاي مثل دمشق في بلاد أوبي .. " . لكن إيتوغاما ملك قادش كان دائم التآمر ضد الممالك الموالية لمصر ، معتمداً بشكل رئيسي على عازيرو ملك آمورو ، الذي تعاون مع جماعات العابيرو المرتزقة وشكل حلفاًمن الدويلات المناهضة للنفوذ المصري ، فكانت قطنة وأوبي من جملة الدويلات التي عانت من تعدياته ، على ما نفهم من تقارير بيرياوازا الى البلاد المصري .غير أن أوبي لم تسقط على ما يبدو في

9 - *Ibid* , *PP* . *66 - 67* .

(*) ـ وقد كان الكثير من ملوك الدويلات السورية والفلسطينية من أصل آري خلال تلك الفترة كما تدل أسماؤهم . وبينهم ملك قادش ايتوغاما وملك أوبي أريوانا .

يد التحالف المعادي لمصر ، لأننا نعرف من رسالة تعود إلى أواخر عصر العمارنة ، أن ملك أوبي المدعو زلايا كان موالياً للفرعون ، لأن الفرعون يطلب اليه في تلك الرسالة أن يبعث بفريق من جماعات العابيرو المرحلين من المنطقة لإسكانهم في النوبة بمصر العليا . وقد وجدت الرسالة في كامد اللوز بالبقاع الجنوبي وهو موقع كاميدو القديمة.[10]

بعد وفاة أخناتون استمر التوتر على المناطق الحدودية بين القوتين العظميين ، وخصوصاً في مناطق أوبي والبقاع وقادش . ففي السنوات الأخيرة من حكم توت عنخ آمون ، تخبرنا السجلات الحثية عن حملة مصرية على قادش ، وكان ملكها القديم إيتوغاما مازال على العرش . وقد رد شوبيلوليماس على العدوان المصري بهجوم على منطقة البقاع ، إلا أن كلا الحملتين لم تسفر عن نتيجة حاسمة بالنسبة إلى الطرفين . وبعد ذلك بمدة قصيرة توفي توت عنخ آمون في ريعان الصبا ، وسادت مصر فترة اضطرابات استغلها الحثيون بإرسال حملة جديدة إلى المنطقة لم تكن حاسمة أيضاً ، وعاد الجنود إلى الأناضول حاملين معهم وباء الطاعون الذي تفش في المملكة الحثية ، ومات الملك شوبيلوليماس بنفسه بالمرض ، وخلفه ابنه مورشيلي الثاني عام ١٣٤٦ ق.م . وقد عاصر مورشلي الثاني الفرعون حور محب ، القائد العسكري الذي أنهى فترة الإضطرابات مما أعقب وفاة توت غنخ آمون واعتلى عرش مصر . وقد عمل حور محب على دعم ثورة محلية في سورية ضد حاتي تركزت في منطقة قطنة ومنطقة نوخاشي (بين حمص وحلب) فأرسل فرقاً عسكرية مصرية لدعم المتمردين ، ولكن مورشيلي قضى على المتمردين وهزم الفرق المصرية المساندة لهم .[11]

كان الفرعون حور محب آخر ملوك الأسرة الثامنة عشر ، ومات دون أن يكون له وريث على العرش ، فخلفه رمسيس الأول ، الذي أسس الأسرة التاسعة عشر وحكم مدة سنتين فقط ، ثم مات وخلفه سيتي الأول ، الذي حكم من ١٣٠٢ الى ١٢٩٠ ق.م . وقد وطد سيتي الأول سيطرة مصر على مناطق نفوذها في فلسطين وسورية الجنوبية ، وقام بحملة على قادش فأعادها الى النفوذ المصري ، ثم انقلب نحو الساحل السوري فأخضع مملكة آمورو الصديق التقليدي للحثيين . وأخبار حروب سيتي الأول موثقة في نصوص قصيرة منقوشة تحت عدد من المنحوتات البارزة في معبد الكرنك ، تصور مشاهد حروبه في سورية التي تدعوها النصوص المصرية من تلك الفترة ببلاد ريتينو . نقرأ في أحد هذه النصوص تحت مشهد يصور عودة الفرعون : " عودة جلالته من ريتينو العليا بعد أن وسع حدود مصر ".

---

10 - Ibid , PP . 67 - 71 .
11 - Ibid , PP . 73 - 74

وتحت مشهد آخــر نقرأ : " تقديم القرابين من الفرعــون إلى أبيــه آمــون رع ، لدى عودتــه من بــلاد حاتي بعــد سحق المتمــردين وبلدانهم . وقد أتى معه بأمراء ريتينو الأوغاد ليضعهم في معبد أبيه آمون رع ". وهناك مشهد يصور حصار مدينة قادش كتب تحته : " صعود الفرعون لتدمير قادش وبلاد آمورو ". وقد تم العثور في موقع مدينة قادش على حجر تذكاري للفرعون سيتي الأول ، الأمر الذي يؤكد صحة الروايات المصرية (١٢) .

تابع رمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) مابدأه أبوه سيتي الأول من حركة ضغط مستمرة على حاتي . وقد ترك لنا هذا الفرعون عدداً من النصب التذكارية لحملاته على بلاد الشام اكتشف واحد منها في موقع بيت شان بفلسطين وثلاثة على الساحل.وكان لا بد أخيراً من الصدام مع حاتي ، فالتقى رمسيس مع الجيش الحثي في قادش عام ١٢٨٦ ق.م . ورغم أن المعركة لم تكن حاسمة ، وأن الفرعون قد وقع في كمين كاد يودي بحياته لولا أن تخلص منه بشجاعته الفرديــة ، إلا أن رمسيس الثـاني قـد خـلد هذه المعــركة في نص مفصل طويل . وقد استمــرت المناوشات بين الفريقين لمدة ستة عشر عاماً تلت معركة قادش ، وانتهت عام ١٢٧٠ ق.م بتوقيع معاهدة سلام بين مصر وحاتي تعتبر من أشهر معاهدات العالم القديم . وقد أطلقت المعاهدة يد الحثيين في مناطق بلاد الشام الوسطى والشمالية ابتداءً من قــادش ، واحتفظ المصريون بمنطقة أوبي التي بقيت الحد الفاصل بين المملكتين . وقد تم إكتشاف نسختين من المعاهدة واحدة في حاتوسس عاصمة حاتي والثانية في طيبة عاصمة مصر . وقد أعقب المعاهدة زواج رمسيس الثاني من إبنة الملك الحثي حاتوشيلي . وتشير مراسلات الطرفين بخصوص ترتيبات موكب الأميرة الحثية ، إلى أن الموكب سيصل تحت حراسة حثية حتى أراضي أوبي ، ومن هناك تتعهده الحراسة المصرية حتى الوصول إلى طيبة . (١٣)

إستمر حكم رمسيس الثاني حتى العقود الأخيرة من القرن الثالث عشر . وفي عهد ابنه مرنفتاح لم يحصل تغيير يذكر في موازين القوى الدولية . فقد كان مرنفتاح مشغولاً بالتصدي لليبيين الذين هاجموا الدلتا بمعونة شعوب البحر . وبعد ذلك ظهرت في الأفق جحافل الفريق الآخر من شعوب البحر ، الذي هبط من آسيا الصغرى متخذاً طريقه نحو مصر ، فتصدى له رمسيس الثالث وشتته . ومع هذه الأحداث الجسام التي ختمت ثقافة عصر البرونز الأخير وافتتحت عصر الحديد ، تغيب أخبار أوبي ودمشق لعدة قرون تالية .

12 - John A . Wilson , Egyptian Historical Texts (in : James Pritchard : Ancient Near Eastern Texts , P . 271 .

13 - W . T . Pitard , op . cit , PP . 42 - 43 .

وعندما يظهر ذكر دمشق مجدداً نراها كمدينة آرامية قوية .

وخلاصة القول بشأن مدينة دمشق في العصور السابقة للعهد الآرامي ، أن المعلومات التاريخية حولها قليلة ومبعثرة ، ومصدرها الرئيسي سجلات القوى العظمى ، التي تضاربت مصالحها في منطقة بلاد الشام وتصادمت مع بعضها لفترة طويلة . وبما أن ذكر إقليم أوبي لا يرد في هذه السجلات إلا في سياق أحداث الصراع على مناطق النفوذ ، فإن منطق الأمور يشير الى قلة شأن هذا الإقليم خلال عصر البرونز ، وكونه مجرد منطقة تنافس وتطاحن لا يعتد بقوتها الذاتية أو بتكوينها المدني والسياسي . وفيما يتعلق بمدينة دمشق بشكل خاص ، فإن الأخبار المتفرقة عنها لا ترسم صورة عن أوضاعها الداخلية وبنيتها السياسية . فهي تظهر تارة كإمارة أو حتى مشيخة بدون كيان سياسي واضح عندما يأتيها المفوض المصري بيرياوازا ويقيم فيها دون ذكر لحاكمها أو ملكها ، وتارة تخبرنا النصوص عن ملوك يحكمونها وتعلمنا عن ملكين منهم ، هما أريوانا الذي قبض عليه الملك الحثي وزلايا الذي خاطبه الفرعون في رسالته بخصوص ترحيل العابيرو إلى مصر . من هنا ، يمكن القول بأن دمشق في عصر البرونز لم تكن سوى بلدة صغيرة تعيش على هامش الأحداث . غير أن هذه البلدة قد قيض لها بعد ثلاثة قرون من عصر العمارنة أن تغدو القوة الرئيسية الثانية بعد آشور ، في مناطق غربي الفرات تحت حكم ملوك آرام . وهذا ما سنتابع قصته في الفصل التالي .

الفصل الرابع

إمبراطورية دمشق

والعلاقات الآرامية الفلسطينية

دمشق واسرائيل
حــــروب وتحــــالفات

بعد الخبــر التوراتي عن وفاة الملك سليمان تنتهي الفترة ما قبل التاريخية في الرواية التوراتية ، ويدخــل الحدث التوراتي فيما يشبه التاريخ . ولكي يلتقط القارىء خيط الأحداث الذي تركناه في القسم الأول من هذا الكتاب ، نعود للتذكير بسرعة بالأخبار التي أوردها النص التوراتي في القسم الثاني من سفر الملوك الأول ، وذلك بين وفاة الملك سليمان وأول شخصيةإسرائيلية موثقة تاريخياً وهي شخصية الملك عمري مؤسس مملكة إسرائيل وباني مدينة السامرة ، وابنة أخاب من بعده . فلقد ملك يربعام على إسرائيل وتبعته جميع القبائل الإسرائيلية ، أما رحبعام إبن الملك سليمان فقد ملك على يهوذا ولم يتبعه سوى سبط بنيامين اضافة إلى يهوذا نفسها ، ثم دخلت المملكتان في صراع دائم . ولكي يكرس ملك إسرائيل إستقلاله التام عن أورشليم ، كان لا بد له من تكريس الإستقلال الديني ، فبنى للإسرائيليين معبـدين واحـداً في دان والآخـر في بيت إيل ، أي في شمال منطقة إسرائيل وجنوبها ، ووضع في كل منهما صورة للعجل الذهبي ، رمز آلهة كنعان . وهذه أسماء ملوك إسرائيل ويهوذا وسنوات حكمهم ، وذلك بين وفاة سليمان وقيام أسرة عمري التاريخية ، إذا أخذنا العام ٩٣١ ق.م كتاريخ لوفاة سليمان ، وأخذنا بعين الإعتبار فترات التداخل بين حكم الأب وابنه ، حيث جرت العادة في الرواية التوراتية أن يتنازل الملك الأب عن قسم كبير لخليفته على العرش في زمن شيخوخته .

ملوك اسرائيل ـ السامرة		ملوك يهوذا	
يربعام	٩٣١ ـ ٩١٠ ق.م	رحبعام	٩٣١ ـ ٩١٣ ق.م
	ــــــــ	أبيام	٩١٣ ـ ٩١١
	ــــــــ	آسا	٩١١ ـ ٨٦٩
ناداب	٩١٠ ـ ٩٠٩	ــــــــ	
بعشا	٩٠٩ ـ ٨٨٦	ــــــــ	
إيله	٨٨٦ ـ ٨٨٥	ــــــــ	
زمري	٨٨٥	ــــــــ	
عُمري	٨٨٥ ـ ٨٧٤	يهو شافاط	٨٧٢ ـ ٨٤٨
آخاب	٨٧٤ ـ ٨٥٣	ــــــــ	

في عهد آسا حفيد رحبعام ، الذي ملك على يهوذا بعد أبيه أبيا (أبيام) ابن رحبعام ، توفي يربعام الملك الأول لإسرائيل في الرواية التوراتية ، وملك محله ابنه ناداب الذي قتل بعد سنتين فقط من حكمه ، إثر انقلاب داخلي قاده بعشا الذي أنهى أسرة يربعام ونصب نفسه ملكاً . ودخل بعشا ملك إسرائيل مع آسا ملك يهوذا في حرب طويلة أنهكت الطرفين . وعندما شعر آسا بالضعف أمام إسرائيل ، استنجد بملك دمشق الذي يدعوه النص التوراتي هنا " بن هدد بن طبريمون بن حزيون" . وهذا هو ثاني ملك على دمشق يرد ذكره في التوراة بعد رزون بن اليداع من عهد سليمان ، الذي استقل عن سيده هدد عزر ملك صوبة وجاء دمشق فملك فيها . ويبدو من نص رسالة آسا ملك يهوذا إلى بن هدد بن طبريمون ملك دمشق ، أن دمشق كانت قد أعطت الأمان لكلا الدولتين بعدم الإعتداء عليهما . نقرأ في سفر الملوك الأول ١٥ : ١٨ ـ ١٩ " وأخذ آسا جميع الفضة والذهب الباقية في خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك ، ودفعها ليد عبيده وأرسلهم إلى بن هدد بن طبريمون بن حزيون ، ملك آرام الساكن في دمشق قائلاً : إن بيني وبينك ، وبين أبي وأبيك عهداً . هو ذا قد أرسلت لك هدية من فضة وذهب ، فتعال انقض عهدك مع بعشا ،

فيصعد عني ..″ وقد نقض ملك دمشق عهده مع إسرائيل على ما يرويه سفر الملوك الأول ، وهاجم أراضي الملك بعشا وضرب جميع المدن والقرى الواقعة في المناطق الشمالية من إسرائيل ، ثم قفل راجعاً إلى بلاده .

لا نعرف شيئاً عن بن هدد بن طبريمون هذا خارج المصدر التوراتي ، والذي يفترض أنه قد حكم خلال العقد الأول من القرن التاسع قبل الميلاد . وقد جهد المؤرخون اعتماداً على هذا النص من سفر الملوك الأول ، والنص الأسبق الذي يذكر رزون بن اليداع من عهد سليمان، في إعادة بناء هيكل الأسرة الحاكمة في دمشق من عهد سليمان إلى عهد آسا وبعشا . فقد رأى فريق من الباحثين أن حزيون جد بن هدد المذكور في سفر الملوك الأول ١٥ ، هو نفسه رزون بن اليداع المذكور في سفر الملوك الأول ١١ ، وأن المصدر الذي اعتمد عليه محرر الملوك الأول ١٥ قد حور الاسم رزون إلى حزيون . وبذلك يكون ملوك الأسرة الدمشقية ، التي حكمت من عهد سليمان إلى عهد آسا في يهوذا وبعشا في إسرائيل ، ثلاثة هم على التوالي : رزون (أو حزيون) وطبريمون وبن هدد ، الذي يلقبه المؤرخون ببن هدد الأول تمييزاً له عن اثنين آخرين من ملوك دمشق حملوا الإسم نفسه . بينما يرى فريق آخر من الباحثين أن رزون قد حكم دمشق في أوائل فترة حكم الملك سليمان معتمدين على قول نص سفر الملوك الأول ١١ : ″ وكان رزون خصماً لإسرائيل كل أيام سليمان ..″ من هنا ، فإن الفترة الفاصلة بين بداية حكم سليمان في أورشليم حوالي عام ٩٧٠ ق.م ، واستيلاء بعشا على الحكم في مملكة إسرائيل عام ٩٠٩ ق.م ، تسمح في رأيهم بتتابع أربعة ملوك على عرش دمشق هم : رزون وحزيون وطبريمون وبن هدد الأول [1].

لقد أوضحنا في الفصول السابق أن مملكة إسرائيل (السامرة) لم تظهر إلى الوجود إلا في سياق النصف الأول من القرن التاسع قبل الميلاد ، بينما لم تتشكل مملكة يهوذا تحت قيادة أورشليم إلا في سياق النصف الثاني من القرن الثامن قبل الميلاد . من هنا ، فإن الأحداث التي يرويها النصان إياهما من سفر الملوك ١١و ١٥ ، لا تعدو أن تكون أخباراً غامضة متواترة عن حملات تأديبية كان يقوم من خلالها ملوك دمشق بتأديب بعض الجماعات الرعوية أو المستقرة ، أو بعض أمراء أورشليم الصغار ممن كانوا يهددون أمن القوافل التجارية . أمـا عن أسماء ملـوك دمشق الـواردة في النصين المذكورين ، فلا يمكن الجزم

1 - *Wayne . T . Pitard , op . cit , PP . 100 - 104*

بشأنها ، رغم بقاء الإحتمالات مفتوحة على صحة الأخبار المتواترة بشأنها . فمما لا شك فيه ،أن الآراميين قد وطدوا سلطانهم في دمشق في سياق القرن العاشر قبل الميلاد ، وأنهم قد أسسوا سلالتهم الملكية الأولى فيها في وقت ما من النصف الثاني للقرن العاشر قبل الميلاد . ولكن المعلومات الموثقة تنقصنا من أجل توكيد أو نفي الرواية التوراتية المتعلقة بأسماء هؤلاء الملوك .

لقد توافق صعود مملكة دمشق في القرن العاشر مع الأوضاع الإقتصادية المؤاتية ، التي سادت المنطقة بعد انحسار موجة الجفاف في مناطق شرقي المتوسط، فقد انتعشت الزراعة ، وتوسعت من جديد الزراعات المتوسطية التقليدية ، وزاد إنتاج سلع التبادل النقدي على حساب زراعة الكفاف والإكتفاء الذاتي ، فنشطت التجارة وعادت الحياة إلى الطرق التجاريـــة المحليـــة والدوليـــة ، وإزدهـــرت المحطات التجاريـــة ، التي كانت مهجورة لأكثر من ثـــلاثة قـــرون على طـــول هذه الطـــرق . وقد تـــرافق هذا الإنتعاش الشامـــل في بـــلاد الشام مع ضعف مصـــر السياسي وانكفائها داخـــل حدودها التقليديـــة ، الأمـــر الذي سمح للدويلات السوريـــة بحرية الحركـة ، وقامت الممالك الآراميـــة في كل مكان تقريباً كمعادل وند للقـــوة الآشوريـــة المتعاظمة . ورغم أن آشـــور كانت تضغط باستمـــرار على الممالك الآراميـــة في حـــوض الخابـــور والفـــرات ، إلا أن حملاتها العسكـــرية خلال القـــرن العاشر ومطلع القـــرن التاسع قبـــل الميلاد ، كانت ذات طابـــع إستعراضي ، وتهدف إلى المكاسب الآنيـــة وتحصيل الأتـــاوة ، من دون اللجـــوء إلى ضم الأراضي والحكم المباشر . وهذا ما أعطى الممـــالك الآراميـــة مزيداً من الوقت لمتابعـــة بناء نفسها . أمـــا في وسط وجنـــوب سوريـــة ، فقـــد تأخـــر الضغط الآشـــوري على هـــذه المناطق مـــدة قـــرن ونصف عنـــه في المنـــاطق الشرقيـــة والشمالية ، وهذا ما ساعد بشكل خاص مملكة دمشق على بناء قوة عسكرية وإقتصادية كبيرة .

لقد تحكمت دمشق بطريقين تجاريين دوليين على جانب كبير من الأهمية الحيوية . الطريق الأول هو الطريق الساحلي المعروف تاريخياً بطريق البحر ، ويصعد من مصر فغزة على طول الساحل الفلسطيني . ثم ينعطف نحو الداخل عبر وادي يزرعيل .والثاني هو الطريق الصحراوي الصاعد من جزيرة العرب التي كانت تتاجر مع أفريقيا والهند ، إلى شرقي

الأردن فدمشق ، والمعـــروف تاريخياً بطـــريق الملـــوك . وهنـــاك طـــريق ثالث أقل أهمية يصعد من النقب إلى حبـــرون فأورشليم ثم يقطع إسرائيل وصولاً إلى دمشق . ومن دمشق التي كانت تلتقي عندهـــا القوافـــل المتعـــددة المصـــدر ، كان يصعـــد طريقـــان دوليان للتجارة ؛ واحد باتجاه وادي الرافـــدين عبر تدمر والبادية السورية ، والثاني باتجاه الأناضول عـــر حماة فحلب . من هنا ،فقد عملت دمشق بدأب على بسط نفوذها على الدويلات والإمـــارات الصغيرة التي تمـــر بها خطـــوط التجارة هذه . ولكنها لم تمارس على ما يبدو سياسة الحكم المباشر للأراضي الواقعـــة خـــارج منطقتها التقليدية التي لم تكن واسعة جداً ، بل اكتفت بعلاقات تعاون وحسن جوار وأحلاف عسكرية كانت تلتئم حول دمشق كلما دعت الحاجة وتنحل فور إنتهاء حاجة إليها ، وذلك من خلال نظام إقليمي فرضته على جميع ممالك غربي الفرات . ولم تكن تتردد في تأديب أية مملكة تخرج على القرار السياسي الدمشقي ، كما سنوضح ذلك بالتفصيل بعد قليل .

أما عن الحدود التقليدية لمملكة دمشق فيبدو أنها كانت متطابقة مع حدود إقليم أوبي في عصـــر البرونـــز الأخيـــر فإلى الشمال حاورتها مملكـــة حماة التي ارتبطت معها بعلاقـــات متينة ، وإلى الجنـــوب توقف تخمها عنـــد الحـــدود السفلى للجـــولان ، وإلى الغـــرب يرجح أنها قـــد حكمت البقـــاع بشكل مباشـــر . وفيما عـــدا ذلك كانت تبسط سيطـــرة غير مباشـــرة على الممالك الصغيـــرة الناشئـــة حديثاً في شـــرقي الأردن مثل عمـــون ومـــوآب وأدوم وفي فلسطين كانت تبسط سيطـــرة غير مباشرة أيضاً على إسرائيل التي كانت في طـــور التشكل وعلى إمـــارة اورشليم . وإضافة إلى ذلك ، فإن دمشق كانت تكسب أيضاً ولاء القبـــائل العربية المتجولة في شمال الجزيرة العربية والبادية السورية ، وكانت هذه القبائل تقدم العون الحربي لأحلاف دمشق العسكرية الموجهة ضد آشور .

وفيما يتعلق بإسرائيل ، فقد قادت هذه الأوضـــاع الإقتصاديـــة الجديدة إلى تسريع إيقاع الإستيطان فيها ، فزاد عدد السكان ، وزاد إنتاج محاصيل وصناعات التبادل النقدي ، فصارت الزيوت واللحوم والخمور والأخشاب تدفع للمتاجرة بها مع فينيقيا ودمشق والبقاع على طرق التجارة التي إستأنفت نشاطها . كما لجأ السكان هنا إلى استصلاح المنحدرات الهضبية وتجهيز المصاطب من أجل البستنة وزراعة الأشجار المثمرة . وأما عن مصادر سكان

إسرائيل الجدد ، فقد ورد إلى الهضاب المركزية كما أوضحنا سابقاً عدد من الجماعات المختلفة المنشأ ؛ فمنهم فريق من السكان المقتلعين سابقاً من المناطق الزراعية السهلية، وفريق من الرعـــاة المحليين ، وفريق من الرعـــاة القادمين من السهوب المجـــاورة للهضاب المركزيـــة إلى الشرق والجنـــوب ، إضافـــة إلى الشريحة الضئيلة الباقيـــة في الهضاب منذ عصر البرونـــز الأخير . ولاشك أيضاً في أن الهضاب قـد استوعبت بعض الجماعـــات المتبقيـــة من شعـــوب البحـــر التي ذابت في محيطها السوري الجنوبي . وقد أخـذ هـؤلاء المستـوطنون بالتقـارب والتـلاحم وتكوين إثنية خاصة بهم ، توضحت مع بدايـــات القـــرن التاسع قبـــل الميلاد . وفي هذا السياق تم بنـــاء مدينة السامـــرة كعاصمة لإقليم يتجه نحـــو المركزيـــة سعياً وراء تنظيم شؤونه السياسيـــة والإقتصاديـــة التي دخلت طـــور النضج . ذلك أن البنى السياسيـــة والإقتصـــادية البدائيـــة السائدة لم تعد صالحة للتصرف بالأوضاع الجديدة ، وتصريف المنتجات المحلية صار بحاجة إلى إدارة مركزية قادرة على ربط شبكة التجارة المحلية المتواضعة بشبكة التجارة الدولية . وهكذا ومع بناء مدينة السامرة وقيام الأسرة الملكية الأولى فيها ، دخلت إسرائيل لأول مرة عالم السياسة الدولية ، ووجدت نفسها وجهاً لوجه أمام مدينة صور الفينيقية ؛ بوابة التجارة البحرية ، وأمام مملكة دمشق الآرامية ؛ بوابة التجارة البرية نحو العالم المتحضر في ذلك الوقت .

يروي سفر الملـــوك الأول أن الملك عُمري قد حكم أولاً في بلدة ترصة ، التي كانت عاصمته لمدة ست سنـوات ، ثم بنى عاصمة جـديدة له أسماهـا السامرة وانتقل اليها : " في السنة الواحـــدة والثلاثين لآسا ملك يهـوذا ، ملك عمـــري على إسرائيل اثنتي عشرة سنة . ملك في ترصة ست سنين ، واشترى جبل السامرة من شامر بوزنتين من الفضة وبنى على الجبل ، ودعا اسم المدينة التي بناها باسم شامر صاحب جبل السامرة " (الملوك الأول ٢٣ : ١٦ - ٢٤). وفي الحقيقة ، فإن معلـوماتنا التاريخيـة والأركيولـوجية تؤيد واقعـة بنـاء السامرة على يد الملك عمري ، كما تؤيد قيام مملكة السامرة مع مطلع القرن التاسع قبل الميلاد . إن أسرة عمري ذات أساس تاريخي لا لبس فيه ، إلا أننا لا نملك أي أساس تاريخي لعقد الصلة بين هذه الأسـرة الملكيـة الأولى في إسـرائيل وأولئك الملـوك المفترضين للمملكـة الموحدة ، أو التحـدث عن إسرائيل التاريخية هذه كفرع من تلك المملكة التي أثبتنا بالدليل القاطع عدم قيامها .

لقد طابق علماء الآثار بين ترصة التوراتية وموقع تل الفرح الذي يقع على بعد ١٠ كم إلى الشمال الشرقي من شكيم (نابلس) ، ووجدوا أن هذا الموقع قد هجر تماماً عقب بناء السامرة . أما السامرة ، فقد تم التعرف عليها في موقع تل يقع إلى الشمال الغربي من شكيم ، وتبين أنها بالفعل مدينة جديدة قامت على التربة العذراء دون طبقات أركيولوجية سابقة عليها . ويشرف تل السامرة هذا على وادي يزرعيل (مرج ابن عامر) ، ويتحكم بالطريق الذي يقطع المناطق الهضبية ويصل الطريق التجاري البحري بالمناطق الداخلية . وبذلك يكون الملك عمري قد أمن لعاصمته الجديدة الإتصال بثقافتين راقيتين مجاورتين ؛ هما الثقافة الفينيقية على الساحل والثقافة الآرامية في الداخل . وقد تابع الملك آخاب ابن عمري بناء المدينة بعد أبيه ، وهو الذي أعطاه اللمسات الأسرة كإحدى آيات العمارة في فلسطين .وتظهر عمارة قصور السامرة والأبنية العامة فيها تأثراً كبيراً بالعمارة الفينيقية ، حتى لتبدو وكأنها نتاج فينيقي صرف ,الأمر الذي يحدد البيئة الثقافية التي نشأت فيها مملكة السامرة ، وروابطها الحضارية مع العالم الآرامي ـ الفينيقي . ومن أهم ما كشفت عنه التنقيبات في قصور السامرة مجموعة كبيرة من وحدات النحب البارز العاجي الصغيرة ، المخصصة أصلاً لتزيين الجدران وقطع الأثاث . بعض هذه المنحوتات وجد في الطبقة الآثارية التي شهدت التدمير الآشوري عام ٧٢١ ق.م ، وبعضها يعود إلى عهد آخاب وعمري . وتنتمي هذه القطع الفنية إلى المدرسة السورية في نحت العاج ، ووُجد أشباه لها في موقع مدينة مجدو بفلسطين أيضاً ، وفي عدد من المواقع الفينيقية ، وفي موقع أرسلان طاش (حداتو الآرامية) . كما وجد عدد كبير منها في نمرود عاصمة صارغون الثاني فاتح السامرة مخزونة في غرفة بالقصر الملكي ، ويغلب الظن أن هذه القطع قد جلبت من السامرة ومن عدد آخر من المدن السورية كجزء من الأتاوات المفروضة على تلك المدن ، أو في سياق النهب المنظم الذي كانت تقوم به القوات الآشورية في المناطق المقهورة [٢] . كما تظهر القصور والأبنية العامة ، التي شيدت في بقية مدن المملكة خلال عصر السامرة ، مثل حاصور ومجدو ودان ، طابعاً فنياً مماثلاً لطابع أبنية السامرة [٣] .

---

2 - Kathleen Kenyen , Royal Cities of the Old Testament , PP . 71 - 88 .
3 - Ibid , PP . 90 - 110

ومن ناحيـــة اخـــرى ، فإن الانتماء الثقافي السامري إلى فينيقية يبدو واضحاً من قصة زواج الملك آخاب إبن عمري من ابنة الملك الفينيقي أثبعل ملك الصيدونيين ، على مايرويه سفر الملوك الأول ١٦: ٢٩ - ٣١ : " ومَلَك آخاب بن عمري على إسرائيل في السامرة اثنتين وعشرين سنة . وعمل آخاب بن عمري الشر في عيني الرب أكثر من جميع الذين قبله .. حتى اتخذ إيزابل ابنة أثبعل ملك الصيدونيين امرأة ، وسار وعبد البعل وسجد له . وأقام مذبحاً للبعل في بيت البعل الذي بناه في السامرة ". ولدينا قصة مشهورة في الأدب التوراتي عن النبي إيليا وما جرى بينه وبين أنبياء البعل الذين كانوا ينشطون تحت رعاية الملكة إيزابيل زوجة آخاب . فقد كان ايليا يدعو وحده لعبادة يهوه في إسرائيل ،بينما بلغ عــدد أنبيـــاء البعل ٤٥٠ نبياً وأنبياء عشيرة ٤٠٠ نبياً ، وهؤلاء جميعاً كانوا يأكلون ويشربون على مائدة الملكة . ولكي يثبت إيليا تفوق يهوه على بعل ، دعا جميع أنبياء البعل إلى مجابهة علنية أمام الشعب ليظهر لهم من هو الإله الحق . فاجتمع الفريقان على قمة جبل الكرمل ، وكان على كل فريق أن يقرب ثوراً فوق الحطب ثم يدعو إلهه دون أن يشعل ناراً ، فالإله الحق هو الذي يجيب بناره التي تشعل الحطب ويسحب القربان اليه . دعا أنبياء البعل أولاً إلههم ورقصوا وأنشدوا من الصباح إلى الظهر ولكن إلههم لم يجبهم بشيء . وعندما جاء دور إيليا ، تقدم من قربانه ودعا ربه فسقطت من السماء على الفور نار أكلت المحرقة والحطب والحجارة والتراب من حولها . فلما رأى الشعب ذلك سقطوا على وجوههم وقالوا : الرب هو الله ، الرب هو الله . فقال لهم إيليا أمسكوا أنبياء البعل ولا يفلت منهم رجل ، فأمسكوهم فنزل بهم إيليا إلى نهر قيشون وذبحهم هناك "(الملوك الأول ١٨ : ١٩ - ٣٩) .

ومن الشواهد التاريخية على قيام أسرة عمري في إسرائيل ، لدينا نص هام وجد منقوشاً على حجر تذكاري أقامه ملك موآب في شرقي الأردن المدعو مشيع ، تخليداً لإنتصاره على الإسرائيليين وردهم عن موآب بعد أن احتلوها فترة طويلة.والنص مكتوب بالقلم الآرامي – الفينيقي وباللهجة الموآبية القريبة جداً من الكنعانية الفلسطينية ، التي تكلمت بها إسرائيل ويهوذا . وقد اكتشف الحجر التذكاري بموقع ديبان الموآبية ، وهو يحتوي على ٣٤ سطراً معظمها في حالة سليمة . يقول النص في سطوره الأولى ما ترجمته : " أنا ميشع ملك موآب الديباني . أبي ملك على موآب ثلاثين سنة وأنا ملكت بعد أبي ، وبنيت هذا المرتفع للإله كموش ، لأنه أعانني على كل الملوك ولأنه نصرني على أعدائي . أما عمري ملك إسرائيل ،

فإنه أذل موآب أياماً كثيرة لأن كموش كان غاضباً على أرضه (أي أرض موآب) ، ثم خلفه ابنه وقال سأذل موآب أيضاً في أيامي . ولكن كموش جعلني أراه مهزوماً أمامي ، وباد إسرائيل،باد إلى الأبد . لقد احتل عمري كل أرض مادبا وأقام عليها كل أيامه وأيام ابنه أربعين سنة ،ولكن كموش أرجعها في أيامي " (٤) . يلي ذلك تعداد للأعمال العمرانية والإصلاحات التي قام بها الملك في بلاده . هذه الحرب الإسرائيلية المؤآبية مذكورة في سفر الملوك الثاني ولكن وفق سيناريو مختلف تماماً . نقرأ في الملوك الثاني ٣:٤ - ٦ " وكان ميشع صاحب مواش ، فأدى لملك إسرائيل مئة ألف خروف ومئة ألف كبش بصوفها . وعند موت آخاب عصي ملك موآب ، على إسرائيل . وخرج الملك يهورام (ابن آخاب) في ذلك اليوم وعد كل إسرائيل ، وذهب وأرسل إلى يهوشافاط ملك يهوذا يقول : قد عصى علي ملك موآب . فهل تذهب للحرب معي ؟ فقال : أصعد ، مثلي مثلك ، شعبي كشعبك ، وخيلي كخيلك " . وفي طريقهم إلى موآب ينضم اليهم ملك آدوم ويسير الملوك الثلاثة لقتال ميشع ، الذي ينهزم أمامهم ويتحصن داخل عاصمته . وعندما يشتد عليه الحصار يذبح ابنه البكر قرباناً على سور المدينة ، عند ذلك يشعر المحاصرون بالغيظ والغضب من هذه الفعلة !! ويفكون الحصار عن المدية ويعودون إلى ديارهم .

تختلف رواية الملوك الثاني عن رواية ميشع بعدد من النقاط . ففي الرواية التوراتية تُفرض الجزية على موآب في عهد آخاب لا في عهد عمري ، ويعصى ميشع على إسرائيل في عهد يهوشافاط لا في عهد آخاب ، ويقوم ملك إسرائيل بمهاجمة ميشع بالتعاون مع ملك يهوذا لا منفرداً ، ويرتد المهاجمون الثلاثة عن مدينة ميشع بدافع من حسهم الإنساني الراقي (كذا) لا بسبب هزيمتهم على يد ميشع . ونلاحظ بشكل خاص عدم ذكر نقش ميشع لمملكة يهوذا ، وهذا أمر يتفق مع ما قدمناه سابقاً من عدم وجود مملكة اسمها يهوذا خلال القرن التاسع قبل الميلاد . وفي هذه الإختلافات الشاسعة بين النصين وثيقة فريدة عن كيفية تصرف المحرر التوراتي بالخبر التاريخي وتوجيهه وفق المنظور الإيديولوجي الموضوع مسبقاً .

إن ما نستنتجه من نص ميشع ، وهو نص تاريخي لا غبار عليه دوّن زمن الحادثة التي يخبرنا عنها ، أن الملك عمري بعد بنائه للسامرة كان مهتما بالسيطرة على الطرق التجارية

---

4 - W . F . Albright , Palestinian Inscriptions (in , James Pritchard . Ancient Near Eastern Texts , P . 320

الدولية لتأمين اتصاله بالعالم الخارجي . لقد أمنت له المه اهرة مع أقوى ملوك فينيقيا وزواج ابنه آخاب من ابنة ملك الصيدونيين ، الوصول إلى الساحل السوري ، وكان في الوقت نفسه مسيطراً على شبكة التجارة المحلية بما فيها الطريق الصاعد من النقب عبر اورشليم . وبقي أمامه طريق الملوك الدولي الذي يعبر شرقي الأردن بإتجاه دمشق . وبما أن المشيخات القبلية في شرقي الأردن قد أخذت بالتحول إلى ممالك صغيرة وقوية يعتد بها ، فإن إرضاءها الآن صار يتطلب أكثر من دفع القليل لها أو التلويح بالعصا الغليظة ، من هنا كان لا بد من التواجد العسكري الدائم في تلك المناطق من أجل حماية طرق القوافل . وبما أن الملك عمري ، وابنه آخاب من بعده ، كان تابعاً اسمياً لملك دمشق ويدخل معه في معاهدة دفاع مشترك ، كما سنرى بعد قليل ، فإن من المرجح أن تكون دمشق هي التي أطلقت يد أسرة عمري في شرقي الأردن من أجل الحفاظ على المصالح الحيوية للطرفين ، ولتخفيف الأعباء عن دمشق، التي كانت تستعد في ذلك الوقت للمواجهة العسكرية الكبرى مع آشور .

وكان على عرش دمشق في ذلك الوقت ، أي أواسط القرن التاسع قبل الميلاد ، ملك كبير ، وشخصية عسكرية و سياسية فذة ، اسمه هدد عدر ، وهو أول ملك آرامي دمشقي موثق تاريخياً . ولي هدد عدر عرش دمشق خلال الفترة التي ابتدأ فيها المد العسكري الآشوري المنظم والمتواصل على مناطق غربي الفرات ، بعد أن تم إخضاع أو الحصول على ولاء الدويلات الآرامية على الفرات والخابور . وقد افتتح الملك الآشوري شلمنصر الثالث (٨٥٨ ـ ٨٢٤ ق.م) هذا العهد الجديد من الصراع الآشوري الآرامي ، والذي دام أكثر من قرنين من الزمان ، بحملته المعروفة باسم حملة قرقرة . فتصدى له هدد عدر ملك دمشق وجمع تحت لوائه إثني عشر ملكاً من ملوك الدويلات السورية اتحدت في جيش واحد ، وسار للقاء شلمنصر الثالث عند قرقرة على نهر العاصي إلى الشمال من مدينة حماة عام ٨٥٤ ق.م . ولدينا نص طويل ومفصل تركه شلمنصر الثالث معروف باسم نص المسلة السوداء ، يصف الحملة ونتائجها من وجهة النظر الآشورية ، وهذه ترجمته:

".. غادرت نينوى فعبرت نهر دجلة وتقدمت إلى مدن الملك غيامو على نهر بليخ ، فتملكهم الخوف من هيبتي ومن أسلحتي الفتاكة فقتلوا سيدهم غيامو بأسلحتهم (يلي ذلك تعداد لأصناف الأتاوة التي أخذها من المدن المغلوبة) . من سحلالا توجهت إلى كارشلمنصر (= برسيب) وعبرت الفرات في ذروة فيضانه على أطواف من جلد الماعز .

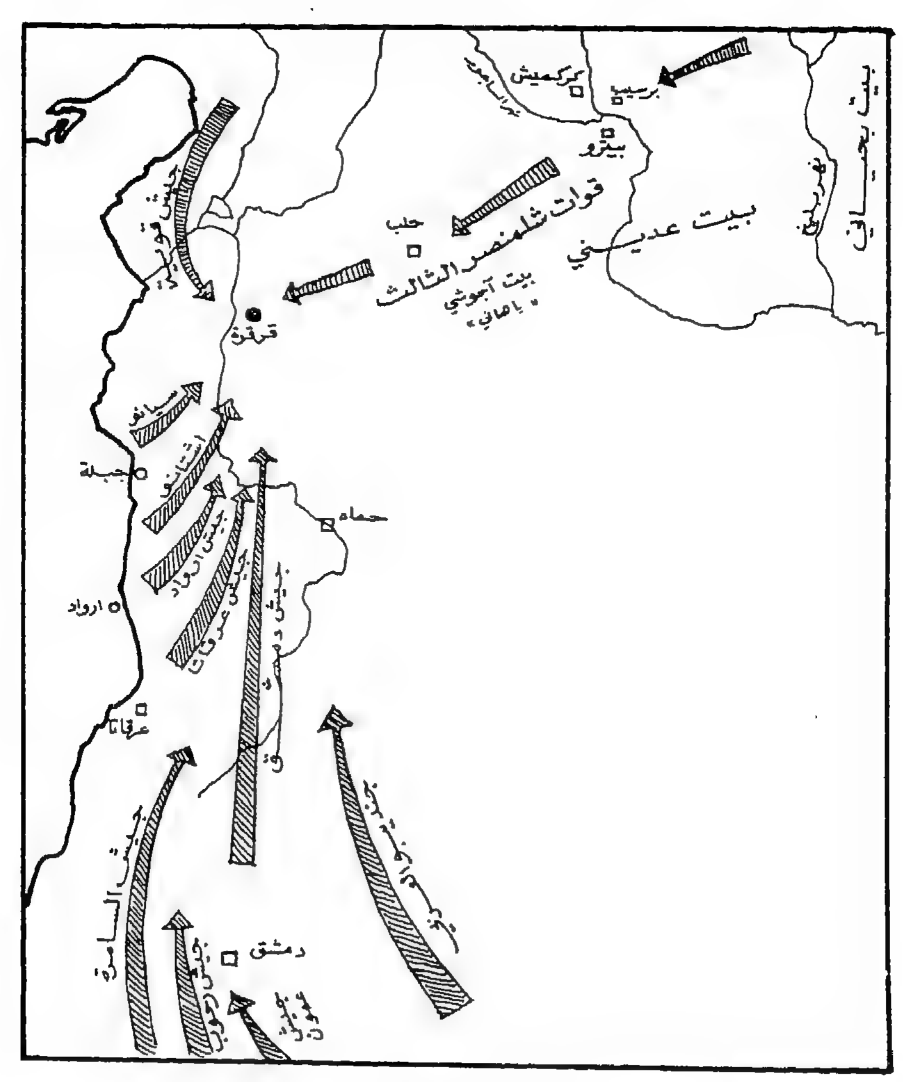
وفي المدينة التي يدعوها أهل حطيئة بترو ، على الجهة الأخرى للفرات عند نهر الساجور، تلقيت الجزية من ملوك الجهة الأخرى للفرات : من سنغارا ملك كركميش ، ومن كوندا شبي ملك كوماجين ، ومن آرام ملك جوشي (تعداد لأصناف الأتاوة النقدية والعينية المدفوعة) . ثم غادرت الفرات نحو حلب التي خاف أهلها وخروا عند قدمي . فتلقيت منهم فضة وذهباً جزية ، وقدمت قرباناً إلى هدد إله حلب . من حلب توجهت إلى مدن إرخوليني ملك حماة ، فتحت مدن أدينو وبرغا ومقره الملكي في أرغانا وأضرمت النار في قصره . غادرت أرغانا وأتيت إلى قرقره فدمرتها وأحرقتها .

هب إلى ساح المعركة هدد عدر ملك إميريشو (= مملكة دمشق)(*) ومعه ١٢٠٠ عربة و ١٢٠٠ فارس و ٢٠,٠٠٠ جندي . وإرخوليني ملك حماة ومعه ٧٠٠ عربة و ٧٠٠ فارس و ١٠,٠٠٠ جندي . وآخاب الإسرائيلي ومعه ٢٠٠٠ عربة و ١٠,٠٠٠ جندي . ومن موصري جاء ١٠,٠٠٠ جندي . ومن قوية جاء ٥٠٠ جندي . ومن عرقاتا ١٠٠ عربة و ١٠,٠٠٠ جندي . وجاء ماتينو بعل من أرواد ومعه ٢٠٠ جندي . وأمير أشتانو ومعه ٢٠٠ جندي . وأدنو بعل من سيانو ومعه ٣٠ عربة و ١٠٠٠ جندي . وجنديبو العربي ومعه ١٠٠٠ جمل . وبعشا أمير رحوبي ومعه ..ومن عمون .. فكانوا اثني عشر ملكاً هبوا في وجهي للمعركة الحاسمة ، فحاربتهم بما وهبني الإله آشور من قوة ، وبما وهبني الإله نرجال من سلاح فتاك ، وهزمتهم بين مدينة قرقرة ومدينة جيلزو ، وملأت نهر العاصي بجثثهم .. " (٥) .

نلاحظ من دراسة التنظيم القتالي للحلفاء أن مملكة دمشق قد قدمت القوة الضاربة الرئيسية ، تليها مملكة السامرة فمملكة حماة . ويبدو أن توزيع القوات المقدمة من قبل الحلفاء كان مدروساً ومخططاً بعناية وبما يتلاءم والإمكانات المادية لكل دولة . فبينما تفوق هدد عدر على آخاب بالعدد الهائل من الفرسان والمشاة الذين قدمهم ، فإن آخاب قد تفوق على الجميع بعدد المركبات العسكرية التي بلغت الألفي مركبة . كما يمكن أن نلاحظ من الخارطة ، التي رسمتها للمعركة على الصفحة التالية ، أن الدويلات الحليفة لدمشق تتوضع على خط التجارة الدولي الصاعد من الجزيرة العربية عبر شرقي الأردن نحو الأناضول . وأن

(*) لا تستخدم النصوص الآشورية تسمية آرام للدلالة على مملكة دمشق بل تسمية "إميريشو" أو "شا إميريشو" ، وتحتفظ بالاسم دمشق للدلالة على عاصمة هذه المملكة ، كما سنرى في النصوص اللاحقة .

5 - *Leo Oppenheim , Babylonian and Assyrian Historical Texts (in - James Pritchard , Ancient Near Easter Texs PP . 278 - 279 .*



٨ ـ. معركة قرقرة

بعضها مثل أرواد وعرقاتا وسيانو (في منطقة جبلة) كانت تتحكم بالتجارة البحرية ومسالكها البرية نحو الداخل . وأغلب الظن أن ميناء أرواد كان الثغر الرئيسي الذي تعتمد عليه دمشق في تجارتها البحرية ، نظراً لإستقلال بقية المدن الفينيقية على الساحل اللبناني في سياستها الخارجية وعدم تنسيقها مع مملكة دمشق . ويبدو هذا الإستقلال واضحاً في عدم مشاركة هذه المدن في معركة قرقرة ، أو في المعارك التالية التي خاضها الحلف الدمشقي ضد آشور ، ولا حتى بطريقة رمزية كما فعل ملك أرواد ، الذي واكب الحلفاء شخصياً ولكن بمئتي جندي فقط .

أما عن نتيجة معركة قرقرة ، فرغم ادعاء الملك الآشوري الإنتصار التام على الحلفاء ، إلا أن مسار الأحداث اللاحق ، الذي سنتابعه بعد قليل ، يظهر أن المعركة انتهت إلى إحدى نتيجتين ؛ فإما تراجع أحد الفريقين دون التوصل إلى حسم كامل ، وإما هزيمة الآشوريين وعودتهم إلى بلادهم من أجل التحضير لحملة جديدة . ذلك أن جميع ملوك التحالف الدمشقي قد عادوا إلى عواصمهم ، وكان على شلمنصر الثالث أن يعود لمواجهة نفس التحالف في حملاته المؤرخة في أعوام ٨٤٩ و ٨٤٨ و ٨٤٦ و ٨٤٥ ق.م . إضافة إلى أن نص المسلة السوداء لم يذكر شيئاً عن قتل أو أسر أي ملك من ملوك التحالف ، ولم ينته بالصيغة المعروفة في السجلات الحربية الآشورية ، التي تقول : " وجعلتهم يركعون تحت قدمي ويقدمون لي الجزية ". ولقد كان على آشور أن تنفق قرناً أخر ونيف ، قبل أن تكون قادرة على تحصيل الجزية من ملوك التحالف واحداً إثر أخر .

بعد خمس سنوات من معركة قرقرة ، يتوجه شلمنصر الثالث مجدداً إلى مناطق غربي الفرات عام ٨٤٩ ق.م ، فيسكت التمرد القائم في كركميش وبيت جوشي عند الفرات ، ثم يتوجه إلى وسط وجنوب سورية حيث يكون بانتظاره هدد عدر ملك دمشق على رأس المتحالفين السابقين ، ولكن من دون إسرائيل التي آثرت الوقوف على الحياد بعد وفاة الملك آخاب وصعود ابنه يورام على العرش . ويرد خبر هذه الحملة في أحد تلك النصوص المختصرة التي تلخص أخبار الحملات نقلاً عن النصوص المنفردة الأطول . ولسوء الحظ فإن النصوص المفصلة عن هذه الحملة الآشورية الثانية والحملات التي تلتها ضد مملكة دمشق قد ضاعت . يقول نص شلمنصر عن حملة عام ٨٤٩ ق.م بعد وصف سريع لمسار الحملة مايلي : " عندها ، هدد عدر ملك إميريشو ، وإرخويني ملك حماة ، والملـوك الإثنا عشر ، وضعوا

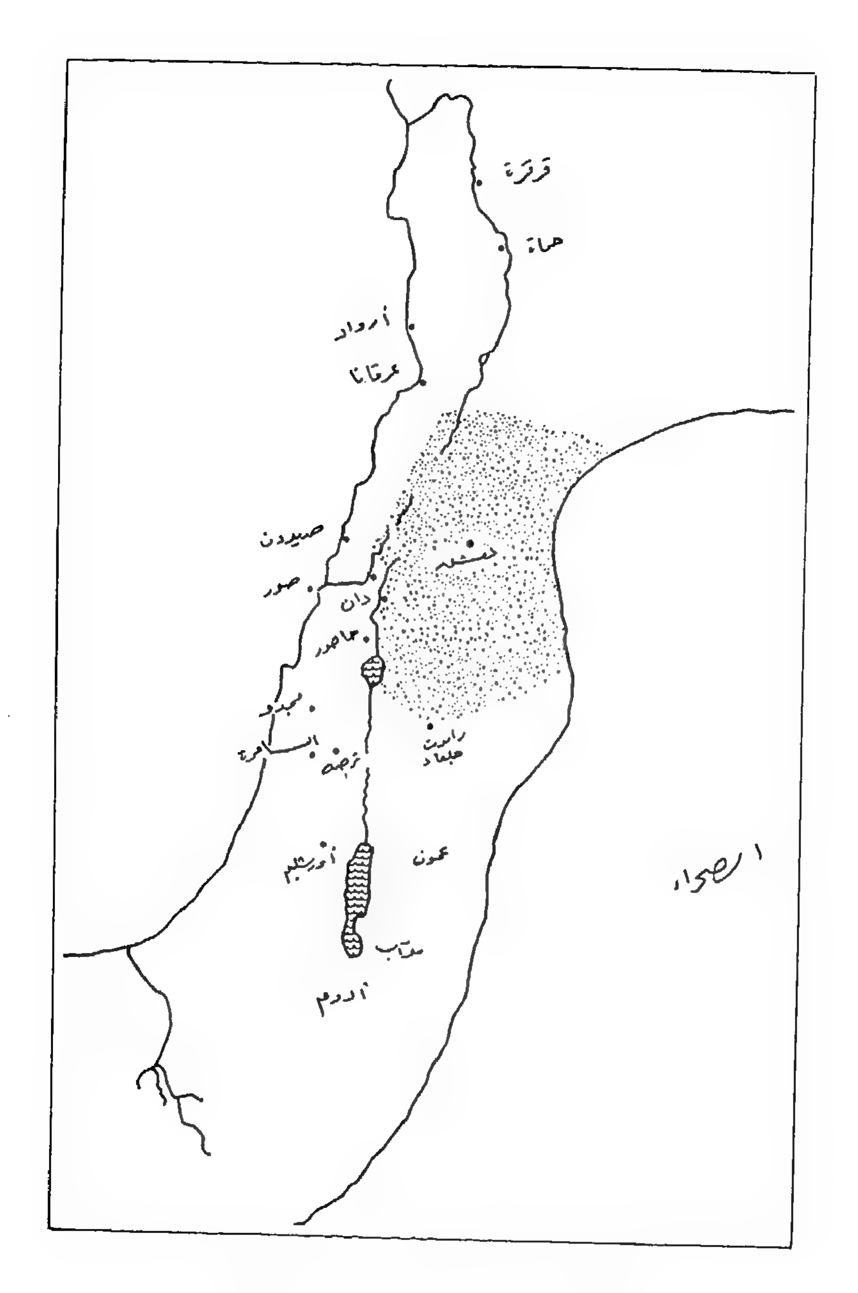
ثقتهم بقواتهم المشتركة وشنوا الحرب ضدي ، فقاتلتهم وانتصرت عليهم وغنمت عرباتهم وخيول فرسانهم وعددهم الحربية ، فهربوا من وجهي طالبين سلامة أرواحهم "[٦] . وفي هذه المرة أيضاً لا يتابع شلمنصر تقدمه نحو حماة أو دمشق أو أية عاصمة من عواصم دول التحالف ، الأمر الذي يدل مجدداً إما على هزيمته على يد هدد عدر ، أو تراجعه دون التوصل إلى الحسم الكامل . هذا ونستدل من النصوص المختصرة لبقية المعارك اللاحقة بين الطرفين في الأعوام ٨٤٨ و ٨٤٦ و ٨٤٥ ق.م على عدم مقدرة الآشوريين تحقيق أي تقدم يذكر في مناطق غربي الفرات خلال حياة هدد عدر ، الذي توفي بعد الحملة الآشورية الأخيرة في مدينته إثر مرض عضال .

رغم السلطة الواسعة التي تمتعت بها مملكة دمشق على مناطق غربي الفرات منذ أواسط القرن التاسع قبل الميلاد ، ورغم بنائها لقوة عسكرية جبارة وقيادتها للتحالف في كل معركة مع آشور ، وتقديمها القسم الأكبر من القوات والمعدات اللازمة للمعركة ، إلا أن دمشق لم تشكل إمبراطورية سورية بالمفهوم الرافدي أو المصري ، ولم تكن راغبة في تشكيل مثل هذه الأمبراطورية .إن ما صنعته دمشق كان إمبراطورية إسمية غير معلنة ، أو فلنقل نظاماً إقليمياً سياسياً خاصاً ، يتفق مع المفهوم السوري للسلطة و الحكم ، ومع نظام دولة المدينة الذي كان سائداً في بلاد الشام منذ عصورها المغرقة في القدم ، والذي لم يتحول في يوم من الأيام إلى إمبراطورية كبرى . فلقد رأى السوريون في دولة المدينة النظام السياسي الأمثل ، الذي يطلق الإمكانات المبدعة للأفراد والجماعات ، ويحافظ على مشاركة أكثر فعالية بين السلطة والشعب ، بالغاً ما بلغ من استئثار بعض الملوك بالسلطان وانفرادهم بإتخاذ القرار . لأن السلطة في دولة المدينة تبقى قريبة من الناس قادرة على التفاعل المباشر معهم ، بعكس السلطة الإمبراطورية التي تفصلها عن الناس أسوار العاصمة وأسوار القصور الملكية وأسوار الهرمية البيروقراطية . ولقد قلد الأغارقة السوريين في نظامهم السياسي الذي اقتبسوه عن فينيقية ، وحافظوا على نظام دولة المدينة وتعبدوا له ، فأعطوا من خلاله كل إنجازاتهم الثقافية .

قبل أن نغادر عصر هدد عدر ، الذي أسس لنظام إقليمي سوري استمر قرابة قرن من الزمان ، لا بد من التوقف عند الموضع المقابل في الرواية التوراتية والتفتيش في أخبار الملك آخاب ابن عمري عن أثر هذه الأحداث الجسام التي كانت تجري على الساحة السورية .

---

6 - Wayne . T . Pitard , op . cit , P. 129 .



٩ ـ مساحة مملكة دمشق في عصر هدد عدر

تتجاهل الرواية التوراتية في سفر الملوك الأول بين الإصحاح ١٦ والإصحاح ٢٢ ، وهي الإصحاحات التي تتحدث عن حياة وأعمال الملك آخاب ، تجاهلاً تاماً الحروب الآشورية السورية ، ولا يرد فيها ذكر الملك شلمنصر الثالث أو ذكر هدد عدر ملك دمشق ، وبالتالي فإنها لا تورد شيئاً عن دخول آخاب في حلف دمشق ولا عن مساهمته في معركة قرقرة . وتفاجئنا الرواية التوراتية هنا بأن ملك دمشق الذي عاصر آخاب ليس هدد عدر بل ملك آخر اسمه بن هدد ، الذي يرد اسمه مجرداً دون نسب . من هنا فقد تعود المؤرخون التقليديون على دعوة هذا الملك ببن هدد الثاني تمييزاً له عن بن هدد بن طبريمون بن حزيون ، الذي هاجم بعشا ملك إسرائيل بتحريض من آسا ملك يهوذا ، مما رأيناه في الإصحاح ١٥من سفر الملوك الأول ، سابقاً وتحدثنا عنه . وفي مقابل الحروب الآشورية السورية وتحالف إسرائيل مع دمشق ، فإن الرواية التوراتية تقص عن حروب طاحنة جرت بين بن هدد ملك دمشق وآخاب ملك إسرائيل . نقرأ في الملوك ٢٠ ما يلي :

" وجمع بنهدد ملك آرام كل جيشه وإثنين وثلاثين ملكاً معه وخيلاً ومركبات ، وصعد وحـــاصر السامرة وحاربها . وأرسل رسلاً إلى آخاب ملك إسرائيل وقال : هكذا يقول بنهدد : لي فضتك وذهبك ولي نساؤك الحسان . فأجاب ملك إسرائيل وقال : حسب قولك يا سيدي الملك ، أنا و جميع مالي لك .فرجع الرسل (ثانية إلى ملك إسرائيل) وقالوا له هكذا تكلم بنهدد قائلاً : إني قد أرسلت اليك قائلاً إن فضتك وذهبك ونساءك وبنيك تعطيني اياهم ، فإني في نحو هذا الوقت غداً ، أرسل عبيدي إليك فيفتشون بيتك وبيوت عبيدك ، وكل ما هو شهي في عينيك يضعونه في أيديهم ويأخذونه . فدعا ملك إسرائيل جميع شيوخ الأرض وقال إعلموا وانظروا . إن هذا يطلب الشر لأنه أرسل الي يطلب نسائي وبنيّ وفضتي وذهبي ولم أمنعها عنه . فقال له كل الشيوخ وكل الشعب لا تسمع له ولا تقبل .. ". فاصطف الآراميون على المدينة في اليوم التالي وشددوا الحصار . وإذا بنبي يتقدم الى ملك إسرائيل ويخبره بأن الرب سيدفع آرام إلى يده لكي يعرف أنه هو الإله الحق . فخرج ملك إسرائيل بجنوده جميعاً وعددهم سبعة آلاف ، وفاجأ ملك آرام الذي كان يشرب ويسكر في الخيام هو والملوك الإثنان والثلاثون الذين معه . ولما جاءه خبر ظهور الإسرائيليين قال باستخفاف واضح : " إن كانوا خرجوا للسلام فأمسكوهم أحياء . وإن كانوا قد خرجوا للقتال فأمسكوهم أحياء ". ولكن ضربة ملك إسرائيل كانت عظيمة

ومفاجئة ، فهرب ملك آرام ومن معه ، وعاد إلى بلده (الملوك الأول ٢٠ : ١ - ٢١)

وبعد مرور عام كامل ، رجع ملك آرام إلى إسرائيل ومعه جيوش الملوك التابعين له ، التي عين عليها قواداً من عنده لإحلال مزيد من التنسيق القتالي تحت قيادة واحدة ، واختار لأرض المعركة أرضاً سهلية لا هضبية ، ليستطيع استخدام مركباته الحربية بكفاءة أكثر ، لأن هذه المركبات كانت عديمة الفائدة في المعركة الأولى التي خاضها في المناطق الهضبية حول السامرة . نقرأ في بقية سفر الملوك الأول ٢٠ : ما يلي " وعند تمام السنة ، عدّبنهدد الآراميين وصعد إلى أفيق ليحارب إسرائيل . وأُحْصِيَ بنو إسرائيل وتزودوا وساروا للقائهم ، فنزل بنو إسرائيل مقابل نظير قطيعين من المعزى ، وأما الآراميون فملأوا الأرض . فتقدم رجل الله وكلم ملك إسرائيل وقال : هكذا قال الرب ، من أجل أن الآراميين قا لوا ان الرب هو إله جبال وليس إله أودية أدفع هذا الجمهور العظيم ليدك فتعلمون اني أنا الرب . فنزل هؤلاء مقابل أولئك سبعة أيام ، وفي اليوم السابع اشتبكت الحرب ، فضرب بنو إسرائيل من الآراميين مئة ألف راجل في يوم واحد ، وهرب الباقون إلى أفيق إلى المدينة ، وسقط السور على السبعة والعشرين ألف الباقين ، وهرب بنهدد ودخل المدينة من مخدع إلى مخدع". ولما جدّ أتباع ملك إسرائيل في البحث عنه ، أرسل أتباعه لاستعطاف ملك إسرائيل و طلب العفو منه ،فأعطاه ملك إسرائيل الأمان فخرج إليه ،فأصعده ملك إسرائيل إلى مركبته وأكرمه . وكان بين الملكين عهد يرد بموجبه ملك دمشق المدن التي كان أبوه قد أخذها من أبي ملك إسرائيل ، ويفتح أمام تجار السامرة أسواق دمشق ، كما فتح الملك السابق لإسرائيل أسواق السامرة أمام تجار دمشق . وانطلق بن هدد راجعاً إلى بلده بعد قطع هذاالعهد . ولكن الرب غضب على ملك إسرائيل لإطلاقه عدوه ، وأرسل اليه نبياً قال له : " هكذا قال الرب : لأنك أفلتّ من يدك رجلاً قد حرّمته ، تكون نفسك بدل نفسه وشعبك بدل شعبه . فمضى ملك إسرائيل إلى بيته مكتئباً مغموماً ، وجاء إلى السامرة " (الملوك الأول ٢٠ : ٢٦ - ٤٣) .

وأقام آرام وإسرائيل ثلاث سنين بدون حرب ، حافظ خلالها ملك دمشق على العهد الذي قطعه لملك إسرائيل . ولكن ملك إسرائيل بعد وفاقه مع ملك يهوذا المدعو يهوشافاط ، هو الذي فكر بأن ينكث بعهده مع دمشق . فبينماكان ملك يهوذا في زيارة ودية لملك إسرائيل ، قال الملك لعبيده : " أتعلمون أن راموت جلعاد لنا ، ونحن ساكتون عن أخذها من

يد ملك آرام ؟ وقال ليهوشافاط أتذهب معي للحرب إلى راموت جلعاد ؟ فقال يهوشافاط لملك إسرائيل : مثلي مثلك وشعبي كشعبك وخيلي كخيلك ..″ . فجمع ملك إسرائيل كل الأنبياء ، نحو أربعمئة رجل واستشارهم أيذهب للقتال أم لا . ولكن الرب ضلل هؤلاء الأنبياء ووضع على فمهم مشورة كاذبة ،فقالوا للملك أن يذهب للقتال لأن الرب سيقف إلى جانبه وأنه سيدفع إليه براموت جلعاد : ″ فصعد ملك إسرائيل ويهوشافاط ملك يهوذا إلى راموت جلعاد . فقال ملك إسرائيل ليهوشافاط : إني أتنكر وأدخل الحرب ، وأما أنت فالبس ثيابك . فتنكر ملك إسرائيل ودخل الحرب . وأمر ملك آرام رؤساء المركبات التي له ، الإثنين والثلاثين ، وقال لا تحاربوا كبيراً ولا صغيراً إلا ملك إسرائيل وحده . فلما رأى رؤساء المركبات يهوشافاط قالوا انه ملك إسرائيل فمالوا عليه ليقاتلوه ،فصرخ يهوشافاط . فلما رأى رؤساء المـركبات انه ليس ملك إسرائيـل رجعـوا عنه . وإن رجـلاً نـزع في قوسه غير متعمد وضرب ملك إسرائيـل بين أوصـال الدرع فقال لمدير مركبته أخرجني من الجيش لأني قد جرحت . واشتد القتال في ذلك اليوم ، وأوقف الملك في مركبته أمام راموت جلعاد ومات عند المساء وجرى دم الجرح إلى حضن المركبة . وعبرت الرنّة في الجند (أي جماعة المنادين) عند غروب الشمس قائلاً : كل رجل إلى مدينته ، وكل رجل إلى أرضه ، فمات الملك وأدخل السامرة ..″ (الملوك الأول ٢٢ : ١ ـ ٣٧) .

والآن ، ما هي علاقـة هذه الصـورة ، التي تقدمها لنا الـرواية التـوراتية عن العلاقات بين دمشق و السامـرة ، بالصورة التاريخية التي قدمتها لنا النصوص الآشورية المعاصرة للأحداث ؟

إضافة إلى ما لاحظناه سابقاً من تجاهل الأحداث الجارية على الساحة السورية ، خارج العلاقات الثنائية بين دمشق وإسرائيل ، وعدم الإشارة إلى ملك دمشق بالإسم هدد عدر بل بالإسم بن ههدد ، فإن الرواية التوراتية ترسم للملك آخاب صورة مختلفة تماماً عن صورته التاريخية . ففي رواية سفر الملوك الأول ٢٠ ، نجد آخاب ملكاً مستضعفاً قليل الحيلة والعدة والجند والمركبات القتالية ، على عكس ما رأيناه في النص الآشوري عندما قدم إلى حلف قرقرة ثاني قوة ضاربة بعد دمشق . وهو بعد أن يعلن خضوعه لملك آرام يعود فيقوى عليه بمعونة الرب ، الذي أراد أن يُظهر له ولأهل إسرائيل إنه الإله الحق ، ويتغلب آخاب على بن هدد مرتين ، ولكنه يخسر المعركة الثالثة ويخسر حياته أيضاً ، لأن الرب قد غضب عليه لإطلاقه بن هدد في الوقت

الذي توجب عليه فيه قتله . أما عن ملك آرام ، فإنه رغم ظهوره في النص التوراتي رئيساً لتحالف الملوك السوريين الذين يرتفع عددهم هنا إلى اثنين وثلاثين ، يقف عاجزاً أمام الفئـة القليلة الإسرائيلية ولا يستطيع التغلب على ملك إسرائيل الا بعد خذلان الرب له والتخلي عنه . فأي الصورتين هي الأقرب للحقيقة التاريخية ؟ لماذا لم يظهر الجانب القوي في سيرة آخاب التوراتية ، وهو الذي تُظهر لنا آثار مدينة السامرة وآثار مدنه الأخرى مدى قوته وغناه واتساع نفوذه ؟ لماذا غيرت الرواية التوراتية اسم ملك دمشق ، وما علاقة هدد عدر النصوص الآشورية بين هدد النص التوراتي؟ لماذا لم تذكر الرواية التوراتية شيئاً عن حلف قرقرة ومشاركة آخاب في هذا الحلف؟

لقد لاحظ المؤرخون منذ وقت مبكر اختلاف الروايتين الآشورية والتوراتية فيما يتعلق بملك دمشق وملك إسرائيــل ، وطبيعة العلاقات بين المملكتين خلال عصر هدد عدر وآخاب . وقد قدم بعض المؤرخين حلاً لهذا التناقض بأن وضعوا حروب دمشق وإسرائيل في مطلع عهد آخاب لا قبل وفاته ، وهذا ما يترك حوالي عشرين سنة تقريباً بين صورة آخاب الملك الضعيف في بداية حكمة ، و صورته كملك قوي وحليف لدمشق في أواخر فترة حكمه (Kraeling , 1910 - Morgentren , 1940) . ولكن هذا الحل على ضعفه ، لا يحل مسألة اسم ملك دمشق ، الذي حوله النص التوراتي من هدد عدر إلى بن هدد . وفي المقابل ، فإن البعض الآخر من المؤرخين يرى أن مشكلة التناقض مبالغ فيها ، وأنه من الممكن لأحداث الحروب المذكورة في الإصحاحين ٢٠ و ٢٢ من سفر الملوك الأول أن تكون قد جرت في نهاية حكم آخاب (Unger , 1957) . وهناك فريق ثالث أخذ يرى أن روايات الملوك الأول ٢٠ و ٢٢ لم تكتب أصلاً عن الملك آخاب ، وأنها تنتمي إلى سيرة أحد ورثة الملك ياهــو، الذي أزاح أسرة عمري عن الحكم وأسس لأسرة حاكمة جديدة في السامــرة ، وقعت بعـد مـوته تحت سيطـرة ملك دمشق حــزائيل، الذي خلف هدد عدر (Miller 1964 - Jespen , 1940 - Whitley , 1952) . ومما يدعم وجهة نظر هؤلاء أن اسم آخاب في أخبار المعارك الثلاثة لم يرد إلا مرات قليلة ، بينما استعيض عنه بلقب " ملك إسرائيل " في معظم المواضع ومن دون ذكر الإسم . ففي الإصحاح ٢٠ ورد إسم آخاب في ثلاثة مواضع فقط ، أما في المواضع العشرة الباقية فقد اكتفى المحرر بإستعمال صيغة " ملك إسرائيل" دون ذكر الاسم . وفي الإصحاح ٢٢ ، يرد اسم آخاب مرة واحدة فقط ، وفي ستة مواضع أخرى يستعمل المحرر تعبير " الملك " وفي خمسة عشر موضعاً يستعمل صيغة "

ملك إسرائيل "(٧).

ونحن إذ نقف إلى جانب أصحاب الرأي الأخير ، فإننا نضيف إليه ما يلي : إن الأخبار التي ساقها المحرر التوراتي في الإصحاحين ٢٠ و ٢٢ من سفر الملوك الأول ، كانت تدور حول ملك مجهول الإسم لإسرائيل ، وقد تم حشر إسم آخاب حشراً في هذه الأخبار ثم نُسبت اليه . والسبب في ذلك ، عدم وجود أخبار موثقة بين يدي المحرر عن تلك الفترة الحافلة من أواسط القرن التاسع قبل الميلاد ، وعن تاريخ العلاقات الآشورية السورية ، والآرامية الفلسطينية ،خلال عصر آخاب . ولا أدل على ذلك من جهلهم بوجود الملك الكبير هدد عدر المعاصر لآخاب وبحروبه الخمسة ضد آشور ، وبالنظام السياسي الإقليمي الذي فرضه وشمل إسرائيل من جملة ما شمل من الدويلات الآرامية والكنعانية . ويبدو أن محرري التوراة قد وصلهم علم ملك كبير في المنطقة اسمه هدد عدر ، ولكنهم لم يستطيعوا وضعه في الإطار التاريخي والجغرافي الصحيح ، فجعلوه ملكاً على صوبة في عصر الملك داود ، وصنعوا منه خصماً لداود تحت اسم هدد عزر . وبذلك نستيطع أن نفهم الأساس التاريخي لدعوى امتداد سلطة ملك صوبة إلى الفرات ، والتي تستند أساساً إلى الأخبار اللاحقة عن سلطة هدد عدر ملك دمشق . ولما بقي عرش دمشق شاغراً في عهد الملك آخاب ، جعلوا عليه ملكاًاسمه بن هدد ، واستلهموا بعض الأخبار اللاحقة عن بن هدد بن حزائيل ملك دمشق فيما بعد ، وصاغوا منها قصصاً ملأت تلك الفترة المجهولة لديهم تماماً . وهذا التحليل الذي أقدمه هنا ، يخرج البحث في هذه المسألة من الحلقة المفرغة التي دار بها حتى الآن ، و يضعه على أرضية منطقية لا غبار عليها .

ويمكن أن نضيف إلى ما قدمناه أعلاه ، أن محرري التوراة إلى جانب جهلهم بالأحداث الجارية من حول إسرائيل ، وفي داخلها، في عهد آخاب ، فإن اهتمامهم الرئيسي في النصف الثاني من سفر الملوك الأول الذي يتضمن أخبار أسرة عمري ، كان منصباً على أخبار النبي إيليا والنبي أليشع من بعده ، وتبشيرهما في مملكة السامرة والعجائب التي صنعاها . أي أن المحور الرئيسي للرواية هنا كان يدور حول فترة من التاريخ الديني بالدرجة الأولى ، أما الخبر التاريخي فكان ثانوياً ويأتي في سياق أخبار هذا النبي أو ذاك كعنصر مساعد في القصة الدينية التي تجري في جو ميثيولوجي صرف ؛ فالنبي إيليا يعتزل عند نهر كريت حيث كانت

---

7 - Ibid , PP . 114 - 125 .

الغربان تعوله وتأتي إليه بالطعام . وبعد أن جف النهر ذهب إلى بلدة صرفة وأقام في بيت امرأة أرملة ، وطيلة مدة إقامته عندها لم يفرغ من بيتها الدقيق والزيت حتى انتهت أيام الجفاف في الأرض ، وعندما مات ابن الأرملة ، صلى إيليا فعادت الحياة إلى الصبي . وعندما أرسل الملك وراءه ضابطاً وخمسين رجلاً للقبض عليه أتت نار من السماء والتهمتهم جميعاً .وعندما أراد عبور الأردن مع النبي اليشع ضرب الماء بردائه فانشق الماء ومشى النبيان على اليابسة . ثم جاءت بعد ذلك مركبة نارية من السماء فحملت إيليا إلى السماء وترك رداءه خلفه لأليشع .. الخ . وفي خضم هذا الجو الميثولوجي ، فإن أي خبر عن ملك يمكن أن يعزى لملك آخر في سياق القص الأسطوري الذي يجعل التاريخ آخر هم من همومه.

وخلاصة الأمر ، فإن الملك آخاب قد توفي عام ٨٥٣ ق.م ، أي بعد عام واحد من معركة قرقرة التي كان فيها شريكاً لدمشق ، ومن غير المحتمل على الإطلاق أن تكون المملكتان قد دخلتا في حرب ضروس بينهما بعد قرقرة مباشرة ، ولا يوجد في الواقع أي مبررر لهذه الحرب ، لأن حلف دمشق قد بقي قائماً بين المتحالفين أنفسهم حتى وفاة هدد عدر بعد عشر سنوات تقريباً من معركة قرقرة . ورغم أن إسرائيل لم تذكر في النصوص الآشورية اللاحقة كعضو في الحلف ، إلا أن مسار الأحداث يشير إلى أنها بقيت على السياسة المرسومة من قبل دمشق رغم عدم مشاركتها العسكرية . وكل هذا يعني أن النص التوراتي إضافة إلى عدم تقديمه معلومات موثوقة عن مملكة إسرائيل في عهد آخاب ، فإنه لا يقدم لنا معلومات عن مملكة دمشق أيضاً خلال أواسط القرن التاسع قبل الميلاد ، ويجب عدم اللجوء إليه في إعادة بناء تاريخ دمشق خلال هذه الحقبة .

توفي هدد عدر في ظروف غامضة ، في وقت ما بين عام ٨٤٥.ق.م وهو العام الذي جرت فيه آخرحرب بينه وبين شلمنصر الثالث ، وبين عام ٨٤١ ق.م وهو العام الذي ظهر فيه ذكر خليفته حزائيل لأول مرة في السجلات الآشورية . وعن وفاة هدد عدر لدينا وثيقة آشورية مختصرة تنتقل مباشرة من معركة قرقرة إلى موت هدد عدر في مدينته دون التعرض لبقية الحروب السورية الآشورية التي جرت بين هذين الحدثين . نقرأ في النص الآشوري ما يلي : " لقد هزمت هدد عدر ملك إميريشو مع إثني عشر أميراً من حلفائه وجندلت ٢٩٠٠٠ من محاربيه الأقوياء ، ودفعت بمن تبقى من قواته إلى نهر العاصي فتفرقوا في كل اتجاه يطلبون أرواحهم . هدد عدر مات (أو انتهى) واغتصب العرش مكانه حزائيل إبن



١٠ ـ سورية السياسية في القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد

لا أحد . فدعا الجيوش الكثيرة وثار في وجهي ، فقاتلته وهزمته وغنمت كل مركباته . أما هـو فقـد هـرب طالباً حياته ، فتعقبته إلى دمشق مقره الملكي ، حيث قطعت أشجار بساتينه "[٨] . لا يعطينا هذا النص المقتضب فكرة عن كيفية موت هدد عدر ولا عن كيفية اغتصاب حزائيل (الذي يدعوه النص ابن لا أحد دلالة على نسبه العامي) السلطة . ويبدو أن فترة من الفوضى والإضطرابات أعقبت موت هدد عدر انتهت باستلام القائد العسكري حزائيل للسلطة ، والسير على خطى هدد عدر في مقارعة آشور . ورغم أن نص شلمنصر هنا لا يوضح هوية الجيوش التي دعاها حزائيل إلى جانبه بل يكتفي بالقول بأنه " قد دعى الجيوش الكثيرة " ، فإن من الواضح هنا ، أن ملك دمشق الجديد قد استمر سيداً لمناطق غربي الفرات ، وأنه كان قادراً في أي وقت على دعوة الحلفاء السابقين أو غيرهم ، وأن هؤلاء كانوا جاهزين لتلبية النداء . ورغم أن شلمنصر الثالث قد تعقب في هذه الحملة ، ولأول مرة ، ملك دمشق وحاصره في عاصمته ، إلا أن كل ما استطاع الملك الآشوري تحقيقه ، هو أن قطع أشجار غوطة دمشق والرضى من الغنيمة بالإياب .

يعطينا النص التوراتي في سفر الملوك الثاني قصته الخاصة عن اغتصاب حزائيل للسلطة في دمشق . و بما أننا قد أثبتنا فيما سبق أن محرري التوراة لم يكن لديهم معلومات عن عصر هدد عدر ونظيره في إسرائيل الملك آخاب ، فإن قصتهم عن صعود حزائيل قد استمدوها من الأخبار التي تواترت إليهم من عصر حزائيل لا من عصر هدد عدر . فلقد عرفوا بالتأكيد أن حزائيل لم يكن من الأسرة المالكة الدمشقية وأنه كان مغتصباً للعرش ، فقاموا بصياغة قصة عن ذلك الحدث تغلب فيها العناصر اللاهوتية على العناصر التاريخية . فلسبب غير معلوم يتوجه النبي أليشع إلى دمشق ، ويعرف ملك دمشق المدعو هنا بن هدد بوجود النبي ، وكان مصاباً بداء عضال ، فيرسل تابعه حزائيل ليسأل النبي في أمر مرضه وهل يشفى منه أم لا : " فذهب حزائيل لاستقبال أليشع وأخذ بيده ومن كل خيرات دمشق حمل أربعين جملاً ، وجاء ووقف أمامه وقال : ابنك بنهدد ملك آرام قد أرسلني اليك قائلاً هل أشفى من مرضي هذا . فقال له أليشع : إذهب وقل له شفاءً تشفى ، وقد أراني الرب أنه موتاً يموت . فجعل نظره عليه وثبته حتى خجل ، فبكى رجل الله . فقال حزائيل : لماذا يبكي سيدي ؟ فقال : لأني علمت ما ستفعله ببني إسرائيل من الشر ؛ فإنك تطلق النار في

8 - *Leo Oppenheim , op . cit , P . 280 .*

حصونهم وتقتل شبانهم بالسيف وتحطم أطفالهم وتشق حراملهم . فقال حزائيل : ومن هو عبدك الكلب حتى يفعل هذا الأمر العظيم ؟ فقال اليشع : قد أراني الرب إياك ملكاً على آرام . فانطلق من عند أليشع ودخل على سيده . فقال له : ماذا قال لك أليشع ؟ فقال : قال لي انك تحيا . و في الغد أخذ اللبدة وغمسها بالماء ونشرها على وجهه ومات . وملك حزائيل عوضاً عنه .." (الملوك الثاني ٨ : ٧ - ١٥) .

يؤيد هذه القصة التوراتية بعض الباحثين ، الذين بقوا على إصرارهم بوجود ملك اسمه بن هدد معاصر لآخاب رغم كل الدلائل المعاكسة لذلك (Jespen 1941) ، فهؤلاء يرون أن الفترة الفاصلة بين آخر ذكر لهدد عدر في النصوص الآشورية عام ٨٤٥ ق.م ، وأول ذكر لحزائيل عام ٨٤١ ق.م ، ومقدارها ثلاث سنوات ، تكفي لأن يعتلي عرش دمشق خلالها ملك اسمه بن هدد ، هو ابن هدد عدر ، وأن ابن هدد عدر هذا هو الذي قتل على يد حزائيل وفق الرواية التوراتية[٩] . ولكن المشكلة في هذا التفسير أن الفترة ، التي تغطيها حروب بن هدد هذا وفق الرواية التوراتية تقارب الست سنوات ، أي ضعف الفترة المفترضة هنا لحكم بن هدد ابن هدد عدر . فبعد الحملة الأولى التي لا بد أن الإعداد لها والقيام بها قد تطلب عاماً كاملاً ، فإن الحملة الثانيــة التي شنها ملك دمشق على إسرائيــل قد جــرت بعد سنة كاملـــة من الحملة الأولى (الملوك الأول ٢٠ : ٢٦) ، وبعد أن عاد ملك دمشق من حملته الثانية هذه ، أقام الطرفان بدون حرب مدة ثلاث سنوات (الملوك الأول ٢٢ : ١) ، ثم وقعت الحرب الثالثة بينهما في السنة الرابعة لفترة السلم . وهذا ما يجعل فترة الحرب بين دمشق وإسرائيل ست سنوات .

والسؤال الأخير الذي لا بد من طرحه قبل إغلاق هذه المسألة هو : ألا يمكن أن يكون حزائيل قد قتل هدد عدر واغتصب السلطة المباشرة منه ؟ إن النص الآشوري بأسلوبه المختزل وقفزه فوق الأحداث المتباعدة لا يسمح لنا بالإستنتاج بوجود علاقة سببية بين موت هدد عدر وانتقال السلطة إلى حزائيل ، فالكاتب ينتقل من معركة قرقرة إلى موت هدد عدر قافزاً فوق المعارك الوسيطة بين الحادثتين ، ثم ينتقل من موت هدد عدر إلى إغتصاب حزائيل للملك ، قافزاً ولا شك فوق عدد من الأحداث التي لا يهمه أمرها بين هاتين الحادثتين أيضاً . فهو يقول : " لقد هزمت هدد عدر ... الخ . هدد عدر قد مات . حزائيل ابن لا أحد استولى على العرش .. "[١٠]

---

9 - Wayne . T . Pitard , op . cit , PP . 132 - 133 .
10 - Ibid , P . 137

عصر حزائيل

إنحل حلف قرقرة بعد موت هدد عدر ، ولكن ملك دمشق الجديد كان قادراً على ما يبدو على جمع كلمة الممالك السورية في مواجهة آشور كلما رأى ضرورة لذلك ، وهذا ما يدلنا عليه النص الآشوري الذي أوردناه سابقاً عن اعتلاء حزائيل عرش دمشق وجمعه الجيوش الكثيرة في وجه شلمنصر الثالث . ولكن إلى جانب سياسته في الدعوة إلى الأحلاف المؤقتة ،فقد عمل حزائيل على التأكد من عدم انحياز أية مملكة في غربي الفرات إلى الجانب الآشوري أو وقوفها على الحياد في الصراع القائم مع آشور ، لأن ذلك من شأنه إضعاف موقف دمشق ، التي تحمل على عاتقها الجزء الأكبر من مسؤولية التصدي للمد العسكري الآشوري . من هنا فقد عمد حزائيل إلى رسم سياسة جديدة تسمح له بالتدخل ضد أية دولة تميل إلى مهادنة آشور ودفع الجزية لها في مناطق غربي الفرات . وقد سار ابنه بن هدد من بعده على السياسة نفسها كما سوف نرى لاحقاً . وقد كانت مملكة إسرائيل أول دولة تطالها عقوبة حزائيل . فلقد عزف خلفاء آخاب أخزيا ويهورام عن المشاركة في حروب دمشق ، ثم مال يهورام إلى استرضاء آشور بدفع الجزية لها . ورغم أننا لا نعرف من النصوص الآشورية أو من التوراة عن قيام يهورام بدفع الجزية إلى آشور ، إلا أن سياسة الخضوع التام لآشور في عهد خليفته ياهو ، تظهر لنا أن جذور هذه السياسة كانت متأصلة في عهد يهورام .

أخذ حزائيل يضغط بشكل تدريجي على يهورام ملك إسرائيل (وهو الإبن الثاني لآخـاب بعد أخزيا ، الذي ملك قبله) في مناطق التواجد الإسرائيلي في شمال شرقي الأردن ، فأرسل يهورام قواته الرئيسية إلى هناك وأقام في راموت جلعاد لحراسة تخومه في تلك المناطق ، ولكنه أصيب بجرح بليغ في إحدى المعارك ، فترك قائده المدعو ياهو هناك وانسحب إلى مدينة يزرعيل الداخلية ليبرأ من جراحه .ومصدرنا هنا هو رواية سفر الملوك الثاني : ٩ " وكان يورام (يهورام) يحافظ على راموت جلعاد هو وكل إسرائيل من حزائيل ملك آرام. ورجع يهورام الملك لكي يبرأ في يزرعيل من الجروح التي ضربه بها الآراميون حين قاتل حزائيل ملك آرام ". وفي هذا الوقت دعا النبي اليشع الخصم القديم لأسرة آخاب في إسرائيل ، واحداً من الأنبياء وقال له : " خذ قنينة الدهن هذه بيدك واذهب إلى راموت

جلعاد . وإذا وصلت إلى هناك فانظر ياهو بن يهوشافاط بن نمشي ، وادخل وأقمه من وسط إخوته وادخل به من مخدع داخل مخدع ثم خذ قنينة الدهن وصب على رأسه وقل : هكذا قال الرب إني مسحتك ملكاً على إسرائيل . فانطلق الغلام النبي إلى راموت جلعاد .. ودخل البيت فصب الدهن على رأسه وقال : هكذا قال الرب إله إسرائيل ، قد مسحتك ملكاً على شعب الرب إسرائيل ، فتضرب بيت آخاب سيدك ، وأنتقمُ لدماء عبيدي الأنبياء ودماء جميع عبيد الرب من يد إيزابيل ، فيبيد كل بيت آخاب " (الملوك الثاني ٩ : ١ - ٨) . فانطلق ياهو في رهط من جماعته المقربين وعبر الأردن حتى وصل إلى مدينة يزرعيل . وكان الرقيب واقفاً على البرج فرأى جماعة ياهو عند إقباله ، فنادى ملك إسرائيل قائلاً : إني أرى جماعة قادمة ، فقال الملك إرسل فارساً للقائهم لنعرف أآتوا للسلام أم للحرب ، فذهب الفارس وعندما وصل منعه ياهو من العودة وألحقه بجماعته ، فأرسل البرج فارساً ثانياً ولكنه لم يعد أيضاً . فقال المراقب لملك إسرائيل قد وصل الفارس اليهم أيضاً ولم يعد ، وإني أرى سَوْقَ الخيل كسوق ياهو بن نمشي لأنه يسوق بجنون . فخرج يهورام بمركبته للقاء ياهو وهو يتوجس شراً . فلما رأى يهورام ياهو قال : أسلام يا ياهو فقال : أي سلام ما دام زنا أمك إيزابيل وسحرها الكثير . فرد يهورام فرسه وهرب فقبض ياهو على القوس وضرب يهورام بين ذراعيه فخرج السهم من قلبه فسقط في مركبته . أما ياهو فقد دخل إلى يزرعيل وقتل إيزابيل زوجة آخاب وطرحها للكلاب ، ثم كتب إلى شيوخ السامرة أن يرسلوا اليه برؤوس أولاد آخاب السبعين الأحياء ، فقطعت رؤوس أولاد آخاب وأرسلت إليه في سلال إلى يزرعيل . وقتل ياهو كل الذين بقوا لبيت آخاب ولكل عظمائه ومعارفه وكهنته حتى لم يبق له شارد (الملوك الثاني ٩ - ١٠) .

أما حزائيل ، فقد عاد إلى دمشق بعد أن سمع بعودة شلمنصر الثالث إلى المنطقة مجدداً ، وذلك في العام ٨٤١ ق.م ، وهو نفس العام الذي اعتلى فيه ياهو عرش إسرائيل . عمل حزائيل على تحصين دمشق ، ولكنه لم ينتظر وصول شلمنصر الثالث إليه بل انطلق لملاقاته عند أسفل جبل الحرمون حيث تحصن لقطع طريق الحملة الآشورية . ونستنتج من تحصن حزائيل في هذه المنطقة ، أن شلمنصر الثالث كان يقصد إلى التوجه جنوباً نحو فلسطين والساحل السوري دون المرور بدمشق . وهذا ما يفسر لنا حرب حزائيل ضد إسرائيل ، والتي سبقت مباشرة وصول شلمنصر الثالث إلى المنطقة ، ذلك أن حزائيل كان

يعرف بطريقة ما أهداف الحلمة الآشورية في الوصول إلى المناطق الجنوبية والغربية وعزل مملكة دمشق ، فأراد استباق الأمور وخلع ملك إسرائيل الذي كان يستعد لتقبيل أقدام شلمنصر ، وإحلال ملك جديد محله موالٍ لدمشق . نقرأ في نص شلمنصر الثالث عن هذه الحملة ما يلي :

" في السنة الثامنة عشر من عهدي ، عبرت الفرات للمرة السادسة عشر . حزائيل ملك دمشق وضع ثقته بجيشه العرم ، وجمع قواته بأعداد كبيرة جاعلاً من جبل سنيرو (الحرمون) المقابل لجبل لبنان قاعدة له . قاتلته وهزمته ، وجندلت ستة عشر ألفاً من جنوده المدربين ، وغنمت ١١٢١ عربة و ٧٤٠ جوادا وكل معسكره . أما هو ،فقد هرب طالباً حياته ، فتعقبته إلى دمشق مقره الملكي وحاصرته هناك ، وقطعت أشجار بساتينه . ثم سرت إلى جبل حوران فهدمت وأحرقت عدداً لا يحصى من المدن وأخذت منهم الجزية . ثم سرت إلى جبل بعل راسي ، الذي يقع مقابل البحر (جبل الكرمل) وأقمت هناك نصباً تذكارياً عليه صورتي . في ذلك الوقت تلقيت الجزية من صور وصيدون ومن ياهو ابن عمري " . (١١)

نستنتج من هذا النص أن الحملة الآشورية لم تحقق كل أهدافها . فحزائيل قد انسحب إلى دمشق وتحصن بها ، وقاوم شلمنصر الذي فك حصاره عن المدينة وانتقم من حزائيل بقطع أشجار الغوطة ، وتهديم المدن والقرى في حوران لدى تقدمه جنوباً في الطريق إلى الساحل الفلسطيني اللبناني . عند الساحل في بعل راسي ، الذي يمكن أن يكون جبل الكرمل الذي يصل طرفه حتى الشاطىء ، يكتفي الملك الآشوري بتلقي الجزية من الدويلات الفينيقية الكبرى ومن إسرائيل ، ثم يعود إلى بلاده تاركاً القوة العسكرية الضاربة لدمشق سليمة رغم الهزيمة . ويمكن أن نلاحظ من قول نص شلمنصر أنه تلقى الجزية من صور ومن صيدون ومن ياهو ، أن اسم ملكي صور وصيدون لم يذكر في النص بينما ذكر اسم ياهو شخصياً . وهذا يعني أن ملكي صور وصيدون قد أرسلا الجزية إلى ملك آشور ، أما ياهو فقد حضر بنفسه إلى شلمنصر معلناً ولاءه المطلق . ويؤكد ذلك اكتشاف نحت بارز في موقع نمرود عاصمة شلمنصر يصور الملك ياهو ساجداً عند قدمي شلمنصر ، كتب

11 - *Leo Oppenheim , op cit , P. 280 .*

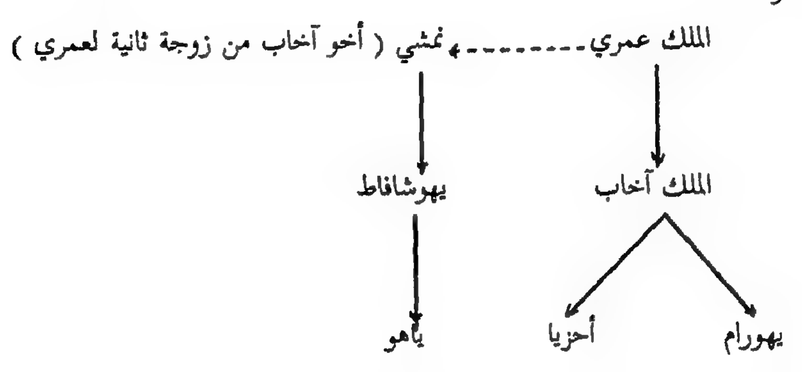
تحته : " جزية ياهو ابن عمري . تلقيب منه فضة وذهباً و..الخ[١٢] " . ومن الجدير بالذكر أن حادثة لقاء ياهو بشلمنصر الثالث غير واردة في الرواية التوراتية ، وسفر الملوك الثاني لم يأت على ذكر شلمنصر الثالث ، لا في عرضه لسيرة حياة الملك ياهو ولا في غيرها ، جرياً على ماعودنا عليه المحرر التوراتي حتى هذا الوقت المتأخر ، من تجاهل للأحداث الدولية الجارية .

أما عن تسمية ياهو في النص الآشوري بابن عمري فقد فسره المؤرخون بأحد أمرين . الأول أن مملكة السامرة كانت تدعى أحيانا بأرض أو بلاد عمري نسبة إلى مؤسس المملكة ، وقد وردت هذه التسمية أكثر من مرة في السجلات الآشورية . من هنا يمكن أن يكون المقصـود " بإبن عمري " هنا ، هو رجل بلاد عمري أو صاحب بلاد عمري أو ما شابه ذلك . والثاني هو أن كاتب النص الآشوري قد ألحق ياهو بأسرة عمري جهلاً منه بحقيقة الأوضاع الداخلية في مملكة السامرة . وقد اطّلعتُ مؤخراً على دراسة حديثة منشورة عام ١٩٩٥ في مجـلة " علم الآثار التوراتي " تتضمن تفسيراً أكثر إقناعاً . يلاحظ كاتب الدراسة Tammi Schneider من متابعته لأخبار ياهو في سفر الملوك الثاني ما يلي : ١ - إن الملك ياهو هو الملك الوحيد بين ملوك السامرة ، الذي عني المحرر بذكر اسم أبيه وإسم جده أيضاً فقال ياهو بن يهوشافاط بن نمشي ٢ - لم يذكر النص التوراتي اسم أب أحد من مغتصبي العرش في دولة السامرة قبل ياهو ، من أمثال زمري وعمري اللذين دعيا باسمهما فقط . نقرأ في سفر الملوك الأول ١٦ : ١٥ " في السنة السابعة والعشرين لآسا ملك يهوذاء ملَكَ زمري سبعة أيام في ترصة " . وفي الإصحاح نفسه الفقرة ١٥ نقرأ : " فملَّكَ كل إسرائيل عمري رئيس الجيش على إسرائيل في ذلك اليوم " . ٣ - يلاحظ كاتب الدراسة أن ياهو كان يتصرف في علاقاته مع أفراد الأسرة المالكة وكأنه واحد منهم ويورد عدداً من الأمثلة على ذلك . ثم يضيف الباحث إلى هذه الملاحظات الحصيفة رأية في مسألة جهل الآشوريين بالأوضاع الداخلية لمملكة السامرة ، ويفند ذلك معتمداًعلى عدد من الأمثلة التي تثبت أن البلاط الآشوري كان يتابع بدقة ما يجري في الممالك المعادية ويرصد أوضاعها الداخلية . وقد رأينا على سبيل المثال رصده لأحوال دمشق وتسجيله لواقعة موت هدد عدر وقيام حزائيل باغتصاب السلطة فيها . ثم يخلص من ذلك إلى القول بأن كاتب النص

---

12 - Ibid , P . 281 .

الآشوري كان يعرف بأن ياهو كان واحداً من أبناء الملك عمري ، ولكنه ليس من سلالة آخاب ابن عمري بل من أخ غير شقيق له اسمه نمشي . من هنا فإن النص الآشوري قد دعا ياهو باسمه الحقيقي عندما لقبه بإبن عمري . ويرسم الباحث المخطط التالي لشجرة نسب ياهو : (١٣)



وهناك ملاحظة أخرى في رواية سفر الملوك الثاني عن اغتصاب ياهو العرش وإبادته لذرية آخاب ، تدعم هذا التفسير ، وهي أن النص كان يكرر على الدوام أن ياهو قد أباد أسرة آخاب من دون التطرق إلى أسرة عمري ، دلالة على أن المغتصب قد قضى على فرع آخاب من أسرة عمري ، لا على أسرة عمري كلها.

بعد أن عاد شلمنصر الثالث من حملة عام ٨٤١ ق.م على بلاد الشام ، قامت هدنة غير معلنة بين دمشق وآشور استمرت ثلاث سنوات ، عاد بعدها شلمنصر فشن ثلاث حملات على دمشق . إلا أن أخبار هذه الحملات غير واضحة تماماً ، بسبب قصر النصوص التي تذكرها وأسلوبها المختزل . ولكننا نفهم أن حزائيل قد بقي حصيناً في مدينته وأن الحملات الثلاث لم تحقق سوى إخضاع عدد من المدن التابعة لدمشق وتحصيل الجزية منها.فمن الحوليات المختصرة، التي تكتفي بذكر اسم منطقة العمليات وسنة القيام بها ، نعرف أن شلمنصر قد شن حملة على بلدة ملاحة (المليحة) في السنة الواحدة والعشرين لحكمة ،و على بلدة دنابي (١) في السنة الثانية والعشرين ، وعلى بلدة تابالا (الطبالة) في السنة الثالثة

---

13 - Tammi Schneider , Jehu , Biblical Archaeology , Novomler 1995 .

والعشرين [١٤] . ولدينا نص قصير آخر خارج الحوليات المختصرة ، وجد على ختم اسطواني للملك شلمنصر يذكر حملة ملاحة :" غنيمة معبد شارو من مدينة ملاحة ، المسكن الملكي لحزائيل ملك إميريشو ، التي جلبها شلمنصر بن آشور ناصر بال ."[١٥]

بعد آخر هذه الحملات عقب عام ٨٣٧ ق.م ، أقلع شلمنصر الثالث نهائياً عن مشروع إخضاع دمشق ، وصرف نظره عن مناطق غربي الفرات . ولمدة ثلاثين سنة تلت ذلك ، لم يظهر أي جيش آشوري في المنطقة . فبعد وفاة شلمنصر الثالث عام ٨٢٤ ق.م ، بعد فترة حكم مديدة دامت ٣٤ سنة ، نشبت نزاعات داخلية بين ورثة العرش ، وانشغل الآشوريون بالحروب ضد المناطق الشرقية لحكمهم .وقد أطلق هذا الوضع الجديد يد حزائيل في مناطق نفوذه التقليدية ، وبدأ بإعادة ترتيب شؤون المنطقة استعدادا لأية مواجهة مقبلة مع آشور . تفرغ ملك دمشق أولاً لعقاب ياهو ملك إسرائيل بسبب موقفه المخزي من آشور وخيانته لدمشق ، وبعد أن يضمن خضوع إسرائيل له ، يقوم ببسط سلطته على كامل الأراضي الفلسطينية وتصل قواته حتى مدينة جت على الساحل الفلسطيني . وأخبارنا عن هذه الفترة مصدرها الوحيد سفر الملوك الثاني ، لأن النصوص الآشورية بقيت صامتة تماماً عما يجري في مناطق غربي الفرات ، وذلك حتى عام ٨١٠ ق.م .

نقرأ في سفر الملوك ما يلي : " ولكن ياهو لم يتحفظ للسلوك في شريعة الرب إله إسرائيل من كل قلبه .. في تلك الأيام ابتدأ الرب يقص إسرائيل ، فضربهم حزائيل في جميع تخوم إسرائيل من الأردن لجهة مشرق الشمس .. واضطجع ياهو مع آبائه فدفنوه في السامرة وملك ابنه يهو أحاز عوضا عنه . وكانت الأيام التي ملك فيها ياهو على إسرائيل في السامرة ثمان وعشرين سنة ." (الملوك الثاني ١٠ : ٣١ - ٣٦) . ثم " ملك يهو أحاز بن ياهو على إسرائيل في السامرة سبع عشر سنة . وعمل الشر في عيني الرب ..فحمي غضب الرب على إسرائيل فدفعهم ليد حزائيل ملك آرام وليد بن هدد بن حزائيل كل الأيام .. لم يبق ليهو أحاز شعباً إلا خمسين فارساً وعشرة آلاف راجل وعشر مركبات ، لأن ملك آرام أفناهم ووضعهم كالتراب للدوس .. ثم اضطجع يهو أحاز مع آبائه فدفنوه في السامرة ، وملك يوآش ابنه عوضاً عنه "(الملوك الثاني ١٣ : ١ - ٩) . بعد ضمان تبعية إسرائيل ، التي تشكل

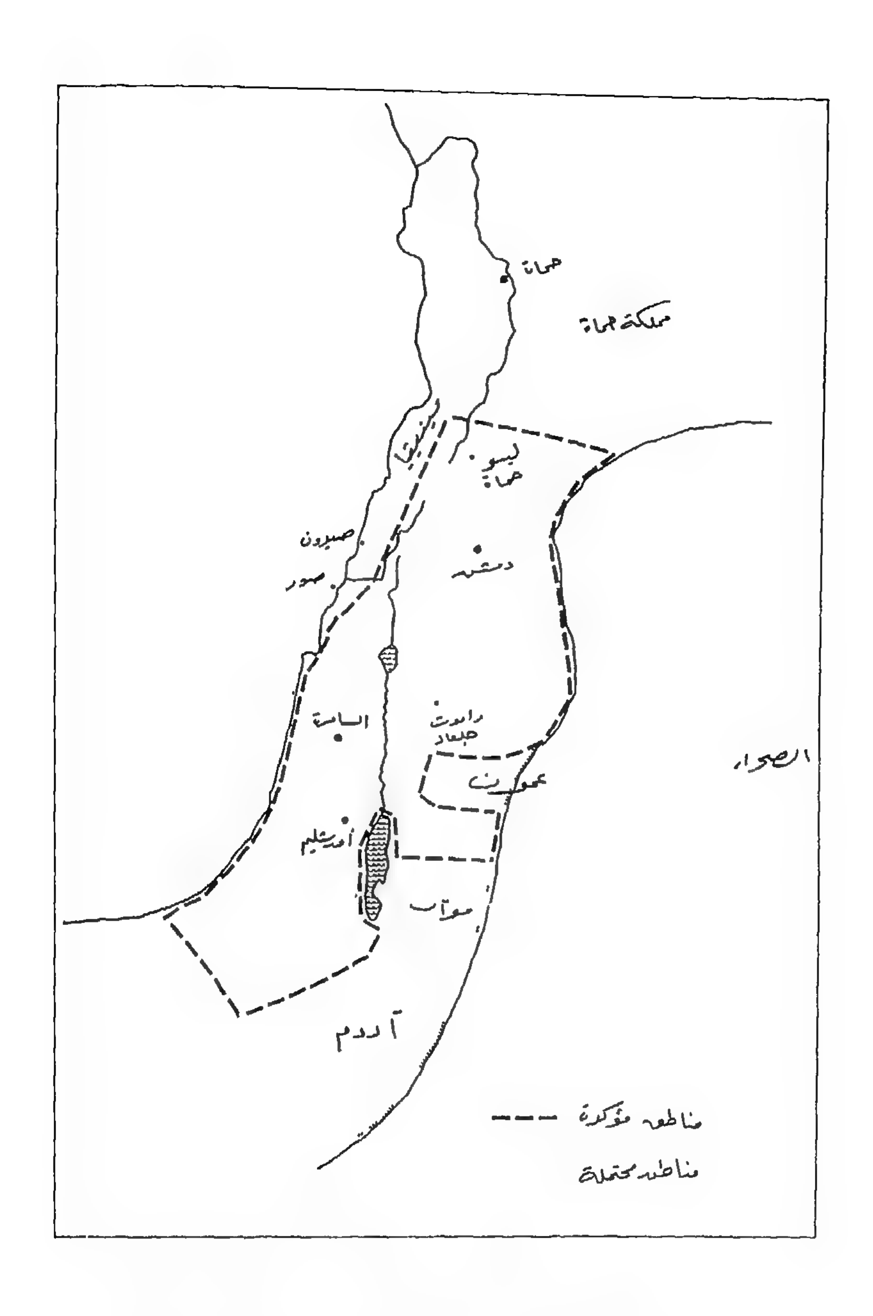
---

14 - Wayne . T . Pitard , op . cit , PP . 149 - 150 .
15 - Leo Oppenheim , Op cit , P 275 .

القوة الرئيسية في منطقة فلسطين ، شق حزائيل طريقه نحو مدن فلستيا فضمن ولاءها ثم انقلب نحو الداخل إلى أورشليم التي أعلن ملكها ولاءه لدمشق قبل وصول قواتها أطراف أورشليم : " حينئذٍ، صعد حزائيل ملك آرام وحارب جت وأخذها ، ثم حول وجهه ليصعد إلى أورشليم . فأخذ يهوآش ملك يهوذا جميع الأقداس التي قدسها آباؤه ملوك يهوذا ، وأقداسه . وكل الذهب الموجود في خزائن بيت الرب وبيت الملك ، وأرسلها إلى حزائيل ملك آرام ، فصعد عن أورشليم " (الملوك الثاني ١٢ : ١٧ - ١٨) .

لا يوجد لدينا سبب للشك في صحة هذه الرواية التوراتية عن حروب حزائيل في شرقي الأردن وفلسطين ، لأن مثل هذه الحروب كانت متوقعة بعد غياب آشور المؤقت عن المنطقة . فلقد أخلى حزائيل منطقة شمال شرقي الأردن من القوات الإسرائيلية ، ودفع هذه القوات بعد أن أضعفها إلى السامرة ، التي لم يكن راغباً في فتحها بل في تحييدها أو كسبها إلى جانبه في أي صراع قريب محتمل مع آشور . ثم أكد بعد ذلك سيطرته على المناطق الساحلية والداخلية في مرتفعات يهوذا ، فأمن بذلك سلامة جميع الطرق التجارية الحيوية بالنسبة لمملكة دمشق . ولسوف نجد بعد سنوات قليلة أن ابنه بن هدد يمارس السياسة نفسها في المناطق الشمالية ، مما تصفه لنا بعض النصوص الآرامية المعاصرة للحدث .

لانعرف على وجه التحديد تاريخ موت الملك حزائيل . ولكننا إذا قبلنا الخبر التوراتي الوارد في سفر الملوك الثاني ١٣ : ٢٢ - ٢٥ ، يمكن أن نضع موت حزائيل حوالي العام ٨٠٠ ق.م ، لأننا نستشف من الخبر أن الملك حزائيل والملك يهو أخاز قد توفيا في وقتين متقاربين ، ولما كانت وفاة يهوأحاز تقع حوالي عام ٧٩٨ ق.م ، فإن موت حزائيل يمكن أن يوضع قبل ذلك بعام أو عامين . فالخبر التوراتي يقول : " وأما حزائيل ملك آرام فقد ضايق إسرائيل كل أيام يهوأحاز .. ثم مات حزائيل وملك بن هدد ابنه عوضاً عنه . فعاد يهوآش بن يهوأحاز وأخذ المدن من يد بنهدد بن حزائيل ، التي أخذها من يدها يهوأحاز أبيه بالحرب . ضربه يوآش ثلاث مرات واسترد مدن إسرائيل " (الملوك الثاني ١٣ : ٢٢ - ٢٥) .



١١ ـ المناطق الواقعة تحت نفوذ حزائيل في سورية الجنوبية وفلسطين

عصر بن هدد بن حزائيل

ارتقى بن هدد بن حزائيل عرش دمشق حوالي عام ٨٠٠ ق.م ، في وقت بدأت فيه أوضاع آشور الداخلية بالإستقرار . فقد ولي عرش آشور الملك هدد نيراري الثالث ابن شلمنصر ، بعد فترة اضطرابات تخللت حكم أخيه شمسي هدد الخامس ، وأخذ بالإستعداد لغزو بلاد الشام . ويبدو أن ملك إسرائيل يهوآش (*) قد استبشر خيراً بقدوم الملك الآشوري ، وفكر بإعادة تبعية بلاده إلى آشور ، فقام بمحاولة لاسترداد المناطق التي بسط عليها حزائيل سلطته المباشرة في شمال شرقي الأردن وشمال إسرائيل . ولكن بن هدد حاربه على رأس تحالف ضم اثنين وثلاثين ملكاً كما تقول الرواية التوراتية في الملوك الأول ٢٠ . وكنا قد برهنا سابقا على أن الحروب الثلاثة الموصوفة في سفر الملوك الأول بين بن هدد ملك دمشق وآخاب ملك إسرائيل ، يجب أن يكون موضعها في سفر الملوك الثاني ، وأن تكون قد جرت بين هدد بن حزائيل وخلفاء ياهو المدعوان يهوأحاز ويوآش . وبما أن يهو أحاز قد توفي في وقت صعود بن هدد عرش دمشق تقريباً ، فإن معظم حروب بن هدد الإسرائيلية يجب أن تكون موجهة ضد يوآش . وأما خبر سفر الملوك الثاني ، الذي أوردناه منذ قليل عن قيام يوآش بضرب بن هدد بن حزائيل ثلاث مرات واستعادة المدن المسلوبة منه ، فلا يمكن تصديقه اعتماداً على مجريات الأحداث اللاحقة ، لأن بن هدد بعد قتاله لإسرائيل ما يلبث أن يظهر في مناطق الشمال السوري على رأس تحالف يضم أقــوى الممالك الشمالية في ذلك الوقت ، الأمر الذي يدل على أن ملك دمشق الجديد قد بقي سيداً لمناطق غربي الفرات مثلما كان أبوه حزائيل .

كانت المهمة الثانية التي وضعها بن هدد لقواته بعد إخضاع إسرائيل هي إخضاع مملكة حماة التي كانت تسلك نهجاً موالياً لآشور . إن الحملات الآشورية على سورية منذ عام ٨٤٥ ق.م وصولاً إلى عهد حدو نيراري لم تتعرض لمملكة حماة ، الأمر الذي يدل على تابعيتها الآشورية خلال تلك الفترة . فصعد بن هدد على رأس حلف سوري يضم سبعة ممالك معروفة بعدائها الشديد لآشور وخصوصاً مملكة بيت جوشي ، التي سنراها فيما بعد على رأس تحالف ســوري في مواجهة القوات الآشورية ، فقاتل ملك حماة المدعو زاكير وضرب عليه حصاراً طويلاً ، بعد أن لجأ إلى مدينة حاتريكا الشماليــة عاصمة مملكة لوعاش (نوخاشي سابقاً) الواقعة

(*) يستخدم النص التوراتي تسمية يهوآش تبادلياً مع تسمية يوآش .

بين حماة وحلب ، والتي ضمها إليه زاكير مشكلاً قوة لا يستهان بها في ذلك الوقت . ولحسن الحظ فقد وصلتنا معلومات مباشرة عن هذه الحرب في نص تركه الملك زاكير نفسه ، منقوش بالآرامية على حجر عثر عليه في قـرية آفس على مسافة ٤٠ كم إلى الجنوب الغربي من مدينة حلب . ويرجح أن يكون موقع آفس هذا هو حاتريكا القديمة نفسها. نقرأ في نص زاكير مايلي :

" أنا زاكير ، ملك حماة ولوعاش . كنت رجلاً من العامة ، ولكن الإله بعل شمين قد وقف إلى جانبي وجعلني ملكاً على حاتريكا . بن هدد بن حزائيل ملك آرام ، جمع ضدي سبعة ملوك : بن هدد وجيشه ، ملك غوروم وجيشه ، ملك شمأل وجيشه ، ملك كيليكيا وجيشه ، برجوش وجيشه ، ملك العمق وجيشه ، ملك ميليز وجيشه . كل هؤلاء الملوك الذين جمعهم بن هدد وجيوشهم قد حاصروا حاتريكا . ولكن بعل شمين كلمني عبر العرافين والمتنبئين قائلاً : لا تخف ، فلقد جعلتك ملكاً ، ولسوف أقف إلى جانبك وأنقذك من كل هؤلاء الملوك الذين ضربوا حصاراً حولك .. [البقية مليئة بالفجوات ولكننا نفهم منها أن الحلفاء قد فكوا حصارهم عن المدينة وتراجعوا عنها] . [١٦]

نلاحظ من أسماء الممالك الداخلة في حلف دمشق الجديد ، أنها تقع جميعاً في المناطق الشمالية بين الفرات والساحل السوري .وهذا يعني أن بن هدد قد بسط نفوذه على كامل مناطق الشمال السوري ، إضافة إلى مناطق وسط وجنوب سورية ، وفلسطين ، وأنه قد استطاع فعلاً تعبئة كامل مناطق غربي الفرات في جبهة واحدة استعداداً للوقوف في وجه الملك الآشوري هدد نيراري الثالث،الذي ما لبث جيوشه حتى ظهرت في المنطقة حوالي عام ٧٩٨ ق.م ، أي بعد أربع سنوات من ارتقاء بن هدد عرش دمشق . أما عن النتيجة التي آل إليها حصار حاتريكا ، فمن غير الممكن أن يكون زاكير قد انتصر على حلف دمشق ، خصوصاً إذا أخذنا بعين الإعتبار عدد الممالك الحليفة وقوة جيوشها . ويكفي أن نذكر أن مملكة جوشي ، التي يتزعمها برجوش،كانت أقوى الممالك الآرامية الشمالية وكانت أراضيها تمتد من شاطىء الفـرات إلى سهل العمق غـرباً ، أما مملكة يأدي (أو شمأل) فكانت قوة لا يستهان بها وذات ثقل في ميزان القوى العسكرية في غربي الفرات . فإذا أضفنا إلى هاتين

---

16 - F . Rosental , Canaanite and Aramic Inscription , (in · James Pritchard op . cit , PP 655 - 656 .

انظر أيضا ترجمة د . علي أبو عساف : الآراميون ، المرجع السابق ص ص ١٣٠ ـ ١٣٢ .

القوتين ، القوة الرئيسية لمملكة دمشق ، التي أعيت الآلة الحربية الآشورية لنصف قرن مضى ، لأدركنا استحالة هزيمة بن هدد عند أسوار حاتريكا . وهناك نتيجتان محتملتان لهذه الحرب ؛ فإما أن الحلفاء قد تراجعوا عن حاتريكا بعد أن وصلتهم أخبار عن عبور هدد نيراري نهر الفرات ، وإما أنهم قد توصلوا إلى اتفاق يضمن حياد زاكير في المعركة المقبلة .

يصل هدد نيراري الثالث إلى المنطقة في أول حملة لآشور على سورية بعد موت شلمنصر الثالث . ولدينا نص مختصر عن هذه الحملة خال من أية تفاصيل يقول : " ... وعبر شاطىء الفرات أخضعت بلاد حاتي ، وكل أراضي آمورو ، وصور ، وصيدون ، وأرض عمري ، وآدوم ، وفيليستيا ، إلى البحر الكبير حيث تغرب الشمس . جميعهم أخضعت تحت قدمي وفرضت عليهم الجزية . سرت نحو بلاد دمشق وحبست ملكها ماري (بن هدد) في دمشق مقره الملكي ، فغمره الخوف من بهاء مولاي الإله آشور وأمسك قدمي خضوعاً لي .فلقيت منه الجزية في قصره الملكي : ٢٣٠٠ وزنة من الفضة و ٢٠ وزنة من الذهب و ٥٠٠٠ وزنة من الحديد ..."[١٧] .

لم يتفق المؤرخون على تاريخ حملة هدد نيراري هذه ، وذلك بسبب تشوش سجلات هذا الملك من الناحية الكرونولوجية وعدم التوصل إلى ترتيب زمني متسق لحملاته . ولكن أغلب الظن أنها جرت حوالي عام ٧٩٦ ق.م [١٨] . إلا أن الدراسة المتأنية لنص هذه الحملة على ضوء الأحداث التي سبقتها ، يمكن أن تساعدنا على صياغة سيناريو منطقي لما يمكن أن يكون قد حدث بين هدد نيراري الثالث وملوك التحالف السوري . فمن المرجح إعتمادا على أسلوب صياغة نص الحملة أعلاه ، أن لا يكون هذا النص خلاصة لنتائج حملة آشورية واحدة على بلاد الشام ، بل خلاصة لعدة حملات متتابعة قام بها هذا الملك . ففي الحملة الأولى واجه هدد نيراري ملوك التحالف الذي حاصر حاتريكا وأجبرهم على التراجع ، مستولياً على مناطق سورية الشمالية المدعوة " حاتي " بمصطلح الألف الألف قبل الميلاد . وفي الحملة الثانية استولى على آمورو في وسط وغرب سورية ومنها هبط إلى الساحل الفينيقي نحو صور وصيدون . وربما تصدى له بن هدد قبل وصوله إلى آمورو منفرداً أو على رأس تحالف الملوك الجنوبيين ، الذين وقفوا إلى جانبه في حصار السامرة

17 - Leo Oppenheim , op cit , PP 281 - 282 .
18 - W T Pitard , op . cit , P . 164 .

(مما مر معنا سابقاً) . وفي الحملة الثالثة توجه إلى فلسطين فاستولى على أرض عمري أو إسرائيل ، وفيليستيا وآدوم ، ومن هناك صعد إلى دمشق التي تم عزلها عن جميع حلفائها ، وأجبرها على دفع الجزية لآشور لأول مرة منذ قيام الأسرة الحاكمة الآرامية فيها .

وفي نص هدد نيراري نقطة هامة ينبغي ملاحظتها وفهم مدلولاتها . فجميع الممالك الواردة في النص قد جرى تعدادها بأسماءها دون ذكر ملوكها أو شرح مجريات المعارك التي قادت إلى إخضاعها ، عدا دمشق التي توقف النص عندها مطولاً وأعطانا تفصيلات حول استسلامها والجزية التي دفعتها . وهذا يدل دلالة قاطعة على أن الهدف الرئيسي لحملة ، أو لحملات ، هدد نيراري في مناطق غربي الفرات كان إخضاع مملكة دمشق ، وأن الحملات الأولى على ممالك الشمال التي جملها النص تحت اسم حاتي ، وممالك الوسط والجنوب ، لم تكن إلا مقدمة ضرورية لضمان استسلام دمشق .

أما عن اسم ملك دمشق الذي ورد في نص هدد نيراري على أنه " ماري "،فمن المؤكد أنه يشير إلى بن هدد نفسه . وتفسير ذلك ، هو أن كلمة "ماري " بالآرامية تعني " مولاي" وهي مشتقة من كلمة " مرا " التي تعني السيد . وكان لقب " ماري " أو " مَرِي " يوضع قبل اسم ملوك دمشق في النصوص الآرامية . من ذلك على سبيل المثال ما وجد على عاجيات أرسلان طاش من كتابة تقول : " لمرنا حزائيل " ، أي " لمولانا حزائيل ، وذلك بإستخدام كلمة " مرا" مع ضمير الإضافة . ويبدو أن لقب ملك دمشق في عصر بن هدد كان يستخدم تبادلياً مع اسمه الشخصي ، أو أنه طغا عليه في معظم الحالات [١٩] ، كما هو الحال في لقب " فرعون" في مصر ، الذي استخدم تبادلياً مع الإسم الحقيقي لملك مصر في أكثر من نص آشوري .

لقد كانت دمشق آخر من دفع الجزية في مناطق غربي الفرات ، منذ أن بدأت الحملات الآشورية المنظمة على بلاد الشام . ويبدو أن حملة هدد نيراري الأخيرة على دمشق قد أضعفت قوة المملكة إلى حد كبير ، وأفقدتها الكثير من هيبتها كمركز ثقل إقليمي في المنطقة . وكان أول المستفيدين من ضعف دمشق مملكة إسرائيل . فقد ولي عرش السامرة بعد يوآش ، الذي أخضعه بن هدد قبل أن يتوجه إلى حاتريكا ، ابنه يربعام الثاني (٧٩٣ - ٧٥٣ ق.م) . ويروي لنا سفر الملوك الثاني في نص مختصر وبدون أية تفاصيل خبراً عن حملة يربعام الثاني هذا على مملكة دمشق التي لم تكن قد التقطت أنفاسها من الحملة الآشورية الساحقة . هذا مع العلم ،

19 - *Ibid* , P . 166 .

بأن نص سفر الملوك الثاني قد بقي حتى هدا الوقت من مطلع القرن الثامن قبل الميلاد متجاهلاً لكل ما يحدث على الساحة السورية والفلسطينية من أحداث ، وأن قـارىء التوراةلم يعرف بعد بوجود مملكة اسمها آشور ، ولا بحملات ملوك آشور على دمشق وعلى إسرائيل وبقية الدويلات الفينيقية والفلسطينية . يقول الخبر التوراتي ما يلي : " ملك يربعام بن يوآش ملك إسرائيل في السامرة إحدى وأربعين سنة . وعمل الشر في عيني الرب .. هو رد تخم اسرائيل من مدخل حماة إلى بحر العربة حسب كلام الرب إله إسرائيل .. وبقية أمور يربعام وكل ما عمل وجبروته ، كيف حارب وكيف استرجع إلى إسرائيل دمشق وحماة، التي ليهوذا ، أما هي مكتوبة في سفر أخبار الأيام لملوك إسرائيل .." (الملوك الثاني ١٤ : ٢٣ ـ ٢٨) .

وكما نرى من أسلوب صياغة الخبر التوراتي أعلاه ، فإنه لا يقدم حبراً تاريخياً موثقاً يمكن الركون إليه . فهو لا يذكر اسم ملك دمشق ولا اسم ملك حماة ، ولا يورد أية تفاصيل عن الأوضاع العامة في هاتين المملكتين ولا عن الأوضاع العامة في المطقة . ويلفت النظر بشكل خاص قول النص أن يربعام استرجع إلى إسرائيل دمشق وحماة،التي ليهوذا !! فمتى كانت دمشق وحماة تابعة ليهوذا ، التي لم تذكر حتى الآن في السجلات الآشورية ؟ هل يشير المحرر إلى حروب داود ومملكة سليمان ؟ وفي الحقيقة ، فلقد أدرك المؤرخون المبالغة الواضحة في نص سفر الملوك أعلاه وأسقطه معظمهم من الحساب . ذلك أن مملكة حماة لم تكن في ذلك الوقت فريسة سهلة المنال ، وكذلك مملكة دمشق رغم وضعها العسكري المتردي عقب حملة هدد نيراري . وقد لجأ بعض المؤرخين إلى إعادة قراءة النص إعتمادا على احتوائه لإشكاليات لغويـة يمكن تأويلها . فعالم اللغات السامية J . Gray . (١٩٧٠) يقرأ الجملة التي تقول بالعبرية " وكيف حارب وكيف استرجع إلى إسرائيل دمشق وحماة،التي ليهوذا "،ويترجمها بعد تأويل اشكالياتها اللغـوية على الشكل التـالي : " كيف حـارب دمشق ، وكيـف رد غضب يهوه عن إسرائيل" [٢٠] . ورغم أن كثيراً من الباحثين لا يجدون لهذه القراءة مستنداً لغوياً متيناً ، إلا أننا نجد في مثل هذه المحاولات ما يدعم وجهة نظرنا هنا بضعف المصداقية التـاريخية لنص سفـر الملوك الثاني ١٤ : ٢٣ ـ ٢٨ . ربما قام يربعام الثاني باستعادة بعض المواقع التي كانت دمشق قد استولت عليها في أيام أبيه يوآش ، ولكنه لم يكن قادراً بالتأكيد على احتلال دمشق .

---

20 - *Ibid* , *P 176*

بعد عشرين سنة من حملة هدد نيراري الثالث ، شن الآشوريون حملة جديدة على دمشق ، وذلك في عهد شلمنصر الرابع . وقد جرت هذه الحملة بقيادة عاملْ الآشوريين على مناطق الفرات المدعو شمسي إيلو . وكان شمسي إيلو يقيم في مدينة تل برسيب عاصمة بيت عديني السابقة ، والتي كان شلمنصر الثالث قد غير اسمها إلى كار شلمنصر (أي حصن شلمنصر) ، بعد أن ألحق مملكة بيت عديني بآشور نهائياً ووضع عليها حاكماً آشورياً يدير شؤونها . وقد قام شمسي إيلو بعدد من الأعمال العمرانية في المدينة ومنها قصره الكبير ، الذي تم اكتشافه في الموقع وعلى بواباته أسود بازلتية ضخمة نقش عليها اسم شمسي إيلو .[٢١] وهذا يعني أنه كان يتصرف كملك آشوري غير متوج ، وأن له مطلق الصلاحية في التصرف بشؤون منطقة الفرات والخابور ، والنيابة عن الملك في الحملات العسكرية التي يقرر البلاط شنها على مناطق بلاد الشام . ترك شمسي إيلو نصاً منقوشاً على نصب حجري يذكر فيه إنجازاته ، ومنها حملته على بلاد إميريشو ، وأخذه الجزية من ملكها المدعو حديانو . وقد اكتشف النص منذ سنوات قريبة وقرأه الباحث هو كنز عام ١٩٨٢ ق.م . أما عن تاريخ هذه الحملة فيرجح الباحثون أن تكون قد جرت حوالي عام ٧٧٣ ق.م[٢٢] . وبذلك يأتينا برهان آخر عن عدم صحة الخبر التوراتي في الملوك الثاني ١٤ : ٢٣ - ٢٨ ، حول إلحاق دمشق بإسرائيل ، لأن تاريخ الحملة الآشورية يقع في أواسط حكم يربعام الثاني (٧٩٣ - ٧٥٣ ق.م) الذي يعزو إليه النص التوراتي ضم دمشق وحماة .

ونستطيع الآن بفضل هذا النص الجديد أن نعرف التاريخ التقريبي لوفاة بن هدد ، والذي يمكن وضعه حول ٧٧٠ ق.م . كما نستطيع أن نضع ثبتاً بملوك آرام دمشق وفترات حكمهم خلال القرن الممتد من أواسط القرن التاسع إلى أواسط القرن الثامن ، على الوجه التالي

هدد عدر	٨٦٠ - ٨٤٤ ق.م
حزائيل	٨٤٤ - ٨٠٠ ق.م
بن هدد	٨٠٠ - ٧٧٠ ق.م
حديانو	٧٧٠ - ؟

في هذا الوقت الذي شهد بداية النهاية لكل من دمشق وإسرائيل ، أخذت مملكة يهوذا بالتكون والظهور على المسرح السياسي الإقليمي.

---

٢١ - د . علي أبو عساف ، المرجع السابق

22 - Wayne T Pitard , OP . cit , P . 175 .

الفصل الخامس

العقود الأخيرة لدمشق وإسرائيل
ونشوء يهوذا

أصول يهوذا :

حتى الحملة الآشورية الأخيرة التي ذكرناها على دمشق عام ٧٧٣ ق.م ، إبان حكم الملك حديانو ، لم تكن مملكة يهوذا قد تشكلت بعد ككيان سياسي واضح في فلسطين ، ولم تكن مدينة أورشليم قد دخلت معترك السياسة الإقليمة والدولية على حد سواء . والنصوص الآشورية لم تتجاهل فقط وجود مملكة يهوذا في فلسطين ، بل تجاهلت كلياً مدينة أورشليم وكأنها غير موجودة على الخارطة السياسية للمنطقة . غير أن العقود التالية من القرن الثامن قبل الميلاد قد بدأت تدفع أورشليم بسرعة نحو مركزالأحداث ، وبدأت تظهر في النصوص الآشورية بدءاً من الربع الأخيرلهذا القرن الحافل بالأحداث الجسام في تاريخ بلاد الشام ، والذي شهدت نهايته دمار مملكة إسرائيل وفقدان دمشق لاستقلالها وسيادتها . ولسوف نقوم فيما يلي بإعادة ترتيب المعلومات التي قدمناها سابقاً في عدد من المواضع التي تحدثنا فيها عن أصول يهوذا ، والتي وردت في معرض المقارنة مع أصول إسرائيل ، وذلك ما لفهم أصول يهوذا من أهميةبالغة على فهم الأحداث التالية ومضامينها .

إن عـودة الإستيطان إلى منطقـة يهوذا وبنيامين ، مع الإنحسار التدريجي لموجة الجفاف في المنطقـة ، قد سارت بشكل غير متـواز مع عـودة الإستيطان إلى منطقة إسرائيل (الهضاب المركزيـــة)،وذلك من حيث الجـدول الزمني لهذا الاستيطان ، وأصــول المستوطنين الجـدد ، والبنيـة السياسية التي جمعت القـرى الجديدة إلى بعضها في النهايـة . قبل عام ١٢٠٠ ق.م ، كانت مرتفعات يهوذا فيما ين أورشليم شمالاً

وحبرون في الجنوب خالية تقريباًمن السكان ، وذلك في ما عدا موقعين صغيرين هما خربة رابوض وبيت زور . وفي عصر الحديد الأول (١٢٠٠ ـ ١٠٠٠ ق.م) ، استمر السكن في هذه المواقع مع ظهور قرى جديدة صغيرة وقليلة جداً توضعت قرب مصادر المياه الدائمة على الأطراف الشرقية لبادية يهوذا [١] . وتظهر الأساليب الفنية لصناعة الفخار في القرى الجديدة استمراراً ثقافياً لحضارة عصر البرونز الأخير ، وعدم وجود تأثيرات فنية وافدة من الخارج . كما نلاحظ الشيء نفسه في المواقع التي عبرت بنجاح فترة الجفاف واستمرت خلال عصر الحديد . ومع التقدم في عصر الحديد الثاني (١٠٠٠ ـ ٧٠٠ ق.م) وخصوصاً في نصفه الثاني ، يتزايد عدد المواقع الجديدة بشكل كبير ،ويتم سكن المنطقة على نطاق واسع لأول مرة منذ نهايات عصر البرونز الوسيط[٢]. إلا أن هذا التوسع في المستقرات الزراعية الجديدة لم يأت نتيجة لاقتلاع السكان الأصليين واستبدالهم بسكان جديدين على المنطقة ، لأن المخلفات المادية ، هنا ، لعصر الحديد الثاني تظهر أيضاً إنتماءً كاملاً للثقافة المحلية في البرونز الأخير وفي الحديد الأول . أما عن أصل السكان في هذه المراكز السكنية الجديدة ، فيبدو أنهم أتوا من ثلاثة مصادر ؛ فأولاً هناك التزايد المحلي السريع للسكان بتأثير الأحوال المناخية المؤاتية وما تبعه من انتعاش الزراعة والأوضاع الإقتصادية عامة . وثانياً ، هناك شريحة لا بأس بها من السكان الزراعيين الذين أتوا من المناطق المجاورة ليهوذا . وثالثاً : هناك جماعات رعوية وفدت إلى يهوذا من المناطق الرعوية الشرقية والجنوبية وتحولت إلى حياة الاستقرار . وقد شكلت هذه الجماعات جزءاً لا يستهان به من سكان يهوذا ، على عكس منطقة الهضاب المركزية التي لم تساهم الجماعات الرعوية إلا بنسبة قليلة من تركيبها السكاني[٣] .

لقد شهدت منطقة يهوذا خلال القرن العاشر وأوائل القرن التاسع ، تحولاً من اقتصاد يقوم على الرعي الى اقتصاد القرية الزراعية ، مع بقاء النشاط الرعوي الذي استمر في لعب دور مهم في اقتصادياتها وحياتها الإجتماعية . وخلال القرن العاشر والتاسع قبل الميلاد

---

١ ـ عن تقارير أثرية للمنقبين الاسرائيليين كوشافي وفنكلشتاين انظر تومبسون .

- Th . L . Thompson , Early History of the Israelite People , P . 288

٢ ـ عن تقارير أثرية للمنقبين الاسرائيليين مازار وكوشافي انظر تومبسون المرجع نفسه ص ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ .

3 - Th . L . Thompson , op . cit , PP . 289 - 290 .

حدث تزايد سريع في السكان أدى إلى توضيح البنية السياسية لمرتفعات يهوذا كمنطقة موحدة بقيادة أورشليم ، إلا أن الدولة التي نعرف عنها من النصوص الآشورية لأواخر القرن الثامن قبل الميلاد ، لم تكن قد تشكلت بعد . إن الإعتماد المتزايد على الزراعة المكثفة قد خلق ازدهاراً اقتصادياً ، وقاد إلى تكوين شبكة تجارية محلية اتصلت تدريجياً بالطرق التجارية الدولية ، وذلك من أجل تسويق سلع التبادل النقدي من زيوت وأخشاب وخمور ولحوم . غير أنه من المستبعد أن تكون الفترة الإنتقالية بين الحديد الأول والحديد الثاني قد شهدت قيام مدينة قوية وذات تعداد سكاني يسمح لها بالسيطرة على بقية المراكز الحضرية في يهوذا . ذلك أن زيادة عدد السكان وطريقة توزع هذه الزيادة ، كان مؤشراً على دخول المنطقة في فترة استقرار وازدهار نسبي ،وعلى قيام تنافس إقتصادي لم يؤد بعد إلى نزاع حول الموارد،التي كانت في طور النمو [٤] .

لقد لعبت أورشليم خلال عصر البرونـز دور المركز التجاري المسيطر على المنطقة المحيطة بها ، كما لعبت دور السوق التجارية للمراكز الحضرية الواقعة إلى المناطق الغربية مثل جازر ولخيش . ومع أن أورشليم قد نجحت في عبور فترة الجفاف خلال الفترة الإنتقالية من البرونز الأخير إلى الحديد الأول ، وشاركت بشكل فعال في عودة النمو الإقتصادي إلى المنطقة ، إلا أنها لم تكن حتى أواخر القرن العاشر قبل الميلاد وأوائل القرن التاسع ، أكثر من بلدة صغيرة لم تبلغ بأي معيار أو مقياس مبلغ المدن الكبرى . ويبدو أن موقعها المنعزل قد ساعدها على حفظ استقلالها ، ولكنه عمل أيضاً على حصر نفوذها السياسي ضمن منطقتها بشكل رئيسي . وبعد فترة الكمون التي مرت بها المدينة خلال الكارثة المناخية والإقتصادية ، أخذت أورشليم بالتطلع إلى مناطق يهوذا الواقعة إلى جنوبها ، وكان ذلك بدافع التوسع الإقتصادي والتجاري لا بدافع التوسع السياسي . من هنا ، فإن قيام أورشليم يبسط سيطرتها السياسية على يهوذا ، قد جاء عقب إكتمال عملية استيطان المنطقة بشكل واسع ولم يكن سابقاً عليه .

إستغرقت عملية الإستيطان في منطقة يهوذا كامل القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد ، وأعقب ذلك ارتفاع في الإنتاج الزراعي والحيواني ، جعل من يهوذا المصدر الرئيسي لسلع التبادل النقدي مع المراكز الحضرية في الغرب ، ومع حبرون في الجنوب

---

4 - Ibid , PP . 328 - 230

وأورشليم في الشمال . وهذا ما وضع مدينة أورشليم في منافسة مباشرة مع هذه المدن من أجل السيطرة على المراكز الزراعية في منطقة يهوذا ، والتي لم تكن تخضع لأي نوع من المركزية السياسية . ولكن كل المعلومات المتوفرة لدينا يشير إلى أن الوضع السياسي لمنطقة يهوذا قد بقي على حاله حتى العقود الأخيرة من القرن الثامن قبل الميلاد ، عندما بدأت أورشليم تكتسب بالفعل ملامح المدينة الكبيرة . وقد ساعدها على ذلك أفول نجم السامرة ودمار لخيش على يد آشور ، وقيام الآشوريين بتنظيم تجارة الزيت في المراكز الرئيسية لإنتاجه على الساحل . كما ساعد على ذلك أيضاً التغيير الجذري في الوضع السياسي لفلسطين الكبرى ، واستيعاب أورشليم لأفواج النازحين من مناطق التدمير الآشوري إبان عهد تغلات فلاصر الثالث وصارغون الثاني ، كما سنرى بعد قليل . وهكذا ظهرت مملكة يهوذا بقيادة النخبة السياسية والإقتصادية في مدينة أورشليم التي تحولت إلى مركز سياسي إقليمي كبير . وقد بدأت المدينة عهدها هذا كعميل لآشور ، ثم قادها التدخل المتزايد في شؤون التجارة الدولية إلى حتفها بعد قرن ونصف تقريباً من ظهورها على مسرح الأحداث (٥)

وسنعود الآن إلى متابعة أحداث القرن الثامن ، ودخول مملكة يهوذا ذلك المسرح

الحروب الأخيرة بين دمشق وآشور

لقد دفعت دمشق الجزية للملك هدد نيراري الثالث عام ٧٩٦ ق.م ثم تمردت على آشور بعد موت هدد نيراري فأخضعت ثانية في عام ٧٧٣ ق.م . وقد بدا لآشور بوضوح بعد هذا التمرد أن الوضع في منطقة دمشق وسورية الغربية والجنوبية لن يستقر إلا بعد إلحاق دمشق بآشور وحكمها بطريقة مباشرة.وكان على هذه الخطة أن تنتظر صعود ملك قوي جديد .

في عام ٧٤٥ ق.م ، إرتقى عرش آشور الملك تغلات فلاصر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق.م) . وكان عهده فاتحة لعصر الإمبراطورية الآشورية التي دامت بعده قرناً من الزمان ، وامتدت من

5 - *Ibid* , pp 330 - 334 .

إيران ضمناً في الشرق إلى مصر ضمناً في الغرب ، ومن الأناضول ضمناً في الشمال إلى أواسط شبه الجزيرة العربية في الجنوب . وقد أسس تغلات فلاصر لسياسة ضم الأراضي المقهورة بالقوة إلى التاج الآشوري ،وحُكمها بواسطة ولاة آشوريين معينين عليها ، يقومون بدور نائب الملك . كما أسس هذا الملك لسياسة الترحيل المنظم للشعوب المغلوبة ، وإحلال جماعات متنوعة في محلها يتم اختيارها من الشعوب المغلوبة الأخرى . وقد شملت عمليات التهجير الإجباري أكثر من ١٠٠ شعب ، بما في ذلك الآشوريين أنفسهم الذين فتحت أمامهم فرص الهجرة والإستقرار في أفضل الأراضي الشاغرة من سكانها . وبذلك تمكن الآشوريون أخيراً من حكم الممالك الثائرة بعد أن فقدت تكوينها الإثني والسياسي ، وبعد أن غيرت آشور الخريطة الديمغرافية للشرق القديم بكامله .

تـرك تغلات فلاصر عدداً لا بأس به من السجلات ، إلا أنها وصلتنا في حالة سيئة جداً ، وذلك بسبب الإهمال المتعمد لخلفائه ، والذي أدى إلى تشظي الرقم الفخارية ، وفقدان كثير من أجزائها ، وتشوش الترتيب الزمني لأحداثها . وهذا ماصعَّب على الباحثين مهمة إعادة ترتيب هذا الأحداث . وفيما يتعلق بأخبار مملكة دمشق ، لدينا عدد من النصوص القصيرة عن حملات آشورية مغفلة التواريخ ، إضافة إلى عدد من الإشارات في الحوليات الجغـرافية المختصرة (eponym chronicles) ، التي تذكر فقط تاريخ الحملة والمكان الموجهة إليه . وبمطابقة هذه النصوص القصيرة على تلك الإشارات ، والإستعانة بالأخبار التوراتية في سفر الملوك الثاني ، الذي بدأ محرروه يذكرون آشور إعتباراً من الإصحاح ١٥ ، وذلك في معرض تقصيهم للأحداث الأخيرة التي قادت إلى دمار السامرة وزوال إسرائيل . ونظراً لتداخل الأحداث التي قادت إلى نهاية كل من دمشق وإسرائيل ، وظهور مملكة يهوذا كطرف في هذه الأحداث ، فإنني أقدم فيما يلي ثبتاً بأسماء ملوك اسرائيل ودمشق ويهوذا وسنوات حكمهم.

دمشق	إسرائيل	يهوذا
رحيانو (رصين) ٧٥٠ - ٧٣٢	منحيم ٧٥٢ - ٧٤٢	آحاز ٧٣٥ - ٧١٥
ـــــ	فقحيا ٧٤٢ - ٧٤٠	حزقيا ٧٢٩ - ٦٨٦
ـــــ	فقح ٧٤٠ - ٧٣٢	ـــــ
	هوشع ٧٣٢ - ٧٢٢ (٧٢١)	

لدينا ثلاثة نصوص قصيرة تذكر اسم دمشق على رأس الممالك التي أجبرت على دفع الجزية في مناطق غربي الفرات ، وتذكر اسم ملكها "رحيانو"، الذي تدعوه النصوص التوراتية رصين . وهذا الإسم التوراتي ربما كان تحويراً للإسم " رصيانو"،الذي استقاه المحرر التوراتي من مصادر غير مباشرة قلبت الحاء الأكادية صاداً . نقرأ في أحد هذه النصوص الثلاثة ما يلي : " تلقيت الجزية من رحيانو ملك دمشق ، ومنحيم ملك السامرة ، وحيرام ملك صور ،وسيبتي بعل ملك جبيل ، وأوريكي ملك قوية ، وبيسيريس ملك كركميش ، وإنيل ملك حماة ، وبنامو ملك شمأل ..وزبيبة ملكة العرب "[٦] . ومن المرجح أن تكون هذه الحملات الثلاثة التي استهدفت دمشق بالدرجة الأولى ، قد جرت في الفترة الواقعة بين عامي ٨٤٢ و ٨٣٨ ق.م ، وهذا ما يعطينا فكرة تقريبية عن تاريخ اعتلاء الملك رصين (رحيانو) عرش دمشق . فبما أن الملك الأسبق لدمشق والمدعو حديانو قد ذكر في السجلات الآشورية عام ٧٧٣ ق.م ، وأن أول ذكر لرصين قد ورد حوالي عام ٨٤٢ ق.م ، فمن المرجح أن يكون رصين قد اعتلى عرش دمشق حوالي عام ٧٥٠ ق.م . إن ذكر مملكة دمشق في رأس قائمة المدن والممالك التي دفعت الجزية لتغلات فلاصر الثالث في سجلات حملاته الثلاثة الآنفة الذكر ، يجعل الإحتمال قوياً في أن يكون الملك رصين قد أحيا سياسة الأحلاف القديمة ، وأن تكون دمشق خاضت حروبها الأخيرة ضد آشور على رأس تحالف سوري قوي جديد ، وذلك قبل أن تفقد الدويلات السورية استقلالها واحدة إثر أخرى .

ولدينا نص مفصل لتغلات فلاصر الثالث ، يتعلق بحملة واسعة على مناطق غربي الفرات وإلحاق العديد من ممالكها بالتاج الآشوري . تبتدىء الحملة من مملكة حاتريكا ، ثم تهبط مناطق الساحل السوري وصولاً إلى غزة ، ثم تصعد نحو إسرائيل ، التي دفع ملكها منحيم الجزية لآشور واحتفظ باستقلال مملكته بعد خسارته جزءاً من أراضيه الشمالية . نقرأ في النص : " مدينة حاتريكا وكل الأراضي إلى جبل سيوا ، ومدن جبيل وسيميرا (عاصمة آمورو) وعرقاتا وأوزنو وعربا ..مدن ...البحر الأعلى جميعها بسطت نفوذي عليها، ووضعت قواداً من عندي لحكمها . وكذلك مدن ... غالزا وأبيلاكا (في شمال شرقي الأردن) المتاخمة لأرض عمري ، وأرض .. الواسعة بكامله وحّدتها مع مملكة آشور .أما هانو ملك غزة ، الذي هرب أمام قواتي والتجأ إلى مصر ، فقد قهرت مدينته غزة واستوليت على

6 - *Leo Oppenheim , op . cit , P283 .*

ممتلكاته وعلى صور آلهته ، أقمت صور آلهتي وصوري في قصره ، وأعلنتها آلهة للبلاد ، وفرضت على أهلها الجزية . وأما منحيم (ملك السامرة) فقد انقضضت عليه كعاصفة ثلجية ، فهرب من أمامي وحيداً كالعصفور ، ثم عاد فسجد عند قدمي .فأعدته إلى قصره وفرضت عليه الجزية فضة وذهباً وعباءات حريرية مزركشة ....(*) ومن أرض عمري استوليت على .... وسقت سكانها وممتلكاتها إلى آشور .."(7) .

أما سفر الملوك الثاني ، فيقدم لنا معلومات تتقاطع مع النص الآشوري أعلاه ، ولكنه يدعو ملك آشور باسم " فول" وهو إسم غريب ولاوجود له في لائحة ملوك آشور . ولربما اختلط على محرر السفر اسم ملك آشور تغلات فلاصر باسم واحد من قواده الذي ربما قاد الحملة على إسرائيل ، في الوقت الذي كان فيه الملك مشغولاً بقتال غزة . نقرأ في سفر الملوك الثاني هذاالخبرالأول عن آشور في كتاب التوراة :" مَلَكَ منحيم بن جادي على إسرائيل في السامرة عشر سنين ، وعمل الشر في عيني الرب ..فجاء فول ملك آشور على الأرض ، فأعطى منحيم لفول ألف وزنة من الفضة لتكون يداه معه ، ليثبت المملكة في يده . ووضع منحيم الفضة على إسرائيل ، على جميع جبابرة البأس ، ليدفع للملك آشور خمسين شاقل فضة على كل رجل . فرجع ملك آشور ولم يقم في الأرض ..ثم اضطجع منحيم مع آبائه وملك فحقيا ابنه عوضاً عنه " (الملوك الثاني ١٥ : ١٧ - ٢٢) . ويشذ هذا الخبر التوراتي عن الخبر الآشوري في نقطتين ؛ الأولى تتعلق باسم ملك آشور ، والثانية تتعلق بعدم ذكره لقتال تغلات فلاصر لمنحيم وهروب الأخير ثم عودته إلى السامرة بعد موافقته على دفع الجزية .

بعد الحملات المتوالية على مناطق غربي الفرات ، والتي أدت إلى ضم قسم كبير من الأراضي السورية إلى التاج الآشوري ، بقيت دمشق تجهز لحروب مقاومة جديدة ، وتهيء المناخ السياسي الملائم للمواجهات المقبلة . وقد ساعدها على ذلك انشغال تغلات فلاصر بحروب في المناطق الشمالية والشرقية لمدة ثلاث سنوات ، فيما بين ٧٣٧ و ٧٣٥ ق.م . ولما كانت مملكة يهوذا تلعب في ذلك الوقت دور العميل الرئيسي لتغلات فلاصر الذي

(*) إن الخبر في هذا المقطع الذي يبدأ بـ " ومن أرض عمري ... الخ ، ينتمي إلى أخبار حملة تالية لأنه وقع في عهد فقح

7 - *Ibid* , *P* 283 - 284 .

هاجم كل ممالك سورية الجنوبية وفلسطين من دون يهوذا ، فقد كان لا بد لرصين ملك دمشق من إزاحة الملك آحاز في يهوذا ورفع ملك جديد يناهض آشور.وهنا تقوم دمشق بعقد حلف جديد مع إسرائيل ، ويتوجه رصين وفقح ملك إسرائيل لحصار آحاز . ومعلوماتنا عن هذا الحلف مصدره الرواية التوراتية فقط نقرأ في سفر أشعيا :

" وحدث في أيام آحاز بن يوثام ملك يهوذا ، أن رصين ملك آرام صعد مع فقح بن رمليا ملك إسرائيل إلى أورشليم لمحاربتها ، فلم يقدر أن يحاربها . وأُخبر بيت داود (أي ملك يهوذا) وقيل له قد حلت آرام في أفرايم (أي إسرائيل) . فرجف قلبه وقلوب شعبه كرجفان شجر الوعر قدام الريح .فقال الرب لأشعيا : إخرج لملاقاة آحاز وقل له: ... لأن آرام تآمرت عليك بشر مع أفرايم وابن رمليا قائلة نصعد على يهوذا ونقوضها ونستفتحها لأنفسنا ونملك في وسطها ملكاً : ابن طبئيل .هكذا يقول السيد الرب .. الخ " (أشعيا : ١ - ٧) . ونقرأ في سفر الملوك الثاني أيضاً :

" كان آحاز ابن عشرين سنة حين ملك ، وملك ست عشرة سنة في أورشليم . ولم يعمل المستقيم في عيني الرب إلهه ، بل سار في طريق ملوك إسرائيل .. حينئذ صعد عليه رصين ملك آرام وفقح بن رمليا ملك إسرائيل ،إلى أورشليم للمحاربة . فحاصروا آحاز ولم يقدروا أن يغلبوه .. وأرسل آحاز رسلاً إلى تغلت فلاصر ملك آشور قائلاً أنا عبدك وابنك ، إصعد وخلصني من يد ملك آرام ومن يد ملك إسرائيل القائمين علي. فأخذ آحاز الفضة والذهب الموجود في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك و أرسلها إلى ملك آشور هدية . فسمع له ملك آشور وصعد إلى دمشق وأخذها وسباها إلى قير ، وقتل رصين . وسار الملك آحاز للقاء تغلت فلاصر ملك آشور ، إلى دمشق " (الملوك الثاني ١٦ : ١ - ١٠) .

لا يخرج هذان الخبران عن الخط العام ، الذي التزمه التوراة ، في تقديم المعلومات التي تيسرت للمحرر من خلال رؤية إيديولوجية ساذجة ، لا ترى في التاريخ إلا نتاجاً لتدخل القدرة الإلهية في عالم الناس ، ولا تنظر إلى الأحداث في أسبابها ونتائجها ، ولا تحفل بالدائرة الكبرى التي يتحرك ضمنها الحدث المنعزل الذي يجري تقديمه . فرصين ملك آرام وفقح ملك إسرائيل ،ليسا إلا أداة في يد الرب أصعدهما لحصار أورشليم عقاباً على خطاياها وخطايا ملكها . وملك آشور يقبل هدية آحاز ويشن حملته على دمشق بعد قبوله الرشوة من أورشليم . ولكننا إذا أردنا فهم هذين الخبرين على خلفية الأحداث العامة في بلاد الشام في

ذلك الوقت ، علينا أن نبحث عن أسباب حصار أورشليم في موقفها حيال السياسة الآشورية في المنطقة وعلاقاتها بالممالك المحلية المجاورة.

لقد اتسمت سياسة إسرائيل ـ السامرة حيال آشور ، عقب معركة قرقرة ، بالذبذبة . فكانت تعاضد دمشق أحياناً ، وتقف على الحياد أو تعلن ولاءها لآشور وتدفع الجزية لملوكها في أحيان أخرى ، وذلك حسب تقديرها للموقف السياسي العام ، وتبعاً للتكوين الشخصي لملوكها المتعاقبين . أما يهوذا ، فقد التزمت منذ قيامها موقف الممالئة لآشور والعمل على تنفيذ سياستها في سورية الجنوبية وفلسطين ، مستفيدة من الإنهيار العام للبنى السياسية القديمة في هذه المنطقة، وسقوط الممالك السورية من حولها واحدة إثر أخرى ، فانتعشت وأثرت من الدمار المنتشر من حولها . وبينما ضمت آشور معظم المناطق في سورية وفلسطين إلى التاج الآشوري ، بقيت يهوذا حرة مستقلة ، وعبرت القرن السابع قبل الميلاد بنجاح لا تحسد عليه . من هنا ،فقد عملت دمشق على إحداث تغيير جذري في هيكل السلطة السياسية في يهوذا ، ووضع ملك عليها يخلع طاعة آشور ويقف إلى جانب دمشق في المعركة المقبلة ، التي كانت آشور تخطط من خلالها إلى توجيه الضربة الأخيرة لمملكة دمشق ، و الممالك القليلة الأخرى التي بقيت حتى الآن على استقلالها . ويدعو خبر سفر أشعيا،الذي أوردنـاه أعلاه ، الملك البديل في يهوذا باسم ابن طبئيل دون أية تفصيلات أخرى . ومن ناحيتها ، فقد كانت إسرائيل تشعر بالخطر الكبير الذي تمثله سياسة يهوذا على حدودها ، واعتقدت بأن جبهة واحدة تضم دمشق وإسرائيل ويهوذا ،من شأنها دفع الخطر الآشوري عن المنطقة ولو مؤقتاً ، بانتظار تغييرات داخلية في آشور ، أو تحركات في مناطق نفوذها الشرقية والشمالية ، تشغلها ردحاً من الزمان .

عندما آلت أورشليم إلى السقوط بيد رصين ملك دمشق ، وصلته الأخبار عن عبور تغلات فلاصر الثالث نهر الفرات وتوجهه إلى سورية الجنوبية ، فتراجع عن أورشليم وعاد بسرعة إلى عاصمته استعداداً لقتال الآشوريين . وعند هذه النقطة من القصة ، يقفز النص التوراتي فوق الأحداث ، ويُظهر أن الحملة الآشورية التي قضت على دمشق ، هي التي أعقبت تراجع رصين عن أسوار أورشليم . أما سجلات تغلات فلاصر فتظهر بوضوح أن عامين من القتـــال الشديد بين دمشق وآشـــور قد سبقا الإستسلام الأخيـــر لدمشق . ففي الحـــوليات الجغـــرافية المختصـــرة لتغـــلات فلاصر لدينا ثلاث حملات على سورية

الجنوبية ،[8] واحدة منها على فلسطين عام ٧٣٤ ق.م ، واثنتان على دمشق في عام ٧٣٣ ق.م،وفي عام ٣٣٢ ق.م وهي الحملة التي قتل فيها رصين . خلال الحملة على فلسطين يستولي تغلات فلاصر على المناطق الشمالية من مملكة السامرة ، ثم لا يتوجه لحصار العاصمة ، بل يتآمر لأحداث فتنة تطيح بالملك فقح حليف دمشق . يقول تغلات فلاصر عن ذلك : "... ومن أرض عمري ، استوليت على .. وسقت سكانها وممتلكاتهم إلى آشور . ثم ثاروا على ملكهم بيقحا (فقح) ، فخلعت عليهم المدعو أوشي (هوشع) ملكاً ، وتلقيت منهم جزية مقدارها ١٠٠٠ وزنة من الذهب "[9] . وهنا يتقاطع الخبر التوراتي مع الخبر الآشوري ، ونقرأ في سفر الملوك الثاني : " في أيام فقح ملك إسرائيل ، جاء تغلت فلاصر ملك آشور وأخذ عيون وآبل بيت معكة ويانوح وقادش وحاصور وجلعاد والجليل وكل أرض نفتالي ، وسباهم إلى آشور . وفتن هوشع بن إيله على فقح بن رمليا ، وضربه فقتله وملك عوضاً عنه " (الملوك الثاني ١٥ : ٢٩ - ٣٠) .

إن بعض الشذرات الباقية من رُقم تغلات فلاصر ، إضافة إلى نص آرامي مهم من مملكة شمأل ، تعطينا صورة عما كان يجري بين تغلات فلاصر ورصين ملك دمشق خلال هذا الهزيع الأخير من حياة مملكة دمشق المستقلة. فعلى شذرة مشوهة من أحد الرقم نقرأ بقايا نص يفيد بوقوع هجوم غير ناجح على دمشق ، يكتفي إثره تغلات فلاصر بتدمير عدد هائل من المدن والقرى التابعة لرصين ،بينها مدينة حدرا التي يصفها النص بأنها مسقط رأس الملك رصين (رحيانو) . ونرجح أن تكون حدرا هذه هي بلدة عدرا الحالية الواقعة على مسافة ٢٥ كم إلى الشمال من دمشق . يقول النص : " لقد حاصرت مدينة حدرا ، بيت أسلاف رحيانو ملك إميريشو ومسقط رأسه وفتحها ، وسقت منها ٨٠٠ أسيراً مع ممتلكاتهم غنيمة . كما سقت ٧٥٠ أسيراً من مدينةكوروصّا ،ومن مدينة إرميا ، و٥٥٠ أسيراًمن مدينة ميتونا غنيمة . ودمرت ٥٩١ بلدة في ١٦ مقاطعة من بلاد إميريشو ، فتركتها كما الأنقاض بعد عاصفة الطوفان "[10] . ونستدل من هذا العدد الكبير من المدن والقرى المدمرة على أن حملة تغلات فلاصر قد طالت مملكة إميريشو الكبرى ، والتي تشمل حوران والجولان والبقاع وبعض الأجزاء الشمالية من شرقي الأردن . كما يعطينا وصف الحملة الآشورية

---

8 - Wayne . T . Pitard , op cit , P . 186
9 - Leo Oppenheim ; op . cit , PP . 283 - 284 .
10 - Wayne . T . Pitard , OP . cit , P187 .

صورة عن شراسة القتال بين دمشق وآشور خلال المعارك التي ختمت قرناً ونصف من الصراع بين هاتين القوتين العظميين في المنطقة .

ويبدو أن تغلات فلاصر كان يستعين في حروبه على دمشق بجيوش بعض الممالك المقهورة والموالية له في سورية الشمالية . يدلنا على ذلك نص الملك بامو بن راكب ملك يأدي (شمأل) ، الذي وجد على نصب أقامه هذا الملك تخليداً لذكرى أبيه الذي قتل وهو يحارب في أرض دمشق إلى جانب الآشوريين . نقرأ في نص بنامو ما يلي : " بحكمته وبصدقه ، أخذ بطرف ثوب سيده ملك آشور الذي أعلاه بين الملوك الكبار ، وسار بركاب سيده تعلات فلاصر بوسط الجيش ، من مطلع الشمس إلى مغربها .. ثم مات أبي بنامو على رجلي سيده تغلات فلاصر في المعركة ، فبكاه أقرباؤه الملوك وبكته قوات سيدي ملك آشور كلها . فقام ملك آشور وجعل له نصباً على الطريق . ونقل أبي من دمشق إلى آشور ."(١١)

أما عن اقتحام دمشق وقتل رصين ، فلا يوجد لدينا نص واضح يصف ذلك فيما تبقى من سجلات وشذرات سجلات تغلات فلاصر . وقد عمل الباحث Tadmor عام ١٩٦٢ على إعادة ترتيب ثلاث شذرات لرقيم مكسور وقرأها على النحو التالي : " لقد ألحقت بآشور كل الأراضي الواسعة لبيت حزائيل (أي مملكة دمشق) من جبال لبنان إلى بلدة جلعازو (راموت جلعاد في شرقي الأردن) وأبيلاكا (آبل بيت معكة) عند أطراف أرض عمري ، وعينت عليها حكاماً من قبلي " (١٢) . وعلى الأرجح فإن معارك حملةعام ٧٣٢ ق.م كانت بمثابة المواجهة الأخيرة بين دمشق وآشور ، وهي التي أفقدت دمشق استقلالها والحقتها بالممتلكات الآشورية . وسيكون لدمشق إنتفاضة أخيرة بعد قليل ، ولكن لا كمملكة كبيرة بل كمدينة مستضعفة تحارب تحت إمرة ملك حماة.

نهاية إسرائيل

قبل هجومه الأخير على دمشق ، عاقب تغلات فلاصر مملكة إسرائيل على وقوفها إلى جانب دمشق ،فسلبها أراضيها الشمالية وعين عليها ملكاً جديداً يأتمر بأمره ، ويدير شؤون مملكة صغيرة تلعب دور التابع في منطقة فلسطين . فقد كانت آشور إلى جانب اعتمادها

---

١١ - د . علي أبو عساف ، المرجع السابق ص ص ١٢٤ - ١٢٥

12 - Wayn . T Pitard , op . cit , pp . 188 - 189 .

سياسة ضم الممالك المستقلة إلى التاج الآشوري ، ترغب في الإبقاء على الحكم الذاتي لبعض الممالك بعد إضعافها ونزع أسنانها ، وذلك إلى الحد الذي يخدم مصالحها وحساباتها الإستراتيجية ، وكانت تبقي على الأسر الحاكمة في هذه الممالك طالما أمنت لها هذه المصالح ، فإذا آنس بعض هؤلاء الحكام من أنفسهم قوة وانتهزوا فرصة سانحة للتمرد ، عمدت آشور إلى البطش بهم وتصفية دولهم . وهذا ماحدث لإسرائيل في سنواتها الأخيرة التي عاشتها بعد نهاية مملكة دمشق .

إعتلى عرش آشور بعد تغلات فلاصر الثالث ابنه شلمنصر الخامس ، الذي حكم فترة قصيرة فيما بين ٧٢٦ و ٧٢٢ ق.م ، ثم خلفه صارغون الثاني الذي حكم سبعة عشر سنة فيما بين ٧٢١ و ٧٠٥ ق.م . وكان من أوائل أعماله حملته في مناطق غربي الفرات على حلف سوري جديد تشكل هذه المرة بقيادة مملكة حماة ، التي اغتصب العرش فيها رجل من الجالية الحثية القوية التي تقيم فيها منذ زمن بعيد ، والتي صعد من صفوفها عدد من الملوك أشهرهم إرخوليني حليف هدد عدر الآنف الذكر . وقد تألف حلف حماة من دويلات حماة وأرواد وسيميرا والسامرة ودمشق . ولا ندري كيف شاركت دمشق في هذا الحلف بعد زوالها كمملكة مستقلة وضمها الى التاج الآشوري . والأغلب أنها قد ثارت على الحاكم المعين عليها من آشور ولجأت إلى ملك حماة الجديد ، الذي وعدها بالحماية وتأمين الاستقلال . ومثلها في ذلك مدينة سيميرا التي كانت قد ألحقت بآشور قبل دمشق .أما هوشع ملك السامرة فقد كان يتلقى تحريضاً مستمراً من مصر على الثورة ، ووعوداً بالدعم العسكري والمادي ، وقد وجد في دعوة ملك حماة مناسبة لبدء عصيانه .

لدينا نصان لصارغون الثاني عن قتاله لحلف حماة . نقرأ في أولهما : " ياوبيدي من عامة مدينة حماة ، حثي ملعون ،جعل نفسه ملكاً على المدينة وحرض ضدي مدن أرواد وسيميرا ودمشق والسامرة ، فتعاونوا وجهزوا جيشاً مشتركاً . دعوت جميع جند آشور وأطبقت عليه في قرقرة مدينته الأثيرة ، ففتحها وأحرقتها . أما هو فقد أمسكت به وسلخت جلده ، وقتلت المتمردين في مدنهم وأحللت النظام والسلام بها ". ونقرأ في النص الثاني : " لقد خربت حماة كعاصفة الطوفان ، وسقت ملكها ياوبيدي وعائلته وكل محاربيه إلى آشور مكبلين بالأصفاد ، فشكلت منهم فرقة مؤلفة من ٣٠٠ عربة و ٦٠٠ مقاتل مجهزين بالتروس والرماح ، وضممتهم إلى فرقي الملكية . ثم أسكنت ٦٣٠٠ آشوري في أرض

حماة ، وجعلت عليهم حاكماً من عندي " (١٣) . وسوف يطبق صارغون سياسة التهجير الجماعي التي مارسها على نطاق محدود في حماة ، على أوسع نطاق في إسرائيل،التي ما لبثت أن تلقت الضربة الآشورية الأخيرة التي أزالتها من الوجود ككيان سياسي وكشعب.

في سجــلات صارغــون لدينا نصان قصيران يخبران عن دمار السامرة . نقرأ في الأول : " صارغــون ملك آشـور ، فاتح السامرة وكل بيت عمري . الذي غنم أشدود وشينوختي ، وأمسك اليامانى في البحر كالسمك . الذي قضى على كاسكو وطابالي وخيلاكو . الذي طارد ميتا ملك موشكو . الذي قهر مصر في رفح . الذي أخذ هانو ملك غزة أسيراً . الذي أخضع الملوك السبعة بأراضي يدنانا على مسافة سبعة أيام في البحر " (١٤). وهكذا لم يكتف صارغون الثاني بالإستيــلاء على جميع الثغــور السورية على شاطىء المتوسط، من كيليكيا (خيلاكو) إلى غزة ورفح في الجنوب ، بل عمل على بسط سلطته على الشعوب البحرية التي تتاجر مع الثغور السورية ، مثل الأيونيين (= اليامانى) في الجزر اليونانية ، والقبارصة في يدنانا (جزيرة قبرص) ، وبذلك ضمنت آشور السيطرة التامة على التجارةالبحرية في حوض المتوسط . كما وجه صارغون إلى مصر ضربة أليمة في رفح التي تشكل آخر نقطة لحدودها الشمالية التقليدية ، وذلك عقاباً لها على تدخلها في شؤون آشور وتحريضها الدويلات الفلسطينية على العصيان .

وفي نص آخر أكثر تفصيلاً لصارغون عن فتح السامرة نقرأ ما يلي : " لقد حاصرت السامرة وفتحتها وجلوت ٢٧٢٩٠ من سكانها ، وجهزت من بينهم فصيلة بخمسين عربة ضممتها الى فيلقي الملكي . أما المدينة ، فقد أعدت بناءها بأفضل مما كانت عليه ، واسكنت فيها شعوباً من المناطق الأخرى التي قهرتها . ثم أقمت عليهم حاكماً من ضباطي وفرضت عليهم الجزية " (١٥).

وبالطبع فإن سفر الملوك الثاني يحدثنا عن دمار السامرة ، ولكنه يعزو ذلك إلى الملك شلمنصر الخامس سلف صارغون الثاني . ولعل مما يلفت النظر فعلاً أن معلومات محرري التوراة بخصوص آشور ودورها في أحداث النصف الأول من الأول قبل الميلاد قد بقيت غامضة ومشوشة ، حتى عند هذا الوقت المتأخر من حياة مملكة إسرائيل . فصارغون الثاني بقي مجهولاً لديهم تماماً ، ومحررو سفر الملوك الثاني لم يخصوه بخبر واحد رغم حملاته

13 - Leo Oppenheime , op . cit , P . 284 .
14 - Ibid , P . 284 .
15 - Ibid , P . 284 .

الشهيرة التي غيرت الخارطة السكانية لبلاد الشام . نقرأ في سفر الملوك الثاني الخبر التالي عن فتح السامرة : " مَلَكَ هوشع بن إيلة في السامرة على إسرائيل تسع سنين ، وعمل الشر في عيني الرب ، فصعد عليه شلمنصر ملك آشور فصار هوشع له عبداً ودفع له الجزية ، ووجد الملك آشور في هوشع خيانة لأنه أرسل رسلاً إلى سوا ملك مصر ولم يؤد جزية إلى آشور حسب كل سنة . فقبض عليه ملك آشور وأوثقه في السجن ، وصعد ملك آشور على كل الأرض ، وصعد إلى السامرة وحاصرها ثلاث سنين . في السنة التاسعة لهوشع ، أخذ ملك آشور السامرة وسبى إسرائيل إلى آشور وأسكنهم في حلج وخابور ونهر جوزان وفي مدن مادي " (الملوك الثاني ١٧ : ١ - ٦) .

وبسقوط السامرة في عام ٧٢١ ق.م انتهت مملكة اسرائيل ولم تقم لها قائمة بعد ذلك ، كما اختفى الاسم " إسرائيل " وبطل استعماله ، وحل محله إسم السامرة للدلالة على المقاطعة التي قامت على أراضي إسرائيل،من العصر الآشوري إلى العصر الروماني .

سياسة التهجير الآشورية

اساليبها وأهدافها

لم تكن عمليات التهجير المنظمة،التي ابتدأت فعلياً في عهد تغلات فلاصر الثالث ، بالأمـــر الثانوي في الإيديولوجية السياسية للإمبراطورية الآشورية ، بل كانت عمادها الرئيسي . فلقد طالت سياسة التهجير كل المناطق الواقعة تحت سيطرة آشور ؛ من إيران والخليج العربي صعوداً إلى جبال طوروس فهبوطاً نحو الساحل الفينيقي وصولاً الى حدود مصر . وكانت لها نتائج عميقة الأثر على التكوين السياسي والسكاني والإقتصادي للأراضي المقهورة . وقد وصلنا حتى الآن حوالي ١٥٠ نصاً آشورياً تذكر عمليات ترحيل واسعة النطاق ، والشعوب التي طالتها هذه العمليات ، والمناطق التي تم تهجيرها اليها . وقد تبين أن الجزء الأكبر من عمليات الترحيل كان باتجاه مناطق آشور الرئيسية في مدن آشور و كالح ونينوى ودور شاروكين ، أما بقية عمليات الترحيل فكانت نحو المناطق،التي شغرت من سكانها نتيجة عمليات ترحيل سابقة [١٦] .فالمهجرون من مملكة حماة قد أُخذوا إلى

16 - Thomas . L . Thompson , op . cit , P . 341

آشور كما رأينا في نص صارغون الثاني أعلاه، وتم ضمهم إلى الجيش الآشوري ، وكذلك سكان مملكة كركميش على ما يذكره نص آخر لصارغون نقرأ فيه :" في السنة الخامسة لحكمي ، حنث بيصيري ملك كركميش بالعهد والقسم الذي أقسمه أمام الآلهة العظام ، وبعث برسالة إلى ميتاكوشي ملك موكشي مليئة بالمخططات العدوانية ضد آشور . فرفعت يدي إلى إلهي آشور بالصلاة وتوجهت إليه فجعلته يستسلم عاجلاً مع عائلته ، فخرجوا جميعاً من كركميش ومعهم ذهبهم وفضتهم وممتلكاتهم الشخصية تقدمة لي ، فرميتهم بالأصفاد ، ثم أحللت في كركميش سكاناً من آشور "(١٧) . أما أهل القبائل العربية الذين قهرهم صارغون في المناطق الشمالية من جزيرة العرب ، فقد تم ترحيلهم إلى أراضي السامرة التي سبقتهم اليها جماعات مغلوبة أخرى . نقرأ في نص لصارغون الثاني : " بناءً على نبوءة صادقة من إلهي آشور ، سرت وقهرت قبائل ثمود وأباديدي ومارسيمانو وحاييبا ؛ العرب الذين يعيشون بعيداً في الصحراء ، الذين لا يعرفون البحار ولا الرؤساء ، ولم يأتوا بجزيتهم لأي ملك .لقد أبعدت من بقي منهم حياً وأسكنتهم في السامرة "(١٨) .

يذكر العديد من نصوص الترحيل الآشورية أن شعوباً بأكملها قد سيقت الى المنفى . إلا أن النصوص التي تذكر أعداد المهجرين لا تزيد عن ثلاثة وأربعين نصاً من أصل مئة وست وخمسين .ولكي نأخذ فكرة عن العدد الإجمالي للسكان ، الذين طالتهم عمليات الترحيل ، يكفي أن نذكر أن ١٣ نصاً من أصل الـ ٤٦ نصاً التي تذكر أرقام المهجرين ، يتحدث عن تهجير ما يزيد عن الـ ٣٠,٠٠٠ نسمة في كل عملية ، بما فيها عملية الترحيل الكبرى لسكان بابل والتي طالت حسب الرقم الآشوري المقدم ٢٠٨,٠٠٠ نسمة . من هنا فإن الحديث عن ملايين الناس الذين طالتهم عمليات التهجير الآشورية ، لا يدخل في نطاق المبالغة (١٩) . أما عن أهداف سياسة التهجير الآشورية فمتعددة . فأولاً ، كان التهجير بمثابة عقوبة للشعوب الثائرة ، التي لم تنفع الوسائل الأخرى في إخماد ثوراتها المتلاحقة . وثانياً ، كان توطين المهجرين في المناطق الجديدة ، باستثناء آشور ، يستهدف تغيير التركيب السكاني في المناطق المتمردة التي رحل اليها هؤلاء المهجرين ، وحلحلة التجانس الإثني فيها من أجل منع حدوث ثورات محتملة فيها . وثالثاً ، كان قسم لابأس به من المهجرين يوطن في مناطق

17 - *Leo Openheim , op . cit , P . 285*
18 - *Ibid , P . 286*
19 - *Thomas . L . Thompson , op . cit , P . 342 .*

خالية من السكان بهدف إحيائها اقتصادياً والإستفادة منها لصالح التاج الآشوري . أما إعادة التوطين في مناطق آشور ، فقد استهدفت رفد القوة العسكرية الآشورية بأفضل جنود البلاد المقهورة ، والإفادة من الحرفيين المهرة لدعم الصناعات المحلية ، والإفادة أيضاً من الإنتلجنتسيا المغلوبة في شتى وظائف القصر والإدارات العامة ، وأخيراً تزويد أعمال البناء العامة باليد العاملة المسخرة .

وكما هو شأن الدعاوة الإمبريالية الحديثة ، التي كانت تقدم الإستعمار للشعوب المغلوبة على أنه إنقاذ لها من حكامها ومن أوضاعها الإقتصادية المتردية ،وترسم صورة للمستعمر باعتباره مصلحاً وحاملاً لرسالة التقدم ، كذلك كان شأن الدعاوة السياسية الآشورية التي كانت تتوجه للشعوب بشعارات مشابهة . فآشور هو المنقذ لهذه الشعوب ، والمنفى الذي ينتظرها هو جنة وفردوس لمن يستسلم للآلة الحربية الآشورية . ولدينا نص من سفر الملوك الثاني يتفق كل الاتفاق مع هذه النغمة الإعلامية التي نجدها في العديد من النصوص الآشورية . فعندما يحاصر القائد الآشوري ربشاقي أورشليم في عهد حزقيا ، يتوجه هذا القائد الى أهل أورشليم بخطاب تحت السور يدعوهم فيه إلى الإستسلام ، الذي ستكون مكافأته ترحيلهم إلى أرض جديدة يتملك فيها كل واحد منهم حقلة طيبة تفيض خمراً وعسلاً ، ويأكل من كرمتـه وتينتـه الخاصـة ، التي زرعها بنفسـه . نقرأ في سفر الملوك الثاني : " إسمعوا كلام الملك العظيم ملك آشور .هكذا يقول الملك : لا يخدعكم حزقيا لأنه لا يقدر أن ينقذكم من يدي .. لا تسمعوا لحزقيا ، لأنه هكذا يقول ملك آشور ،إعقدوا صلحاً معي وأخرجوا إلي ، وكلوا كل واحد من جفنته وكل واحد من تينته واشربوا كل واحد من ماء بئره .حتى آتي وآخذكم الى أرض كأرضكم ، أرض حنطة وخمر أرض خبز وكروم أرض زيتون وعسل .وأحيوا ولا تموتوا " (الملوك الثاني ١٨ :٢٠ - ٢٢) .

الفصل السادس

صعود يهوذا ونهايتها السريعة

إن حملات صارغون الثاني التي أسفرت عن إلحاق دمشق بآشور وتدمير السامرة ، قد أحدثت دماراً كبيراً شمل معظم المناطق الفلسطينية. وبشكل خاص فقد عاث الجيش الآشوري فساداً في المدن الواقعة الى الغرب من مرتفعات يهوذا ،بينها وبين السهل الساحلي ، مثل جرار ولخيش وبيت شمش (وتدعى هذه المنطقة بمنطقة شفلح ، أو التلال المنخفضة) ، ولم تعد الحياة الطبيعية إلى هذه المدن إلا بعد فترة طويلة من حملات صارغون . وقد انتهز ملوك أورشليم هذه الفرصة فضموا إليهم المناطق الجنوبية من حبرون إلى بئر السبع ، كما ضموا مدن المناطق الغربية التي كانت تنافسهم في الماضي القريب على تسويق منتجات قرى المرتفعات . وبذلك تحولت أورشليم إلى مملكة قوية في سورية الجنوبية ، بمباركة ودعم من آشور،مكافأة لها على عمالة ملوكها وعونهم لها على دمشق والسامرة وبقية الممالك الفلسطينية . وبذلك يأتي تشكل مملكة يهوذا كناتج للمد التوسعي لمدينة أورشليم ، لا كناتج لمركزية تدريجية وحدت منطقة ذات مصالح اقتصادية متبادلة ، كما كان الحال في تشكل دولة السامرة . فلقد تشكلت دولة السامرة قبل أكثر من قرن ونصف من تشكل دولة يهوذا ، وحدث ذلك نتيجة للتقارب بين القرى الزراعية الجديدة ، وتشابك مصالحها ، وبحثها عن بنية سياسية قادرة على إدارة اقتصاد زراعي بلغ مرحلة النضج . فقامت بينها أسرة الملك عمري الذي بنى مدينة السامرة لتكون عاصمة لإقليم صار موحداً في اقتصادياته وملامحه الإثنية العامة . أما دولة يهوذا ،فقد قامت منذ البداية ككيان مصطنع ، لا يجمعه إلى بعضه إلا مطامح ملوك أورشليم في السيطرة التجارية والاقتصادية على مرتفعات يهوذا ، وفيما بعد على الأقاليم التي دمرتها الحروب الآشورية [1].

---

1 - Th L . Thompson , OP . cit , pp . 290 , 234

ويبدو أن غياب كل من مملكة دمشق وإسرائيل عن الساحة ، قد جعل مملكة يهوذا الحارس على طرق التجارة الدولية في فلسطين وشرقي الأردن ، وصارت إلى حال من القوة والثروة جعل ملوكها يفكرون جدياً بالإستقلال عن آشور ، وتجيير كل المكاسب لحسابهم الخاص ، يشجعهم على ذلك ملوك مصر الذين أقلقهم وصول آشور إلى حدودهم الشمالية.

شهد آحاز ملك يهوذا الإستسلام الأخير لمدينة دمشق عام ٧٣٢ ق.م ، وحضر شخصياً إلى المدينة للقاء تغلات فلاصر هناك ، والحصول على بركته لمتابعة دوره في المنطقة (الملوك الثاني ١٦ : ١٠) . ثم تابع سياسة العمالة لآشور حتى شهد أيضاً دمار السامرة عام ٧٢١ ق.م ، واطمأن إلى استتباب الأمور في المنطقة بما يتفق ومصالحه . بعد ذلك تخلى عن جزء كبير من صلاحياته السياسية لابنه حزقيا ، الذي ارتقى عرش أورشليم بعد وفاة أبيه عام ٧١٥ ق.م . وسأقدم فيما يلي ثبتاً بملوك يهوذا الذين تتابعوا من آحاز إلى صدقيا آخر ملوك يهوذا ، وسنوات حكمهم وذلك ليتيسر للقارىء متابعة ما سيلي من أخبار يهوذا:

آحاز	٧٣٥ - ٧١٥ ق.م
حزقيا	٧٢٩ - ٦٨٦ق.م
آمون	٦٤١ - ٦٣٩ ق.م
يوشيا	٦٣٩ - ٦٠٨ ق.م
يهوآحاز	٦٠٨ - ــــــ
يهوياقيم	٦٠٨ - ٦٩٨ ق.م
يهوياكين	٥٩٨ - ٥٩٧ ق.م
صدقيا	٥٩٧ - ٥٨٦ ق.م

حكم حزقيا مدة طويلة جداً بلغت أربعين سنة ، وقد ورث عن أبيه عمالة آشور ، وسار في ظل هذه السياسة فترة طويلة استطاع خلالها بناء الدولة الحقيقية ليهوذا الكبرى،التي بقيت بمنجاة من الحملات الصاعقة ، التي أكملت عملية إلحاق مدن الساحل الفلستي بآشور . وقد تلقت مدينتي جت وأشدود بشكل خاص أقسى ضربات صارغون الثاني .نقرأ في نص لصارغون : " عازوري ملك أشدود امتنع عن دفع الجزية وكتب رسائل إلى الممالك

المجاورة مليئة بالمخططات العدوانية ضد آشور ،فقمت بإقصائه عن العرش جزاء خيانته ، وعينت أخاه الأصغر أحيميتي ملكاً . ولكن سكان أشدود كرهوا حكمه ورفعوا عليهم ملكاً، رجلاً من الإغريق لاحقّ له بالملك . فقمت في ثورة غضبي بالتوجه إلى أشدود دون أن أكمل استعداداتي العسكرية ، وبما توفر لي من جنود مخلصين . ولما سمع هذا الإغريقي باقترابي هرب وتوجه الى مصر . حاصرت وفتحت مدن أشدود وجت واسدوديمو ، وغنمت زوجة وأولاد الملك وكنوز قصره وسكان بلاده . ثم أعدت تنظيم هذه المدن ، فأحللت فيها سكاناً من المناطق الشرقية التي قهرتها سابقاً، وعينت عليهم حاكماً من عدي ، وأعلنتهم مواطنين آشوريين " (٢)

في السنوات الأخيرة من حكمه ، انشغل صارغون الثاني بمشاكله الداخلية ، وأوقف حملاته السورية ، ثم توفي عام ٧٠٥ ق.م ، وخلفه ابنه سنحاريب . انشغل سنحاريب في سنوات حكمه الأولى بالقضاء على عدد من الفتن والثورات في بلاد الرافدين والمناطق الشرقية ، الأمر الذي أعطى حزقيا ملك يهوذا مزيداً من الإحساس بالإستقلال والإحساس بقوته الذاتية . وقد قادة هذا إلى التفكير بالتمرد على آشور ، يدفعه إلى ذلك فراعنة الأسرة الحبشية في مصر . كما ساعد حزقيا على التفكير بالتمرد الحالة العامة المناهضة للحكم الآشوري في جميع مناطق سورية الغربية ، وخصوصاً مدن فينيقية وفلسطين . وقد اعتقد جدياً ولفترة ، بأنه في حال نجاح هذا التمرد العام وفشل آشور في إخماده ، فسيكون لأورشليم الدور القيادي في فلسطين ، وربما استطاعت الحلول محل آشور . ولكن هذا الوضع المتوتر في فينيقيا وفلسطين قد دفع أخيراً الملك سنحاريب إلى شن حملة كبرى على المنطقـة ، مشهـورة في تاريخ الحملات الآشورية . نقرأ في سجل سنحاريب عن هذه الحملة مايلي:

" في حملتي الثالثة ،توجهت إلى حاتي ، لولي ملك صيدون أخذه الخوف من هيبة جلالتي ففر وحيداً عبر البحار واختفى ذكره . أما مدنه فقد تملكها الخوف من عظمة آشور . فأخضعت مدن صيدون الكبرى وصيدون الصغرى ، وبيت زتي ، وساريبتو ، ومحاليبا ، وأوشو (صور) ، وأكزيب ، وعكا. مدنه الحصينة كلها قد أخضعت تحت قدمي ، وأقمت على عرش صيدون المدعو توبعلو وفرضت عليه الجزية " . عند ذلك يعلن بقية ملوك

2 - *Leo Oppenheim* , *op . cit* , *P* . *287* .

الساحل وملوك شرقي الأردن ولاءهم لسنحاريب ويرسلون إليه الجزية . أما ملك أشقلون على الساحل الفلستي فقد بقي على تمرده ، فتابع سنحاريب حملته باتجاه الساحل الفلستي فأخضع أشقلون وقبض على ملكها المدعو صدقيا وأفراد عائلته وأرسلهم أسرى إلى آشور ، ثم تابع تمشيطه لمناطق الساحل قبل أن يتوجه نحو الداخل لتأديب حزقيا ملك يهوذا ، الذي وصلته نجدات عسكرية من مصر .

" تابعت حملتي فحاصرت بيت داجون ، وبني برقه ، وآزود ، وهي مدن تابعة لصدقيا ملك أشقلون ، ففتحتها وحملت منها الأسلاب . أما مدينة عقرون فقد قام أهلها بوضع مليكهم بادي في الأغلال وأسلموه إلى حزقيا يهوذا ، الذي رماه في السجن . ولخوفه مني دعا حزقيا مصر وإثيوبيا لمساعدته ، فهبوا إليه وانتظمت صفوفهم وشحذوا أسلحتهم ضدي في سهل ألتقو . بعد استخارة نبوءة إلهي آشور ، هاجمتهم وهزمتهم . وفي غمرة القتال ، قمت بنفسي بأسر فرسان العربات وأمرائهم من مصريين وإثيوبيين ، ثم حاصر مدينتي ألتقو وتمنة وأخذتهما وحملت منهما الأسلاب . بعد ذلك استبحت مدينة عقرون وقتلت مسؤوليها ووجهائها الذين أجرموا وعلقت جثثهم على الأعمدة حول المدينة ، ثم أعدت ملكها بادي من أورشليم وأقمته على العرش سيداً لهم وفرضت عليهم الجزية . أما حزقيا يهوذا ، الذي خرج عن طاعتي ، فقد ألقيت الحصار على ٤٦ من مدنه وقلاعه ، وعدد كبير من القرى حولها ، وأخذتها جميعاً مستخدماً المدكات والمناجيق ، التي قربها المشاة إلى مقدمة الهجوم فأحدثوا أنفاقاً وثغرات . سقت أمامي منهم الغنائم ٢٠٠١٥٠ فرداً من الذكور والإناث (*) شيبة وشبانا وأحصنة وبغالاً وحميراً وجمالاً ، ماشية كبيرة وصغيرة لا حصر لها . أما حزقيا نفسه ، فقد صار حبيساً في مقره الملكي أورشليم كعصفور في قفص ، فأحطته بالمتاريس والخنادق لحجز الفارين عند البوابات ، والمدن التي أخذتها منه أعطيتها لملك أشدود وملك عقرون ولملك غزة ، فأنقصت بذلك مساحة أراضيه

(*) لا أعتقد بصحة الرقم الوارد هنا حول الأسرى من مدن يهوذا ، لأن مملكة يهوذا عادت إلى حياتها الطبيعية بعد هذه الحملة ، ومن غير الممكن أن تكون قد خسرت في ذلك الوقت هذا العدد الكبير من المسبيين . وإني أرجح وجود خطأ في النسخ ارتكبه الكاتب هنا

ورفعت الجزيـة المفروضة عليه بما يفـوق الجزيـة السابقـة كثيراً . لقد غمره الخـوف من رهبـة جلالتي ، والقـوات التي أتى بها إلى أورشليم لمعاونتـه اختلت صفوفها وتركته . فأرسل إليّ في نينـوى عاصمة ملكي ثلاثين وزنـة من الذهب و ٨٠٠ وزنـة من الفضـة ، وأحجـاراً كريمـة ، وكميـات من الإثمـد وقطع الصخـر الأحمر ، و مقاعـد وكراسي مزينـة بالعـاج . كما أرسل إلى موسيقيين من ذكـور وإناث ، وأرسل بناته وسراريه " (٣) .

لا يذكـر نص سنحاريب السبب الذي دفعه لفك الحصـار عن أورشليم والعـودة إلى نينـوى ، والكاتب ينتقل مباشـرة من مشهد الحصـار المطبق على المدينة ، إلى وصـول جزيـة حزقيـا إلى سنحاريب في عاصمته . من هنا فإننا نرجح أن الملك الآشـوري قد ارتد عن المدينـة بعد أن أعلن حزقيـا خضوعـه المطلق وقبـل الجزية المضاعفة التي فرضت عليـه ، فأرسلها في إثـر سنحاريب إلى نينوى . ويبدو أن سنحاريب لم تعـد له مصلحة في خسارة مزيد من الوقت والجنود والأموال في حصار مدينة منيعة ، غدت وحيدة في أرض محروقـة ومفقرة إلى أبعد الحـدود ، ففضل الإبقاء إلى أورشليم في حالـة التبعيـة عن تدميرها . ولعـل قراره هذا قد جـاء بعد وصول أخبـار من آشور عن محـاولة إنقلابيـة يجـري التحضيـر لها في نينـوى ، لأننا نعـرف فيما بعـد أن سنحاريب قد لقي مصرعـه على يد إثنين من أبنائـه أثنـاء تأديتـه للطقـوس الدينيـة في المعبـد . ومصـدر هذا الخبـر هو رواية سفر الملوك الثاني ١٩ : ٢٧ .

لم يحفـل النص التـوراتي بذكـر أية تفصيـلات عن حملـة سنحاريب على فلسطين ، وقارىء سفـر الملـوك الثاني يظن أن الملك الآشـوري قد توجه من نينوى مبـاشرة إلى أورشليم والقى الحصـار عليها ، وكأن أورشليم هي المدينـة الوحيـدة القائمة في مناطق غربي الفـرات . كما أن قصـة المواجهـة بين سنحاريب وحزقيا ينقصها الكثير من العنـاصر المهمة التي قدمتها الروايـة الآشوريـة . فصعـود القوات المصريـة لمساعدة حـزقيا بأعـداد كبيرة غير مذكور بتاتاً ، رغم وجود تلميح باتكاء حزقيا على مصر ، وكذلك الأمر بخصوص المعركة الكبيرة في سهل ألتقـوا بين القوات

3 - *Leo Oppeheım , Op . cit , PP . 287 - 288*

الآشورية وقوات مصر وحزقيا ، وتراجع الأخير وتحصنه في أورشليم ، أما تراجع سنحاريب عن أسوار أورشليم فيعزوه محرر السفر ، وكما يمكن أن نتوقع دوماً ، إلى معجزة من الرب ، نقرأ في سفر الملوك الثاني ما يلي :

" في السنة الرابعة عشر للملك حزقيا ، صعد سنحاريب ملك آشور على جميع مدن يهوذا الحصينة وأخذها ، وأرسل ملك يهوذا إلى ملك آشور ، إلى لخيش ، يقول قد أخطأت ، ومهما جعلت على حملته . فوضع ملك آشور على حزقيا ملك يهوذا ثلاث مئة وزنة من الفضة وثلاثين وزنة من الذهب . فدفع حزقيا جميع الفضة الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك .وفي ذلك الزمان ، قشر حزقيا الذهب عن أبواب الهيكل والدعائم التي كان قد غشاها حزقيا ملك يهوذا ودفعه لملك آشور ". (الملوك الثاني ١٨ : ١٢ - ٦) . يبدو لنا من هذا النص أن سنحاريب قد استولى على المدن التابعة لحزقيا ، أنه قبل جزية حزقيا ولم يقترب من أورشليم . ولكن محرر سفر الملوك الثاني ما يلبث أن يقدم لنا مباشرة رواية أخرى عن قيام الجيش الآشوري بحصار أورشليم . وهنا نرى سنحاريب المشغول بحصار مدينة لخيش ، يرسل ثلاثة من قواده عن رأس جيش إلى أورشليم :

" وأرسل ملك آشور ، ترتان وبساريس وربشاقي ، من لخيش إلى الملك حزقيا بجيش عظيم الى أورشليم، فصعدو وأتوا إلى أورشليم . ولما صعدوا جاءوا ووقفوا عند قناة البركة العليا ، التي في طريق حقل القصار ، ودعوا الملك فخرج إليهم الياقيم بن حلقيا و.. الخ ، فقال لهم ربشاقي ، قولوا لحزقيا . هكذا يقول الملك العظيم ملك آشور .. والآن على من اتكلت حتى عصيت علي ؟ فالآن هوذا قد اتكلت على عكاز هذه القصبة المرضوضة ، على مصر التي إذا توكأ عليها أحد دخلت في كفه وثقبتها . هكذا هو فرعون ملك مصر لجميع المتكلين عليه .. وإذا قلتم لي على الرب الهنا اتكلنا ..هل بدون الرب صعدت على هذا الموضع لأخربه ؟ الرب قال لي اصعد على هذه الأرض واخربها " . ثم يعرض القائد الآشوري على أهل أورشليم الإستسلام واعداً إياهم بالسبي إلى أرض أفضل من أرضهم ، مما اقتبسناه قبل قليل . ولكن النبي أشعيا يشد من عزيمة حزقيا ويحثه على المقاومة ويعده بتأييد من الرب الذي لم يتأخر في إظهار المعجزة : " وكان في تلك الليلة ، أن ملاك الرب خرج وضرب من جيش

آشور مئة ألف وخمسة وثمانين ألفاً . ولما بكروا صباحاً إذا هم جميعاً جثث ميتة . فانصرف سنحاريب ملك آشـور وذهب راجعـاً وأقـام في نينوى . وفيما هـو ساجد في بيت نسروخ ، إلهه ، ضربه أدر ملك وشـر آصر ابناه بالسيف ونجـوا إلى أرض أراراط ، وملك أسرحـادون ابنه عـوضاً عنه " (الملـوك الثاني : ١٩ : ٣٥ - ٣٧) . وهكذا عـادت يهـوذا إلى حضن آشـور بعـد هذا التمـرد القصير الأجل . ورغم الدمار الذي حـل بأراضيها ، فقد قيض لها أن تعيش مستقلة قرابـة قرن آخـر من الزمان تحت المظلة الآشـورية . ولكن تدخلها في السياسة الدوليـة في عصـر المملكة البابلية الجديدة قد قادها إلى حتفها.

توفي حزقيا عام ٦٨٦ ق.م وخلفه ابنه منسي الذي حكم أربعين عاماً بعد وفاة أبيه . ويقص سفر أخبار الأيام الثاني سيرة منسي على الوجه التالي : " كان منسي ابن اثنتي عشرة سنة حين ملك ، وملك خمساًو خمسين عاماً في أورشليم ، وعمل الشر في عيني الرب حسب رجاسات الأمم الذين طردهم الرب من أمام بني إسرائيل . وعاد فبنى المرتفعات التي هدمها حزقيا أبوه ، وأقام مذابح للبعل وعمل سواري وسجد لكل جند السماء وعبدها ، وبنى مذابح في بيت الرب الذي قال عنه الرب : في أورشليم يكون اسمي إلى الأبد .. ووضع تمثال الشكل الذي عمله في بيت الله .. وكلم الرب منسي وشعبه فلم يصغوا ، فجلب الرب عليهم رؤساء الجند الذين لملك آشور ، فأخذوا منسي بخـزامة وقيدوه بسلاسل نحاس وذهبوا به إلى بابل . ولما تضايق ، طلب وجـه الرب إلهه وتـواضع جـداً أمـام إله آبـائه وصلى إليـه ، فاستجاب له وسمع تضرعـه ورده إلى أورشليم إلى مملكته . (أخبار الأيام الثاني ٣٣ : ١ - ١٣) . وكما نـلاحظ من هـذا النص ، فإن القبض على منسي ملك يهـوذا لم يأت نتيجة تمـرد أو عصيان من قبله ، ولا لتوقفه عن دفع الجزية ، أو أي شيء من هذا القبيل . ولسوف نرى بعد قليل في نص للملك أسرحادون ، سبب اعتقال منسي .

في عهد أسرحادون (٦٨٠ . ٦٦٩ ق.م) ، شملت أراضي الإمبراطورية الآشورية مصر بكاملها وأجزاء لا بأس بها من شمال أفريقيا . كما بسطت آشور سلطتها على جزر المتوسط وشواطىء اليونان وآسيا الصغرى ، وصارت نحو أواسط القرن السابع قبل الميلاد أعظم وأوسع امبراطورية عرفها التاريخ حتى ذلك الوقت. ولكن أسرحادون الذي لم تقف

طموحاته عند حد ولم تعرف المعقول ، قد دق المسار الأول في نعش آشور التي بدأت تنحدر نحو الهاوية ، وأمضت ما تبقى لها من عمر قصير بعد وفاته ، في محاولات يائسة للسيطرة على تلك الرقعة الواسعة من الأراضي التي كانت تفوق قدرتها العسكرية والإدارية في ذلك الـوقت . وقد بلـغ جنـون العظمـة بأسرحـادون حـداً جعله يتسلى بإهانة وتعذيب ملـوك الدول التابعـة ، فكان يأتي بهم مقيدين بالسلاسل ويجعـل منهم فريق سخـرة يقـوم مع العمال العادين بأعمال البناء في قصوره الجديدة بنينوى .وقد جاء اعتقال منسي ملك يهوذا في سياق هذا التصرف المجنون لملك مهووس فقد كل منطق وصواب في تفكيره وسلوكه .

ورغم أن النص التـوراتي (الذي لا يرى من أحداث العالم المحيط بـه إلا ما يتعلق بيهوذا ومحيطها الضيق ، وعلاقـات الرضى والغضب بينها وبين إلهها الذي لم يكن مهتماً أيضـاً إلا بهذه الفئـة القليلـة التي رفضته عبـر تاريخها) لم يذكر شيئاً عن ملابسات سوق منسي أسيراً الى آشـور ، وجعل وجهتـه بابـل لأمر لا نعرفـه ، فإن نصاً لأسرحادون يعطينا صورة عن الحدث ، ونعـرف أن منسي قد سيق مع إثني عشر ملكاً من بـلاد الشام ، وعشرة ملـوك من جـزر وشواطىء المتوسط ، إرضـاءً لنزوة الملك الآشوري ، الذي أراد أن يرى بعينيه ملـوك الأرض يخدمونه في عاصمته نينوى . يقول أسرحادون : " دعـوت إليّ ملوك بـلاد حاتي على الجهة الأخـرى للنهر : بعلو ملك صور ، ومنسي ملك يهوذا ، وقوش جبري ملك آدوم ، وموسوري ملك موآب ، وسلبيل ملك غزة ، وميتيني بعل ملك أرواد ، وآبي بعـل ملك شمسي مورونا ، وبودويل ملك عمون ، وأهي مكي ملك أشدود .. (يلي ذلك تعداد لبقية ملوك الجزر والشواطىء المتوسطية ، وبينهم ملك قرطاجة وملوك من كريت وقبرص) . كل هؤلاء أرسلتهم الى نينوى مقر ملكي ، وجعلتهم ينقلون إليها ، تحت أقسى الظروف ، مواد بناء لقصري ، جذوعاً ودعائم وألواحاً من خشب الأرز والصنوبر ..الخ " . (٤)

خـلال ما تبقى من فتـرة حكم أسرحادون وكامل فترة خليفته آشـور بانيبال ،لا يرد ذكـر ليهـوذا في السجـلات الآشـورية ، ولكننا نعـرف من الأخبـار التـوراتية تتـابع ملكين على عرش يهـوذا خلال هذه الفترة هما آمون (٦٤١ . ٦٣٩ ق.م)

4 - *Ibid* , P . 291 .

ويوشيا (٦٣٩ - ٦٠٩ ق.م) . وقد حكم يوشيا فترة طويلة تقدر بثلاثين سنة ، شهد خلالها انهيار الإمبراطورية الآشورية وصعود الإمبراطورية الكلدانية (البابلية الجديدة) .
ولدينا في أخبار الملك يوشيا بسفر الملوك الثاني رواية تستحق التوقف عندها قليلاً ، لأنها تظهر أن مملكة يهوذا حتى هذه العقود القليلة التي سبقت دمارها ، لم تكن على الدين التوراتي ، ولم يكن أهلوها وحكامها وكهنتها يعرفون شيئاً عن ذلك الدين وطقوسه . فهيكل الرب كان ممتلئاً بتماثيل بعل وعشتاروت وغيرهما من آلهة كنعان ، وبيوت البغاء المقدس تحيط بهذا الهيكل من كل جهاته ، وكهنة يهوذا جميعاً يؤدون الطقوس الكنعانية على المرتفعات ، التي كان سليمان قد بناها لعشتروت ولكموش وملكوم وغيرهم من الآلهة . وقد اهتدى الملك يوشيا إلى الدين الحق هو وأهل مملكته بعد أن تم صدفة إكتشاف مخطوط في بيت الرب أثناء عملية ترميمه ، يحتوي على سفر الشريعة . ولما جاء شافان كاتب الملك إلى حلقيا الكاهن العظيم في الهيكل من أجل أمور تتعلق بحسابات ونفقات الترميم ، قال حلقيا الكاهن لشافان أنه وجد سفر الشريعة في بيت الرب ، ودفع بالمخطوط إليه ليأخذه إلى الملك . فطلب الملك منه أن يقرأه أمامه ففعل ، فخاف الملك خوفاً عظيماً لأنه عرف أن غضب الرب قد اشتعل على يهوذا لأن آباءهم لم يسمعوا لكلام هذا السفر ولم يعملوا وفق ما هو مكتوب عليهم . ولنتابع ما جرى بعد ذلك ، في سفر الملوك الثاني ، الإصحاح ٢٣ :

" وأرسل الملك فجمعوا إليه كل شيوخ يهوذا وأورشليم وصعد الملك إلى بيت الرب وجميع رجال يهوذا . وكل سكان أورشليم معه ، والكهنة والأنبياء وكل الشعب من الصغير إلى الكبير ، وقرأ في آذانهم كل كلام الشريعة الذي وجد في بيت الرب . ووقف الملك على المنبر وقطع عهداً أمام الرب للذهاب وراء الرب وحفظ وصاياه وشهاداته وفرائضه بكل القلب وكل النفس ، لإقامة كلام هذا العهد المكتوب في هذا السفر . ووقف جميع الشعب عند العهد . وأمر الملك حلقيا الكاهن العظيم وكهنة الفرقة الثانية وحراس الباب أن يخرجوا من هيكل الرب جميع الآنية المصنوعة للبعل وللسارية ولكل أجناد السماء ، وأحرقها خارج أورشليم . ولاشى كهنة الأصنام الذين جعلهم ملوك يهوذا ليوقدوا على المرتفعات في مدن يهوذا وما

يحيط بأورشليم ، والذين يوقدون للبعـل ، للشمس والقمـر والمنازل ولكل أجنـاد السماء ..وهدم بيـوت المأبونين التي عند بيت الرب حيث كانت النساء ينسجن بيـوتاً للساريـة .. والمذابح التي على سطح عُلِّية آحـاز ، التي عملها ملـوك يهـوذا والمذابح التي عملها منسي في داري بيت الرب هدمها الملك ، والمرتفعـات التي قبالـة أورشليم التي بناهـا سليمان ملك إسرائيـل لعشتروت رجاسة الصيدونيين ، ولكموش رجاسة الموآبيين ، وللمكـوم كراهـة بني عمون ، نجسها الملك ...... ليقيم كلام الشريعـة المكتـوب في السفـر الذي وجـده حلقياً الكاهـن في بيت الرب ..ولكن الرب لم يرجع عن حمق غضبـه العظيم ، لأن غضبه حمي على يهـوذا من أجل جميع الإغاظات التي أغاظه إياها منسي . فقال الرب إني انزع يهوذا أيضاً من أمامي كما نزعت إسرائيل " (الملوك الثاني ٢٣ : ١ - ٢٧) .

في عهد آشور بانيبال ، الذي ورث عن أسرحادون عالماً يموج بالفتن والإضطرابات ، ظهر للعيان تفسخ الإمبراطورية الآشورية ، بعد أن كانت عوامل هذا التفسح تعمل في الخفاء خلال أكثر من قرن . ذلك أن المظهر البراق للقوة العسكرية التي لا تهزم ، يخفي وراءه عملية انتحار بطيء تقدم عليه المجتمعات العسكرية وهي منساقة وراء نشوة انتصاراتها المتواصلة . ولم يكن إجهاز الكلدانيين على آشور سوى ضربة أخيرة توجه إلى جثة داخل درع سميك . فبعد وفاة آشور بانيبال ، قام نابوبولاصر الكلداني ، الذي كان قد أعلن نفسه ملكاً في بابل ،بالتعاون مع المملكة الميدية الفتية في إيران وأوقعوا آشور بين فكي كماشة ، فدمروا مدينة آشور عام ٦١٤ ق.م ،ثم نينيوى عام ٦١٢ ق.م . فتراجع الجيش الآشوري عن كامل مناطق آشور ، وأقام لنفسه مقر قيادة مؤقتة في حران ، قبل أن يتشتت نهائياً ويختفي ذكر آشور من التاريخ .

في ذلك الوقت صعد الفرعون نخو الثاني من مصر نحو الفرات لمساعدة آخر ملوك آشور المدعو آشور باليط ، الذي كان يحاول من مقره الجديد في حران وقف المذبحة الشاملة للشعب الآشوري . وكانت مصر قد حصلت على استقلالها عن آشور في آخر عهد آشور بانيبال وبموافقته الضمنية على مايبدو .فقد أقنعت التجربة الآشوريين كما أقنعت الكوشيين من قبل ، بأن احتلال مصر باستمرار كان مسألة عسكرية صعبة . ويبدو أن ملك مصر قد خشي من أن يعمل نابوبولاصر الملك الجديد لبابل ، على ضم مصر باعتبارها من أملاك آشور

السابقة ، ففضل المد في حياة آشور في وضعها المستضعف الجديد على القبول بإمبراطورية فتية جديدة . ولا بد أن ملك مصر قد وضع نصب عينيه أن يلعب دور آشور في مناطق سورية الجنوبية وبموافقة الملك الآشوري ، الذي سيكون أضعف من أن يحافظ على سلطة الآشوريين في هذه المناطق . ولكننا نعرف من الحوليات الكلدانية [٥] أن نبوخذ نصر،الذي كان ولياً للعهد في ذلك الوقت ، قد تصدى للمصريين وهزمهم في معركتين واحدة عند كركميش والثانية قرب حماه.

لم يتعرض النص التـــوراتي من قريب أو بعيد لهذه الأحداث الجسام التي قادت إلى زوال آشور وصعود الإمبراطـــورية الكلدانية . ولكنه يذكـــر خبراً عن حملة نخو الثاني على الفـــرات وهزيمتـــه في كركميش ، وذلك بمناسبـــة مرور نخـــو بأرض فلسطين في طريقه إلى الفـــرات ، وتصدي يوشيا ملك يهـــوذا له لمنعه من متابعـــة الحملة . وهـــذا الخبـــر مذكور في الملـــوك الثاني ٢٤،وفي أخبار الأيام الثاني ٣٥ أيضاً حيث نقرأ : " بعد كل هذا .. صعد نخـــو ملك مصـــر إلى كركميش ليحارب عند الفـــرات ، فخرج يوشيا للقائـه . فأرسل إليه رســـلاً يقـــول : مالي ولك يا ملك يهـــوذا . لست عليك اليـــوم ، بل على بيت حـــربي (أي المكان الذي سأحـــارب فيه) ، والله أمـــر بإسراعي . فكُف عن اللـــه الذي معي فلا يهلكك . ولم يحـــول يوشيا وجهه عنه بل تنكـــر لمقاتلته ولم يسمع لكلام نخـــو من فم الله ، بل جـــاء ليحـــارب في بقعـــة مجدّو . وأصاب الرمـــاة الملك يوشيا فقـــال لعبيده انقلـــوني لأني جرحت جداً . فنقلـــه عبيده وساروا به إلى أورشليم فمات هنـــاك " (أخبار اليـــوم الثاني ٣٥ : ٢٠ ـ ٢٤).أما عن هزيمة نخو في كركميش فنقـــرأ عنها في مكان آخـــر هـــو سفر إرميا : " كلمة الرب التي صارت إلى إرميا النبي عن الأمم ، عن مصـــر عن جيش فرعـــون نخو ملك مصـــر الذي كان على نهر الفـــرات في كركميش ، الذي ضربـــه نبوخـــذ راصر ملك بابـــل في السنة الرابعة ليهوياقيم بن يوشيا ملك يهـــوذا . " (إرميا ٤٦ : ١ ـ ٢) . لا يذكـــر الخبـــر التـــوراتي هنا أيـــة دوافع حـــدت بيوشيا إلى التصـــدي لحملة نخـــو في مجـــدو . ولكن مسار الأحـــداث اللاحـــق يظهر أن مصـــر كانت راغبـــة في الحصـــول على حصة من تفليسة آشـــور وتوهمت أن بإستطاعتها انتـــزاع مناطق سوريـــة الجنوبيـــة في

5 - *Hershel Shanks, edt , Ancient Israel , PP . 143 - 144 .*

حال الإنهيار الأخير لمعقل الآشوريين في حران . من هنا ، فإن ملك يهوذا الذي لم يكن يعرف الكثير عن مخططات بابل المقبلة ، وعن رغبتها في ، ومقدرتها على ملء الفراغ الآشوري في منطقته ، اعتقد أن هزيمته لنخو ملك مصر سوف تفتح أمامه الباب واسعاً من أجل ملء الفراغ الآشوري بنفسه والسيطرة على المنطقة .

إن اكتفاء محرري التوراة بهذه الأخبار القليلة والمبعثرة عن تلك الفترة الحافلة في تاريخ المنطقة ، والتي تزامنت مع الأحداث الأخيرة التي أدت إلى دمار أورشليم وزوال يهوذا ، وعزوفهم عن تقديم صورة ولو باهته وعديمة التفاصيل عما كان يجري في ذلك الوقت ، لا يمكن تفسيره فقط بجهلهم وعدم توفر المعلومات بين يديهم ، لأن بعضهم قد سمع بهذه الأخبار ممن عاصرها وشهدها ولم يكن بحاجة إلى مصادر خارجية ، بل يجب تفسيره أيضاً من خلال أهداف ودوافع المحرر التوراتي ، الذي كان التاريخ آخر هم من همومه ، ولا يرى من قوانين وحركة هذا التاريخ إلا تطوراً لجدلية العلاقة بين الشعب وربه ، ولا يأبه لأي حدث لا يتقاطع مع هذه الجدلية .

تراجع نخو أمام نبوخذ نصر ، وأقام في ربلة (عند مدخل البقاع الشمالي قرب حمص) التي لا تبعد كثيراً عن موقع قادش القديمة ، والتي كانت الحد الشمالي لمناطق النفوذ المصرية في سورية إبان العصر الذهبي للإمبراطورية المصرية . ومن هناك أرسل من قبض على ملك يهوذا الجديد يهوآحاز ، ابن يوشيا الذي قتله نخو في مجدو ، لشكه في ولائه وأرسله سجيناً إلى مصر ، وعين بدلاً عنه يهوياقيم أخاه وفرض عليه الجزية (الملوك الثاني ٢٣ : ١ ـ ٧) . ولكن نبوخذ نصر ، الذي صار الآن ملكاً على بابل خلفاً لأبيه ، قد وضع حداً لطموحات نخو وطارده حتى حدود مصر ثم قفل راجعاً إلى يهوذا وضمن ولاءها . ولكن يهوياكين ابن يهوياقيم غير سياسة يهوذا باتجاه مصر مرة أخرى ، فصعد عليه نبوخذ نصر وأخذه مع أفراد أسرته إلى بابل وسبى عشرة آلاف من الجنود الأشداء والصناع المهرة ، وعين بدلاً عنه عمه صدقيا (الملوك الثاني ٢٤: ٨ ـ ١٨) . ولكن صدقيا ما لبث أن غير ولاءه أيضاً وصدق وعود الفرعون بساميتك الثاني خليفة نخو ،الذي صعد إلى فلسطين في جولة ديبلوماسية عمل من خلالها على

تأليب الدويلات الفلسطينية ضد بابل . وزيارة بساميتك هذه غير مذكورة في التوراة ، ولكننا نعرف عنها من بردية مصرية ترجع إلى عام ٥٩١ ق.م [٦] . ولكن وعود مصر ذهبت أدراج الرياح ، وجاء نبوخذ نصر وحاصر أورشليم . ولما رأى أن الحصار سيطول ، ترك قسماً من جيشه هناك وذهب إلى ربلة التي كانت مقره العسكري في سورية ، لبعض شؤونه الإدارية أو العسكرية . ولما اشتد الحصار على أورشليم وأدرك صدقيا الملك أنها ساقطة لا محالة ، استعد للهرب مع جماعة من خيرة مقاتليه . وفي هذا الوقت أحدث الجيش البابلي ثغرة في الأسوار وبدأ يشق طريقه نحو الداخل ، فانتهز صدقيا الفرصة ونفذ مع جماعته هارباً ، فتبعه الكلدانيون وأدركوه عند أريحا وأخذوه إلى نبوخذ نصر إلى ربلة . فقتل ملك بابل أسرة صدقيا أمامه ثم سمل عينيه وأرسله في السلاسل إلى بابل (الملوك الثاني ٢٥ :١ – ٧).ثم بعث نبوخذ نصر بقائده نبوز ردان إلى أورشليم لهدمها وأحراقها:

" جاء نبوز ردان رئيس الشرط عبد ملك بابل إلى أورشليم ، وأحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم ، وكل بيوت العظماء أحرقها بالنار ، وجميع أسوار أورشليم مستديراً هدمها كل جيوش الكلدانيين الذين مع رئيس الشرط ، وبقية الشعب الذين بقوا في المدينة ، والهاربون الذين هربوا إلى ملك بابل وبقية الجمهور ، سباهم نبوزردان رئيس الشرط . ولكنه أبقى من مساكين الأرض كرامين وفلاحين .." (الملوك الثاني ٢٥ : ٨ – ٢١) .

وقد حفظت لنا سجلات نبوخذ نصر نصاً مختزلاً عن حملته على يهوذا ، التي انتهت بإسقاط يهوياكين وتعيين صدقيا عوضاً عنه . يقول النص : " في السنة السابعة ، الشهر ... .قاد ملك أكاد جيوشه نحو بلاد حاتي ، فحاصر مدينة يهوذا (أورور - يهوذا) وفتحها في شهر آذار وأقام عليها ملكاً جديداً إختاره ، وأخذ منها جزية كبيرة حملها إلى بابل "[٧] . أما النص البابلي المتعلق بتدمير أورشليم فمفقود . إلا أن التنقيبات الأثرية في الموقع قد كشفت عن آثار دمار شامل في المدينة يرجع إلى أواخر القرن السادس ق.م ، وانقطاع في الإستيطان دام قرابة قرن من الزمان ، كما كشفت التنقيبات عن دمار في العديد من مدن يهوذا وانقطاع أطول في الإستيطان دام قرابة قرن ونصف [٨].

---

6 - *Ibid , P 147 , end note 62*

7 - *Leo Oppenheim , op . cit , P . 564 .*

8 - *Katheen kenyon , Digging Up Jerusalem , PP . 166 - 172 .*

خاتمة

أفق الخرافة

وبداية التاريخ اليهودي

خلاصة ما تقدم

لقد تتبعنا في القسم الأول من هذه الدراسة إسرائيل التوراتية كما رسمتها الأسفار المسماة بالأسفار التاريخية في كتاب التوراة ، وبذلنا كل جهد ممكن من أجل التحقق من الوجود التاريخي لكل مرحلة من مراحل تشكلها وتطورها ، وذلك ابتداءً من عصر الآباء وانتهاءً بانهيار المملكة الموحدة وانقسامها إلى مملكتين في أواخر القرن العاشر قبل الميلاد ، فلم نعثر على بينة واحدة تؤكد ذلك الوجود .وعلى العكس فإن الشواهد الجديدة التي تجمعت لدينا تنفي نفياً قاطعاً أية إمكانية لظهور كيان سياسي أو إثني من أي نوع اسمه إسرائيل قبل أواسط القرن التاسع قبل الميلاد ، وذلك عقب بناء مدينة السامرة التي صارت عاصمة لمنطقة الهضاب المركزية في فلسطين . فهنا يظهر لأول مرة كيان سياسي إسمه إسرائيل ، وتأخذ ملامحه الإثنية بالتوضح عقب الإتجاه نحو المركزية السياسية التي بدأت تجمع تدريجياً القرى الزراعية التي نشأت حديثاً في عصر الحديد الأول ، والتي جاء مستوطنوها من مصادر متنوعة لا من مصدر واحد . ومرة أخرى ، فإن إسرائيل ـ السامرة ، هذه ، لا يربطها بصورة إسرائيل . السامرة في التوراة إلا أوهى الروابط . وكذلك يهوذا التي نشأت بعدها بقرنين من الزمان . فالدولتان قد نشأتا تباعاً في فلسطين بعد القرن العاشر قبل الميلاد ، ولم تسبقهما مملكة واحدة كانت أصلاً لهما ، ولا وجود لأرضية مشتركة جمعت بينهما . وكما نشأت هاتان الدولتان تباعاً ،فقد دمرتا تباعاً أيضاًواختلفت مصائرهما التاريخية أيما إختلاف.

إن البحث عن التاريخ في النص التوراتي ، هو عمل أشبه بالبحث عن السمسم في كيس من البندق . لأن النص التوراتي ليس نصاً تاريخياً بأي معيار حديث أو قديم ، وهو لم يقصد لأن يكون نصاً تاريخياً .إنه قصة أصول يعيب فيها الحدث المدقق المحقق لصالح العقدة القصصية . وحتى عندما تتوفر للمحرر التوراتي بعض المعلومات التاريخية عن الفترات المتأخرة من حياة مملكتي إسرائيل ويهوذا ، فإنه لا يضع هذه المعلومات في سياقها التاريخي الصحيح ولا يعمد إلى فهمها من خلال الإطار العام للأحداث الجارية في المنطقة ، بل من خلال المنظور الإيديولوجي اللاهوتي،الذي لا يرى في الحدث المرصود إلا نتاجاً لردود الفعل المتبادلة بين الإله وشعبه . إن الأسفار المدعوة بالتاريخية هي سلسلة من المرويات الشعبية ذات الأصول المختلفة جُمعت إلى بعضها في نسيج واهي الحبكة ، وترتيب زمني مفروض عليها من خارجها ، سواء فيما يتعلق بأحداث القصة الواحدة أم فيما يتعلق بالقصص المتتابعة التي أُلصق بعضها إلى بعض ، والتي تُظهر فجوات لا يمكن عبورها بشكل منطقي . أما الزمرة الثانية الرئيسية من أسفار التوراة ، وهي أسفار الأنبياء ، مثل إشعيا وإرميا وحزقيال ، فليست إلا مجموعات من أقوال ومأثورات حكموية قديمة ، تختصر ألف عام تقريباً من التقاليد النبوئيـة في فلسطين والمناطق المجاورة لها . وموضوع هذه التقاليد هو إدانة السلوك العام للناس ، ونقد الحكومات ، والكشف عن الإنحرافات والمظالم والإنحطاط الخلقي والنفاق الديني في المجتمع . وقد قام المحررون التوراتيون بجمع هذه المادة الغنية القديمة ، فرتبوها وصنفوها ووضعوها على لسان شخصيات نبوية متميزة قد يكون بعضها من أصل تاريخي . ثم جعلت هذه المادة تدور حول فكرة أساسية في جميع أسفار الأنبياء ، وهي أن دمار إسرائيل ويهوذا كان بمثابة عقاب إلهي على خطايا الجماهير والحكام وتجاهلهم عبادة الإله الحق ، وأن الرحمة الإلهيـة سوف تلحق بالتوابين العائدين من السبي البابلي إلى حظيرة الرب . ورغم احتواء أسفار الأنبياء على العديد من الأخبار المتعلقة بدولتي إسرائيل ويهوذا وأخبار فترة السبي البابلي ، إلا أن هذه الأخبار ترد خارج سياقاتها التاريخية وتوظف لخدمة الرؤية اللاهوتية .

إن همّ المحرر التوراتي ليس هماً تاريخياً بالدرجة الأولى بل هم تراثي ، إنه يعمل على جمع وتصنيف وإعادة صياغة تركة ثقافية شعبية متعددة النشأة والأصول وخطوط التداول ، ليصنع منها قصة أصول . وضمن هذا الجنس الكتابي ، فإن المحرر يلجأ إلى استبعاد ما حصل

فعلاً ، هذا إذا توفرت لديه المادة الموثقة ،لصالح رغبته في تصديق سلسلة ما من الأحداث ، أو جعل قارئه في حالة تصديق لها . وليس الناتج الأخير لهذه العملية الشاقة فعلاً والمعقدة ، إلا جنساً كتابياً هجيناً لا يربطه بجنس الكتابة التاريخية إلا أوهى الروابط .

لقد استطعنا من خلال النقد النصي والتاريخي والأركيولوجي للأسفار التاريخية ، أن نُظهر وبالتفصيل أن محرري التوراة في الفترات المتأخرة إبان العصر الفارسي ، لم يكن بين أيديهم معلومات تتعلق بتلك الفترات الموغلة في القدم التي يروون عن أحداثها ، سواء أكانت هذه المعلومات متناقلة شفاهة أو كتابة ، وذلك من عصر الآباء إلى انهيار المملكة الموحدة . أما المصادر الكتابية ، التي يدعي المحررون في بعض المواضع الإستناد إليها ، فإننا غير متأكدين من وجودها أصلاً ، ولا من الطريقة التي عمد المحررون إلى الإفادة منها ، وذلك مثل سفر ياشر وسفر موسى وغيرها.

ففيما عدا مصر التي لم يذكر النص التوراتي اسم فرعونها في سفر التكوين وفي سفر الخروج ، ولم يـورد أية معلومات يمكن أن تساعد على تبين الحقبة الموازية في التاريخ المصري ، فإن النص التوراتي لم يتعرض إلا للشعوب والقبائل المجاورة للمناطق الهضبية التي قامت على أراضيها فيما بعد دولتي إسرائيل ويهوذا ،وذلك مثل موآب وأدوم وعمون في الشرق وفلستيا في الغرب . وغالباً ما وردت أسماء هذه الشعوب في سياق زمني يتضمن مفارقة تاريخية واضحة .فممالك شرقي الأردن التي قهرها موسى في آخر مراحل ملحمة الخروج ، لم تكن موجودة في ذلك الوقت على ما يبينه المسح الأركيولوجي للمنطقة . ومنطقة الساحــل الفلسطيني الجنــوبي ، التي يدعـوها سفـر الخــروج بأرض الفلسطينيين (=الفلستيين) ، لم تكن قد استقبلت زمن الخروج أية موجة من موجات شعوب البحر من فلستيين وغيرهم . ومن بين جميع الممالك الفينيقية على الساحل السوري لم يرد إلا ذكر صيدون . أما بقية تلك الممالك من أوغاريت إلى صور فغائبة تماماً . ومثلها تلك الممالك الكبرى التي ازدهرت من حول أولئك الإسرائيليين المفترضين عبر عصورهم . فبابل حمورابي في بلاد النهرين ، وماري على الفرات الأوسط ، وحلب (يمخاض) وألالاخ في الشمال السوري ، وقطنة وقادش في سورية الوسطى ، غائبة من سير عصر الآباء الذين كانوا يرتحلون بين الفرات و فلسطين ، وكأنما يتحركون على مسرح خالٍ تماماً إلا من القبائل الرحل وآبار المياه في الواحات . وكذلك الأمر فيما يتعلق بالممالك الحثية الجديدة في الشمال

السوري ، والممالك الآرامية الجديدة على الخابور والفرات وفي المناطق الغربية، التي ازدهرت منذ مطلع عصر الحديد ،فجميعها غائب عن عصر يشوع وعصر القضاة ، وكذلك مصر التي كانت تسيطر في ذلك الوقت على وادي يزرعيل وعدد من النقاط الإستراتيجية الأخرى . وفي عصر المملكة الموحدة لا يرد ذكر لآشور التي كان نفوذها قد تجاوز الفرات ووصل إلى مناطق الساحل ، ولا للممالك الآرامية القوية التي كانت تقارع آشور على الفرات وفي الشمال السوري . وبدلاً من هذه الممالك التي تجملها أخبار الملك داود تحت عنوان " آرام التي في عبر النهر " ، فإن محرر سفر الملوك الأول يبتكر ممالك لم يرد لها ذكر في التاريخ ، ولم تقم الدلائل الأركيولوجية على وجودها ، وذلك مثل آرام صوبة ومعكة وبيت رحوب وجيشور وغيرها .وبالمقابل فإن جميع السجلات الكتابية للحضارات القديمة لم تورد خبراً واحداً يدعم الرواية التوراتية من عصر الآباء إلى قيام أسرة الملك عمري وبناء مدينة السامرة في النصف الأول من القرن التاسع قبل الميلاد .

فمع قيام أول أسرة حاكمة في إسرائيل ، وهي أسرة الملك عمري الذي بنى السامرة حوالي عام ٨٨٠ق.م ، يبدأ اسم إسرائيل بالظهور في وثائق الشرق القديم ، ولكن بصيغة إسرائيل ـ السامرة لا بصيغة دولة كل إسرائيل التوراتية . أما دولة يهوذا فلم يرد ذكرها ، ولا ذكر أحد من ملوك أورشليم إلا بعد مرور قرن ونصف على ورود إسم إسرائيل وأسرة عمري . فقد ورد اسم آحاز ملك يهوذا في وثائق آشور حوالي عام ٧٣٢ ق.م بشكل عارض وضمن لائحة الملوك الذين أرسلوا الجزية إلى الملك تغلات فلاصر في نينوى ، وهذا أول ذكر في التاريخ لأي ملك من ملوك يهوذا أو أورشليم ، الأمر الذي يقدم بينة إضافية على أن مملكــة يهوذا قد نشأت بعد مملكة إسرائيل ولم تعاصرها إلا فترة قصيرة فقط . من هنا ، فإن ملوك أورشليم السابقين الذين يرد ذكرهم في المرويات التوراتية على أنهم ملوك يهوذا ، لم يكونوا (في حال صحة الأخبار التوراتية عن أسمائهم وسنوات حكمهم) سوى أمراء محليين لمدينة أورشليم التي كانت صغيرة ومنعزلة عن الأحداث الدولية .

وتقدم نتائج علم الآثار صورة أكثر تخييباً للآمال في العثور على إسرائيل التوراتية . فجميع المواقع الفلسطينية في منطقتي الهضاب المركزية ومرتفعات يهوذا ، وخارجهما ، تظهر استمرارية ثقافية محلية كنعانية ، فيما بين عصر البرونز الأخير وعصر الحديد الثاني ، ولا يوجد أي دليل أثري على حلول أقوام جديدة في هذه المنقطة جلبت إليها تقاليد ثقافية

مغايرة . وقد سقطت اليوم الى غير رجعة نظرية الإقتحام العسكري لأرض كنعان من قبل القبائل الإسرائيلية الموحدة تحت قيادة يشوع بن نون ، وتدمير مدنها الرئيسية ، لأن نتائج التنقيب الأثري في هذه المواقع تنفي الرواية التوراتية نفياً تاماً . أما عن المملكة الموحدة ، فإن المسح الأركيولوجي للمناطق الهضبية التي كانت نواة هذه المملكة ، ينفي وجود قاعدة سكانية واقتصادية في هذه المناطق خلال القرن العاشر ، تسمح بقيام مثل هذه المملكة . فمملكة داود وسليمان ليست مستبعداً تاريخياً فقط ، بل إنها مستحيلة الوجود . ناهيك عن نتائج التنقيب الأثري في موقع أورشليم ذاتها ، والذي أظهر أن مدينة أورشليم في القرن العاشر قبل الميلاد لم تكن إلا بلدة صغيرة جداً ، ومن غير الممكن أن تكون هذه البلدة قد استطاعت بناء هيكل ديني يربو على مساحتها ،وبناء قصور ملكية لسليمان وزوجاته وصروحاً مدنية وإدارية ضخمة . وذلك إضافة إلى عدم العثور على أي شاهد أثري على أن هذه الأبنية قد قامت في يوم من الأيام.

أما في القسم الثاني من دراستنا ،فقد تتبعنا اتجاهات البحث التاريخي الحديث في أصول إسرائيل ، وبسطنا أمام القارىء أهم النظريات الحديثة في هذا الموضوع ، فوجدنا أنه فيما عدا البقية المتعنتة من أصحاب الإتجاه المحافظ التقليدي ، فإن نظريات الباحثين المحدثين قد نحّت جانباً الرواية التوراتية في أصول إسرائيل ، وحاول كل منها على طريقته البحث عما حدث فعـلاً خلال الفترة الإنتقالية من عصر البرونز الأخير إلى عصر الحديد وأدى إلى نشوء إسرائيل . ثم انتقلنا اعتماداً على النتائج الميدانية للمسح الأركيولوجي الشامل لمنطقتي الهضاب المركزية ومرتفعات يهوذا إلى رسم الصورة الأكثر قرباً إلى الحقيقة التاريخية لتشكل مملكة إسرائيل التاريخية ومملكة يهوذا ، ووجدنا أن هاتين الدولتين قد نشأتا على الخلفية الثقافية العامة لعصر البرونز الأخير في فلسطين في حقبتين متباعدتين وشروط مختلفة .فبينما اكتملت القاعدة السكانية والإقتصادية لقيام إسرائيل في أوائل القرن التاسع قبل الميلاد ، فإن القاعدة السكانية والإقتصادية اللازمة لقيام يهوذا لم تكتمل قبل أواخر القرن الثامن قبل الميلاد . وقد جاء سكان هاتين الدولتين من مصادر فلسطينية محلية متعددة ومن المناطق الرعـوية في البلاد المجاورة ، إضافة إلى شرائح سكانية مقتلعة من مواطنها في حوض المتوسط . ويظهر الطابع الثقافي الكنعاني السائد في جميع المواقع التي تم التنقيب فيها ، أن الشريحـة السكانيـة المحليـة لا بد وأنها كانت الغالبـة على التـركيب السكاني في

إسرائيل ويهوذا . من هنا فإن الروابط التي يمكن أن تكون قد جمعت بين هاتين المملكتين ليست أكثر من الروابط التي جمعت أية دولتين أخريتين في منطقة فلسطين والجنوب السوري ، والقاعدة المشتركة بينهما ليست إلا من ابتكار قصة الأصول التوراتية . وقد بيّنا أن المساحة التي شغلتها كل من إسرائيل ويهوذا لم تتعد المناطق الهضبية من فلسطين إلا في الأزمنة المتأخرة وعلى شكل مدٍّ استعماري قصير الأجل ، لم يتوصل إلى استيعاب سكان المناطق المستعمرة وضم أراضيها بشكل كامل . وإذا كان كل من إسرائيل ويهوذا قد حقق في منطقته الهضبية نوعاً من الإثنية خلال الفترة القصيرة لحياته ،فإن هذه الإثنية لم تصمد أمام التخريب الشامل للطابع الإثني لفلسطين نتيجة لسياسة الإقتلاع والتهجير الآشورية ، ثم البابلية . ودخلت جميع مناطق فلسطين العصر الفارسي وقد تغيرت بشكل جذري .

إضافة إلى تباين أصول إسرائيل ويهوذا واختلاف مسار حياتهما ومصائرهما التاريخية ، فإن القاعدة الدينية التي جمعت بينهما لم تكن أكثر تجانساً من القاعدة الدينية التي جمعت أية مملكتين في فلسطين وسورية الجنوبية خلال تلك الفترة من حياتهما . لقد ابتكرت قصة الأصول التوراتية كياناً إثنياً اسمه " كل إسرائيل " منذ مرحلة الخروج من مصر ، ثم ابتكرت له صيغة سياسية وجدتها في مملكة داود وسليمان . ولكي تكتمل وحدة هذا الكيان ،فقد سحب محررو التوراة تصوراتهم الدينية التي نضجت خلال العصر الفارسي على جميع مراحل قصة الأصول ، وجعلوا الإله الواحد المجرد الذي بشرت به أسفار الأنبياء إلهاً للقبائل الإسرائيلية منذ بداياتها الأولى . فهذا الإله المتأخر هو نفسه إله الآباء ، وهو الذي أعطى الشريعة لموسى على جبل حوريب ، وهو الذي بنى له سليمان هيكلاً في أورشليم . إلا أن المحررين لم يفلحوا في ضبط الإطار الإيديولوجي الديني لتلك القصص القديمة التي بقيت تسبح في أجوائها الدينية الأصلية ، وكهنوت أورشليم في العصر الفارسي الذي كان مدفوعاً بهاجس لاهوتي توحيدي بتأثير المناخ الفكري السائد خلال العصر البابلي الجديد والعصر الفارسي ، قد فشل في فرض رؤيته عبر تفاصيل قصة الأصول .

يطالعنا سفر أشعيا على وجه الخصوص ، بعدد من التصورات الجديدة حول إله واحد شمولي لم نعهدها عبر أسفار الكتاب . فنقرأ فيه على سبيل المثال : " أنـا هـو . أنا الأول وأنا الآخـر ، ويدي أسست الأرض ويميني نشـرت السماوات . أنا أدعـوهن فيقفن معاً " (٤٨: ١٢ ـ ١٣) . " هكذا قال الرب . السماء كرسيّ والأرض موطىء قدمي . أين

البيت الذي تبنــون لي ، وأين سكان راحتي ، وكل هذه قد صنعتها يدي " (٦٦ : ١ - ٢).
" أنا الرب ولا إله غيري ، إله بار ومخلص ليس سواي . التفتوا إلي وأخلصوا يا جميع أقاصي الأرض ، لأني أنا الله وليس آخر . بذاتي أقسمت ، خرج من فمي الصدق كلمة لا ترجع : أنه لي تجثو كل ركبة ، يحلف كل لسان " (٤٥ : ٢١ - ٢٣) . وهذا الإله الجديد ، الذي يعلن نفسه إلهاً لجميع الشعوب في أقاصي الأرض ، لا يرضى بالذبائح ولا تلذ له رائحة المحــرقات مثل ذلك الإله القديم ، بل يطلب الخير في الناس والعمل الصالح . نقرأ في عاموس : " أطلبــوا الخيــر لا الشــر لكي تحيــوا .. بغضت كرهــت أعيــادكم ولست ألتـذ باعتكافاتكم . إني إذا قدمتم لي محرقاتكم وتقدماتكم لا أرضى ، وذبائح السلامة من مسمناتكم لا ألتفت إليها . أبعد عني ضجة أغانيك ، ونغمة ربابك لا أسمع . وليجر الحق كالمياه والبر كنهر دائم " (عاموس ٥٥ : ١٤) . وفي هوشع نقرأ : " إني أريد رحمة لا ذبيحة ، ومعرفة الله أكثر من محرقات " (هوشع ٦ : ٦) . وفي أشعيا نقرأ أيضاً : " لماذا لي كثرة ذبائحكم يقول الرب . أتخمت من محرقات كباش وشحم مسمنات ..إغتسلوا تنقوا إعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني "(أشعيا ١ : ١١ - ١٧) . وبالطبع فإن آشعيا ، أو أي واحد من هؤلاء الأنبياء ، سوف يصاب بالهلع إذا قرأ في الأسفار السابقة أن الله قد تناول وجبة الغداء تحت الشجرة في ضيافة ابراهيم وسارة ، وأن يعقوب قد صارعه حتى طلوع الفجر عند مخاضة يبوق ، وأن سبعين من شيوخ إسرائيل قد صعدوا جبل حوريب مع موسى ورأوا الله وجهاً لوجه ، وأكلوا وشربوا هناك ، إلى آخر هذه القصص التي تنتمي إلى إيديولوجية مختلفة تماماً عن إيديولوجية أسفار الأنبياء .

وقد انتقل بنا البحث أخيراً إلى دراسة وتفسير الأحداث التي جرت في فلسطين وبلاد الشام خلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد ، وألقينا الضوء على دور مملكة آرام دمشق في تلك الأحداث وعلاقاتها مع آشور وبقية دول المنطقة . ورصدنا بالتفصيل المجريات التي قادت إلى نهاية دمشق كمملكة مستقلة ، وإلى دمار كل من إسرائيل ويهوذا . وذلك من خلال منهج علمي يعتمد بالدرجة الأولى على السجلات التاريخية والوثائق الكتابية ، ويربط الأسباب بالنتائج دون شطط في الخيال ، أو تغليب للهوى الشخصي ، أو مسايرة لما يعرفه الناس على حساب ما يجب أن يعرفوه .

عند هذه النقطة ، أعتقد أن السؤال الكبير ، الذي صرنا مطالبين بالإجابة عليه هو التالي :

إذا لم تكن إسرائيل التوراتية قد وجدت قط ، وإذا لم تكن دولتا السامرة ويهوذا قد نشأتا عن المملكة الموحدة لداود وسليمان ولم يكن لهما قاعدة مشتركة جمعتهما على أي صعيد ، وإذا لم يكن للدين التوراتي أي أثر في فلسطين قبل العصر الفارسي ، ولم يكن ليهود ما بعد السبي علاقاته مباشرة بأهل إسرائيل ويهوذا ما قبل السبي ، فلماذا وكيف تم خلق هذه الخرافة الكبرى ؟

اليهودية والنظام العالمي الجديد للإمبراطورية الفارسية

لم تكن عمليات التهجير الجماعي التي مارسها الآشوريون بمثابة عقاب للشعوب المغلوبة فقط ، وإنما هدفت إلى تحقيق حالة من التوازن الإثني والسياسي في المناطق التي تم ترحيل الشعوب المسبية إليها . فكان الآشوريون ومن بعدهم البابليين يمنحون المهجرين في مناطقهم الجديدة أراضٍ خصبة ، ويبسطون حماية الدولة عليهم لكي يغدو هؤلاء بمثابة ممثلين للسلطة الإمبراطورية في تلك المناطق ، فيعملون على معارضة أو قمع النزعات التحررية التي يمكن أن تنشأ بين السكان ضد الحاكم . وقد لعب المهجرون هذا الدور المرسوم لهم حتى في بعض المدن الكبرى في الإمبراطورية ، حيث شكلوا جيوباً إجتماعية تعمل على تهدئة القلاقل وتخفف من حدة المعارضة. وقد تابع حكام الإمبراطورية البابلية الجديدة وحكام الإمبراطورية الفارسية هذه السياسة على نطاق واسع ، وحاولوا من خلال التحكم بتحركات الشعوب خلق شرائح إجتماعية مدعومة ومدربة من قبل السلطة موالية لها ،ولكن إلى الحد الذي لا يؤدي إلى خلق قوى إقليمية تخرج في النهاية عن تابعيتها للإمبراطورية .[1]

وكورثة لإمبراطورية مؤسسة ومستقرة تقريباً ، لم يكن على البابليين والفرس أن يدافعوا عن " حق المنتصر " على أراضي المقهورين وثرواتهم ، فهؤلاء الورثة كانوا يتعاملون مع شعوب قد تم قهرها وترويضها ، ولا حاجة بهم إلى إعادة توكيد السلطة عليها . من هنا فإن الإدارة الإمبراطورية الجديدة قد توجهت في سياستها إلى توكيد " حق الوراثة " لا " حق المنتصر " . وتحولت أساليبها الدعائية من فرض الخوف والرعب إلى كسب الدعم

1 - *Th. L . Thompson , op . cit , PP . 345 - 416 .*

والولاء للوارث الجديد . ذلك أن البنى التحتية للمقاطعات الآشورية السابقة ، يمكن الآن إعادة بنائها ، لكي تساهم في الإنعاش الإقتصادي العام للإمبراطورية ، بعد أن زال الخوف تقريباً من تشكيلها تهديداً حقيقياً لأمن الحاكم . إن نصوص التهجير ، أو إعادة الترتيب السكاني في الإمبراطورية البابلية أقل بكثير من النصوص الآشورية ، وهي مختلفة جوهرياً من حيث أدواتها الخطابية و الإعلامية . ونحن هنا أمام نغمة إعلامية جديدة تهدف إلى إقناع الشعوب بقبول السيد الجديد ، وما جلبه حكمه من تغييرات جذرية ، والحصول على الولاء الطوعي للتركيب السكاني المعقد للإمبراطورية الواسعة الأرجاء. فالسيد الجديد ، كما تعيد هذه النصوص وتكرر ، هو محرر الشعوب من نير الإستعباد ومخلصهم من الحاكم البربري السابق الذي داس على كرامتهم وشتتهم وسبى آلهتهم [٢].

ورغم أن حكام الإمبراطورية الجديدة قد تابعوا عمليات السبي والتهجير الجماعي على الطريقة الآشورية ، إلا أنهم قد ابتدأوا في الوقت نفسه سياسة إعادة توطين المهجرين السابقين في أراضيهم ، ووضعوا النظرية الإعلامية لهذه السياسة ، وهي النظرية التي تبناها حكام الإمبراطورية الفارسية بعد ذلك ، وصارت عماد دعاوتهم . ولدينا أكثر من نص بابلي يؤسس لممارسة ونظرية إعاد التوطين ، منها نص لنبوخذ نصر يقدم فيه نفسه كمحرر للقرى اللبنانية من القمع الأجنبي ؛ فهو من أعاد السكان إلى مواطنهم وهو الذي جمعهم ووجههم إلى أراضيهم .. الخ[٣] . وهنا يجري التأسيس لأول مرة لفكرة " العودة" كعنصر مركزي في سياسة التهجير وإعادة التوطين البابلية . وتظهر هذه الفكرة بشكل خاص في نصوص الملك نابونيد ، التي يقدم نفسه فيها كمحرر للآلهة من الأسر ، ومحرر رعاياه الذين أعاد توطينهم في أراضيهم ، وباني المعابد المهجورة التي عهد بها إليه الإله مردوخ . ولعل أهم نصوص نابونيد التي تؤسس لنظرية وممارسة السياسة السكانية البابلية ، هو نص إعادة بناء مدينة حران ، الذي يتحدث فيه عن إحياء المدينة المهجورة وإعادة بناء معبد الإله سن فيها ، وجمع السكان إليها من عدد من بقاع الإمبراطورية البابلية . نقرأ في النص :

" هذه هي المعجـزة التي أظهرها الإله سن . المعجزة التي لم يكن لإله آخر أن يظهر مثلها . لقد هبط سن ، سيد الآلهة والإلهات في السماوات العلا ، نزل من عليائه إليّ أنا نابونيد ،

---

2 - *Ibid , PP . 346 - 416*

3 - *Leo Oppenheim , op . cit , P . 307*

ودعاني لأن أكون ملكاً بعد أن تضرع إليه كل الآلهة والإلهات ليفعل ذلك . وفي منتصف الليل ، جاءني في الحلم وقال لي : أعد بناء إهلهول ؛ معبد سن في حران ، ولسوف أسلم إلى يديك قياد البلاد جميعاً ...سن يا سيد الآلهة ، أنت الذي يمسك بيده قوى الإله آنو ، ويستخدم كل قوى الإله إنليل ويسيطر على قوى الإله إيا ، فيجمع بذلك إليه كل القوى السماوية . أيها السيد بين الآلهة يا ملك الملوك ويا رب الأرباب ،أمرك لا يعارضه أحد وكلمتك لا يطالها تغيير . تنفيذا لأمر إلهي أعدت بناء إهلهول معبد سن ، وسُقت إلى حران جماعات من بابل ومن سورية العليا ، من حدود مصر عند البحر الأعلى (المتوسط) الى شواطىء البحر الأدنى (الخليج العربي) وجميعهم ممن عهد بهم إليّ الإله سن ملك الآلهة . وعند اكتمال المعبد أتيت إليه بالإله سن ، وننجال ونسكو وسادرنونا ، فأقمت صورهم على قواعد راسخة وقربت إليهم القرابين الكثيرة . فأكملت بذلك فريضة سن ، ملك الآلهة ورب الأرباب في السماء ، أولئك الأرباب المعينين من قبله المنفذين لأوامر الهلال المقدس الذي يعلوهم جميعاً "[٤] .

يتخذ هذا النص مكانة هامة جداً بين بقية نصوص الإمبراطورية البابلية الجديدة ، [٥] لكونه مفتاحاً لفهم المنعطف ، الذي اتخذه مسار الإيديولوجية الدينية في المنطقة ، والذي وجد أحد تجسيداته المهمة بعد ذلك في كتاب التوراة . فنحن هنا أمام ثلاث أفكار رئيسية جديدة هي : ١ ـ فكرة الإله الواحد ٢ ـ فكرة إعادة بناء هيكل هذا الإله الواحد ٣ ـ فكرة بناء مجتمع جديد يتمركز حول الهيكل وإلهه .

فالإمبراطور البابلي يعيد إلى حران المهدمة والمهجورة إلهها القديم التقليدي سن ، ولكن لا كإلة محلي ، بل كاله شمولي أوحد يجمع إليه سلطات بقية الآلهة العظام ممن تحولوا الى أتباع معينين في وظائفهم من قبله ، يستمدون قدرتهم على الفعل من الألوهة الكلية القدرة المتجسدة في سن . وتحمل عملية إحياء عبادة الإله القديم هنا كل معاني الخلق الجديد لمعتقد وعبادة وطقوس لا تربطها بالصورة الماضية إلا أوهى الروابط . ولكن هذا المعتقد الجديد الذي يدور حول إله قديم في صورة جديدة ، يحتاج إلى مجتمع جديد يتلاحم حول

---

٤ – ترجمة ملخصة عن نص اوبنهايم . انظر المرجع لسابق ص ص ٥٦٢ ـ ٥٦٣

٥ ـ لفت نظري إلى أهمية هذا النص وقدم لي مفاتيح تحليله ، الباحث ت . ل . تومبسون
- Th . L . Thompson , op . cit , PP . 346 - 347

الهيكل الذي قام في منطقة خلت من سكانها الذين شتتهم الأَسر والنفي أو الهجرة . من هنا فقد ساق نابونيد إلى حران جماعات من مناطق متفرقة من الإمبراطورية بعضهم ولا شك من سكان حران السابقين وبعضهم من المهجرين من مناطق أخرى ، وأعطاهم وطناً يعملون على بنائه ، وإلهاً شمولياً هو الإله القديم لحران وقد غدا الآن ممثلاً للصورة الإلهية في عالم الإمبراطورية البابلية الجديدة.

إن تقديم الإمبراطور البابلي هنا في صورة المنقذ الذي يعيد الآلهة المنفية إلى معابدها والشعوب المهجرة إلى أراضيها ، والأفكار الجديدة التي يقوم عليها هذا النص ، ونصوص التهجير البابلية الأخرى ، يدلنا على أن الإدارة الإمبراطورية كانت في طريقها إلى جمع شعوب الإمبراطورية تدريجياً تحت معتقد ديني ، يبحث في كل إله محلي عن صورة للإله الأوحد البابلي ، الذي بدأ يتخذ إسم " إله السماء " لا بالمفهوم القديم لإله موكل بالسماء في مقابل آلهة أخرى موكلة بالأرض أو بالهواء أو بغيرها ، بل بالمفهوم الشمولي الجديد لقوة السماء باعتبارها القوة الإلهية المطلقة . إلا أن عمر الإمبراطورية البابلية القصير ، وسقوط بابل أخيراً بيد الفاتح الفارسي ، قد وضع إكمال هذا المشروع بين يدي القوة الجديد الصاعدة التي ورثت كلاً من بابل وآشور لفترة طويلة قادمة.

سار الإعلام الفارسي الذي وضع مبادئه الملك قورش عقب دخوله بابل ، على نسق إعلام الإمبراطورية البابلية الجديدة . ففي نص قورش المشهور ، الذي يعتبر بمثابة البيان السياسي للإمبراطورية الفارسية ، يتهم الحاكم الفارسي سلفه بالظلم والإستبداد وتسخير الرعية وتهجيرهم، وبالإساءة إلى الآلهة وتجاهل عبادتها . وهو يدعي أن الإله مردوخ الذي هجر بابل مع بقية الآلهة ، قد دعاه لينقذ الشعب ويعيد الأمور إلى نصابها، وأسلمه بابل التي فتحت ذراعيها لاستقباله دون مقاومة . وهو من بابل التي قصدها ملوك الجهات الأربعة لتقديم ولائهم ، يعلن عن سياسته في إعادة بناء المدن المقدسة وهياكلها التي نُقلت منها صور الآلهة ، وإعادة المهجرين مع آلهتهم إلى تلك المدن التي جعلها البابليون خرابا ـ وعلى حد قول النص في نهايته : " لقد أرجعت إلى المدن المقدسة على الجهة الأخرى من الدجلة معابدها التي كانت خراباً لمدة طويلة ، كما أعدت إليها صور الآلهة التي كانت تعيش فيها ، وجمعت سكانها المنفيين وسقتهم إلى أوطانهم . وتنفيذاً لأمر مردوخ الإله العظيم ، فقد أعدت صور آلهة سومر وآكاد ، التي جلبها نابونيد إلى بابل ، سليمة إلى محاريبها السابقة ،

الأماكن التي تسر فؤادها "[٦] .

هذا البيان السياسي الفارسي ، رغم أسلوبه الدعائي الموجه إلى شعوب الإمبراطورية لكسب ولائها ، فقد وضع بالفعل موضع التنفيذ العملي ، وسارت عملية إعادة الشعوب والآلهة إلى مواطنها على قدم وساق خلال فترة حكم قورش وخلفائه ، وذلك تحت شعارات " التجديد " و " إعادة البناء" . إلا أن الخيال يجب ألا يذهب بنا إلى تصور الإمبراطور الفارسي في حلة المنقذ الحقيقي الذي يهب الشعوب كرامتها واستقلالها ، ويسمح بعودة القوى الإقليمية إلى ما كانت عليه سابقاً . ذلك أن ما هدفت إليه السياسة الفارسية هو خلق نظام إداري للإمبراطورية ذي طابع لا مركزي من حيث الشكل ، يساعد على حكم المناطق الشاسعة للإمبراطورية بكفاية عالية وبنفقات أقل ، كما يساعد على فرض القوانين والشرائع الفارسية بعد إعطائها طابعاً إقليمياً محلياً . وفي سعيها إلى خلق هذه الكيانات الإقليمية التابعة، التي تستقبل عن طيب خاطر القوانين والشرائع الفارسية التي توحدها مع جسد الإمبراطورية ، فقد عملت الإدارة الفارسية على مطابقة الآلهة المحلية في المجتمعات الجديدة ، التي تم خلقها أو إحيائها في حلة جديدة ، مع " إله السماء " الفارسي أهورامزا ؛ الإله الواحد الحق الذي بشر به زردادشت قبل قرن من الزمان تقريباً . إن إمبراطورية على هذا القدر من الإتساع ، لا يمكن ضبطها إلا بنظام قانوني تشريعي واحد ، وإله واحد تتنوع أسماؤه وتجلياتـه في الأقاليم ، ولكنها تتحد في النهاية تحت مفهوم الإله الواحد للإمبراطورية . وهذه السياسة الفارسية لم تكن في واقع الحال إلا تطويراً لما كان الملوك البابليون قد وضعوه موضع التطبيق ، ولكن لم يساعدهم الوقت على اتمامه[٧] .

في هذا السياق التاريخي والمناخ الفكري نستطيع فهم الأخبار التوراتية حول " إعادة بناء" هيكل الرب في أورشليم ، وإحياء المجتمع القديم في المنطقة . إن " العائدين" إلى أورشليم منذ أواخر القرن السادس قبل الميلاد ، لم يكونوا استمراراً لأولئك المهجرين على يد نبوخذ نصر ، وما بنوه في أورشليم من هيكل ومدينة لم يكن استمراراً للبنية القديمة ، بل بنية جديدة تحتضن مجتمعاً جديداً تم تصميمه وفق التصورات العامة السياسية والإيديولوجية

---

6 - Leo Oppenheim , op . cit , PP . 315 - 316 .

٧ – هذا التفسير والتحليل يستند إلى أفكار ت . ل . تومبسون . انظر

- Thomat . Th . Thompson , OP . cit , PP . 349 - 350 , 417 - 423 .

للنظام العالمي الفارسي . إن قراءة تحليلية متأنية لسفر عزرا ونحميا،اللذين يقدمان لنا معظم المادة الإخبارية عن " العودة" و " إعادة البناء"،سوف تكشف لنا بقية القصة. فمع هذين السفرين نغادر تاريخ إسرائيل وندخل في تاريخ "ا ليهودية" .

رغم أننا لا نملك وثيقة فارسية تخبر عن عودة المهجرين من يهوذا في زمن الملك قورش أو في زمن خلفائه ، إلا أنه لا يوجد لدينا من الأسباب ما يدعو إلى الشك في الخطوط العامة لقصة " العودة" كما يرويها سفرا عزرا ونحميا ، لأنها تتفق مع الإطار العام للسياسة الفارسية ، وعلى الأخص بيان الملك قورش الوارد في الإصحاح الأول من سفر عزرا، الذي يسير على النهج الإعلامي الفارسي الذي عرفناه ، حيث نقرأ مايلي : " في السنة الأولى لكورش ملك فارس ، عند تمام كلمة الرب بفم إرميا ، نبه الرب روح كورش ملك فارس فأطلق نداءً في كل مملكته وبالكتاب أيضاً قائلاً : هكذا قال كورش ملك فارس ،جميع ممالك الأرض دفعها لي الرب إله السماء ، وهو أوصاني أن أبني له بيتاً في أورشليم التي في يهوذا . من منكم من كل شعبه ليكن إلهه معه ويصعد إلى أورشليم التي في يهوذا فيبني بيت الرب إله إسرائيل ، هو الإله الذي في أورشليم .وكل من بقي في أحد الأماكن حيث هو متغرب ، لينجده أهـل مكانه بفضـة وبذهـب وبأمتعـة ، مـع التبـرع لبيت الرب الذي في أورشليم .. والملك كـورش أخـرج آنية بيت الرب التي أخرجها نبوخـذ نصر من أورشليم وجعلها في بيت آلهتـه ، أخرجها كورش ملك فارس وعدَّها لشيشبصر رئيس يهوذا ، وهذا عددها ... والكل أصعده شيشبصر عند إصعاد السبي من بابل إلى أورشليم "(عزرا ١ : ١ - ١١) .

نلاحظ في هذا النص المطابقة التامة بين إله قورش وإله المجتمع الجديد في أورشليم ، واستعمال لقب " إله السماء" لأول مرة في معرض الإشارة إلى الإله القديم يهوه الذي لبس الآن لبوساً جديداً ، باعتباره صورة محلية عن الإله الشمولي للإمبراطورية الفارسية . وهذا مايظهره بكل وضوح قول قورش : " جميع ممالك الأرض دفعها لي الرب إله السماء ، وهو أوصاني أن أبني له بيتاً في أورشليم " . كما نلاحظ أيضاً تطابق هذا النص مع إعلان الملك البابلي نابونيد الذي يقول : " تنفيذاً لأمر إلهي ، أعدت بناء أهلهول معبد سن ، وسقت إلى حران جماعات من بابل ومن سورية العليا .. الخ ،وجميعهم ممن عهد إلي بهم الإله سن ملك الآلهة . وعند اكتمال المعبد أتيت إليه بالإله سن ..الخ فاكملت بذلك فريضة سن

ملك الآلهة ورب الأرباب في السماء " . وبشكل خاص تظهر المطابقة بين " إله السماء" الجديد ويهوه القديم في سفر أشعيا الذي يلقب قورش بمسيح الرب : " هكذا يقول الرب لمسيحه كورش ، الذي أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمماً . أنا أسير قدامك والهضاب أمهد . وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز الخوابي ، لكي تعرف أني أنا الرب إله إسرائيل .أنا الرب وليس آخر . لا إله سواي " (أشعيا ٤٥ : ١ - ٦) . وفي الواقع ، فإن كل التصورات الواردة في سفر أشعيا عن الإله الشمولي ، والجديدة تماماً على المناخ الديني التوراتي (وخصوصاً في الإصحاحات من ٤٠ إلى ٤٨) تأتي في سياق المطابقة بين الإله المحلي القديم والإله الشمولي الجديد للإمبراطورية الفارسية ؛ إله السماء ، والإله العائد مع المسبيين ليقيم في هيكله الجديد لا يربطه بالإله القديم يهوه إلا الإسم فقط.

يقص علينا سفرا عزرا ونحميا القصة الكاملة للعودة وبناء الهيكل ثم أسوار المدينة . ونعرف أن العودة قد جاءت على عدة موجات ، كانت أولاها بقيادة المدعو شيشبصر ابن الملك يهوياقين الملك الأسبق ليهوذا . ويبدو أن هذه الموجة قد تحركت نحو أورشليم بأعداد قليلة عقب دخول قورش إلى بابل عام ٥٣٩ ق.م بوقت قصير . وقد جاء شيشبصر إلى أورشليم كوالٍ عليها وباشر بوضع الأساسات لبناء الهيكل ولكنه لم يستطع متابعة المهمة (عزرا ١ : ٧ - ١١ و ٥ : ١٤ - ١٦) . ثم يختفي شيشبصر من مسرح الأحداث دون تفسير ظاهر . وفي السنوات الأولى لحكم الملك داريوس (٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م) ، تنطلق الموجة الثانية من العائدين وتعدادها ٤٢,٣٦٠ عدا العبيد ، بقيادة الوالي الجديد على أورشليم المدعو زربابل ومعه يشوع الكاهن . وقد زودهم داريوس بمخطط لهيكل أورشليم أعد في عهد الملك قورش، وأعطى أوامره إلى عامله على مناطق غربي الفرات ليقدم لزربابل نفقة بناء الهيكل من خراج تلك المناطق ، ويعطيه كل ما يحتاجه في ذلك دون تقصير أو تردد (عزرا ٦:١ - ١٢).وهنا يبدو بوضوح تام من مضمون أمر داريوس المتضمن بناء الهيكل ، أن الإله الذي يقام له هذا الهيكل هو إله داريوس بالدرجة الأولى قبل أن يكون إلهاً للعائدين . نقرأ في خاتمة أمر داريوس ما يلي : " وما يحتاجون إليه من الثيران والخراف والكباش محرقة لإله السماء لتعط لهم يوماً بيوم ، حتى لا يهدأوا عن تقريب روائح سرور لإله السماء ، والصلاة لأجل حياة الملك وحياة بنيه .. والله الذي أسكنُ اسمه هناك يهلك كل ملك وشعب يمد يده لتغيير أو هدم بيت الله هذا ، الذي في أورشليم . أنا داريوس قد

أمرت فليفعل عاجلاً " (عزرا ٦ ٩ - ١٢) .

إن إهتمام الملك داريوس ببناء الهيكل وارسال الدفعة الثانية من العائدين لإنعاش المجتمع الأورشليمي ، ينبغي أن يفهم من خلال عملية الإصلاح الإداري الشامل التي قادها في جميع أنحاء الإمبراطورية ، وعملية ترميم وتنشيط البنى السياسية المحلية في كل مكان ، سيراً على المبادىء الأولى التي وضعها الملك قورش . وقد اكتمل بناء هيكل أورشليم في السنة السادسة لحكم داريوس (عزرا ٦ : ١٥) . ولكننا لا ندري بالفعل فيما إذا كان زربابل هو الذي أنهى بناء الهيكل ، لأن نص سفر عزرا يتوقف عن ذكره بشكل مفاجىء وقبل إنهاء الهيكل عام ٥١٦ ق.م ، كما يتوقف أيضاً عن ذكر الكاهن يشوع الرجل الثاني بعد زربابل . وعند تدشين الهيكل لا تظهر هاتان الشخصيتان في الإحتفال الديني الكبير الذي أقيم بهذه المناسبة .

بعد عام من انتهاء العمل في بناء هيكل أورشليم ، يقوم المدعو عزرا الكاهن بقيادة الموجة الثالثة من العائدين بأمر من الملك أرتحشتا (أرتازكسريس) ، خليفة داريوس الأول . نقرأ في سفر عزرا : " في مُلْكْ أرتحشتا ملك فارس . عزرا بن سرايا صعد من بابل ، وهو كاتب ماهر في شريعة موسى التي أعطاها الرب إله إسرائيل . وأعطاه الملك حسب يد الرب إلهه كل سؤله .وصعد معه من بني إسرائيل والكهنة واللاويين ..الخ ، إلى أورشليم في السنة السابعة لأرتحشتا الملك .. لأن عزرا هيأ قلبه لطلب شريعة الرب والعمل بها ، وليعلّم إسرائيل فريضة وقضاءً وهذه صورة الرسالة التي أعطاها الملك أرتحشتا لعزرا الكاهن الكاتب ، كاتب وصايا الرب وفرائضه على إسرائيل من أرتحشتا ملك الملوك إلى عزرا الكاهن كاتب شريعة اله السماء الكامل .قد صدر مني أمر أن كل من أراد في ملكي من شعب إسرائيل وكهنته واللاويين أن يرجع إلى أورشليم معك فليرجع . من أجل أنك مرسل من قبل الملك ومشيريه السبعة لأجل السؤال عن يهوذا وأورشليم حسب شريعة الرب إلهك التي بيدك ، ولحمل فضة وذهب تبرع به الملك ومشيروه لإله إسرائيل،الذي في أورشليم مسكنه .. ومني أنا أرتحشتا الملك صدر أمر إلى كل الخزنة الذين في عبر النهر ، أن كل ما يطلبه منكم عزرا الكاهن كاتب شريعة إله السماء فليعمل بسرعة ... كل ما أمر به إله السماء فليعمل باجتهاد لبيت إله السماء .. أما أنت يا عزرا فحسب حكمة إلهك التي بيدك ضع حكاماً وقضاة يقضون لجميع الشعب الذي في عبر النهر ؛ من جميع مَن يعرف شرائع إلهك ، والذين لا يعرفون فعلمهم .وكل من لا يعمل شريعة إلهك وشريعة الملك فليقضَ عليه عاجلاً إما بالموت

أو بالنفي أو بغرامة المال والحبس" (عزرا ٧ : ١ - ٢٦) .

منذ أيام الملك داريوس ، بدأت الإدارة الفارسية بخطة جادة تهدف الى مركزة وتنميط البنى القانونية والإقتصادية للإمبراطورية ، واعتمدت في ذلك على فرض ما يسمى " بشريعة الملك" وهي الشريعة التي تلقاها من إله السماء أهورامزدا. وقد تم فرض هذه الشريعة في صيغ محلية تجعلها تبدو وكأنها إحياء للممارسات والتقاليد والأعراف المحلية في البلدان المختلفة ، وخصوصاً في تلك المجتمعات الجديدة التي تم احياؤها بعد أن خرب الآشوريون بناها الفوقية والتحتية [٨]. وهذه الشريعة هي التي أعطيت لعزرا من قبل الملك الفارسي ليعمل على تطبيقها في مقاطعة اليهودية. فلقد جاء عزرا إلى أورشليم لا كوالٍ سياسي مثل زربابل ، بل كمتفقه في " شريعة الرب" و" شريعة الملك" على حد تعبير النص التوراتي . وبما أن عزرا، وكما سوف نرى بعد قليل ، قد قرأ شريعة الرب على مسامع جميع الرعية وأفهمهم إياها ، ولم يقرأ شريعة الملك ، فإن النتيجة الوحيدة التي يمكن الخروج بها ، هي أن الشريعتين ليستا في حقيقة الأمر سوى شريعة واحدة قد أرسلها الملك الفارسي بيد عزرا ، من أجل تنظيم شؤون المجتمع الجديد من النواحي الإعتقادية والطقسية والإدارية ، بحيث تم تأييد القوانين المدنية بالأوامر والنواهي الدينية لتزويدها بسلطان ذاتي.

لقد جاء عزرا بسفر الشريعة ، كما يسميه نص عزرا ونص نحميا ، ومصدره البلاط الفارسي ، ثم قرأ فقراته على مسامع الشعب الذي لم يكن يعرف عنه شيئاً ، في احتفال عظيم ، وأخذ عليهم عهداً وميثاقاً بقبوله . نقرأ في نحميا : " اجتمع كل الشعب كرجل واحد إلى الساحة التي أمام باب الماء ، وقالوا لعزرا الكاتب أن يأتي بسفر شريعة موسى التي أمر بها الرب إله إسرائيل . فأتى عزرا بالشريعة أمام الجماعة ... وقرأ بها من الصباح إلى نصف النهار أمام الرجال والنساء والفاهمين ، وكانت آذان الشعب نحو سفر الشريعة ... وبارك الرب الإله العظيم عزرا . وأجاب جميع الشعب آمين آمين رافعين أيديهم ، وخروا وسجدوا للرب على وجوههم إلى الأرض . ويشوع وباني .. الخ ، واللاويون أفهموا الشعب الشريعة ، والشعب في أماكنهم ، وقرأوا في السفر في شريعة الله ببيان وفسروا المعنى وأفهموهم القراءة ... وفي اليوم الثاني اجتمع رؤساء آباء جميع الشعب والكهنة واللاويون

---

8 - T . L . Thompson , op . cit , P 418

إلى عزرا الكاتب ليفهمهم كلام الشريعة " (نحميا ٨ : ١ - ١٣) . وبعد ذلك يعطي الشعب عهداً وميثاقاً بقبولهم للشريعة أمام عزرا الكاهن الكاتب ،ونحميا الإداري والسياسي الذي عينه الفرس والياً على أورشليم : " ومن أجل ذلك ، نحن نقطع ميثاقاً ونكتبه . ورؤساؤنا ولاويونا وكهنتنا يختمون . والذين ختموا هم نحميا وصدقيا و..الخ . وباقي الشعب والكهنة واللاوين وكل الذين انفصلوا من شعوب الأراضي إلى شريعة الله ، ونسائهم وبنيهم وبناتهم ، كل أصحاب المعرفة والفهم لصقوا بإخوتهم وعظمائهم ، ودخلوا في قسم وحلف أن يسيروا في شريعة الله التي أعطيت عن يد موسى عبد الله،وأن يحفظوا ويعملوا جميع وصايا الرب سيدنا وأحكامه ." (نحميا ٩ : ٣٨ و١٠: ١ - ٢٩) .

إن ما تقوله لنا هذه الفقرات السابقة من سفر نحميا ، هو أن عزرا هذا قد جاء إلى أورشليم بشريعة ، أو بنواة شريعة ، جديدة كل الجدة على المجتمع الآخذ بالتشكل في هذه المنطقة التي يعاد إحياؤها وفق السياسة العامة لترميم مقاطعات الإمبراطورية الفارسية، التي أفرغت من سكانها وعانت من تخريب الحاكم السابق . وقد كان الشعب يستمع إلى فقرات هذاالقانون لأول مرة ، من هنا فقد كان على عزرا أن يشرح فقراته للكهنة واللاويين ورؤساء الشعب ليعمل هؤلاء على شرحها للبقية وإفهامهم مضمونها .وبالطبع فإن هذاالشرح وإعادة الشرح لايمكن أن يكون موضوعه شريعة موجودة بين أيدي الشعب ، تنظم أحواله الدينية والدنيوية ، وترقى إلى أيام موسى . وليست تسمية هذه الشريعة في سفري عزرا ونحميا بشريعة موسى إلا لمسة تحريرية وضعها المحررون عندما ألحقوا أخبار الفترة الفارسية بالقصة التوراتية الطويلة . وفي الحقيقة فإن الميثاق الذي أخذته الجالية الجديدة في أورشليم على نفسها بقبول شريعة الله وشريعة الملك، هو " العهد الأول" الذي يتم بين إله السماء الجديد في هيكل أورشليم وبين شعبه الجديد ، وهو الذي أسقطه المحررون على قصة الأصول فعقدوه منذ البداية بين إبراهيم وإلهه ، وجددوه مع بقية الآباء.

ورغم أن اللمسة التحريرية تجعل من هذا العهد نتاجاً للرضى العام به وقبوله غير المشروط من قبل الشعب ، إلا أن المضامين الأصلية للخبر واضحة كل الوضوح وتؤدي عكس ذلك . فالجالية الجديدة في أورشليم لم يكن أمامها إلا أحد خيارين ؛ فإما قبول شريعة الله وشريعة الملك أو مواجهة أقسى العقوبات . وهذا ما تنص عليه آخر فقرات أمر الملك الفارسي التي تنص على أن : " كل من لا يعمل شريعة إلهك وشريعة الملك . فليقض عليه عاجلاً إما

بالموت ، أو بالنفي ، أو بغرامة المال والحبس " (عزرا ٧ : ٢٦) . وهذا يعني أننا أمام نوع من " عقد الإذعان " المفروض من قبل السلطة الفارسية ، وأن مجتمع أورشليم لم يكن أمامه سوى خيار واحد هو القبول بلائحة القوانين الجديدة التي تنظم أحواله الدينية والإجتماعية والسياسية ، وفق الخطة الموضوعة لهذه المنطقة من الإمبراطورية .

لا يعطي سفرا عزرا ونحميا كثيراً من التفاصيل حول مضمون الشريعة الجديدة ، والفقرات القليلة المذكورة في نحميا : ١٠ لا تشبه في صياغتها ومضمونها شريعة موسى التي فصلتها الأسفار الخمسة ، إلا أننا نستطيع تخمين مصادر وموضوعات سفر الشريعة هذا . فأما الموضوعات ، فقد تركزت حول المعتقد الديني والطقوس المكملة له ، وحول القضايا الإدارية والتنظيمية للبنية المدنية الجديدة ، والأحوال الشخصية للجالية الجديدة في منطقة اليهودية ، وهي أورشليم وما يحيط بها . وقد تم ربط هذه القوانين الناظمة للحياة الدنيوية للجماعة بالمعتقد الديني لإعطائها تأييداً مزدوجاً . وأما مصادر سفر شريعة عزرا فمتعددة . فلدينا أولاً الإيديولوجية الدينية الفارسية المتعلقة بإله السماء الفارسي أهورامزدا ، الذي سعى ملوك فارس رفعه إلهاً أوحداً للإمبراطورية عن طريق مطابقته تعسفياً مع الآلهة المحلية للمقاطعات المحكومة ، وخصوصاً تلك المقاطعات الداخلة في برنامج التجديد والإحياء . وثانياً ، لدينا ، القوانين والشرائع الفارسية التي حاولت الإدارة الإمبراطورية من خلالها تنميط أساليب الإدارة والحكم في المقاطعات . وثالثاً ،لدينا التقاليد المحلية المتجذرة في المنطقة منذ القدم .

وبالطبع ، فإن هذه النواة الأولى للشريعة ، والتي صلحت في البداية لخلق الإستقرار في مجتمع أورشليم ، لم تبق على حالها . والكاهن عزرا الذي يمكن أن يدعى بحق " أبو اليهودية " قد عمد فيما بعد إلى توسيع وتطوير هذه النواة بما يتلاءم مع التقاليد القديمة في المنطقة من جهة ومع مستجدات حياة الجماعة . ثم جاء تلامذته وخلفاؤه ، ممن شكلوا الآن كهنوتاً رسمياً راسخاً في أورشليم ، فتابعوا هذه المهمة ، وأخذوا على عاتقهم فوق ذلك إبتكار أصول لهذه الشريعة تجعل منها تقليداً مترسخاً في المنطقة لا أمراً عارضاً مفروضاًعليها من الخارج . وهكذا ابتدأ العمل في قصة إسرائيل التوراتية . ففي سياق عملية ابتكار تاريخ للشريعة بهدف تأصيلها وتثبيتها ، كان لا بد من ابتكار أحداث وشخصيات تحمل هذا التاريخ وتطوره من مرحلة إلى آخرى ، فابتدأت القصة بشكلها الجنيني المتواضع ثم أخذت

بالتشعب والتوسع ، ونشأت على جوانب الخط الرئيسي لها قصص متفرقة متنوعة معظمها مستمد من التراث المحلي ، تم إقتباسه وإدماجه في النسيج العام للرواية التوراتية .

وتكبر الخرافة وتتسع ، وتستكمل حلقاتها خلال قرنين أو ثلاثة من عودة عزرا بسفر الشريعة من البلاط الفارسي ، ويتم ربط تاريخ اليهودية بتاريخ ما قبل اليهودية ؛ أي تاريخ إسرائيل ويهوذا . وتتابع قصة الأصول توغلها في الماضي المجهول مما سبقهما . ثم كان لا بد من إيقاف هذه العملية عند حد معين ، فعمد كهنة أورشليم أخيراً إلى جمع هذه الأدبيات وإعادة صياغتها بشكل أخير، وفق إطار إيديولوجي وكرونولوجي يضم التقاليد المتفرقة في كل موحد.وبذلك أنجز كتاب التوراة ، وظهرت إسرائيل التوراتية ككيان ذهني وأدبي على أنقاض تاريخ السامرة ويهوذا المطمور تحت ركام الدمار الآشوري والبابلي.

إن الرواية التوراتية هي قصة أصول مبتكرة لدين جديد ومجتمع جديد يحاول أن يثبت أقدميته وتجذره في المنطقة . وإن المحررين الذين صاغوا هذه القصة كانوا مدفوعين بهاجس تراثي لا بهاجس تاريخي . لقد جمعوا ماوصل إلى أيديهم من شذرات الأخبار القديمة والأدب الشعبي الفلسطيني ونتف الأخبار عن السامرة ويهوذا ، وبعض الوثائق القليلة المكتوبة ، فصاغوا منها مادة قصصهم التي ضُمت إلى بعضها من خلال منظور ايديولوجي فضفاض وتسلسل زمني مليء بالفجوات والإنقطاعات . وفي الحقيقة ، فإن مايبدو لأول وهلة تسلسلاً زمنياً في القصص التوراتي ، ليس إلا إيهاماً من صنع المحرر التوراتي الأخير ، الذي جعل القصص ذات المنشأ المستقل تبدو وكأنها حلقات في سلسلة متتابعة . والناتج الأخير لهذه العملية هو رواية خيالية لا تتقاطع مع التاريخ الفلسطيني ولا مع تاريخ الشرق القديم في كل تفاصيلها هبوطاً إلى موت الملك سليمان ، ولاتتقاطع مع هذا التاريخ إلا في نقاط غامضة ومبعثرة من حياة مملكتي السامرة وإسرائيل . أما عن ذلك المنظور الإيديولوجي الذي حاول كهنوت أورشليم فرضه على روايتهم ، فقد بقي غريباً عن جو القصص التوراتي التي استقل كل منها برؤيته الدينية الخاصة . فاله الآباء لايشبه إله الخروج وإله أشعيا ، وهذا لايشبه إله القضاة ،وإله أشعيا غريب كل الغرابة عن كل ما سبقه من تصورات ، وسفرا أيوب والجامعه لايمكن قراءتهما بعيني إرميا، ونشيد الإنشاد لايمكن وضعه في أي سياق ديني توراتي . وهذا يعني أننا لسنا أمام إيديولوجية دينية متسقة ، تعلن عن نفسها بالطريقة نفسها عبر أسفار الكتاب ، بل أمام ايديولوجية توفيقية لا تملك الحد الأدنى من الوحدة والإنتظام .

إن إسرائيل التوراتية تظهر إلى الوجود ، لأول مرة ، كناتج فكري من نواتج الوضع الخاص للمجتمع الأورشليمي المصطنع في العصر الفارسي . من هنا ، فإن هذه الإسرائيل لا تتمتع بوجود موضوعي خاضع لعملية الإستقصاء التاريخي ، واي مجهود يبذل في هذا الإتجاه هو مجهود لاطائل تحته . ذلك أن العملية التحريرية التي قادت إلى إنتاج إسرائيل التوراتية ، لم تكن تهدف إلى إنتاج نص أمين عن الماضي ، بقدر ما هدفت إلى صياغة نص يعطي معنى للحاضر ويرسم صورة للمستقبل . والمضمون الذي يتكشف لنا عبر أسفار الأنبياء والأسفار التاريخية ، ليس موجهاً نحو الكشف عن الماضي إلا بمقدار ما يقدمه هذا الماضي من دعم وتثبيت للمؤسسة الدينية والدنيوية الناشئة . وبمعنى آخر فإن ما يبدو في هذا الأسفار على أنه تأمل تاريخي ليس في حقيقة الأمر إلا تأملاً مستقبلياً يرسم صورة للمجتمع الجديد باعتباره وريثاً لمجتمع قديم آل إلى اللعنة والتحلل والدمار . وهذه الصورة عن إسرائيل الجديدة ، هي التي تتحكم بنوع الأحداث التي يتم جمعها وتذكرها باعتبارها تاريخاً.

من هنا ، نستطيع أن نفهم أصول الأفكار الرئيسية الموجهة للتقاليد التوراتية الرئيسية . وهذه الأفكار يمكن تلخيصها في خمسة هي :العهد، والوعد ، والغربة ، والعصر الذهبي والسقوط ، والتجديد .

لقد كان العهد الذي قطعه أهل أورشليم أمام عزرا الكاهن بقبول شريعة الملك وشريعة الرب بمثابة بداية للتاريخ اليهودي . كما كان في الوقت ذاته النقطة المثالية التي ابتدأ منها المحرر التوراتي بابتكار قصة الأصول . فهذا العهد بين الشعب وإلهه ليس جديداً ، بل هو تجديد لعهد عتيق كان الأسلاف الأولون لهذه الجماعة الأورشليمية قد أبرموه مع إله عتيق أيضاً . وكما ارتبط إبرام العهد مع ممثلي السلطة الفارسية عزرا ونحميا ، مع تثبيت العائدين في أرض عودتهم (لأن كل من لايعمل بشريعة الملك وشريعة الرب يقتل أو ينفى ، وفق أمر الملك الفارسي) ، كذلك ارتبط العهد العتيق مع إبراهيم وخلفائه بالوعد بالأرض . فالرب قد أعطى أرض كنعان لإبراهيم وذريته وتعهد بحمايتهم مقابل عبادتهم له وحده ، ثم جدد عهده مع اسحاق ويعقوب . وهذه الوعود القديمة كلها ليست إلا نموذجاً بدئياً للوعد الجديد الذي يقطعه إله السماء الفارسي مع بقية يهوذا فيقودهم إلى الأرض الموعودة ، ذاتها . ولقد قاد إحساس القلة الباقية من يهوذا بالغربة في "أرض العودة" التي جاءوا إليها مع من رافقهم من مسبيّي المناطق الأخرى ، إلى إدخال عنصر "الغربة الدائمة" في قصتهم الطويلة عن

الأصول . فالآباء المؤسسون كانوا غرباء عن أرض كنعان وفدوا إليها من بلاد الرافدين ، مثلما وفـد إليها من بلاد الرافدين أيضاً بقية سبي يهوذا والغرباء الآخرين المشتتين في الأرض . وجماعة موسى كانت غريبة في مصر وغريبة مرة أخرى في كنعان التي دخلتها مع يشوع ، وقصة استعبادهم في مصر هي نموذج بدئي لقصة سبيهم في بابل ، وفرعون القديم هو نبوخذ نصر الجديد . وبذلك ترتبط الأفكار الثلاثة عن العهد والوعد والغربة ارتباطاً عضوياً على مستوى الرواية وعلى مستوى الواقع . كما تؤسس هذه الأفكار الثلاثة بدورها لفكرة التجديد وإعادة البناء ؛ فالمسبيون قد عادوا من بابل لتجديد وإعادة بناء أورشليم ، مثلما عاد المستعبدون من مصر وبنوا المملكة الموحدة في كنعان . وعملية التجديد وإعادة البناء هذه ، لا تأخذ معناها إلا بارتباطها بفكرة العصر الذهبي والسقوط ، ذلك أن العائدين قد جاءوا لتجديد مُلْكٍ زال ودولة آلت إلى الانحدار والسقوط . فقصة الأصول والحالة هذه يجب أن تبلغ ذروتها في العصر الذهبي لمملكة داود وسليمان ، ثم تؤول إلى الانحدار فالسقوط عبر المصائر القاتمة لكل من مملكتي السامرة ويهوذا . وكل ذلك يأتي وفق مخطط من الرب الذي قضى على عالم فاسد قديم لكي يقيم على أنقاضه عالماً نقياً جديداً . نقرأ في سفر حزقيال إحدى المعالجات الدقيقة والواضحة لهذه الفكرة ، حيث يقول الرب : "... إنْ أرسلت أحكامي الرديئة على أورشليم سيفاً وجوعاً ووحشاً رديئاً ووبأ ، لأقطع منها الإنسان والحيوان ، فهوذا بقية فيها ناجية تُخرج بنون وبنات . هو ذا يخرجون إليكم فتنظرون طريقهم وأعمالهم ، وتتعزون عن الشر الذي جلبته على أورشليم ، عن كل ما جلبته عليها . ويعزونكم إذ ترون طريقهم وأعمالهم ، فتعلمون أني لم أصنع بلا سبب كل ما صنعته فيها ، يقول السيد الرب "(حزقيال ١٤ : ٢١ - ٢٣) .

والسؤال الأخير الذي يطرح نفسه الآن هو التالي : إذا كان المجتمع الجديد في مقاطعة اليهودية ، قد أنشأته بقية المسبيين من يهوذا ، فلماذا بنى كهنوت أورشليم قصة الأصول حول إسرائيل ، وجعلوا من هذه البقية آخر من تبقى من سلالة بني إسرائيل ؟ الجواب على هذا السؤال متشعب ، ولكنني أود أن أطرح مبدئياً فكرة مفادها أننا لسنا متأكدين بالفعل من أن بناة المجتمع الجديد في أورشليم هم حصراً من بقية يهوذا المسبية في بابل ، لأن مصدرنا الوحيد عن هذه المرحلة من الرواية التوراتية هو النص التوراتي وحده . ومن المرجح أن تكون الجماعات التي سيقت إلى أورشليم قد ضمت إلى جانب بقية سبي يهوذا ، شرائح من

شعوب مسبية أخرى قد فقدت ارتباطها بمواطنها الأصلية ، ولا تمانع من التوجه إلى أي منطقة مستفيدة من سياسة الإنعاش وإعادة البناء . كما نرجح أن تكون الإدارة الفارسية قد ضمت إلى هؤلاء في أورشليم جماعات كانت تعيش حياة البؤس والكفاف في المناطق الفلسطينية الأخرى التي آلت إلى الخراب . وبما أن دولة إسرائيل ـ السامرة كانت أقوى الدويـلات الفلسطينية وأكثرها شهرة ، وكان إلهها الرسمي يهوه أعلى الآلهة الفلسطينية شأناً ، فقد تم إفهام جماعات العائدين والمرحلين إلى أورشليم الجديدة بأنهم ورثة مملكة إسـرائيل ، وأن إلـه السماء الفارسي هـو الآن يهـوه القديم في حلته العالمية الشمولية الجديدة [٩] .

لقد هدفت سياسة الترحيل الآشورية إلى التخريب المنظم للبنى التحتية للمقاطعات المقهورة ، وسيقت إلى مناطق آشور الشرائح المتنورة في هذه المقاطعات ، واليد الفنية الماهرة والكتّاب والمعلمون والكهنة والعسكريون المدربون ، أي كل الشرائح التي تعطي للمجتمع هيكليته وتطلق فعاليته . وقد طالت عمليات الترحيل في كثير من الأحيان مناطق زراعية بأكملها فتركت بوادٍ قاحلة لفترة طويلة لاحقة . أما المقاطعات التي تم الحفاظ على هيكليتها السياسية فقد تم إستغلالها إلى أبعد الحدود ، وخضعت للنهب المنظم عن طريق الجزية وعن طريق سلب مواردها الطبيعية ، ودفع إليها بجماعات مسبية غريبة لتقيم بين ظهرانيها وتفتت وحدتها الأثنية . وفيما يتعلق بفلسطين ، فقد خلت بعض مناطقها من السكان تماماً ، وتضاءل عدد السكان في المناطق الأخرى وآلت إلى الفقر المدقع . ومنذ نهاية القرن السادس إفتقدت فلسطين إلى الحد الأدنى من التلاحم الإثني واللغوي والديني والسياسي ، وتوزع من تبقى من سكانها بين جماعات غير متجانسة سيقوا إليها من المناطق المغلوبة الأخرى .

وبما أننا لا نعرف عن أي مشروع فارسي آخر للإحياء في منطقة فلسطين ، غير مشروع إحياء أورشليم ، فإننا نرجح أن يكون الهدف منه هو تجميع تلك الجماعات المتفرقة ذات الأصول العرقية المختلفة التي بقيت خارج الأطر السياسية والإجتماعية في عالم متهدم تماماً ، ومن يود العودة من بقية يهوذا المسبية في بابل ، لصهرها في بوتقة واحدة وإفهامها بأنها الآن وريثة إسرائيل البائدة ، في عملية إحياء لمنطقة يهوذا تحت شعار تجديد المجتمع القديم . وقد

٩ – في معالجتي لهذه النقطة تطوير لأفكار ت . ل . تومبسون . انظر بشكل خاص الصفحة ٤١٨ وما بعدها من المرجع السابق

قام على تنفيذ هذه السياسة ولاة من يهوذا تدربوا في البلاط الفارسي ووصلوا فيه إلى أعلى المناصب مثـل نحميا الذي كان ساقياً للملك الفارسي وموضع ثقته يرافقه في حله وترحاله (نحميا :٢) . وقد تم تجميع هذا المجتمع الجديد حول هيكل إله السماء الفارسي الجديد ، بعد أن تم إفهام الجميع من خلال سفر الشريعة الذي أتى به عزرا من بابل ، بأن هذا الإله هو نفسه الإله القديم يهوه إله السامرة وإله يهوذا السالفتين، وصار الدخول في هذه العبادة الجديدة شرطاً للإنتماء إلى المجتمع الجديد .

ورغم أن كهنة أورشليم قد ابتدأوا منذ عزرا الكاهن بعملية تدوين تاريخ لهذه الجماعة على أنه تاريخ إسرائيل ، وابتكار أصول لديانة إله السماء ضاربة في أعماق هذا التاريخ ، إلا أن تسمية " اليهودي " و " اليهودية " صارت علماً على دين أورشليم وعلى الأفراد المنتمين إلى المجتمع الأورشليمي ، من دون " الإسرائيلي " . فكل ما هو " إسرائيلي" ينتمي إلى الماضي ، إلى " القصة " ، وكل ما هو "يهودي" ينتمي إلى الحاضر ، حاضر ذلك المجتمع الجديد الذي يحاول مستميتاً أن يؤكد تلاحمه وتجانسه كشعب مختار من قبل إله السماء . لقد اختار إله السماء هذه الفئات ألتي تم تجميعها في منطقة أورشليم لتكون له شعباً ، كما وجدت هذه الفئات وحدتها وتجانسها من خلال إحساسها بالانتماء إلى ذلك الإله وإقامة العهد معه .

وهكذا ، ومع تشكيل مقاطعة اليهودية ككيان سياسي ينتمي إلى النظام العالمي الفارسي الجـديد ، تدخـل القصـة التـوراتية عتبة التاريخ.من هنا يتوجب علينا أن نعيد فهم مسألة " السبي البابلي " كحادثة تاريخية من جهة ، وكفكرة ملهمة في سياق القصة التوراتية من جهة آخرى. ذلك أن تقسيم تاريخ " بني إسرائيل " إلى ثلاث فترات ؛ هي ما قبل السبي ، وفترة السبي ، و ما بعد السبي ، هو تقسيم باطل على ضوء ما تقدمنا به حتى الآن . فبنو إسرائيل ليس لهم وجود خارج مجال قصة الأصول التوراتية ، وتاريخ دولتي السامرة ويهوذا قد انتهى وصار ملكاً للذاكرة البشرية الجمعية بعد زوال إسرائيل عام ٧٢١ ق.م وزوال يهوذا عام ٥٨٧ ق.م . أما التاريخ اليهودي الذي ابتدأ مع بناء أورشليم الجديدة وهيكلها الجديد ، فليس استمراراً على أي صعيد للتاريخ الفلسطيني في العصر الآشوري والعصر البابلي ، رغم النغمة الإعلامية الفارسية التي تحدثت بلغة " الإحياء " و " التجديد" . إن ما تم " إحياؤه" في مقاطعة اليهودية لم يكن إحياءً ليهوذا القديمة ولا لإسرائيل القديمة ، بل خلقاً من جديد

لمجتمع قوامه فئات إجتماعية دخلت العصر الفارسي وقد تغيرت تغيراً تاماً .

وفي الحقيقة ، فإن " مسألة السبي " لم تعد بالنسبة لجماعة أورشليم الجديدة واقعة تاريخية بقدر ما غدت " فكرة " و " واقعة نفسانية " تساعد على فهم هذه الجماعة لنفسها بإعتبارها البقية الناجية من " إسرائيل " . فأفراد هذه الجماعة ، سواء تحدروا من بقية يهوذا المسبية في بابل أم من غيرها ، يستطيع واحدهم الإنتماء إلى تلك الإسرائيل عن طريق تصور جذوره في المنفى البابلي ، ومن خلاله صعوداً نحو المجد المفقود في مملكة سليمان ، ويتجاوز ذلك ليدخل كنعان مع يشوع ، ثم يتطوح في الصحراء مع موسى ، وينتقل بعد ذلك مع قوافل ابراهيم وبقية الآباء المؤسسين .

إن التاريخ اليهودي ليس صفحة جديدة في تاريخ فلسطين القديم ، بل تاريخ مستقل في أصوله ومساره ومصائره ، ويجب أن يدرس على هذا الأساس . وبما أن دراسة التاريخ اليهودي تتطلب منهجية ومرجعية مختلفة تماماً عن تاريخ فلسطين القديم ، فإنه لا يدخل في منظور هذا الكتاب ، كما أنه لا يدخل ضمن اهتمامي الشخصي في الوقت الحاضر .

إنتهى

حلب . تموز / يوليو ١٩٩٥

مراجع البحث

- *Cambridge Anient History (the) , University Press , London 1975*
- *Allbright , W . F , Yahwe and the Gods of Canaan , Anchor Book , New York 1969*
- *de Vaux , R , A History of Israel , Philadelphia , 1972 .*
- *Gordon , C . H , The Ancient Near East , Norton , New York 1965 .*
- *Gottwald , The Trisbes of Yahweh , Maryknoll , N . Y . Orbis Books 1975 .*
- *Kathleen Kenyon , Archaeology in the Holy Land , Manthuen London 1985 .*
- *Kathleen Kenyon , The Bible and Recent Archaeology , Colonades London 1978 .*
- *Kathleen , Kenyon , Digging U . P . Jerusalem , Ernest Ben , London 1974 .*
- *Kathleen Kenyon , Royal Cites of The Old Testament , Bori and Jenkins , London 1971 .*
- *Mattlae , Paolo , Ebla , Hodde and Stoughton , London 1980*
- *McNeill and Sadlar , The Ancient Neay East , Oxford 1968*
- *Mendenhall , The Hebrew Conquest of Palestine , Biblica Archaeologist 25 , 1962*
- *Moscati , S , the world of the Phoenicians , Cardinal , London 1973 .*
- *Pitard , Wayn.T, Ancient Damascus , Eisenbrans , Indiana 1987*
- *Pritchard , James , edt , Ancient Near Eastern Texts , Princeton 1969*
- *Shanks , Hershei , Ancient Israel , Prentice Hall , New Jersey 1988*
- *Schneider , Tammi , Jehn , Biblical Archaeology , November 1995*
- *Thompson , Thomas.L , Early History of the Israelite people , Leiden 1994*

– *Wright , Ernest , edt , the Bible and the Ancient Near East , Indiana 1979*
– *Zertui , Adam , Israel Inters Canaan , Biblical Archaeology Sebtember 1991*

للاستزادة :

– *Allbright , W.F . The Archaeology of Palestine , London 1949*
– *Allbright , W.F . The Biblical period from Abraham to Ezra , NewYork 1963*
– *Alt , Albrecht , Essays on old Testament History, and Religion , N.Y. Doubleday 1968*
– *Garbini , G, History and Idiology in Ancient Israel , London 1988*
– *Hayes and Miller , edt , Israel and Judaen History , Philadelphia 1977*
– *Moscati , S , Comparative Grammar of the Semitic Languages Wiesbaden 1969*
– *Lenche , N.P , Early , Israel , Ventus Testament Suplement , Leiden 1985*
– *Van Seter , J , Abraham in History and Tradition , New Haven 1075*

مراجع عربية :

ـ أبو عساف ، علي : الآراميون ، دار أماني ، طرطوس ـ سورية ١٩٨٨
ـ آركي ، الفونسو : الشواهد الكتابية في إيبلا ، ترجمة قاسم طوير ، ضمن كتاب بعنوان إيبلا ـ دمشق ١٩٨٤ .
ـ فريحة ، أنيس : أوغاريت ، دار النهار ، بيروت ١٩٨٠ .
ـ مرعي ، عيد : إدريمي ملك آلالاخ ، مجلة دراسات تاريخية ، عدد آذار ، دمشق ١٩٨٨ .
ـ هيرودوتس : التاريخ ، ترجمة حبيب فندي بسترس ، بيروت ١٨٨٦ .
ـ موسكاتي ، سباتينو : الحضارات السامية القديمة ، بيروت ١٩٨٦ .

صادرات دار علاء الدين من الكتب العلمية والزراعية

١ - صناعة العقود الخرزية

.................ميلينا مورنتغ

٢ - أعشاب الشفاء

.... د. ماجد علاء الدين - ١٩٩٣

٣ - أسرار الكون

.... عدة علماء - دمشق - ١٩٩٢

٤ - أطلس العمليات الجراحية

.... فائز طريفي - دمشق - ١٩٩٤

٥ - حدائق النوافذ

.... جون براغن

٦ - طبيب نباتات الزينة

.... جازل ايفاس والكان عوم

٧ - تقليم وتربية أشجار الفاكهة

.... طه الشيخ حسن - دمشق - ١٩٩٣

٨ - هرمونات النمو الزراعية

.... نزار كافي - دمشق - ١٩٩

٩ - دليل الحامل

.... دار علاء الدين - دمشق - ١٩٩٣

١٠ - دليل مريض السكر

.... دار علاء الدين - دمشق - ١٩٩٠

١١ - البيوت الزراعية

.... لان ولز

١٢ - جراحة القلب

... د. كمال عامر - د . اسماعيل الخطيب

١٣ - الطريق إلى الصحة

.... زويا ميخائيلنكو - دمشق - ١٩٩٠

١٤ - الطب الشعبي ومجالاته

...... جارويس فيرمونت - دمشق - ١٩٩٣

١٥ - علاج الأمراض الجلدية بالأعشاب

.... داتسكوفسكي - دمشق - ١٩٩٢

١٦ - فوائد عصير الخضار والفواكه

.... نورمان وكمر - دمشق - ١٩٩٢

١٧ - الأجسام الطبيعية

.... كيتا بجوردوسكي

١٨ - القوة العصبية

.... بول بريغ - دمشق - ١٩٩٢

١٩ - كيف تقوي بصرك

.........إيلا فلاديمير - دمشق - ١٩٩٣

٢٠ - كيف تكونين جميلة

.... زويا ميخائيلنكو - دمشق - ١٩٩٢

٢١ - العناية الخاصة بالمرضى

.... م . ميليتش

٢٢ - المساج النقطي

.......زويا ميخائيلكنو - دمشق - ١٩٩٣

٢٣ - مشاريع الإنتاج الحيواني

........د. سلامة شقير - دمشق - ١٩٩٢

٢٤ - موسوعة الطيور

.... مجموعة باحثين - دمشق - ١٩٩٤

٢٥ - المأكولات الشهية للشعوب الشرقية

.... ميلنسيك - ١٩٩٣

٢٦ - تطعيم أشجار الفاكهة وإكثارها

...... طه الشيخ حسن - دمشق - ١٩٩٤

صادرات الدار

صادرات الدار

٤٩ ـ نحن والأبراج
... ترجمة دار علاء الدين ـ دمشق ـ ١٩٩٢

٥٠ ـ نظرية الدولة في الفكر العربي
.... محمد علي جمعة ـ دمشق ـ ١٩٩٤

٥١ ـ شريعة حمورابي
مجموعة من المؤلفين ـ ترجمة اسامة سراس
..................ـ دمشق ـ ١٩٩٣

٥٢ ـ الديانة الفرعونية
واليس بدج ـ ترجمة نهاد خياطة ـ دمشق ـ ١٩٩٣

٥٣ ـ أزمة العالم
فيدل كاسترو ـ ترجمة نصر الشمالي ـ دمشق
.... ١٩٨٩

٥٤ ـ الأخوة كينيدي
.... غروميكو ـ دمشق ـ ١٩٩٢

٥٥ ـ البيت الأبيض وأسرار المخابرات الأمريكية .
..... ك. ف. بتروسيكو ـ دمشق ـ ١٩٩١

٥٦ ـ مذكرات عن الإنقلاب العسكري
... ميخائيل غورباتشوف ـ دمشق ـ ١٩٩٢

٥٧ ـ الأساطير والحقائق عن عائلة ستالين
...... ترجمة سميح شيا ـ دمشق ـ ١٩٩٤

٥٨ ـ ملحمة الرجال
..... احمد فرحات الناصر ـ دمشق ـ ١٩٩٤

٥٩ ـ أسرار المدافن المصرية
.... اجاثا كريستي ـ ترجمة
................مازن نقاع ـ دمشق ـ ١٩٩٤

٦٠ ـ عشيات صحنايا
.... هزاع كشيك ـ دمشق ـ ١٩٩٤

٦١ ـ سيد درويش
.... احمد بوبس ـ دمشق ـ ١٩٩٤

٦٢ ـ فن الحب
.... اسامة الحافظ ـ دمشق ـ ١٩٩٤

٦٣ ـ الوقواق والديك
............ترجمة د. ماجد علاء الدين
.......................ـ دمشق ـ ١٩٨٥

٦٤ ـ الوقت الضائع
ترجمة رسلان علاء الدين ـ دمسق ـ ١٩٩٢

٦٥ ـ قصص قصيرة
ترجمة رسلان علاء الدين ـ دمشق ـ ١٩٩٢

٦٦ ـ حكاية العملاق العجيب ـ جونغ
... ترجمة ريما علاء الدين ـ دمشق ـ ١٩٩٢

٦٧ ـ قفزة
. ترجمة رسلان علاء الدين ـ دمشق ـ ١٩٩٢

٦٨ ـ الذئب والثعلب
.... ترجمة د. ماجد علاء الدين ـ
........................دمشق ـ ١٩٨٥

٦٩ ـ المرآة والقرد
ترجمة د. ماجد علاء الدين ـ دمشق ـ ١٩٨٥

صادرات الدار

٧٠ ـ اللؤلؤة النادرة

..... ترجمة اكرم ابو راس ـ دمشق ـ ١٩٩٣

٧١ ـ حلوى الأطفال

..... ترجمة فاتن عمران ـ دمشق ـ ١٩٩٣

٧٢ ـ تيمور وفريقه ترجمة د. ماجد علاء الدين ـ دمشق ـ ١٩٨٤

٧٣ ـ مغامرات بوراتينو

. ترجمة د. ماجد علاء الدين ـ دمشق ـ ١٩١٩٨٥

٧٤ ـ صفحات مجهولة من حياة تولستوي

.... ترجمة د. ماجد علاء الدين ـ

.........محمد بدرخان ـ دمشق ـ ١٩٨٦

كتب توزعها الدار

* المجاهد سعيد العاص

.... احمد يوسف داود ـ دمشق ـ١٩٩٠

* الميراث العظيم

...... احمد يوسف داود ـ دمشق ـ ١٩٩٠

* النظام المرابي العالمي

.... مجموعة من الباحثين ـ دمشق ـ ١٩٧٢

* الصليبيون في الشرق

...... ميخائيل زابوروف ـ دمشق ـ ١٩٨٧

* إرهابيو الموساد

..... فلاديمير ميخائيلوف ـ دمشق ـ ١٩٨٩

* الأثنوس والتاريخ

... ترجمة اسعد الفارس ـ دمشق ـ ١٩٨٨

* المصير العربي

.... خليل الجهمان ـدمشق ـ ١٩٩٣

* موضوعات للذاكرة العربية

.... نصر الشمالي ـ دمشق ـ ١٩٩٤

* الإنفجار

.... رافي باترا ـ دمشق ـ ١٩٩٠

* الاتحاد السوفييتي

..... فلاديمير بوكوفسكي ـ دمشق ـ ١٩٩٣

* حكي بردائين

.... جمال عبود ـ دمشق ـ ١٩٩٤

* تشريح السلطة

. جون كينيث جالبريث ـ دمشق ـ ١٩٩٣

* نظام التضليل العالمي

ترجمة غازي ابو عقل ـ دمشق ـ ١٩٩٤

* جراحة القلب

.. د. كمال عامر ـ د. اسماعيل الخطيب ـ دمشق ـ

* رحلة المخاطر

..... غابريل غارسيا ماركيز

* دعوة إلى الرقص
.... اميمة الخش
* زهرة اللوتس
.... اميمة الخش
* قصة الذهب
.... يوسف البجيرمي
* رمز الراعي
.... إلزا زابيرت
* نساء على دروب تدمر
.... د. عدنان البني
* أحزان في ربيع البرتقال
........................وليد ابوبكر
* الكلب الأبلق الراكض
.... جنكيز إيتماتوف
* الأيام التالية
.... نصر الشمالي
* الكتابة على الماء
.... عبد اللطيف نداف
* قالت إيمان
.... وائل السواح
* المراهق 1 - 2
.......................دوستويفسكي
* بطل من هذا الزمان
.... ليرمنتوف
* دوبروفسكي
.... بوشكين
* مؤلفات تشيخوف
.....................انطون تشيخوف
* إيفان تورغينيف 5 - 4 - 3
.... ت . د. ابو بكر يوسف
* المفتش العام
.... نيقولاي غوغول
* مكسيم غوركي 6 - 1
.... ت. سهيل ايوب
* أبو العتاهية
.... ابو الوفاء العرضي
* معادن الذهب
.... ابو الوفاء العرضي
* المعيار في أوزان الشعر
.... ابي بكر الأندلسي
* ساحرة الصحراء
.... بول هنري بوردو
* الحسين بن علي
.... ابن العديم
* المنهل الراوي
.... محي الدين الدمشقي
* الواقعية بين الأدبين السوفييتي والعربي
.... د. ماجد علاء الدين
* الأقصوصة السوفييتية
.... د. ماجد علاء الدين
* الكلب الانسان
.... ت . د. محمد النجاري
* شكسبير والدراما
.... ت . د . محمد النجاري

المؤلف في سطور

* فراس السواح ، مفكر سوري يبحث في الميثولوجية وتاريخ الأديان كمدخل لفهم البعد الروحي عند الإنسان ، والمسائل التاريخية ذات العلاقة بهذا الميدان .

* من مواليد حمص / سورية ١٩٤١ .

* صدرت له الأعمال المطبوعة التالية :

* مغامرة العقل الأولى

* دراسة في الأسطورة ـ سورية وبلاد الرافدين
الطبعة الأولى دمشق ١٩٧٦ ، البطعة العاشرة
دمشق ـ دار علاء الدين ١٩٩٣ .

* لغز عشتار
الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة
الطبعة الأولى دمشق ١٩٨٥ ، الطبعة الخامسة
دمشق ـ دار علاء الدين ١٩٩٣ .

* كنوز الأعماق
قراءة في ملحمة جلجامش
الطبعة الأولى دمشق ١٩٨٧ .

* الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم
الطبعة الأولى دمشق ١٩٨٩ ، الطبعة الثانية
دمشق ـ دار علاء الدين ١٩٩٣ .

* دين الإنسان
بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني
الطبعة الأولى ـ دمشق ـ دار علاء الدين ١٩٩٤ .
الطبعة الثانية ـ دمشق ـ دار علاء الدين ١٩٩٥ .

* آرام دمشق وإسرائيل
في التاريخ والتاريخ التوراتي
الطبعة الأولى ـ دمشق ـ دار علاء الدين ١٩٩٥ .

آرام دمشق واسرائيل

إن فيض المعلومات الاركيولوجية الجديدة الذي تراكم خلال ثمانينيات ومطلع تسعينيات القرن العشرين ، والذي أخذ الآن فقط بالإنتظام في شبكة مفهومة أمام المؤرخ ، قد فرش الأرضية اللازمة لإعادة النظر في تاريخ فلسطين القديم ، ومسألة نشوء إسرائيل وزوالها في السياق العام لهذا التاريخ ، وفهم علاقة تاريخ إسرائيل القديمة بالتاريخ اليهودي ، وهي علاقة قد بدأت الآن بالإتضاح على خلفية المعلومات الجديدة .

وإضافة إلى توضيح الفروق بين الإسرائيلي واليهودي في تاريخ فلسطين فقد ساعدتنا المعلومات الأركيولوجية الجديدة على توضيح الفروق بين إسرائيل التاريخية التي نعرفها من النصوص القديمة وإسرائيل التوراتية التي قدمتها لنا أسفار التوراة ، و تبين لنا عدم وجود صلة بين الصورة التاريخية والصورة التوراتية لإسرائيل القديمة ، وأن الصورة التوراتية ما هي إلا أخيولة أدبية تم ابتكارها في الأزمنة المتأخرة.

وقد عمد مؤلف هذا الكتاب في دراسته لهذه المسائل الجديدة والحساسة في تاريخ فلسطين إلى إجراء التقاطعات بين تاريخ مملكة دمشق الآرامية وتاريخ كل من إسرائيل ويهوذا خلال الفترة التي شهدت نشوء هذه الممالك الثلاثة وحروبها وتحالفاتها إبان العصر الآشوري الحديث ، وقدم معلومات جديدة حول آرام دمشق ودورها المهم كقوة عظمى في منطقة الشرق القديم خلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد ، وسلط الضوء على حقبة مهمة من تاريخ سورية الآرامية لم يتم حتى الآن إضاءتها والربط بين أحداثها ، وذلك وفق منهجية علمية صارمة تعتمد الوثيقة التاريخية والآثارية ولا تخرج عن حدودها ، و بما عرفه القارىء عنه حتى الآن من جدية في البحث ورصانة في المنهج قل مثلها في حياتنا الثقافية العربية.

الناشر



منشورات دار علاء الدين دمشق - ص.ب ٣٠٥٩٨ هـ : ٤٤٢٧١٥٨